زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الخامس

الناشر

دار العفاني

القاهرة : ٣ درب الأتراك . الدور الثاني . خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف : برج الزعيم . بجوار مجمع المحاكم

ت : ٠٨٢٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

جناية المدرسة العقلية الحديثة وروّادها على الإسلام

جناية المدرسة العقلية الحديثة ورُوّادها على الإسلام

إذا كان الولاء المطلق للَّه ولرسوله، وكان قربنا من أي إنسان أو بعدنا بمقدار قربه أو بعده من اعتقاد أهل السنة والجماعة، وإذا أيقن الرجل منا بأن الحق لا يُعرف بالرجل، وإنما بالحكمة الجميلة «اعرف الحق تعرف أهله» هان علينا أمر نقد الرجال والمدارس نصحًا للَّه ولرسوله ولعامة المؤمنين.

وإنصاف الناس هدف نبيل ومن حسن خلق المسلم.. والمدرسة العقلية إن كان لها مآثر كما يقولون فإنها واللَّه جنت على الإسلام وعلى المسلمين في واقعنا المعاصر..

ونلقى نظرة سريعة على شيخيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والمآخذ التي أخذت عليهما، ثم نظرة سريعة على موقف المدرسة من عقيدة السلف، وأثر المدرسة على واقع المسلمين.

*** الدكتور فهد الرومي يكشف زيف المدرسة العقلية الحديثة:**

كان لكتاب الدكتور فهد الرومي «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» وكذا كتابات الدكتور محمد محمد حسين والدكتور الذهبي والعلماء المعاصرين للأفغاني ومحمد عبده أكبر الأثر في كشف زيف هذه المدرسة.. نقول هذا الكلام لرجل جعل الحقيقة نصب عينيه، وتحصيلها مقصوده، وجعلها فوق الرجال بها يوزنون ولا تُوزن بهم. لا نقولها لرجل نزع الحقيقة من نُصب عينيه، واستبدل بها أصنامًا بشرية وأوثانًا إنسية صار همه كل همه تقديسهم، ومراده كل مراده ذب الشبهات عنهم ونفي الخطأ منهم، وجعلهم في منزلة تأبى الشبهات أن تصل إلى أقدامهم»[1].

(١) انظر «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٣).

«إن حياة الرجل تصبح ملكًا له ما دامت خاصة به، فإذا تجاوزت هذه المرحلة وأصبحت حياته جزءًا من التاريخ، فإن الحديث عنها أمانة في أعناق الدارسين لا يفك رقابهم منها إلا قول الحقيقة من غير تجنّ أو تعدّ، أو تزلّف أو نفاق فكلاهما منهج ضال، والمنهج الحق وسط بينهما: قول الحق والحقيقة مهما أدّيا إليه ومهما صاح بك من يجهد أعينهم نور الحقيقة»[1].

◻ ومعظم هذا الفصل تلخيص لكتاب الدكتور فهد الرومي فإن من بركة العلم عزوه إلى أهله «والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زوْر».

*** جمال الدين بن صفدر الأفغاني:**

واسم والده «صفدر» هو لفظ فارسي من ألقاب الإمام علي رضي الله عنه عند الشيعة ولا يوجد إلا بين الشيعة. ولا صحة لانتسابه إلى الحسين بن علي، وهو إيراني لا أفغاني كتب أبو الهدى الصيادي إلى الشيخ رشيد رضا «إني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفّقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زورًا، وقد ثبت في دوائر الدولة رسميًّا أنه مازندراني من أجلاف الشيعة»[2].

*** الجامعة الشرقية لا الجامعة الإسلامية:**

«من أهم الآراء التي تنسب إلى الأفغاني وكان يدعو إليها: الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وإقامة جامعة إسلامية تنضوي تحت لوائها دول العالم الإسلامي تُوحِّد كلمتها وأهدافها وإنما قلتُ: تُنسب إليه لأني أرى في مقالاته ومقالات تلاميذه ما يدل على أنه لا يريد الجامعة الإسلامية بل الجامعة الشرقية التي تجمع دول المشرق مسلمة وغير مسلمة ضد الاستعمار.

---

(١) المصدر السابق (٧٣).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده» للسيد محمد رشيد رضا (١/ ٩٠).

◻ فهذا السيد رشيد رضا يُعلّق على كلمة لجمال الدين قائلاً: «هذا تنبيه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يفكر فيه أحد قبله»(١) ، ويقول في موضع آخر «وقد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الإسلامية في جريدة العروة الوثقى، وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فأزالا هذه الشبهة ـ يعني الأفغاني ومحمد عبده ـ بعبارة نُشرت في العدد الثامن «من العروة الوثقى»(٢) ، ويقول عثمان أمين: «إن الجامعة التي كان ينشدها الأفغاني ومحمد عبده في أواخر القرن الماضي ليست هي الجامعة الإسلامية كما توهّم بعض الكتاب الغربيين وإنما هي في صميمها «الجامعة الشرقية»(٣) »(٤) اهـ.

*** نشاطه الماسوني:**

الماسونية هي صنيعة اليهود تسعى إلى القضاء على الأديان تحت شعارات برّاقة (حرية، مساواة، إخاء).

خدع كثير من الناس بهذا الشعار فدخلوها وما لبثوا أن أدركوا الغموض الذي يحيط بها فغادروها مسرعين.

إلا أن السيد الأفغاني قدم في ٢٢ ربيع الثاني ١٢٩٢هـ طلبًا للانضمام إلى المحفل الماسوني هذا نصه:

◻ يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي(٥) الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة بأني أرجو من إخوان الصفا

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٩٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٨٩).

(٣) مقال «العروة الوثقى» لعثمان أمين ـ مجلة العربي الكويتية عدد ٤٢ ص(٧٣).

(٤) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٩١).

(٥) نسبة إلى كابل وهي عاصمة أفغانستان فهو كابلي أو أفغاني.

وأستدعي من خلان الوفاء أعني أرباب المجمع المقدس الماسون الذي هو عن الخلل والزلل مصون أن يمنوا علي ويفضلوا إلي بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبإدخالي في سلك المنخرطين في ذلك المنتدى المفتخر ولكم الفضل.

ربيع الثاني يوم الخميس

٢٢ سنة ١٢٩٢هـ

التوقيع

❑ ولم ينسحب من المحفل بل كان من الأعضاء البارزين ذوي النشاط فيه ولذا تم اختياره بعد سنوات ثلاث رئيسًا للوج كوكب الشرق بتاريخ ٧ يناير ١٨٧٨م بأغلبية الآراء ووجهت له دعوة بهذا التاريخ لاستلام القادوم بعد إتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي والحضور بالزي الرسمي الماسوني الأسود ورباط الرقبة والكفوف بيضاء «انظر الصورة رقم ٣».

❑ ولم يكتف السيد الأفغاني بهذا بل ازداد نشاطه في ميدان الماسونية فاعتزل هذا المحفل الاسكتلندي وانشأ محفلاً وطنيًا تابعًا للشرق الفرنساوي وفي برهة وجيزة بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلاثمائة»[١] .

❑ ولم يزل يبذل جهوده في هذا الميدان حتى صدر الأمر بنفيه في ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ٢٤ اغسطس ١٨٧٩م وجاء في القرار: «إنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا»[٢] . وكتب إلى بعض الشخصيات من غير أن يذكر اسمًا يستنجد بها مما حلّ به ويزعم أنه مظلوم فيما نسب إليه.

❑ ونفي من بعده تلميذه وأحد أعضاء محفله الشيخ محمد عبده ووجد

(١) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي ص(٢٠).

(٢) «جمال الدين الأفغاني» لعبدالرحمن الرافعي ص(٤٦). وانظر الصورة رقم/١.

في منزله كتاب الماسون بخط السيد الأفغاني كما اعترف بهذا الشيخ نفسه في خطاب منه إلى أستاذه الأفغاني.

☐ ولم ينقطع نشاط السيد الأفغاني الماسوني بعد نفيه من مصر فإن التاريخ يحدثنا أنه في «جمادي الأولى سنة ١٣٠٣[١] سافر السيد إلى البلاد الإيرانية بدعوة من الشاة ناصر الدين فنال مكانة سامية وتزاحم حوله الأمراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نظم كثيرٍ منهم في سلك الماسونية»[٢] .

وكان له نشاط ماسوني في فرنسا أيضًا حيث قدم طلبًا للعضوية في اللوج باريس وتم قبوله.

☐ وإذا ثبت بما لا يقبل الشك انتماء السيد الأفغاني للماسونية، وثبت أن الماسونية وليدة الصهيونية العالمية وسبيل من سبلها لتحقيق أهدافها في هدم الأديان والسيطرة على العالم فإن الواجب تقصّي الحقائق في سيرة الرجل الأفغاني والبحث عن حقيقة أهدافه.

☐ أما الزعم بأن الأفغاني كان مَخدوعًا بمبادئ الماسونية (الحرية، المساواة، الإخاء)، ولم يعرف حقيقتها وصلتها بالصهيونية؛ لأن بروتوكولات حكماء صهيون لم تنشر إلا بعد وفاته فإنه زعم باطل.

ذلكم أن من الصحف من قامت بكشف حقيقة الماسونية آنذاك فقد تصدت جريدة البشير الجزويتية الصادرة في بيروت للماسونية ولم تغفل عن مهاجمتها وكشف أسرارها دوامًا»[٣] .

وقد تصدت لهذه الجريدة صحف مصرية ماسونية مثل «اللطائف»

(١) أي: بعد نفيه من مصر بسبع سنوات قريبًا.
(٢) مصطفى عبدالرازق: المرجع السابق ص(٢٥).
(٣) «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي» لسامي عزيز ص(٣٠٩).

و«المقتطف» و«البيان» و«الفلاح» و«النصوح» و«المقطم» بردود كثيرة ودفاع عن الماسونية ومبادئها[1] مما يثبت وقوع مناقشات حادة في الصحف عن الماسونية وهذا يدعو إلى التأكد من صحة أهدافها قبل الانضمام إليها من كل شخص فكيف بمن يريد الإصلاح وينتسب إليه.

فإن زعموا أن السيد لم يقرأ هذه الصحف أو لم تصل إليه أعدادها سلمنا ـ جدلاً ـ وقلنا: صدر من الكتب سنة ١٨٩١م أي قبل وفاة الأفغاني بست سنوات كتاب الحقيقة الإسرائيلية، وجاء فيه: «الروح الماسونية هي نفسها الروح اليهودية لا اختلاف في معتقداتها الأساسية فآراؤهما متماثلة»[2] وقبل وفاة الأفغاني بإحدى وثلاثين سنة أي في سنة ١٨٦٦م صدر كتاب «السر المكنون في شيعة الفرماسون أو ماهية الفرماسونية على ما يشهد به أهلها وتدل عليه قوانينها وتنبئ به أعمالها» صدر في بيروت وطبع كتاب مثله بالفرنسية في السنة ذاتها وهي لغة يجيدها الأفغاني، وفي سنة ١٨٨٥م طبع كتاب «شيعة الماسونيين» بمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين وفي سنتي ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م نشر كتاب «الأدلة القاطعة على شرف الرهبانية اليسوعية وبيان كنه الشيعة الماسونية» في جزءين بمطبعة الآباء اليسوعيين[3] وفي سنة ١٨٨٥م صدر كتاب شيعة المسونيين بلا ألف بعد الميم هو مجموع المقالات التي نشرتها البشير عن الماسونية[4].

□ فإن زعموا أنه لم يقرأ هذا ولا ذاك سلمنا ـ جدلاً ـ وقلنا: أليس في وجود أعضاء في الماسونية يسعون لهدم أركان الدين وتشتيت الفضيلة ما يثير

---

(١) المرجع السابق ص(٣٠٨ ـ ٣١٨).
(٢) «الماسونية» لأحمد عبدالغفور عطار ص(٦٠).
(٣) انظر كتاب «السر المصون في شيعة الفرماسون» للأب لويس شيخو ص(٢٠٢).
(٤) «الماسونية بلا قناع» أبو صادق ص(٢٣٤).

شكوكه في أهداف الماسونية فيحذرها فقد اعترف أحد الماسونيين وهو جورجي زيدان بوجود هؤلاء الأعضاء في المحافل الماسونية حيث يقول: «فقد اتهم رجال الدين الماسونية بالكفر وإنها إنما تسعى لهدم أركان الدين وتشتيت الفضيلة، أما نحن فمع إجلالنا لهذه الجمعية عن هذه التهمة ومع يقيننا أنها براء منها لا يسعنا الإنكار أن بين أعضائها أفرادًا قليلين ربما يصح عليهم تلك التهمة»[1].

◻ فإن زعموا أن هذا كله لا تقوم به حجة ولا يستقيم به برهان ـ سلمنا جدلاً ـ وقلنا: خذوا القاضية القاصمة.

أيّ شيء أراد الأستاذ محمد المخزومي تلميذ الأفغاني أن يخفيه عنا حين قال: «أما انخراط جمال الدين في الماسونية.. فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية»[2].

ثم إن أردتم أن نسير على منهج «من فمك أدينك» فإنا فاعلون.

بعد دخول الأفغاني إلى المحفل الماسوني تغيّرت ثمّ لهجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام[3] لأي شيء يفعل هذا؟ أتظنون أنه فعل ذلك يوضح لهم ما يجهلونه من أمور دينهم ولينزع الخرافات والمعتقدات الزائفة من أذهانهم والبدع والمنكرات من أفعالهم؟ كلا، إنه يقربهم ليقول لهم: «إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك والرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون[4]

---

(١) «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي» لسامي عزيز ص(٣٠٨) عن «تاريخ الماسونية» لجورجي زيدان ص(٢٥١ ـ ٢٥٣).

(٢) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي ص(١٧ ـ ١٨).

(٣) «تاريخ الأستاذ الأمام» لرشيد رضا (١/٤٦).

(٤) تعنون: تخضعون.

لوطأة الغزاة الظالمين»[١] إلى أن قال: «تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس، ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والغلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت»[٢].

فعدّ السيد الأفغاني الفتح الإسلامي لمصر دخول عرب، وعدّ دخول العرب على حدّ تعبيره استعباداً واستبداداً وقرنه باستعباد اليونان والرومان والفرس والفرنسيس واستبدادهم ثم يسترسل في حديثه فيقول: «انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرشيد فلاح»[٣]

إذن فهو لا يدعو عوام المسلمين الذين قربهم إليه بعد انضمامه إلى الماسونية لا يدعوهم إلى الدين الإسلامي إذ هو يشق جلودهم بمبضع نهمه ويهيض عظامهم بأداة عسفه كاليونان والرومان والفرس والفرنسيس، لا يدعوهم إلى الدين الإسلامي وإنما إلى النظر إلى أهرام مصر وهياكل منفيس.. إلخ وكلها آثار فرعونية شاهدة على جاهلية تعبد الأشخاص والكواكب من دون اللَّه، ولا شك أن دعوته إلى النظر فيها دعوة إلى الاقتداء بأصحابها.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرشيد فلاح

□ إذن فهي دعوة إلى نبذ الدين الإسلامي ـ كما أفهمها ـ وهي جزء من أهداف الماسونية التي تحارب الأديان.

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/٤٦ ـ ٤٧) و«زعماء الإصلاح في العصر الحديث» لأحمد أمين ص(٧٨ ـ ٧٩).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

ثم ومما يزيد الأمر وضوحًا أن الرجل ذكر آثارًا ميتة وجيفًا منتنة ولم يذكر مصنع الرجال لكونه مأثرة إسلامية. أعني الجامع الأزهر ما الداعي إلي هذا التحامل ضد الإسلام ومآثره؟ وهل لهذا أيضًا صلة بانتمائه إلى الماسونية؟!

وبعد.. فلعلي أطلت الحديث هنا في هذا الموضوع؛ لأنه الميزان الدقيق الذي نزن به الرجل هنا؛ ولأنه يكفي في بيان حقيقة الرجل أيّ رجل إثبات انتمائه إلى الماسونية..

فإن كان فيما ذكرنا من أدلة ما يثبت انتماء الأفغاني إلى الماسونية وظهور أثرها في أحاديثه وأقواله فقد انجلت الحقيقة.. حقيقة الرجل. وإن كانت لا تكفي لإثبات ذلك، فإنها ولا شك أصابع تشير إلى الأفغاني بالاتهام»[١].

* حقيقته والمآخذ عليه:

مما لا شك فيه أن حياة هذا الرجل مليئة بالأسرار ويحيطها الغموض[٢] وتلتبس فيها الحقائق بالأكاذيب، ومما يزيد الأمر سوءًا أنه لم يؤرخ للرجل مؤرخ معتدل فأغلب من أرّخ له إما معجب به بالغ الأعجاب مبالغًا في الثناء عليه متجاوزًا عن كثير من أخطائه تكلّ عينه عن كل عيب فيه أعمته عين الرضا عن الحقيقة؛ وإما رجل حاقد كاره بالغ في قدحه وذمه يحمل منه كل شاردة وواردة ما لا تحتمله أعمته عين السخط عن الحقيقة.

وزاد بعض تلاميذه الأمر سوءًا فأخفى بعض أعماله زاعمًا أن الطريقة

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٩٧ ـ ١٠٦). قال طبيبه الخاص عند موته في ٩ مارس ١٨٩٧م: «إن شدة ولع جمال الدين بالسيجار الإفرنجي كان من مسببات السرطان الذي أدى إلى وفاته».

(٢) «العروة الوثقى» ص(١٨).

الماسونية لا تسمح بذكره[١] .

ويزيد الأمر حينما نعلم أن أكثر نشاطه كان سريًّا[٢] ، ولكن مع هذا الغموض فإنا نجد في بعض أفعاله وأقواله مآخذ لا نراها إلا خطيرة توجب إعادة النظر في تقويم بعض الرجال كما قال الدكتور محمد محمد حسين ونحن حين ندعو إلى ذلك لا نريد أن ننقص من قدر أحد ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعمون أنهم معصومون من كل خطأ[٣] .

ومع أنه كان يدعو إلى تنقية الدين الإسلامي مما علق به من الخرافات كتقديس الأموات والتبرك بهم ونحو ذلك إلا أنا نراه يستغل هذه النقطة أبشع استغلال فيلجأ إلى مقام عبد العظيم خوفًا من ناصر الدين شاه ويثير فيهم الحمية لهذا المعتقد الباطل بالانتقام من ناصر الدين شاه فيقول: «وأما قصتي وما فعله هذا الكنود الظلوم معي فمما يفتت أكباد أهل الإيمان ويقطع قلوب ذوي الإيقان ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان أن ذلك اللئيم أمر بسجني وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام»[٤] ، ويصف هذا المقام بأنه «حرم من دخله كان آمنًا»[٥] .

❑ بل ويحاول أن يظهر بالقداسة أمام العوام ولو كان بالكذب والخداع حكى عنه سعد زغلول أنه ذكر لهم أنه كان في سفينة خيف عليها الغرق فرأى في الركاب خوفًا فأكد لهم أن السفينة لن تغرق، ثم قال: «لو غرقت

---

(١) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» ص(١٨).
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين ص(٦٥).
(٣) المرجع السابق ص(٤٩).
(٤) «نابغة الشرق» السيد جمال الدين الأفغاني سعيد الأفغاني ص(٧٧).
(٥) «تاريخ الأستاذ الإمام» ج(١) ص(٥٥).

السفينة لم أجد منهم أحدًا يكذبني، وإن سلمت ظهرت بالقداسة من أقرب سبيل»(١).

*** اليهود والنصارى من حوله:**

ومما يثير الريبة والشكوك في الأفغاني هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يحيط به، سليم نقاش من نصارى الشام وهو ماسوني ووضع كتابًا تبدو فيه أهداف الماسونية بارزة في عنوانه «مصر للمصريين» وهو يذكرنا بدعوة الأفغاني للمصريين بالنظر ليس إلى الآثار الإسلامية بل إلى الآثار الفرعونية المصرية، وفي هذا فصل لمصر عن المسلمين والإسلام.

وأديب إسحاق من أكثر الدعاة إلى الماسونية حماسًا وقف نشاطه الصحفي على هذا وهو أيضًا من نصارى الشام انتظم في سلك الماسونية سنة ١٨٧٣م في محفل انشأه الماسون في بيروت ذلك العام ثم وقف نشاطه على الدعوة إلى الماسونية في بعض الصحف ولم يكتف بهذا بل قام بطبع مقالاته تلك في كتاب ضخم(٢)، ومع هذا فقد كان الأفغاني لآخر نسمة في حياته ـ كما يقول تلميذه المخزومي ـ عند ذكر أديب بك إسحاق يسترجع ويقول: كان طراز العرب وزهرة الأدب، قضى نحبه في شرخ الشبوبة وعنفوان الفتوة، وترك لنا قلوبًا آسفة وشجونًا فائضة، إنا للّه وإنا إليه راجعون(٣).

□ ومع هذا أيضًا فقد أسند الأفغاني إدارة أول صحيفة أنشأها (مصر) الأسبوعية سنة ١٨٧٧م إلى أديب إسحاق هذا؟! ثم ساهم في إنشاء جريدة (التجارة) وتولى رئاستها أديب إسحاق وسليم نقاش، وكان الأفغاني يساهم

---

(١) «نابغة الشرق جمال الدين الأفغاني» ص(٩١ ـ ٩٢)، وجمال الدين الأفغاني عبد القادر المغربي ص(٥٠ ـ ٥١).

(٢) «الماسونية بلا خداع» أبو صادق ص(٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(٣) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي ص(٢٢) الهامش.

بالكتابة فيها ويوصي تلاميذه بخدمة هاتين الصحيفتين قلمًا وسعيًا[١].

❑ وهكذا نرى الأفغاني يمكن النصارى من أجهزة الإعلام ويصرف النقود ويفتح المطابع، ويحصل على الامتيازات ليسلمها لهم.

وكان من المحيطين به من النصارى جورج كوتجي وطبيبه الخاص هارون يهودي[٢]، ولم يحضر وفاته إلا كوتجي النصراني وهارون اليهودي، وعند قدومه إلى مصر يسكن في حارة اليهود[٣].

* **صلته بالإنجليز:**

ومن المآخذ عليه صلته بالإنجليز المريبة ورجال الإنجليز، وفي الحقيقة أنه لم تتضح لي حقيقة الرجل بالإنجليز فهو معهم أحد رجلين لا محالة: إما عدو ساذج مغفل اتخذوه مطية لهم لتحقيق مآربهم؛ وإما صديق مخلص ذو مكر ودهاء[٤].

وحسب ما نعرف من تاريخ الرجل فإن أول صلة بينه وبين الإنجليز حينما انضم إلى محمد أعظم في أفغانستان ضد شير علي وانتصر الثاني لتأييد الإنجليز له، ولم يجد الأفغاني بدًّا من الهرب[٥].

وفي مصر كان يؤلب عليهم الناس حتى يقوموا بالثورة العرابية، وفي إيران يحرض مفتي إيران على تحريم الدخان لإبطال احتكار الإنجليز له في إيران تمهيدًا لاحتلالها، وفي باريس ينشئ مجلة العروة الوثقى التي تحارب الإنجليز أينما حلوا وتشنع عليهم وهو مع هذا يسرح في بلادهم ويمرح ويتردد

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا(١/ ٤٥).
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٦٩).
(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٤).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (١/ ٤٥).
(٥) «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين ص(٦٩).

بين لندره وباريز ولا يلقى سوى الترحيب[١] .

❑ صحيح أنهم أدّوا إلى تعطيل العروة الوثقى لكن صاحبها لا يجد مانعًا من اللجوء إلى سفير بريطانيا في الآستانة ليساعده على الخروج منها[٢] ولا تجد إنجلترا مانعًا قبل ذلك من عرضها له توليه السلطة في السودان[٣] وقبل هذا وذاك لا يجد السيد الأفغاني مانعًا من دخول المحفل الماسوني والاسكتلندي، ولا يجدون هم أنفسهم مانعًا من تعيينه رئيسًا للمحفل.

ولا يجد مانعًا من التعاون مع الانجليز ضدّ من؟ ضدّ الخلافة الإسلامية؟!! قال السلطان المهضوم عبد الحميد في مذكراته التي نشرت مؤخرًا: «وقعت في يدي خطة أعدّها في وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يدعي بلند، قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين[٤] .

لهذا فلا عجب أن يصفه السلطان عبد الحميد بقوله: «كان رجل الإنجليز ومن المحتمل جدًّا أن يكون الإنجليز قد أعدّوا هذا الرجل لاختباري»[٥] .

❑ أما بلنت هذا الذي أشار إليه السلطان عبد الحميد فهو وزوجته من أصدقاء الأفغاني الإنجليز وهو وزوجته ذوي نشاط مريب في بلاد العرب ويكفي نشاطهما ريبة دعوتهما إلى إنشاء دولة عربية حليفة لإنجلترا تصبح

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٤).
(٢) «تاريخ الأستا الإمام» محمد رشيد رضا (١/ ٧٢)، و«حاضر العالم الإسلامي» شكيب أرسلان (٢/ ٢٩٦).
(٣) «جمال الدين الأفغاني» محمود أبو رية ص(٥٣).
(٤) «مذكرات السلطان عبد الحميد» ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص(٦٧).
(٥) المرجع السابق ص(٦٨).

مقرًّا للخلافة الإسلامية، ويكتب بلنت في ذلك كتابه المشهور المسمى «مستقبل الإسلام»[(١)] .

وصلة الأفغاني ببلنت هذا وزوجته أيضًا صلة مريبة فهي التي تفاوض باسمه الحكومة البريطانية وتبدي رأيها له في بعض المسائل وتطلب منه توجيهاته بعد هذا، وتسعى لعقد الاجتماعات بينه وبين كبار الشخصيات حتى الإيرانية منها فتنظم له لقاء مع مالكوم خان سفير إيران لدى جميع الدول الأوربية وهو نصراني ذو ميول أوربية[(٢)] ، وتفاوض باسمه بريطانيا في مسألة مصر ومسألة السودان وتكتب إليه بجواب الوزراء الإنجليز.

ومن يقرأ بتمعن تاريخ بلنت وزوجته يدرك أنهما يحاولان الظهور بمظهر التعاطف مع قضايا (العرب) حتى ضد الإنجليز ولكن حقيقتهما أنهما من رجال الإنكليز وأكبر من هذا دعوتهما لفصل العرب عن الخلافة الإسلامية وإنشاء دولة عربية حليفة لإنجلترا تصبح مقرًّا للخلافة الإسلامية وفي هذا وحده ما يكشف حقيقتهما.

فما علاقة الأفغاني بهما وكيف يسمح لنفسه أن يتعاون مع الإنجليز لهدم الإسلام والخلافة الإسلامية، وهو يسعى بزعمه وزعم المخدوعين به إلى الوحدة الإسلامية؟!

ومن المآخذ على الأفغاني تلك العبارات الخطيرة والألفاظ المنحرفة وهي وإن كانت غير صادرة منه ولكنها من تلاميذه وموجهه إليه، ولو لم يكن بها

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين ص(٦٨).

(٢) يروى عنه مستر بلنت في تاريخه السري لاحتلال إنجلترا مصر ص(٦٤ ـ ٦٥) قوله: ربما كان يهمكم أن تسمعوا حكاية دين أسس في فارس قبل مضي عدة سنين، وقد كنت زعيمه في يوم من الأيام، ويقول: «وقد أدركت عبث الاجتهاد في تنظيم فارس على مثال أوربا فصممت على اللباس الذي يفهمه الناس هناك. لباس الدين!!.

راضيًا لردع تلاميذه عنها ولعرفوا كراهيته لذلك فارتدعوا ولكنه لم يفعل فلم يفعلوا.

فمن ذلك ما كتبه إليه تلميذه إبراهيم اللقاني: «لو أذن لي سيدي وربّ ومعدّل مزاجي ومقوم خلائقي، ومحور خلقي ومحرر فطرتي.

◻ ويكتب إليه السيد رشيد رضا مصليًا ومسلمًا عليه بعد رسول اللَّه ﷺ فيقول: «الحمد للَّه على أفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وعلى سيدي بل السيد المطلق، ذي القدح المعلى والجواد المصلى الأسبق، سدرة منتهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن والإحسان الذي له جوّ متنفس، ومن كل نار مقتبس، الإمام المفرد والعقل المجرد، إلى أن قال: مهبط الفيض مصعد الكلم الطيب، مجلى سر الجمال الأكمل»(١).

◻ ويكتب إليه الإمام محمد عبده ما هو أشد وأفظع وأخطر على عقيدة المسلم.

◻ ومن المآخذ على الأفغاني أن السلطان عبدالحميد استشاره في إرسال بعثة من العلماء لنشر الإسلام في اليابان حسب طلب امبراطور اليابان فأرجعه عن عزمه وقال له: «إن العلماء نفروا المسلمين من الإسلام فأجدر أن ينفروا الكافرين»(٢).

◻ ومنها تعليله عدم زواجه بخشيته عدم العدل، ومنها قسمه الذي يقسم به وعز الحقّ وسرّ العدل، ومنها أنه يشرب «قليلاً من الكونياك»(٣).

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا ص(٨٥).

(٢) «نابغة الشرق جمال الدين الأفغاني» لسعيد الأفغاني ص(١١٦) و«جمال الدين الأفغاني» لعبدالقادر المغربي ص(٣٢).

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (٤٩/١).

ومن شطحات الرجل في تفسيره قوله بـ «جواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافًا مضاعفة».

ويطول بنا الحديث لو أردنا استقصاء ذلك، ولعل فيما ذكرنا إشارة لمؤسس هذه المدرسة العقلية الحديثة والباعث لها وهو وإن كان الغالب على نشاطه السياسة لا الدروس العلمية التي هي مرادنا لكنه هو الذي وجه الإمام محمد عبده وتلاميذه إلى هذه الطريقة وأخذ بيدها إليه حتى سلكته وحمدت له ذلك واعترفت له[1].

*** الشيخ محمد عبده:**

لئن كان السيد جمال الدين الأفغاني هو المؤسس لهذه المدرسة فإن محمد عبده هو الذي أقام صروحها ودعا إليها ونشرها بين الناس فكان بحق هو صاحبها وهو أستاذها وإمامها الأول فكان له من الأثر فيها ما لم يكن لأستاذه جمال الدين.

*** ما يؤخذ عليه:**

ليس من السهل ذكر أكثر المآخذ على الشيخ محمد عبده فضلاً عن ذكرها جميعًا.

◘ إن الإسلام عند الشيخ محمد عبده يعتمد على الدليل العقلي ويحتج به لا بالمعجزات «فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار

---

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(١٠٨ ـ ١٢٣، ٨٩).

غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع فكرك بصيحة إلهية»[١] .

☐ ليس هذا فحسب، بل يعتقد الإمام أن الإيمان باللَّه لا يؤخذ من الرسول ولا من الكتاب ولا يصح أخذه منهما بل من العقل فيقول: «وقد اتفق المسلمون إلا قليلاً[٢] ممن لا يعتد برأيه فيهم - على أن الاعتقاد باللَّه مقدم على الاعتقاد بالنبوات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان باللَّه، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان باللَّه من كلام الرسل ولا من الكتاب المنزل فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله اللَّه إلا إذا صدّقت قبل ذلك بوجود اللَّه وبأنه يجوز أن ينزل كتابًا ويرسل رسولاً»[٢] .

☐ أما إذا تعارض العقل والنقل عنده فقد «اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه[٣] على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخِذ بما دلّ عليه العقل»[٤] .

* التقريب بين الأديان:

بعد أن توقّفت العروة الوثقى وعاد الإمام إلى بيروت أنشأ فيها جمعية سياسية دينية سريّة هدفها التقريب بين الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) واشترك معه في تأسيسها ميرزا باقر، وبير زاده، وعارف أبي تراب، وجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت، ثم انضم إليها مؤيد

---

(١) «الإسلام والنصرانية» لمحمد عبده ص(٥٤ - ٥٥).

(٢) المرجع السابق ص(٥٤ - ٥٥).

(٣) هذا القليل هم سلف الأمة جميعًا ولا عبرة بقول المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، وقد كان الشيخ محمد عبده أشعريًا.

(٤) «الإسلام والنصرانية» ص(٥٩).

الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية بالأستانة، والقس إسحاق طيلر، وجي دبليو لينتر، وشمعون موبال، وبعض الانكليز واليهود، وكان الإمام صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها[1] وهو إيراني تنصّر وصار مبشّرًا نصرانيًّا وتسمّى بميرزا يوحنا ثم عاد إلى الإسلام. ودعا أعضاؤها إلى فكرتهم في صحفهم ورسائلهم، وهذا الشيخ محمد عبده يكتب رسالة إلى القس إسحاق طيلر يقول فيها: «كتابي إلى الملهم بالحق الناطق بالصدق حضرة القس المحترم إسحاق طيلر أيدّه اللَّه في مقصده ووفاه المذخور من موعده».

إلى أن قال: «.. ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتُهزم له ظلمات الغفلة فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والإسلام وقد تعرّفت كل منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الألفة، فتُغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين»[2] !!!!!.

◘ ويقول: «وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبًا متوافقة!!، وصحفًا متصادقة!!، يدرسها أبناء الملتين، ويوقّرها أرباب الدينين، فيتم نور اللَّه في أرضه، ويظهر دينه الحق على الدين كله»[3] ؟!!

◘ بينما يردد الشيخ محمد عبده هذا القول الكُفري وأمثاله ينشر جي دبليو لينتر مقال «الإسلام والمدارس المحمدية» في الديلي تلغراف اللندنية جاء فيه: «إحسان المسلمين لمواليهم وإشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضًا إلى

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/ ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢٨).

(٢، ٣) «الأعمال الكاملة لمحمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

الربّ وإنفاقهم في سبيل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا إليهم من أن نصيح على النبي الكاذب»[(١)] .

□ وقال أيضًا: «وإن كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الإنكليزية فيجب علينا أن نهب لهم الدين والدنيا»[(٢)] .

□ ويقول إسحاق طيلر: «إن المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام.. فهم عندنا مسيحيون نصلى لهم كل يوم أحد ونسأل اللّٰه يهديهم وإيانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم»[(٣)] .

ولعل أول ثمرة جناها الغربيون في سعيهم إلى التقريب بين الأديان القضاء على فكرة الجهاد في الإسلام، فما دامت الأديان الثلاثة كلها حق، وليس بينها من فرق، فليس هناك من داع لحمل السيف وإعلان الجهاد ضد النصارى مثلاً، وهو الأمر الذي أقلق بريطانيا كثيرًا وهي دولة نصرانية، فسعت بشتى السبل للقضاء على هذه العقيدة الإسلامية، فأنشأت القاديانية التي حرّمت قتال الإنجليز، والبهائية كذلك، وأيّدت حركة أحمد خان الذي أعلن أن قتال الإنجليز كفر وأن مساعدتهم واجبة.

□ ومن أثر هذه الدعوة ما نراه بارزًا في حديث رجال المدرسة العقلية الحديثة من تقليل شأن الجهاد في نشر الإسلام، وأنه قام على الدعوة باللسان، «وعللوا كل حركة من حركاته بأنه للدفاع بمعناه الاصطلاحي الحاضر الضيّق»[(٤)] فلقد زعم السيد رشيد رضا «أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعًا»[(٥)] .

(١، ٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٨٢٠ ـ ٨٢٢) ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة المنار.

(٣) المرجع السابق (١/ ٦ ـ ٨).

(٤) «خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب ص(١٨).

(٥) «الوحي المحمدي» للشيخ محمد رشيد رضا ص(٢٧٢).

لذلك فلا عجب أن تؤيد إنجلترا تلك الجمعية.

❑ لن نحاسب الإمام إلا بحقيقة الإسلام التي لا تخفى على مثله وعلى أمثال تلاميذه.

* **فتوى لعالم الإسلام الرباني ابن باز في «التقريب بين الأديان»:**

لا أخوة بين المسلمين والكافرين ولا دين حق غير دين الإسلام

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد: فقد نشرت صحيفة عكاظ في عددها ٣٠٣١ الصادر بتاريخ ٢٧/ ٨/ ١٣٩٤هـ خبراً يتعلق بإقامة صلاة الجمعة في مسجد قرطبة وذكرت فيه أن الاحتفال بذلك يعد تأكيداً لعلاقات الأخوة والمحبة بين أبناء الديانتين الإسلام والمسيحية. انتهى المقصود.

كما نشرت صحيفة أخبار العالم الإسلامي في عددها ٣٩٥ الصادر بتاريخ ٢٩/ ٨/ ١٣٩٤هـ الخبر المذكور وذكرت ما نصه: (ولا شك أن هذا العمل يعتبر تأكيداً لسماحة الإسلام وأن الدين واحد) إلى آخره.

ونظراً إلى ما في هذا الكلام من مصادمة الأدلة الشرعية الدالة على أنه لا أخوة ولا محبة بين المسلمين والكافرين، وإنما ذلك بين المسلمين أنفسهم، وأنه لا اتحاد بين الدينين الإسلامي والنصراني؛ لأن الدين الإسلامي هو الحق الذي يجب على جميع أهل الأرض المكلفين اتباعه أما النصرانية فكفر وضلال بنص القرآن الكريم؛ ومن الأدلة على ما ذكرنا قول اللَّه سبحانه في سورة الحجرات: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٠].

* وقول اللَّه عز وجل: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ**

معه إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

* وقوله سبحانه في سورة المجادلة: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

* وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

* وقوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

* وقوله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

* وقوله تعالى في السورة المذكورة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* وقوله عز وجل في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧١].

* وقوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥].

● وقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله ولا يكذبه» الحديث رواه مسلم، ففي هذه الآيات الكريمات والحديث الشريف وما جاء في معنى ذلك من الآيات والأحاديث إنما يدل دلالة ظاهرة على أن الأخوة والمحبة إنما تكون بين المؤمنين أنفسهم.

◻ أما الكفار فيجب بغضهم في اللَّه ومعاداتهم فيه سبحانه، وتحرم موالاتهم وتوليهم حتى يؤمنوا باللَّه وحده ويدعوا ما هم عليه من الكفر والضلال.

◻ كما دلّت الآيات الأخيرة على أن الدين الحق هو دين الإسلام الذي بعث اللَّه به نبيه محمداً ﷺ وسائر المرسلين وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء ديننا واحد» رواه البخاري في «صحيحه»، أما ما سواه من الأديان الأخرى سواء كانت يهودية أو نصرانية أو غيرهما فكلها باطلة وما فيها من حق فقد جاءت شريعة نبينا محمد ﷺ به أو ما هو أكمل منه؛ لأنها شريعة كاملة عامة لجميع أهل الأرض، أما ما سواها فشرائع خاصة نسخت بشريعة محمد ﷺ التي هي أكمل الشرائع وأعمها وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد كما قال اللَّه سبحانه يخاطب نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

☐ وقد أوجب اللَّه على جميع المكلفين من أهل الأرض اتباعه والتمسك بشرعه كما قال تعالى في سورة الأعراف بعد ذكر صفة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، ثم قال عز وجل بعدها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨].

* ونفى الإيمان عن جميع من لم يحكمه فقال سبحانه في سورة النساء: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* وحكم على اليهود والنصارى بالكفر والشرك من أجل نسبتهم الولد للَّه سبحانه واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه عز وجل بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣٣].

☐ ولو قيل إن هذا الاحتفال يعتبر تأكيداً لعلاقات التعاون بين أبناء الديانتين فيما ينفع الجميع لكان ذلك وجيهًا ولا محذور فيه، ولواجب النصح

للّه ولعباده رأيت التنبيه على ذلك لكونه من الأمور العظيمة التي قد تلتبس على بعض الناس.

□ وأسأل اللّه أن يوفقنا وسائر المسلمين للأخوة الصادقة في اللّه والمحبة فيه ومن أجله، وأن يهدي أبناء البشرية جميعًا للدخول في دين اللّه الذي بعث به نبيه محمدًا ﷺ والتمسك به وتحكيمه ونبذ ما خالفه؛ لأن في ذلك السعادة الأبدية والنجاة في الدنيا والآخرة، كما أن فيه حل جميع المشاكل في الحاضر والمستقبل إنه جواد كريم، وصلّى اللّه وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه»[١] .

*** ومن المآخذ على الشيخ محمد عبده:**

□ اشتراكه مع أستاذه الأفغاني في المحافل الماسونية ونشاطه فيها وتعاونه مع أستاذه في نشر مبادئها.

ويرد على من يدافع عن انتمائه إلى الماسونية بمثل ما رددنا به على من يدافع عن الأفغاني بل هو في محمد عبده أكثر قوة ووضوحًا لتأخر وفاة الشيخ عبده عن الأفغاني وقد كان الشيخ عبده يحتفظ ببعض كتب الماسونية في منزله بخط الأفغاني وقد صودرت أثناء سجنه بمصر.

□ وقد صدرت منه عبارات كعبارات أستاذه الأفغاني تفوح منها رائحة تجاهل الإسلام والدعوة إلى الفرعونية المصرية فمن ذلك قوله: «كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنًا»[٢] ، قال هذا القول وهو في القرن الرابع عشر الهجري أو العشرين الميلادي وعلى كلا الأمرين يكون

(١) «مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز» (٣/ ١٠٢٣).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ١٢).

قفز بقوله الحكم الإسلامي بأكمله! فمتى عرفت هذه الأمة ذلك إذا لم تكن عرفته في الإسلام؟!

☐ لا شك أن الدعوة إلى القومية الوطنية إنما هي أيضًا وليدة الماسونية التي تسعى إلى القضاء على الأديان، ولذلك يلاحظ كل من ينظر في سيرة هذا الرجل مظاهر دعوته إلى القومية العربية في سمتين بارزتين:

الأولى: أن الشيخ محمد عبده هو الذي صاغ برنامج الحزب الوطني المصري وجاء فيه في المادة الخامسة منه «الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرس أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليها»[١].

☐ وفي سنة ١٨٨٨م جرت في مصر مناقشات صحفية حول تعصب الأقباط في مصر ضد المسلمين فكتب الشيخ محمد عبده مدافعًا عن الأقباط: «ليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها إلى شائن من العمل تعللاً بأن رجلاً أو رجالاً منها قد استهدفوا لذلك..»[٢].

☐ ومن أقواله: «إن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه»[٣]، وغاب عن ذهنه أن خير أوجه الوحدة الدين.

السمة الثانية: مطالبته باستقلال العرب عن الأتراك:

فقد أرسل لويس صابونجي برقية إلى مستر بلنت أوردها الأخير في تأريخه السري لاحتلال إنجلترا مصر جاء فيها إن: «نديم وعرابي وعبده

---

(١) «الأعمال الكاملة لإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ١٠٧).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٠٨).

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (٢/ ١٩٤).

يتحدون الباب العالي علنًا»[١] ، ويقول بلنت أيضًا في تأريخه هذا: «وقد سمعت سامي وعبده ونديمًا يلعنون السلاطين والأمم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو إلى عبدالحميد وقد ألف حزب كبير يستعد لإعلان الاستقلال عن تركيا إذا تدخل الأتراك في مصر تدخلاً حربيًّا..»[٢] ، وهذا الموقف هو الذي يفسر لنا معنى تلك البرقية التي أرسلها الخديو توفيق إلى السلطان العثماني في نوفمبر سنة ١٨٨١م يقول له فيها: «إن مصر في حالة ثورة وإن هناك اقتراحًا لإنشاء امبراطورية عربية»[٣] .

◘ وهو مع عداوته للأتراك وللخلافة الإسلامية قد يعلن تأييده للخلافة الإسلامية والدولة العثمانية ولكنه إعلان نفاق وتزلف؛ لأنه إنما يعلن هذا حينما يكون في نطاق النفوذ المباشر للسلطان العثماني والسلطة العثمانية فإذا خرج من ذلك عاد إلى رأيه القديم في هذه الدولة وهذا السلطان[٤] فهو يقول في تأييد الخلافة: «وإني على ضعفي ـ والحمد لله ـ مسلم العقيدة عثماني المشرب، وإن كنت عربي اللسان ولا أجد في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله فرضًا أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته والخضوع لجلالته وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وعندي أني إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان فخاذلها محاد الله ورسوله ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون»[٥] .

---

(١) «التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر» للمستر بلنت ص(٢٤٩).
(٢) «المرجع السابق ص(٢٥٥ ـ ٢٥٦).
(٣) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ١١٣).
(٤) المرجع السابق (١/ ١١٤ ـ ١١٥).
(٥) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣).

❑ ومن أثر هذا الاتجاه أيضًا اتجاهه إلى إنشاء جمعية «سرية» للتقريب بين الأديان ودفاعه القوي عنها وعن أعضائها حتى في وجه الخلافة الإسلامية، كتب مدافعًا عن إسحاق طيلر قائلاً: «إن السر في غضب السلطان عبدالحميد من نشاط القس الإنجليزي إسحاق تيلور في الدعوة لتوحيد الأديان وموافقتي وميرزا باقر وعلماء دمشق له ومراسلتنا إياه أنه خشي أن يعتنق الإنجليز الإسلام، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة في الإسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين.. ويذهب السلطان من السلطان.. وسبحان مدبر العقول»(١) .

فانظر إلى أي مدى وصل دفاعه عن قس إنجليزي يقول: «إن المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام.. فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ونسأل اللَّه أن يهديهم وإيانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم»(٢) .

ثم انظر إلى هذا الاتهام السخيف من محمد عبده إلى السلطان عبدالحميد؟! ولا ندري هل قال الشيخ عبده هذا عن اعتقاد صحيح أو خداع للقارئ.

أما عن نشاطه في هذه الجمعية فقد تقدم بيانه.

❑ ومن أهم المآخذ عليه علاقته المريبة بالإنجليز كأستاذه الأفغاني، فقد كان الإمام محمد عبده يبذل لهم النصيحة خالصة ويرشدهم إلى ما يوطد دعائم احتلالهم ويحذرهم من الأخطاء التي يكادون أن يقعوا فيها وتضرهم في مصالحهم، نذكر لذلك مثلاً بعزيمة اللورد كرومر على إلغاء النيابة العامة وإحالة أعمالها إلى القضاء، فحذره محمد عبده بأن هذا خطأ لا يحتمل

---

(١) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٧٣٥).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٨٢٦).

الصواب وعلل ذلك بأن رجال النيابة من أرقى رجال البلاد علمًا وعقلاً ولسانًا وقلمًا وستتوجه همة كل من تلغى وظيفته إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسئولين عن النظام تعبًا كبيرًا»[١] فأبطل اللورد المشروع فورًا.

بل ويدل على ما قدمه لهم من خدمات دفاعهم عنه والوقوف بجانبه فقد صرح اللورد كرومر بأن الشيخ محمد عبده يظل مفتيًا في مصر ما ظلت بريطانيا العظمى محتلة لها»[٢] ، وكان الاحتلال الإنجليزي عاملاً أساسيًا من عوامل عودة محمد عبده إلى مصر وقد صرح اللود كرومر بذلك في كتابه مصر الحديثة فقال: إن العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني»[٣] .

وقدم له الإنجليز الحماية في الآستانة حين كثرت الدسائس ضده يقول تلميذه السيد رشيد رضا «كان المراد من الدسائس.. أن يحبس الأستاذ الإمام أو يهان وهم لا يجهلون أن السفارة البريطانية كانت بالمرصاد وأنها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضًا»[٤] . ويكتب الشيخ عبده نفسه إلى السيد رشيد قائلاً: إن السلطان لا يستطيع حبسي لو أراده وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك أسباب لا أحبّ ذكرها الآن»[٥] .

فأي علاقة تربطه بالإنجليز حتى يوفروا له كل هذه الحماية؟! وأيّ أسباب لا يحب الشيخ محمد عبده ذكرها؟!

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٩٢٢).
(٢) المرجع السابق (١/ ٥٠١ ـ ٥٦٤).
(٣) «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة ص(٤٥).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٨٦٠).
(٥) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» لمحمد عمارة (١/ ١١٧).

□ ثم لا ندري كيف تستقيم عقيدة الرجل وقد كلّت أبصارنا من قراءة عبارات له خطيرة يبدو الانحراف ظاهراً في عقيدة قائلها.

فمن ذلك ما ورد في كتابه الذي أرسله من السجن إلى أحد مريديه» . . ودارت الأفلاك دورة العكس ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا فولى معها آلهة الخير أجمعين وتمخضت السلطة لآلهة الشر»[1] .

ولا يصح تخريج تلميذه رشيد لهذا بأنه على الحكاية لخرافات اليونانيين وهو إن كان قال هذا عن اعتقاد فلا شك في كفره ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤].

ومن ذلك ما كتبه إلى أستاذه الأفغاني قائلاً: «ليتني كنت أعلم ماذا أكتب إليك، وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صنعتنا بيديك وأفضت على موادنا صورها الكمالية وانشأتنا في أحسن تقويم فبك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك وبك عرفنا العالم أجمعين فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب وهو علمك بذاتك وثقتك بقدرتك وإرادتك، فعنك صدرنا وإليك إليك المآب.

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول، وأتصرف بها في خواطر النفوس ومنحت منك عزمة أتعتع بها الثوابت وأذل بها شوامخ الصعاب وأصدع بها حمّ المشاكل وأثبت بها في الحق للحق حتى يرضى الحق، وكنت أظن قدرتي بقدرتك غير محدودة ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدورة فإذا أنا من الأيام كل يوم في شأن جديد»، ويقول: «فصورتك الظاهرة تجلت في قوتي الخيالية وامتد سلطانها على حسي المشترك وهي رسم الشهامة وشبح الحكمة وهيكل الكمال فإليها ردت جميع محسوساتي وفيها فنيت مجامع

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/ ٢٦٧).

مشهوداتي وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا وأنرت بها عقولنا وطفت بها نفوسنا بل التي بطنت بها فينا فظهرت في أشخاصنا فكنا أعدادك وأنت الواحد وغيبك وأنت الشاهد ورسمك الفوتوغرافي الذي أقمته في قبلة صلاتي رقيبًا على ما أقدم من أعمالي ومسيطرًا عليّ في أحوالي وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ولا مضيت إلى غاية ولا انثنيت عن نهاية حتى تطابق في عملي أحكام أرواحك وهي ثلاثة فمضيت على حكمها سعيًا في الخير وأعلاءً لكلمة الحق وتأييدًا لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة ولست في ذلك إلا آلةً لتنفيذ الرأي المثلث ومالي من ذاتي إرادة حتى ينقلب مربعًا غير أن قواي العالية تخلت عني في مكاتبتي إليك وخلت بيني وبين نفسي التزامًا لحكم أن المعلول لا يعود على علته بالتأثير على أن ما يكون إلى المولي من رقائم عبده ليس إلا نوعًا من التضرع والابتهال لا أحسب فيه ما يكشف خفاء أو يزيد جلاء ومع ذلك فإني لا أتوسل إليك في العفو عما تجده من قلق العبارة وما تراه مما يخالف سنن البلاغة بشفيع أقوى من عجز العقل عن إحداق نظره إليك وإطراق الفكر خشية منك بين يديك، وأي شفيع أقوى من رحمتك الضعفاء وحنوك لمغلوبي حياء»، ويقول: «فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الإلهام في قلوب الصديقين»، ويقول أيضًا: «أما ما يتعلق بنا فإني على بينة من أمر مولاي وإن كان في قوة بيانه ما يشكك الملائكة في معبودهم والأنبياء في وحيهم، ولكن ليس في استطاعته أن يشكك نفسه في نفسه ولا أن يقنع عقله الأعلى بمحالات وإن كان في طوعه أن يقنع بها من أراد من الشرقيين والغربيين.

هذا بعض ما ورد في خطاب محمد عبده إلى أستاذه الأفغاني بتاريخ ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ وهي عبارات ولا شك خطيرة توجب إعادة النظر في عقيدة الرجل عند من لا تخدعه الأسماء وقد استغرب السيد رضا نفسه هذه الرسالة من أستاذه حيث قال عند سياقه لها:

«ومن كتاب له إلى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر إلى بيروت وهو أغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به أستاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم، وفيه من الإغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه، وإن كان من قبيل الشعريّات، وكذا ما يصف به نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة»[1] ، ثم ساق نص الخطاب، ولم يلتزم السيد رشيد رضا الدقة كلها في نقل الرسالة فنراه يحذف بعض العبارات الخطيرة ويضع نقطًا وأحيانًا لا يضع حتى النقط ويحاول حينًا أن يلطف من شدة انحراف بعض العبارات بتأويلات متكلفة، أما حذفه بعض العبارات فلعله وضع لنفسه مبرراً لذلك فقال في تقديم الخطاب: «ومن كتاب له إلى السيد جمال الدين».

هذه عبارات ولا شك خطيرة، ولكن ما هو أخطر وأشد ضلالاً ما ورد في خطاب آخر منه إلى السيد الأفغاني بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٣٠٠هـ وإني لأدعو القارئ أن يمعن النظر في كل حرف أنقله من الرسالة: «أما الآن وقد حبسني الجناب العالي نتيجة لأعماله فإني أصدع بأفكاري قواعد الملكوت وأزعزع بهمتي أركان سطوة الجبروت وأدعو إلى الحق دعوة الحكيم.. ثم يقول: «بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في «الدبا» من دفاعكم عن الدين الإسلامي (يا لها من مدافعة) ردًا على مسيو رينان فظنناها من المداعبات الدينية تحل عند المؤمنين محل القبول فحثنا بعض الدينيين على ترجمتها لكن حمدنا اللَّه تعالى إذ لم يتيسر له وجود أعداد «الدبا» حتى ورد كتابكم واطلعنا على العددين ترجمهما لنا حضرة الفاضل حسن أفندي بيّهم

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (٢/ ٥٩٩).

فصرفنا ذهن صاحبنا الأول عن ترجمتها[1] وتوسلنا في ذلك بأن وعدنا أن الأصل العربي سيحضر فإن حضر نشر ولا لزوم للترجمة فاندفع المكروه والحمد للَّه».

---

(١) نقل الأستاذ محمد حميد اللَّه في مجلة الفكر الإسلامي ـ بيروت ـ السنة الثانية العدد الثاني في مقال «صلات ارنست رينان مع جمال الدين الأفغاني» نقل بعض العبارات التي جاءت في دفاع الأفغاني ومن الطريف أن الأستاذ حميد اللَّه استغرب صدور هذه النصوص من جمال الدين واستبعد ذلك، ولو أنه قرأ خطاب محمد عبده ـ هذا ـ إلى الأفغاني وحرصه على عدم ترجمة هذا الدفاع من الأفغاني لأدرك صحة نسبته للأفغاني.
أما النصوص فمنها: «عند قراءة المحاضرة (يعني محاضرة رينان التي يرد عليها الأفغاني) لا يقدر الإنسان على منع نفسه من التساؤل: «إن أصل تلك العوائق هل هو من دين المسلمين أو من خصائص الملل التي أكرهت بالسيف على قبول ذلك الدين».
ومنها: «وفي الحقيقة إن الدين الإسلامي حاول خنق العلم وسدّ جميع التطور ولذلك نجح في سدّ الحركات الفكرية والفلسفية وطرد الأذهان عن طلب الحقيقة العلمية».
ومنها: «كان هذا صحيحًا أن دين المسلمين يعوق من تطور العلم فهل يقدر أحد على أن يدعي عن هذه الطائفة سوف لا تزول يومًا؟ ففيم يختلف دين المسلمين في هذا من سائر الأديان؟ إن جميع الأديان لا سماحة عندها أبدًا، كل واحد حسب شاكلته إن المجتمع النصراني الذي تحرر واستقل الآن يتقدم بادي الرأي سريعًا في سبيل التقدم والعلوم بينما المجتمع الإسلامي لم يتحرر إلى الآن من تسلط الدين».
ومنها: «لا شك عندما سار الإسلام في البلاد التي تملكها باستعمال الجبر والقهر ما هو معروف نقل إليها لغته وعاداته ومعتقداته وهذه البلاد لم تستطع إلى الآن من الخلاص من مخالبه».
ومنها: «.. ولماذا لم يزل العالم العربي مغطى بالظلمات العميقة؟ في هذه الناحية تظهر مسئولية الدين الإسلامي كاملة. ومن الظاهر أن هذا الدين حيثما حل حاول خنق العلوم».
هذا بعض ما جاء في رد الأفغاني، ولذلك فلا عجب أن يكتب رينان في اليوم التالي معقبًا على ردّ الأفغاني: «إنه متفق مع جمال الدين تمام الاتفاق فيما ذكره في رده عليه».
هذه النصوص نقلها الأستاذ محمد حميد اللَّه من جريدة «جورنال ديه ديبا» الفرنسية المؤرخة في ١٨ مايو ١٨٨٣.

ثم قال في عبارة أشد انحرافًا وأدعى إلى تقييم عقيدته: «نحن الآن على سنتك القويمة لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهادًا عبادًا ركعًا سجدًا لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل».

عجبًا!! نحن الآن على سنتك القويمة.. لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين ـ ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهادًا عبادًا.. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل؟!

هي هي دعوة باطنية يخفيها الرجلان ويسعيان تحت ستارة الدين و«بسيف الدين» لقطع «رأس الدين»؟! وقيامهم بالصلاة أمام الناس هل هو سعي إلى القبض على سيف الدين؟! ثم تركهم للصلاة بعض الأحيان هل هو تنفيس «لضيق العيش» وعودتهم إليها حينًا لأجل «فسحة الأمل».

□ عاتب الشيخ يوسف النبهاني السيد رشيد رضا على صحبته لمحمد عبده وتسميته له بالأستاذ الإمام مع تركه للحج ولفروض الصلاة ولاشتراكه في الماسونية فقال نظمًا:

وذاكرته في شيخه وهو عبده	تملكه للشيطان عن قومه قسرا
فقلت له لو كابن سينا زعمتم	وعالم فاراب وأفهم قدرا
لقلنا لكم حقًّا وإن كان باطلاً	ولم نر من هذا على ديننا ضرا
ولكنكم مع تركه الحج مرة[1]	وحج لباريز ولندره عشرا
ومع تركه فرض الصلاة ولم يكن	يسر بذا بل كان يتركها جهرا

(١) اعترف السيد رشيد بهذا وزعم أن المانع هو الخوف من إساءة السلطان عبدالحميد له! ونقول: إن الشيخ محمد عبده كان قادرًا على الحج قبل سوء العلاقة بينه وبين السلطان هذا لو سلمنا أن سوء العلاقة كان مانعًا حقيقيًا!! ومن تمكن من زيارة الآستانة نفسها في عهد السلطان عبدالحميد أفلا يستطيع أن يحج إلى مكة المكرمة؟!.

ومع كونه شيخ المسون مجاهرًا بذلك، لا يخفي أخوّتهم سرًّا
ومع غير هذا من ضلالاته التي بها سار مثل السهم للجهة الأخرى
تقولون أستاذ إمام لديننا فما أكذب الدعوى وما أقبح الأمرا
ونحن نراه عندنا شر فاسق فيقتل فسقًا بالشريعة أو كفرا[١]

▫ أما عن الشيخ الأفغاني فيقول الشيخ يوسف النبهاني: «إنه اجتمع به سنة ١٢٩٧هـ في مصر حين كان مجاورًا بالأزهر ولازمه من قبل الغروب إلى قرب العشاء فلم يصل المغرب»[٢].

▫ ومن أقوال الشيخ محمد عبده التي نؤاخذه عليها وصفه للأزهر بالأسطبل والمارستان والمخروب[٣] وقوله لتلميذه رشيد: «إن من تطول مدة طلبه للعلم في الأزهر وأمثاله فإنه يفقد الاستعداد للعلم»[٤].

وفي الحقيقة إن الباحث المدقق في مسار الفكر الإسلامي في تلك الآونة وما تلاها يجد الشيخ محمد عبده خلف كثير من الدعوات الهدامة والمبادئ المنحرفة لا أقول هذا تعصبًا ضد الرجل فما تقولت عليه قولاً وما نسبت إليه نصًّا إلا عن مصدر موثوق وطريق مأمون.

نشر محمد أحمد خلف اللَّه كتابه «الفن القصصي في القرآن الكريم» زعم فيه أن ورود الخبر في القرآن لا يقتضي وقوعه وإنه يذكر أشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن (!!) من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ، وقال: «إننا

(١) «الرائية الصغرى في ذم البدعة ومدح السنة الغراء» ضمن كتاب «العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية» وكلاهما للشيخ يوسف النبهاني ص(٣٨٣).
(٢) المرجع السابق ص(٣٧٢).
(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٩٥).
(٤) المرجع السابق (١/ ١٨١).

لا نتحرج من القول: بأن القرآن أساطير»[١] . وعندما رفضت جامعة فؤاد هذه الرسالة دافع عنها أمين الخولي المشرف على الرسالة قائلاً: «إنها ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عامًا»[٢] .

*** محمد عبده وتلميذه قاسم أمين:**

◻ ونشر قاسم أمين كتابه تحرير المرأة وفيه دعوة إلى نبذ الحجاب واطراحه وإلى خروج المرأة إلى العمل في كل المجالات ودراسة كل العلوم وزعموا أن هذا تحرير المرأة وهو في الحقيقة تخريب للمرأة وتحرير لها من الكرامة التي صانها لها الإسلام.

◻ وقصة الكتاب تبدأ حينما نشر أحد الكتاب الفرنسيين مقالاً هاجم فيه حجاب المرأة المصرية فكتب قاسم أمين دفاعًا عن الحجاب أغضب اللورد كرومر الذي جاء إلى مصر كما قال: ليمحو ثلاثًا القرآن والكعبة والأزهر[٣] فأمر بوضع كتاب «تحرير المرأة»، وقيل: إن الذي أمر بوضعه الأميرة نازلي حفيدة إبراهيم باشا؛ لأنها غضبت من دفاع قاسم أمين عن الحجاب «والذين نسبوا الأمر إلى اللورد كرومر والذين نسبوه إلى «نازلي» يتفقون أن الأمر قد صدر إلى الشيخ محمد عبده، وأنه قد قام بدور كبير في تأليف الكتاب.. بل يرى بعضهم إنه هو الذي ألّفه، ثم وضع على غلافه اسم قاسم أمين تجنبًا للحرج والعاصفة التي كانت ستهب عليه مباشرة إذا ما وضع اسمه عليه، وهو الشيخ الأزهري ذو المناصب الدينية الكبرى، ومنها منصب

(١) «الفن القصص في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف الله ص(١٨٠).
(٢) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف الله تقديم أمين الخولي ص ح.
(٣) «الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون» لأنور الجندي ص(٢٩).

مفتي الديار المصرية»[١].

ولذلك فلا عجب أن يقول الأستاذ محمد عمارة الذي جمع مؤلفات ومقالات محمد عبده في كتاب «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» في ستة مجلدات بعد تحقيق دقيق لنسبتها إلى محمد عبده لا عجب أن يقول: «والرأي الذي أؤمن به والذي نبع من الدراسة لهذه القضية هو أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين. . وأن في هذا الكتاب[٢] عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغته النهائية، بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين»[٣] ، ثم ذكر بعد هذا مجموعة كبيرة من الأدلة على ذلك قدم بين يديها عددًا من القرائن.

منها موقف الأستاذ الإمام من الكتاب بعد صدوره فلقد أيّده ودافع عنه بطريقة غير مباشرة وامتنع عن التعليق عليه أو المشاركة بشكل مباشر في المعارك التي دارت من حوله وبالذات عندما أراد خصومه إحراجه وطلبوا منه أن يفتي ـ بحكم منصبه الرسمي ـ في الموضوع.

أما دفاعه غير المباشر فيتمثل في وقوف الشيخ رشيد رضا ومجلة المنار إلى جانب الكتاب فلقد تناولت المنار الكتاب بالمدح والتقريظ في أكثر من مرة واعتبرته مع رسالة التوحيد للأستاذ الإمام و«سر تقدم الإنجليز السكسونيين» الذي ترجمه فتحي زغلول أهم الأعمال الفكرية في ذلك العصر «المنار ١ يوليو ١٨٩٩م» كما تناولته بالثناء في عددي ١٥ يوليو ٢٦ اغسطس

---

(١) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).
(٢) يعني كتاب «تحرير المرأة» المنسوب لقاسم أمين.
(٣) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٥٢).

من العام نفسه»[١] .

ووصف السيد رشيد رضا قاسم أمين بأنه العالم البارع في علوم الأخلاق والاجتماع»[٢] .

◘ وحينما أراد خصوم الشيخ إحراجه طبعوا سؤالاً موجهًا إليه هو: «هل رفع الحجاب عن المرأة وإطلاقها في سبيل حريتها بالطريقة التي يريدها صاحب كتاب المرأة الجديدة يسمح به الشرع الشريف أم لا؟»، ووزعوا هذا السؤال على الجمهور في صورة كتاب مفتوح إلى المفتي محمد عبده. عندما فعلوا هذا لزم الشيخ محمد عبده الصمت ودافعت المنار عن هذا الصمت قائله:

١ ـ إن الاستفتاء جاء على خلاف المعهود بأن وزع على الجمهور.

٢ ـ إن الجواب عليه يستلزم قراءة الكتاب في حين أن المفتي مثقل بالأعمال (!!).

٣ ـ إن من اطلع على الفتوى يحتاج إلى أن يقرأ الكتاب أولاً، فإذا كان ضاراً تكون الفتوى سببًا في إذاعة الضرر (!!).

٤ ـ إن فتوى الإمام ستكون على المذهب الحنفي الذي عينته الحكومة ليفتي على أساسه في حين أن بعض المذاهب قد أباحت كشف المرأة لوجهها ويديها[٣] .

أما الفصول التي أثبت الأستاذ محمد عمارة أنها للشيخ محمد عبده فهي «الحجاب الشرعي» و«الزواج» و«تعدد الزوجات» و«الطلاق» ثم قال

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٥٥).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام؛ للسيد محمد رشيد رضا (١/ ١٠٥١).

(٣) مجلة المنار المجلد ٤ (١/ ٣٣ ـ ٣٤) في غرة ذي القعدة ١٣١٨هـ.

عنها: «إنما هي فكر خالص وصياغة خالصة للأستاذ الإمام»[1] وأقول: إن هذه الفصول هي أهم ما في الكتاب.

□ ومن هنا ندرك أن الشيخ محمد عبده يقف خلف هذه الدعوة، ولذلك رأى الشيخ مصطفى صبري أن يكتب تحت عنوان «الأستاذ الإمام وكتاب اللَّه في كفتي الميزان»: ـ «وإني أرى الرسالة المستنكرة ـ يعني رسالة الفن القصصي في القرآن الكريم» ـ وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام.. فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها من أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين»[2].

وبعد..

فلعلي أقف هنا عن الحديث عن المآخذ على الشيخ محمد عبده.

أما من كانت الحقيقة هدفه فلا شك أنه واجد فيما ذكرت ما يجلوها له.

وأما من أعرض عن طلبها ووضع في ذهنه أصنامًا وتماثيل لأشخاص بلغوا من القداسة حدًّا لا يقبل معه كلمة في حقهم، يعلو صوته ويحتدّ صراخه إن سمع نقدًا لأحدهم في وقت لا يهيج فيه ولا يتمعّر وجهه حين يسمع السب والشتم فضلاً عن التجريح لأبي هريرة ﷺ أو وهب بن منبه أو كعب الأحبار ﷺ من محمود أبي رية وغيره من أتباع الأفغاني ومحمد عبده.

إن مثل هذا لا نأبه له في حديثنا هنا ولم نكتب هذا لإقناعه لأنه وأمثاله ليس في مستطاعنا ولا مستطاع غيرنا إقناعهم إلا أن يهديهم اللَّه إلى

---

(١) «الأعمال الكاملة» للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٥٨).

(٢) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ٣٤٦).

الحق وإلى سبيل الرشاد وحينذاك فيقرأوا حديثنا مرة أخرى.

ومن وجد فيما كتبنا فهمًا خاطئًا أو تأويلاً باطلاً فليرشدنا إلى الحق وله منا الدعاء الحسن فما كتبنا إلا للحقيقة وما طلبنا إلا إياها فهي ضالتنا وهي مرادنا فيما نكتب وفيما نقول والله الهادي إلى سواء السبيل»(١) .

□ وذهب الشيخ محمد عبده إلى أن حكم المؤمن القاتل عمدًا هو الخلود في النار، وأنه لا توبة له مطلقًا، وهذا مخالف لاعتقاد السلف الذين فسروا وأولوا الخلود بطول المكث.

□ وخالف فهم السلف للوحي فقال: «بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت»(٢) ، ويقول: «إن روح النبي منطوية على الدين في جملته من قبل أن ينزل عليه الوحي بتفاصيل مسائله»؟!!.

□ وذهب الشيخ محمد عبده إلى إباحة الربا لضرورة الوقت فقال: «إن أهل بخارى جوّزوا الربا لضرورة الوقت عندهم والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدّد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص!!!»(٤) .

□ وتبعه الشيخ محمد مصطفى المراغي في مراعاته للزمان والمكان حين قال لأعضاء لجنة الأحوال الشخصية: «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم»(٥) .

---

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(١٤٩ ـ ١٦٩).

(٢) «رسالة التوحيد» لمحمد عبده ص(١٠٨).

(٣) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢/ ١٤).

(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٩٤٤).

(٥) «المجددون في الإسلام» لعبدالمتعال الصعيدي ص(٥٤٨)، و«تراجم الأعلام المعاصرين» لأنور الجندي ص(٤٢٨).

*** موقف المدرسة العقلية الحديثة من بعض القضايا الاعتقادية والقرآنية:**

◻ يقول الدكتور فهد الرومي في كتابه القيم: «نخلص من دراستنا هذه أن لمذهب المدرسة العقلية الحديثة أبعادًا ثلاثة نراها قوية شامخة في التكوين الأساسي للمدرسة العقلية نذكر هذه الأبعاد الثلاثة إجمالاً ثم نستخلص بعد هذا النتيجة التي نراها والموقف الذي يجب أن نقفه نحن المسلمون على ضوء هذه النتيجة:

الأبعاد الثلاثة:

أولاً: أن هذه المدرسة أعطت العقل أكثر من حقه وكلفته ما لا يطيق ورفعت من قيمته وضخمت حجمه حتى ساوته بالوحي بل قدمته عليه وقدمت ما زعمته من أحكامه على أحكام الوحي.

وسعت في هذا السبيل لأجل «تضييق» حيز الغيبيات في مسائل العقيدة الإسلامية.

ثانيًا: قامت هذه المدرسة بتأويل حقائق العقائد الإسلامية بما يتمشى مع الأحكام العقلية من جهة ومكتشفات الحضارة الغربية والنظريات العلمية الغربية من جهة أخرى.

وفي سبيل ذلك أيضًا قامت بتأويل المعجزات والخوارق وإنكار بعضها إذا لم يمكن قلب حقيقته بما يتمشى مع هذا البعد الفكري.

ثالثًا: تبرير تناول الحضارة الغربية ومجاراتها في مدنيتها الزائفة والتحوير من الداخل لإعطاء السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية وتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين تقريبًا كان على حساب كثير من الجوانب الإسلامية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية.

تلكم هي الخطوط العريضة والأبعاد الراسخة التي نراها في منهج

المدرسة العقلية.

ونتيجة لذلك فإنا نعتقد:

أولاً: أن المدرسة العقلية الحديثة ذات منهج منحرف، وهي بسلوكها إياه تعد فرقة منحرفة جديدة أقرب ما تكون إلى فرقة المعتزلة فهم كالمعتزلة.

أ ـ في تحكيم العقل والرجوع إلى أحكامه ورفعه إلى مرتبة الوحي، وهم لو حكموا العقل نفسه لسلمنا لهم؛ لأن أحكامه بنفسه لا تخالف حكمًا ثابتًا في الشريعة الإسلامية أو قضية من قضاياه وهم إنما يحكمون العادة فيحسبون ما خالف العادة مخالفًا للعقل.

ب ـ وهم كالمعتزلة في إنكار المعجزات أو تأويلها.

جـ ـ وهم كالمعتزلة أيضًا في كثير من الغيبيات كالملائكة والجن والسحر وغيره.

د ـ وهم كالمعتزلة في إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة حتى ما رواه البخاري ومسلم.

هـ ـ وهم كالمعتزلة في عدم تعديل الصحابة كلهم بل تجاوز بعضهم ذلك كبعض المعتزلة إلى سب الصحابة ﷺ.

و ـ وإنهم كالمعتزلة في اعتقاد خلود أهل الكبائر في النار.

ومن هذا ندرك وضوح الصلة ووجه الشبه بينهم وبين المعتزلة.

ثانيًا: أنهم يزيدون على المعتزلة بالدعوة للتقريب بين المسلمين والكفار (النصارى واليهود) وتبرير تناول الحضارة الغربية ومجاراتها في مدنيتها الزائفة.

بل إنهم أخطر من المعتزلة ذلك أنهم يسعون بكل ما وسعهم لتغيير المفهوم الإسلامي في معاملة الكفار وإلغاء الفاصل والحاجز بين الفكر الحق

والفكر الضال أو المنحرف وإذا ما ألغي جانب العقيدة في ميزان التفاضل، فإن الكفة سترجح حتمًا بنا وسيصبح الكفار آنذاك هم الأفضل والأقوى ومن ثم تكون لهم السيطرة وتكون لهم الدولة وحينئذ تكون خسارتنا للدين والدنيا.

وهو ما يسعى إليه الاستعمار وسهر من أجله الليالي ودفع جيوشه المادية والمعنوية وبث رجاله المستشرقين والمخدوعين ـ لأجله.

ثالثًا: إن الكثير من مفاهيمهم ومبادئهم هي السائدة في الفكر الإسلامي المعاصر وما ذاك إلا أثر من آثار فرض الاستعمار بادئ ذي بدء آراءهم على الناس وترويجه لهم وتمجيد المستشرقين لهم حتى إذا ما سار ذلك بين الناس أخذوا يتبنونه بأنفسهم ويعلنونه في مؤلفاتهم ويدافعون عنه حتى أصبح أو كاد من المسلمات.

وأصبح رجال المدرسة العقلية عندهم من الرجال الذين لا يقبل فيهم نقد أو يصل إليهم قدح.

رابعًا: أنهم مهدوا السبيل لسيطرة الفكر الغربي واتخذهم الأعداء مطي يعملون من خلالها على زلزلة عقيدة المسلمين وتشكيكهم بها ومحاربة الإسلام في عقر داره ليس عن طريق نشر المؤلفات فحسب بل عن طريق الصحافة وطريق السينما والتليفزيون والإذاعة وكل وسائل الإعلام الأخرى.

ثم عمل الاستعمار على إطفاء ما بقي من نار الغيرة على الشعائر الإسلامية بل على الدين كله في قلوب الشباب فأصبحوا لا يحرك ساكنًا فيهم ما يحدث في المسلمين في الفلبين أو في الهند أو في أفغانستان أو في فلسطين أو في غيرها من مختلف البلدان، لا يحرك هذا فيهم ساكنًا عند سماعه فضلاً عن أن يهبوا زرافات ووحدانًا.

خامسًا: لم تكن نتيجة ذلك ذات أثر على الأفراد فحسب بل على كثير

من الدول التي نبذت الفقه والفقهاء الإسلاميين واستبدلت القوانين الوضعية بالفقه الإسلامي وتركت تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أو غيرهم من الفقهاء واستمدت جل دستورها من القوانين الأوروبية الحديثة.

وبعد..

◻ فما الموقف منهم الذي يجب إعلانه هنا؟ لا أريد أن أستطرد في الحديث هنا بل ألخص الموقف بأسطر أحسب فيها الكفاية.

لا شك أن الواجب يقتضي أن نعيد النظر في رجال هذه المدرسة العقلية أنفسهم ونعيد تقييمهم وفق الميزان الإسلامي الحق ونعلن للناس كافة حقيقتهم ونجلو لهم علانية زيف منهجهم ونبين مواقع ضلاله ومواقع انحرافه.

ـ نعيد تقييمهم تقييمًا حقًّا لا يراعي بحال من الأحوال ما هو سائد بين الناس عنهم.

ـ وحين نصل إلى نتيجة ذلك نعلن بها العلماء قبل العامة لينشروه بين الناس كافة.

وحينئذ نعيد ترتيب الأمور على الميزان الحق أحسب هذا الأمر يقال في لحظة، ويكتب في لحظتين ولكن تنفيذه يريد عزمة إسلامية خالصة تطوي الزمن طيًّا فيحصل ما يحتاج إلى قرون عديدة في سنوات قليلة ويكون صلاح هذا الدين في هذا العصر كصلاحه في أوله»[1].

ولنأخذ من انحرافاتهم أمثلة:

أولاً: الأحاديث الواردة في أشراط الساعة ومنها أحاديث المهدي والدجال وطلوع الشمس من مغربها وقد بلغت حد التواتر يردونها.

يرد الشيخ رشيد رضا أيضًا حديث الجساسة وقد ورد في صحيح مسلم

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٨٠٩ ـ ٨١٢).

يقول: «وجملة القول في حديث الجسّاسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والإشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع، وأنه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع»[١].

▣ وهم يؤولون حقائق يوم القيامة عن نشر الصحف، وأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال أو الميزان.

«أما نشر الصحف الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، فيقول عن ذلك الشيخ محمد عبده: «الصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال والذي يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال أما كون الصحف على مثال الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه. فذلك مما لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل ولم يرو عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع»[٢].

أما أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٧، ٨] الآيات فيفسر ذلك الشيخ محمد عبده بقوله: «فإيتاء الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله في ذلك اليوم فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول باليمين ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنهما وأدبر وتمنى لو لم تكشف له ـ وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر، وبهذا اتفق المعنيان في

(١) «تفسير المنار» لرشيد رضا (٩/ ٤٥١).

(٢) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(٢٧ ـ ٢٨).

الآيتين ولم تبق حاجة إلى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب اللّه كما جرى عليه كثير من المفسرين»[١] .

◻ إذن فهم يحملون هذه النصوص القرآنية الصريحة عن بعض أحوال يوم القيامة على أنها تمثيل وتصوير لا حقيقة واقعة، فحمل عرش ربك تمثيل لكمال عزته وأخذ الكتب باليمين أو الشمال تمثيل وتصوير لا حقيقة فالتناول باليمين يراد به الاستبشار والابتهاج والتناول بالشمال يراد به العبوس، وكذا النفخ في الصور تمثيل وتصوير.

وهذا الحمل منهم وهذا التأويل كثير جداً وهم أيضًا لا يقصرونه كما علمنا على الأخبار في المستقبل بل عموا به الأخبار القرآنية في الماضي أيضًا وهي القصص القرآنية وقد سبق لنا الحديث عن ذلك. هذا ولا شك منهج ضال»[٢] .

*** وفي القضاء والقدر:**

أدى بهم تحكيم العقل والعقل وحده إلى رأي مختلف في تلكم العقيدة اختار بعضهم مذهب الجبرية واختار الآخرون مذهب الاختيار وهم هنا وهناك يزعمون أنهم يستندون إلى الأدلة العقلية.

ثم ومع هذا تلتبس عليهم الأمور وتختلط عليهم الحقائق فيضطربون في معرفة السبيل الحق ويعلنون حيرتهم بل ويقر أحدهم بما هو أشنع وهو تظاهره بالمعرفة أمام من يسميهم البسطاء حتى ينفي عن نفسه صفة الجهل مع إقراره بجهله حل هذه المسألة وزعمه أن كل حل لها قابل للنقد والرد؟!

بل وعجز أستاذ المدرسة عن التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة

---

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(٥٢ ـ ٥٣).

(٢) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٥٣٠ ـ ٥٣١).

علم اللَّه وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، وزعم أن هذا طلب لسر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه. وأنه اشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه. وكأن كل ما عجزت عن الوصول إليه تلك العقول فلا يصح الاعتقاد به والإيمان والتسليم، وإن وردت به الآيات الكريمة من القرآن.

أرأيتم أي ضلال يوصل إليه تحكيم العقل والإعراض عن النقل ذلكم ما نذكره هنا. ومذهب أهل السنة والجماعة هو الأسلم والأعلم والأحكم في عقيدة القضاء والقدر.

*** المعجزات:**

المعجزات ولا شك حجة للرسل لا ينكر حجيتها إلا مغالط خاضع للهوى أو للجهل.

والمعجزات عند المدرسة العقلية الحديثة مثار شبهات أو تأويلات في روايتها أو في صحتها أو في دلالتها.

ويرى محمد عبده أن الأديان السابقة لم تكن أدلتها تقوم على حجج عقلية بل تقوم على العداء للعقل نتائجه ومقدماته، وتقوم على الإدهاش بالمعجزات والإلهاء بالخيالات.

ومعجزات الأنبياء قبل بعثة نبينا ﷺ لا يحيل وقوعها رجال المدرسة العقلية بل هي عندهم «جائزة عقلاً» أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما فلا مانع من وقوعها بقدرة اللَّه تعالى في يد نبي من الأنبياء ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها»[1]، ولكنهم يخصون هذا بفترة ما قبل رسالة محمد ﷺ أما في عصره عليه الصلاة والسلام «فانتهى بذلك زمن

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

المعجزات ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان.

◘ ويرى الشيخ محمد عبده أن المعجزات إنما هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان ولا يضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات فمجرد روايته لها لا ينفي عنه أنه دين العقل ما دام لم يرد فيه شيء منها. يقول الشيخ عبده: «فإيماننا بما أيد اللَّه تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان من أن سننه تعالى في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل»(١).

إلى هذا ذهب رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر معجزات الأنبياء السابقين أثبتوا وقوعها وأنكروا حجيتها وتأثيرها عند أهل العقول الراقية؟!

* **معجزات محمد ﷺ:**

ولهم في أمر معجزاته ﷺ رأي آخر هو غير ذاك بل هو أشد منه خطرًا ذلكم أنهم أنكروا معجزاته عليه الصلاة والسلام كلها سوى معجزة القرآن الكريم وجردوا نبوته من أي معجزة أخرى وسلكوا في ذلك سبلاً. إما بإنكار صحتها وإما بتفسيرها بأمر لا تكون به معجزة وأقربهم إلى الحق على بعده عنه من أثبت بعضها، ولكن أنكر أن يكون ورودها لإقامة الحجة على نبوته ﷺ بل هي رحمة من اللَّه تعالى وعناية به ﷺ وبأصحابه في الشدائد.

◘ يقول الشيخ محمد عبده: «نبي صدّق الأنبياء ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر، ولكن

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣١٥).

طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة»[١] ، ويقول: «ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية النوعية بل أرشده اللَّه تعالى بالوحي»[٢] ، وقال أيضًا: «فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان باللَّه ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية»[٣] .

وتجريدهم نبوة محمد ﷺ من المعجزات أدى بهم إلى أن عدّوا الإقرار بعبقريته كسبًا عظيمًا للقائلين بنبوته، وهم يحسبون العبقرية إذا كانت من طراز خاص هي النبوة أو قريب منها، يؤيد هذا الوصف ذلكم التعريف الذي جاء به شيخهم للنبوة وهو يريد أن يأتي بكل ما هو جديد لأنه «سئم من الاستمرار على ما يألفون واندفع إلى طلب شيء مما لا يعرفون»[٤] ، فكان مما جاء به مما لا يعرفون ذلكم التعريف للنبوة الذي أورده في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية حيث يقول: «قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق، علمًا وعملاً، بحيث لا يعلم إلا حقًّا، ولا يعمل إلا حقًّا، على مقتضى الحكمة، وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحتاج فيه إلى

(١) «رسالة التوحيد» لمحمد عبده ص(١٤٣).
(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٣١٥).
(٣) «الإسلام والنصرانية» لمحمد عبده ص(٦٨).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ١١).

الفكر والنظر، ولكن التعليم الإلهي، فإن فطر أيضًا على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضًا وإلا فهو نبي فقط، وليس برسول[١] ثم يصنف تعريفه هذا بالدّقة ويوصي بالتفكر فيه «فتفكر فيه فإنه دقيق».

ذلكم هو التعريف «الجديد» الذي جاء به شيخ المدرسة، وكان أولئك التلاميذ الذين عملوا بمبادئ شيخهم يعدون إثبات عبقرية محمد كسبًا عظيمًا للقائلين بنبوته، وما ذلكم إلا بعد أن جردوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من المعجزات ورأوها بعد تجريدها لا تعدو العبقرية فقالوا بها ودعوا إليها وألزموا أنفسهم بأنفسهم.

فلا عجب إذن أن يرد الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية هذا التعريف للنبوة والرسالة من الشيخ عبده ويرفضه بقوله: «وأنا أقول ليس في تعريف الشيخ شيء من خصائص النبوة والرسالة لا وحي ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة، وعليه فمن أين يعرف كونه «لا يعلم إلا حقًّا ولا يعمل إلا حقًّا» من أين يعرفه هو نفسه؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه إذا دعاهم؟ نعم في تعريف الشيخ «ولكن التعليم الإلهي» لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضًا على الفطرة، ثم يرد عليه السؤال المذكور: من أين يعرف أنه تعليم إلهي؟»[٢] .

ثم يذكر الشيخ مصطفى صبري أن القصد من قيد «التعليم الإلهي» ذر شيء من الرماد في بعض الأعين أو دس في الكلام لا من نوع دس السم في الدسم بل من نوع دس الدسم في السم[٢] .

ذلكم التعريف ونحوه من أقوال الشيخ محمد عبده كانت منهجًا

---

(١) «الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين» تحقيق سليمان دنيا (١/ ٣ ـ ٤).

(٢) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

لتلاميذه من بعده في إنكار المعجزات بإنكار حجيتها ونفيها عن الدين الإسلامي وكأنها عيب أو نقص يجب تطهير الإسلام منه.

وقصروا معجـزات نبينـا محمد ﷺ على معجزة القرآن الكريم ووصفوها بأنها معجـزة عقـليـة وكأنهم بهـذا القصـر يريـدون إنقاذ حياته عليه الصـلاة والسـلام من شائبة المعجزات الكونيـة المخـالفة للعـلم وسنن الكون.

ولأجل هذا الهدف تجرأوا على ما ورد من الروايات الصحيحة في السنة لبعض المعجزات فأبطلوها وتجرأوا على رواتها فقدحوا فيهم وجرحوهم ولم يفرقوا أو أكثرهم بين صحابي أو تابعي أو سواهم.

□ بقي هنا أمر يرد عليهم في إبطال ما ورد من المعجزات لنبينا ﷺ وقصر معجزاته على معجزة القرآن الكريم يرد هذا الإشكال عند تفريقهم بين المعجزات والقرآن ويورده الشيخ مصطفى صبري «ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن إرضاءً لمفكري المعجزات والخوارق من المستشرقين وتفضيلاً لموافقتهم في عقلية الإنكار على تجشم معارضتهم. إن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ وقد يطمع منهم أن يغدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه البشر أما أنه كلام اللّٰه أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق. وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالي مؤلف «حياة محمد» ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضًا مخالفة لسنة الكون مخالفة للعلم، مخالفة لمقتضى العقل فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالإسلام أن يقبلوا القرآن على أنه من المعجزات الخارقة أعني أنه كلام اللّٰه لا كلام سيدنا محمد؟ فالواجب إذن أن

يداوي أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها»[١] .

* إحياء الموتى :

* قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٣].

ولقد حملت المدرسة العقلية الحديثة هذه القصة على أنها تمثيل لا حقيقة بل إن الشيخ ـ عبده ـ وتلميذه ـ رشيد حملا القصة على أنها نوع من التشريع الذي كان موجودًا في زمن بني إسرائيل لأجل الوصول إلى معرفة القاتل المجهول في هذه الحادثة وأمثالها لا على أنها وردت في حادث معين ظهرت فيه معجزة لموسى عليه السلام وهم يستندون في زعمهم هذا إلى ما ورد في التوراة قال الشيخ محمد عبده: «يقول أهل الشبهات في القرآن أن بني إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول: إن القرآن جاء بها من عند اللَّه الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين أنهم نسوا حظًّا مما ذكروا به وإنهم لم يؤتوا إلا نصيبًا من الكتاب على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون: إن أيدينا لم تسفك هذا الدم اغفر لشعبك إسرائيل ويتلون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم

---

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١١١/٤).

يفعل يتبين أنه القاتل، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظهره اللَّه تعالى»[١].

وشد أزره بهذا الرأي السيد محمد رشيد رضا بقوله: «وأقول: إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه»[٢]، ثم ساق النص وهو قريب مما ذكره شيخه، ثم قال بعد هذا: «والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية»[٣].

□ ومن هذا ترى كيف حملوا القصة على أنها حكم شرعي عندهم لا على أنها أمر طارئ أظهر اللَّه به معجزة هي إحياء الميت على يد موسى عليه السلام أمام قومه ليعتبروا بها ولتكون حجة لإثبات المعاد وليريهم اللَّه كيف يحيي الموتى.

□ وإنا لفي حيرة من ذلكم الشيخ وتلميذه اللذين امتلأت كتبهما تشدقا بالتحذير من الإسرائيليات وذمهما وتجريحهما لكعب الأحبار ووهب بن منبه لرواية الإسرائيليات إلا أن الشيخين الفاضلين هنا لا يجدان غضاضة أن يصرفا آيات القرآن الكريم عن ظاهرها ليس استنادًا إلى آيات أخرى ولا إلى سنة نبوية ولا إلى حكم عقلي صحيح يوجب هذا وإنما استنادًا إلى ما جاء

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٣٤٧).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

(٣) المرجع السابق (١/ ٣٥١).

في التوراة واعتباره ثابتًا صحيحًا معتمدًا يجوز صرف القرآن عن ظاهره وتأويله على مقتضاه، وتقربًا إلى أولئك الإفرنج الذين أنكروا وجود هذه القصة في التوراة، فألزم هذان الشيخان نفسيهما بصرف الآيات عن ظاهرها إلى معنى توافق فيه ما جاء في التوراة حتى يرضى عنهم أولئك الإفرنج.

وهم حين يفعلون هذا بالقصة فإنما يفعلونه ليتسنى لهم إبطال معجزة موسى عليه السلام وتأويل إحياء الموتى الوارد في الآيات على المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي قال السيد رشيد رضا: «ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الأحكام وهذا الإحياء على حدّ قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾، وقوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين. ثم قال: ﴿**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**﴾ بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات فهو كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾ وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات اللَّه في خلقه الدالة على صدق رسله وليس عندي شيء عن شيخنا في تفسير هذه الجملة، ولكنه قال في تعليلها ما يرجح القول الأول وهو ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أي تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت، بل يجب أن تتلقوا أمر اللَّه في كل وقت بالقبول من غير تعنت»[1].

ويرجع الدكتور رمزي نعناعه هذا السلوك من السيد رشيد إلى المبالغة في تحكيم العقل ثم يكشف ما يؤدي إليه هذا القول من إلحاد فيقول: «ونقول أخيرًا للسيد رشيد إن مبالغته في تحكيم العقل جعله يستبعد حصول مثل هذه المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام، فمن ثم أول الآية لصالح التوراة! ولا

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٥١).

أدري كيف خفي عليه ـ وهو المدافع عن الإسلام ـ أنه يوجد في هذا الزمن نوع من الإلحاد الخفي المآل، وهو تأويل كل آية أو حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل، حتى يكون مفادها أمرًا غير خارق للعادة وهذا النوع أخطر أنواع الإلحاد؛ لأنه سبيل إلى إنكار الأديان السماوية، وإلى هدمها من أساس؛ لأن أساس إثباتها المعجزات التي أجراها اللَّه على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام»[1].

ذلكم تأويل الشيخ عبده والسيد رشيد لهذه المعجزة.

تقربًا إلى أولئك الإفرنج المستشرقين ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

*** من معجزات عيسى عليه السلام:**

* قال اللَّه سبحانه وتعالى مثبتًا معجزة لعيسى عليه السلام أظهرها سبحانه على يديه: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

* وقال سبحانه مثبتًا وقوع هذه المعجزة منه عليه السلام بعد إمكانها: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي**﴾ [المائدة: ١١٠] الآية.

فثبت بنص القرآن الكريم وقوع هذه المعجزة لعيسى عليه السلام

---

(١) «الإسرائيليات» لرمزي نعناعة ص(٣٦٦).

وحصولها منه، ويرى الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد في تفسير آية آل عمران أن هذا يدل على إمكان وقوعها لعيسى عليه السلام ولا يدل على وقوعها من غير رجوع إلى آية المائدة وهما ـ أيضًا ـ لا يستندان في نفيهما الوقوع إلى نص من الكتاب أو السنة، وإنما إلى عدم تناقل النصارى لهذا (!!) خاصة في الأناجيل القانونية عندهم أما الأناجيل غير القانونية التي ورد فيها الإخبار بمجيء محمد ﷺ وكون عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن اللّه فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن اللّه ونحو ذلك فلا قيمة لهذه الأناجيل!! وإنما المستند إلى تلك التي لم يرد فيها شيء من ذلك.

❑ ولندع الشيخ عبده يوضح لنا ذلك حيث يقول في تفسير آية آل عمران: «وغاية ما يفهم منها أن اللّه تعالى جعل فيه هذا السر، ولكن لم يقل أنه خلق بالفعل ولم يرد عن المعصوم أن شيئًا من ذلك وقع»[1] ، ثم يقول: «فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به والحكمة في إخبار النبي ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك»[1] .

❑ ويوضح لنا تلميذه النقل الذي يحتج به في مثل ذلك فيقول: «هذا ما قاله الأستاذ الإمام ومن الغريب أن ابن جرير يروي عن ابن إسحاق «أن عيسى صلوات اللّه عليه جلس يومًا مع غلمان من الكتاب فأخذ طينًا ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائرًا، قالوا: وتستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربي ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال كن طائرًا بإذن اللّه فخرج يطير بين كفيه»، فكأنه اتخذ آية اللّه على رسالته ألعوبةً للصبيان

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٢١١).

والحاصل أنه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية إلا ما في إنجيل الصبا أو الطفولة من نحو ما قال ابن إسحاق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم، ولعل آية سورة المائدة أدنى إلى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ..**﴾ الآية. فإنه جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه إلا أن يقال إن جعل هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه والحاجة إلى تحديه به من أجلّ النعم وأعظمها، ولكن هذا خلاف الظاهر»(١).

❑ ذلكم ما ذهبا إليه في تأويل تلك المعجزة لعيسى عليه السلام وقبلها معجزة موسى عليه السلام ولنكتف بهذا من معجزات الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام، ولنذكر موقفهم من معجزة لنبينا ﷺ غير القرآن الكريم التي لا يثبتون سواها.

* انشقاق القمر:

* قال اللَّه تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١].

● وروى البخاري ومسلم والترمذي عن عبداللَّه بن مسعود ﷺ قال: انشق القمر على عهد رسول اللَّه ﷺ بشقتين فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اشهدوا**»، وفي أخرى: ونحن معه فقال: «**اشهدوا اشهدوا**»، وفي أخرى قال: «بينما نحن مع رسول اللَّه ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول اللَّه ﷺ: «**اشهدوا**» أخرجه البخاري ومسلم.

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢١١ ـ ٢١٢).

وللبخاري قال: وقال مسروق عن عبداللَّه «بمكة» وأخرج الترمذي مثله[١].

● وعن عبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال: «إن القمر انشق في زمن رسول اللَّه ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم[٢].

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول اللَّه ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر»[٣].

● وعن عبداللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: «انشق القمر على عهد رسول اللَّه ﷺ فصار فرقتين فقالت قريش: سحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم. أخرجه الترمذي[٤] وزاد رزين: «فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم».

بتلك الآية الكريمة وبتلك الأحاديث الشريفة وغيرها ثبتت معجزة انشقاق القمر آية لنبينا ﷺ وكان ذلك في مكة قبل الهجرة بهذا قال السلف وسنذكر قولهم بعد قول منكري هذه المعجزة ليكون بمثابة الرد عليهم.

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ باب انشقاق القمر، وفي كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا».
رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة اقتربت الساعة وفي الأنبياء باب سؤال أن يريهم النبي ﷺ آية وفي باب انشقاق القمر، ورواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر.

(٣) رواه البخاري في نفس المواضع السابقة، وكذا مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر.

(٤) رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في التفسير باب ومن سورة القمر.

□ وسار السيد رشيد في هذه المعجزة على نهج المدرسة العقلية من تأويل للمعجزات وإنكار لأي معجزة لنبينا ﷺ سوى معجزة القرآن وذهب السيد رشيد في إنكار معجزة انشقاق القمر مذهب مدرسته في ذلك، من التشكيك أولاً في تواتر أحاديثها، ورد ما ورد منها في صحيح البخاري ومسلم ثم بعد هذا أورد الشبهات العقلية والعلمية على تلك المعجزة!!!»[1].

*** قولهم في الملائكة:**

نحن نعلم جيدًا عقيدة السلف في الملائكة وما ورد في ذلك من أحاديث، ولكن تعال إلى المدرسة العقلية الحديثة التي أتت بالغرائب في الاعتقاد والتفسير والفقه وشذت كل الشذوذ عن منهج أهل السنة والجماعة بل صارت قاب قوسين أو أدنى من فكر المعتزلة بل والله أضرّ.

ويثبت الشيخ محمد عبده في تفسيره قولين للعلماء في الملائكة قال عن الأول منهما: «أما الملائكة فيقول السلف فيهم: أنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم فيجب علينا الإيمان بهم، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم فنفوض علمها إلى الله تعالى، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار، فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالمًا آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به».

□ ثم قال معلقًا: «وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن من وقفهم الله تعالى على هذا السر قليلون والدين إنما شرع للناس

---

(١) «منهج المدرسة العقلية» ص(٥٧٩ ـ ٥٨٠).

كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق، ومن خصه اللَّه تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء»[1] .

◻ أما الرأي الثاني في الملائكة فإن الشيخ محمد عبده يرويه ناقلاً أول الأمر، ولكنه يؤيده ويحبذه ويدافع عنه؛ لأن فيه تقريبًا للإيمان بالملائكة من عقول الماديين، ثم يزعم أنه لا فرق بين هذا القول وقول السلف؟! فالحقيقة واحدة، وإنما الخلاف في الأسماء، والعاقل لا تحجبه الأسماء عن المسميات قال عن هذا الرأي: «وذهب بعض المفسرين مذهبًا آخرًا في فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه اللَّه في البذرة فكانت هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والإنسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكًا، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرًا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره وإن انكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكًا وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسًا طبيعيًا؛ لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات»[2] ، ونقل الشيخ أحمد

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٥٤).

(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

مصطفى المراغي هذا الكلام مؤيدًا له[١] .

ثم لا يستبعد الشيخ عبده أن تكون الملائكة هي تلك النوازع التي نحس بها عندما نتردد بين فعل شيء أو تركه: «يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر بأن في نفسه تنازعًا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى، فهذا يورد وذاك يدفع، واحد يقول: افعل وآخر يقول: لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا، ونسميه قوة وفكرًا ـ وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها ـ لا يبعد أن يسميه اللَّه تعالى ملكًا (أو يسمي أسبابه ملائكة) أو ما شاء من الأسماء فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع»[٢] .

* ثم يطبق الشيخ محمد عبده هذا المفهوم على قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٣٤]، فيقول: «فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن اللَّه تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصًا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدًا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حدّ له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة اللَّه في

(١) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (١/ ٨٦ ـ ٨٧).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٦٨).

الأرض؛ لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي تعارض في اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعداً للوصول إليها»[١] .

وبين السيد رشيد غرض أستاذه وشيخه من هذا التأويل بقوله: «إن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذي عبر عنه بالإيماء وبالإشارة إقناع منكري الملائكة بوجودهم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم، وقد اهتدى به كثيرون، وضل به آخرون فأنكروا عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لا تعقل»[٢] .

وردّ الشيخ عبده على أولئك المنكرين عليه تأويله بقوله: «ولست أحيط علمًا بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين في الدين إذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى والمخدجون من جيد الأطعمة التي لا تضرهم، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام، ويزيد الأسقام، لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة، أليس الروح في الآدمي مثلاً هذا الذي يظهر لنا في إفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والإرادة والعمل، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له، فإذا سمي الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحًا، فهل يضر ذلك بالدين أو ينقص معتقده شيئًا من اليقين؟»، ثم قال: «.. لو أن مسكينًا من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لسانًا أخذ بما قيل له أن

(١) المصدر السابق (١/ ٢٦٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٧٠).

الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نوارنية الأجسام، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصًا ممتازًا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كزجاجة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع في حيرة ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكًّا؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه، لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه وكلف نفسه علم ما لا تعلمه فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيمانًا صحيحًا وأطمأنت بإيمانه نفسه، وأذعن له قلبه ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله كما هو شأن صاحب الإيمان الصحيح، فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة»، ثم قال: «. . هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا وقد خفيت حقائقها عنا، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت وتقل بل تضمحل إذا حجبت وهي التي يدور عليها كمال الوجود، وبها ينشأ الناشئ، وبها ينتهي إلى غايته الكامل كما لا يخفى على نبيه ولا خامل، أليست أشعة من ضياء الحق؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا تدرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا؟ ألا تراها توافي بأسرارها من ينظر في آثارها ويوفيها حق النظر في نظامها؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شئونها، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها؟»[1].

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢).

ثم يبسط الشيخ عبده معتقده في الملائكة فيقول: «.. أفلا تزعم أن للَّه ملائكة في الأرض وملائكة في السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟ هل ترى أجسامهم النوارنية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك، وأن اللَّه ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئًا من وراء حجاب ووقعت على سر من أسرار الكتاب؟ فإن لم تجد في نفسك استعدادًا لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في إدراك الحقيقة ويقول: (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته، وهم في إيمانهم أعلى منك كعبًا، وأرضى منك بربهم نفسًا، ألا إن مؤمنًا لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذي يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة، ومن فضل ربه في سعة»[٢].

□ إن ما ذكرته المدرسة العقلية يخالف القرآن ويشكك في معتقد أولئك الأبرار الذين استمدوا عقيدتهم من القرآن الكريم فاعتقدوا أن الملائكة قابلة للتشكل والظهور بمظهر البشر كما أسلفنا حيث يقول: «وهل النور وحده له قوام يكون به شخصًا ممتازًا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٧٣).

(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٧١).

كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع في حيرة، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكًّا؟»[(١)] .

* ويشكك في موضع آخر من غير تصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، ونحو ذلك من الآيات فيقول: «أفلا تزعم أن للَّه ملائكة في الأرض وملائكة في السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك وأن اللَّه ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها. أفلا يكون لك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئًا من وراء حجاب ووقفت على سرّ من أسرار الكتاب»[(٢)] .

ماذا يريد الشيخ عبده بهذا التأويل وهذا المفهوم؟ هل يريد أن يؤكد لنا مرة أخرى تكذيبه للقرآن الكريم كما كذب قصصه بحملها على التمثيل لا على الحقيقة والوقع؟! ماذا يريد بزعمه هذا؟ هل يريد أن يقول إن القرآن لم يخبرنا عن الحقيقة في أمر الملائكة بل أخبرنا بألفاظ كانت مألوفة ومعروفة

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٧١).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٧٣).

حتى لا تصيبنا «الوحشة والدهشة» إذا ما أخبرنا بحقيقتهم، وأن القرآن ترك لنا النظر في الوصول إلى «ما تطمئن إليه نفوسنا» حتى ولو وصلت إلى ما يخالف القرآن؟!

ذلكم ما يدل عليه كلامه شاء ذلك أم أبى وأحسبه لا يأبى ذلك لأنه بادر إلى تطبيق معتقده وحمل أمر سجود الملائكة لآدم عليهم السلام على التمثيل كما نقلنا عنه ذلك.

وما أصدق محمد الصادق عرجون في وصف مذهب الشيخ عبده وتلاميذه بقوله: «إن هذا الطريق في تفسير آيات القرآن الحكيم بتسليط التأويل على كل ما يتعاصى فهمه على بعض العقول وإحالة أو استبعاد ظاهر المعنى إلى ضرب من التمثيل، هو الذي يخشى أن ينفذ منه (المتقرمطون) إلى تحريف كلم اللَّه عن مواضعها ابتغاء فتنة الجماهير من عامة المؤمنين.. إن هذا القرآن العظيم أنزله اللَّه تعالى بلسان عربي مبين هدى للناس ورحمة، ولم ينزله بالإشارات والرموز والإيحاءات..»[1].

ثم ما الفرق بين من ينكر وجود الملائكة وبين من يزعم أنها قوى طبيعية ما دام منكر الملائكة يقر ويعترف بوجود قوة نمو في النبات وخلق في الحيوان وحفظ في الإنسان ولكنها قوى طبيعية لا ينطبق عليها ما ورد في القرآن الكريم من أوصاف للملائكة؟!

إن الأمر لا يعدو إلا محاولة يائسة من أولئك المنهزمين أمام الماديين لتقريب عقيدة الإيمان بالملائكة إلى أذهانهم ولكنها محاولة أخرجتهم من عقيدة السلف العقيدة الصحيحة في الإيمان بالملائكة إلى عقيدة باطلة وغير

(١) «نحو منهج لتفسير القرآن» لمحمد الصادق عرجون ص(٣٩ - ٤٠)، وانظر «منهج المدرسة العقلية في التفسير» (٦٢١ - ٦٣).

مقنعة أيضًا لأولئك الماديين، فضاع المنهزمون بين العقيدتين كالعنز الجرباء في الشمأل البليل. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* **قولهم في الجن:**

مجمل اعتقاد السلف في الجن لا يصفونهم بأكثر مما وصفهم به القرآن الكريم والسنة المطهرة لأنهم من أمور الغيب الذي لا يمكن إدراكه إلا بالوحي يذهب الشيخ محمد رشيد رضا أن الميكروبات والجراثيم نوع من الجن:

يقول: «وقد قلنا في المنار غير مرة أنه يصح أن يقال إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعًا من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض، قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن، على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الآحادية فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم»(١).

وفتح الباب للتأويل وصرف القرآن عن ظاهره باب لو فُتح لولج منه القرامطة والمتقرمطون بل أعداء الدين بشتى أنواعهم مبطلين لعقائده.

❑ ونوع آخر نرفضه من تأويلاتهم الباطلة في أمر الجن ونعني به ما زعموه في أمر رؤيتهم وحمله ما ورد من رؤيتهم على التخييل والوهم كما قال الشيخ رضا في «تفسير المنار» (٧/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).

وعلى كل حال فالذي نفهمه من الآية: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾ أنها لا تنفي إمكان رؤيتهم ولكنها تثبت رؤيتهم لنا من حيث لا

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٩٦).

نراهم وقدرتهم على التشكل بهذه الحالة غير المرئية لنا ونضرب لذلك مثلاً بمن يجلس في ظلام دامس وينظر إلى من يجلس في النور أو من يجلس في سيارة ذات زجاج ملون فإن الجالس في الحالتين يرى من في الخارج من حيث لا يرونه ولا يفهم من هذا عدم إمكان رؤيته في حالات أخرى.

● أما نفي ابن عباس رضي الله عنه لرؤيته ﷺ لهم حين استمعوا القرآن منه - إن صح - عن ابن عباس فإنه محمول على عدم رؤيته ﷺ لهم في تلك المرة ولا يمنع رؤيته لهم بعد ذلك، كما رآهم ابن مسعود رضي الله عنه بعد ذلك وهو يخبر عن مشاهدة.

أما قول الشافعي - رحمه اللّه تعالى - فيحمل على من يدعي رؤيتهم بصورتهم التي خلقهم اللّه عليها دون الصور التي يتمثلون بها أو على من يدعي إمكان رؤيتهم في كل حال وهو تكذيب للقرآن.

ويبقى بعد هذا كله في ترجيح إمكان رؤيتهم حديث أبي أيوب وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه البخاري في صحيحه وإن زعم السيد رشيد عدم صحتهما.

والحق أنه كان من الأولى عدم الخوض فيما لم يكن مصدره الوحي الصادق - عن أحوالهم - وتفويض علم ذلك إلى اللّه سبحانه وتعالى فهو المنهج الأسلم والأعلم والأحكم[1].

* شذوذ الشيخ محمد عبده وشطحه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾:

لقد شذ في تفسير الآيتين الشيخ محمد عبده وتبعه محمد فريد وجدي

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» (٦٤٦، ٦٤٧).

وأحمد مصطفى المراغي قال الشيخ محمد عبده:

«الطير هو ما يطير في الهواء سواء كان صغيراً أو كبيراً، وسواء كان مرئيًا لك أم غير مرئي»، وبعد هذا التمهيد زعم أن مما تواتر في الواقعة فشو داء الجدري والحصبة في جند الجيش[1] ثم استدل لذلك فقال: «.. قال عكرمة وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط. فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين وأصيب الجيش ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء. وهذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به»[1] .

ولا ندري ما مفهوم التواتر عند الشيخ محمد عبده ينكر تواتر ما عرف عند السلف تواتره ويصف بالتواتر ما لم يعرف بذلك.

يزعم هنا أن وقوع الجدري والحصبة في جيش أبرهة قد تواتر وأنه مما اتفقت الروايات عليه ويستند في ذلك إلى قول عكرمة «وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب»، وقول يعقوب بن عتبة «أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام»، هذا كل ما استند إليه للحكم بالتواتر.

أما قول يعقوب فليس فيه ما يدل على وقوع الحصبة أو الجدري في جيش أبرهة وكل ما فيه أن ظهور الجدري لأول مرة كان في هذا العام فلا يصح الاحتجاج به لذلك.

وأما قول عكرمة فنقول: إنه روي عن عكرمة ما هو أصرح من ذلك في الدلالة على وقوع مرض الجدري في جيش أبرهة فقد روي عن عكرمة

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(١٥٥ ـ ١٥٦).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أرسل اللّه الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري»(١).

وهذا كله مجرد رواية فأين هي من دعوى التواتر.

أما زعم الشيخ أن ما قاله هو ما اتفقت عليه الروايات فهو غريب في باب العلم وعجيب في تفسير القرآن وليس بغريب ولا بعجيب من الشيخ محمد عبده وتلاميذه.

□ وقال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسير السورة: «أي أنه تعالى أرسل عليهم فرقًا من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش فابتلوا بمرض الجدري أو الحصبة حتى هلكوا»، ثم قال: «ولا شك أن الذباب يحمل كثيرًا من جراثيم الأمراض فوقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجم الغفير من الناس، فإذا أراد اللّه أن يهلك جيشًا كثير العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدًا عن مجرى الإلف والعادة، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة اللّه وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام القهر الإلهي وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة وتقض مضجعه بعوضة، ويؤذيه هبوب الريح»(٢).

ومن هذا ندرك أن الشيخ أول الطير والحجارة في السورة بـ «الذباب يحمل كثيرًا من جراثيم الأمراض، فالمراد بالطير والمراد بالحجارة تلك الجراثيم التي يحملها الذباب».

□ قال الشيخ محمد عبده: «فيجوز ذلك أن تعتقد أن هذا الطير من

---

(١) «المصحف المفسر» لمحمد فريد وجدي ص(٨٢٢).

(٢) «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٤٣).

جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وأن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود اللَّه في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها ـ ولا يتوقف ظهور أثر قدرة اللَّه تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رءوس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها»[١] .

ولا يُقبل أبدًا في تأويل الآيات بأن المراد بها البعوض والذباب والميكروبات قال الشيخ الذهبي: «لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب وخاطبهم بما يألفون»[٢] .

بل إن الآية صرحت بإرسال الطير «وأرسل عليهم طيرًا أبابيل» وبين المخاطبين كثير ممن عاصر الحادث بل ممن شاهده وفيهم كثير من أعداء الرسول ﷺ فالسورة مكية ولو أنهم لم يروا هذا الطير الأبابيل رأي العين لبادروا إلى تكذيب القرآن وإنكارهم لرمي الطير لجيش أبرهة ولا يقبل أن يقال: إنهم رأو المكروب أو الجراثيم؛ لأنهم لا يستطيعون رؤيتها، ولا يقال: إنهم رأوا الذباب أو البعوض؛ لأنهم لا يرون الحجارة التي تحملها فكان لا بد أن

---

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(١٥٦).

(٢) «التفسير والمفسرون» للذهبي (٣/ ٢٣٥).

يكونوا رأوا طيرًا ورأوا الحجارة التي تحملها ورأوا الرمي ولا يهم بعد ذلك أن يكون هلاك الجيش بمجرد وقوع الحجر أو أن تكون هذه الحجارة قد أصابته بمرض من الأمراض فالقرآن لم يصرح بذلك بل ذكر هلاكهم بهذا العقاب الشديد.

أما ما زعموه من أن تأويل الطير بالجراثيم والذباب والبعوض وتأويل الحجارة بما يعلق في أرجل هذه المخلوقات من مكروبات أو مواد سامة هو أقوى في الدلالة على قدرة اللّه وعظيم سلطانه فرد عليه سيد قطب ـ رحمه اللّه تعالى ـ حيث قال: «لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة اللّه ولا أولى بتفسير الحادث فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة على قدرة اللّه وتدبيره ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم، وهي التي جرت فأهلكت قومًا أراد اللّه إهلاكهم أو أن تكون سنة اللّه قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم، فحققت قدرة ذلك»، ثم قال: فأما في هذا الحادث بالذات فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة وأن اللّه أرسل طيرًا أبابيل غير معهودة. . نحن أميل إلى هذا الاعتبار لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب»[1] ، ثم قال: «ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو ـ يعني بالحصبة والجدري ـ وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل، وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث.

إننا نـــدرك ونقدر دوافع المدرســة العقليــة التي كان الأسـتاذ الإمام ـ

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب (١٠/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

رحمه اللَّه ـ على رأسها في تلك الحقبة. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية.. فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها. فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل»، ثم قال: «ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة. من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة اللَّه فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع في تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبدالقادر المغربي ـ رحمهم اللَّه جميعًا ـ شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد كثير من الخوارق إلى مألوف سنة اللَّه دون الخارق منها، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه «المعقول» وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات.

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه. فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل. وهو طلاقة مشيئة اللَّه وقدرته من وراء السنن التي اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف ـ هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه ـ كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام المدرسة[(١)] فتبين

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب (٣٠/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

بهذا كله خطأ رجال المدرسة العقلية الحديثة في تفسير هذه الآية وتجاوزهم للحدود التي شرعها اللَّه سبحانه وتعالى لتحكيم العقل وتعديهم على القرآن الكريم بتفسيرهم لآياته تفسيرًا لا يعتمد على قواعد التفسير وأصوله فعلوا كل هذا لمواجهة المفتونين بالعلم الحديث وما توصل إليه من مقررات ولكن هذا لا يعني من قريب أو بعيد أن نصرف ظاهر آيات القرآن الكريم عن حقيقتها مع عدم مصادمتها لشيء من مقررات العلم الثابتة وفعلوا ذلك تقريبًا لوقوع الحادثة إلى عقول من ينكرون الخوارق ولا يؤمنون بها لعلهم يصدقون إذا كانت جارية على ما هو مألوف ومقرر في العلم الحديث.

ونسوا أن فيما أقروا به خارقة لا تقل عن خارقة ذلك الطير الذي يحمل الحجارة ويلقي به على الجيش فيهلكه ذلكم أن وقوع المرض الفتاك بجيش أبرهة مع عدم تعديه وتجاوزه إلى من حوله يعد خارقة كبيرة. فهم فروا من أمر إلى مثيله[1] .

*** قول المدرسة العقلية في القصة القرآنية:**

سبق أن عرضنا قول محمد أحمد خلف اللَّه في كتابه «الفن القصصي في القرآن الكريم» وجرأته على اللَّه وكتابه فهو يصف القرآن بأنه «أساطير» كما وصفه به المشركون ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين: «في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥ ـ ٦]، فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ويثبت أنها

---

(١) «منهج المدرسة العقلية في التفسير».

من عند الله قل أنزله الذي يعلم السر.. إلخ»[١] ، ثم يقول بعد هذا: «وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام، وليس من عند الله إذا كان هذا ثابتًا فإنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصًّا من نصوص القرآن»[٢] .

وبعد هذا يبرز مخالفة القصص في القرآن للحقائق الواقعة حسب إلحاده بها بأن هذا من البلاغة في القرآن ثم يستدل بهذا على أمر خطير «وإن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية وجعلها صالحة كل الصلاحية لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة وتكون البشارة والإنذار وتكون الهداية والإرشاد ويكون الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتمكين لها حتى في نفوس المعارضة إن هذا كله لهو الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية»[٣] .

وهو يريد أن يصل بهذا إلى نتيجة أخطر «ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن؛ لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض»[٤] .

---

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف الله ص(١٧٨).
(٢) المرجع السابق ص(١٧٩ ـ ١٨٠).
(٣) المرجع السابق ص(٢٥٤).
(٤) المرجع السابق ص(٢٥٤).

ثم يقرر ما يعتقده بعد ذلك «أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحمل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين، وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما بالقصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ ـ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون»(١) .

❏ وخلاصة القول أن الطالب ينفي الصدق عن القرآن الكريم ومطابقة قصصه للحقائق التاريخية حسب زعمه، ويذكرني هذا الإلحاد والتكذيب للقرآن الكريم بتكذيب الدكتور طه حسين للقرآن الكريم حين قال في كتابه: «في الشعر الجاهلي»: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»(٢) .

❏ وما كان لنا أن ندرس هذه القضية لولا صلة ذكرت بينها وبين أستاذ المدرسة العقلية وإمامها وبعض تلاميذه.

تبدأ الحكاية حينما ينسب الطالب خلف اللَّه أسباب ذلك إلى أستاذه أمين الخولي «أما الأسباب التي جعلتني أعني بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميدان أبحاثي فترجع قبل كل شيء إلى نوع من الاستهواء عمل على إذاعته في نفسي درس أستاذنا الخولي عن المنهج الأدبي في فهم القرآن

---

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٢٥٥).

(٢) «ذيل الملل والنحل» لمحمد سيد كيلاني ص(٨٤) عن «في الشعر الجاهلي» لطه حسين ص(٢٦).

وتفسيره فقد كانت تلك اللفتات تستقر في نفسي استقرارًا يجعلني أتخيل أني أستطيع تمثل هذا المنهج والسير عليه في تفسير كتاب اللَّه»(١) .

ولا تنس ما نقلناه عن الأستاذ محمد سيد كيلاني من وصف لأمر أمين الخولي وكونه مستورًا لا يدري أحد في خارج الكلية ما يلقنه لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال.

ولكن أمين الخولي نفسه لا يحوجنا إلى شيء من هذا فهو يقر بنفسه بأن كل ما جاء في الرسالة حق حيث يقول: «فلو لم يبق في مصر والشرق أحد يقول: إنه حق لقلت وحدي وأنا أقذف في النار أنه حق حق»(٢) .

إذن فالأستاذ المشرف على الرسالة يشارك تلميذه في كل ما جاء فيها من إلحاد وتكذيب للقرآن الكريم.

فقامت الاحتجاجات ورفعت البرقيات للمسئولين، ورفضت الرسالة وطالب أولئك بتطبيق أحكام الردة على خلف اللَّه ودافع عنه أستاذه أمين الخولي ودفع إلى الميدان بورقته الرابحة عند ضعاف النفوس حيث وصف جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة إنها «ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عامًا!»(٣) .

وعلّق توفيق الحكيم على هذا بقوله: «إنني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها تلك هي قوله أن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عامًا إذا كان هذا القول صحيحًا كما يؤكد الأستاذ الخولي فلنا أن نطلب تعليلاً لما صرنا إليه وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف فإنه لا يرضيهم أن نرجع اليوم - في عهدهم -

---

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(١).

(٢) المرجع السابق: مقدمة أمين الخولي ص: ح.

(٣) المرجع السابق ص: ج.

القهقرى.. بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام»[١].

وهم حين يلقون هذا القول يعتقدون أنهم يلقونه على رجل لا تصعد إليه المسئولية بل تتلاشى قبل أن تصل إلى مقامه البعيد[٢].

□ يقول الشيخ مصطفى صبري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ عن الرسالة تلك: «وإني أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده.. كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام.. فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين»[٣].

وإني أدعو كل رجل مؤمن باللَّه تعالى أن يجعل اللَّه سبحانه نصب عينيه وأن لا يجعل للعاطفة سبيلاً عند مناقشة قضية كهذه القضية تمس كيان القرآن الكريم، وأن لا يجعل لها سبيلاً لطمس الحقائق حينما تمس من ننزله في نفوسنا منزلة سامية فلعلنا نكون قد خدعنا به والحقيقة ضالة كل مسلم.

ومنهج الناس من القصص القرآني إما منهج القابلين للروايات التي صحت عن القرون الخيرية من سلف الأمة وعليه المعتمد.

أو منهج المؤولين للقصص، أو منهج القائلين بالتخييل.

١ ـ منهج المؤولين للقصص:

«وهو صرف الكلام عن مدلوله اللغوي إلى معنى آخر دون ما يدعو

(١) المرجع السابق ص: ط.

(٢) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ٣٤٥).

(٣) المرجع السابق (١/ ٣٤٦).

إلى هذا التأويل» وصاحبه قد يحكّم فيه مجرّد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعًا لما يثيره خصوم القرآن على القرآن، ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحي، وحمل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة. . ثم يقول: «وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم صرفوه بها عن دلالته العربية وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف اللفظ عن معناه الوضعي إلى هذا المعنى الواقعي الذي يزعمه المؤول مدلولاً للكلام، والرأي في هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل الي يتلخص في أنه إذا كان التأويل لا يقضي على أصل ديني ولا يمس عقيدة ثابتة وهو في الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيراً صادقًا وكانت اللغة تسمح به فإنه يكون مقبولاً من الوجهتين الدينية واللغوية، وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض أيضًا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التليس من اللَّه تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً أما إذا كان يقضي على أصل ديني أو يمسّ عقيدة فإنه يكون مرفوضًا من الوجهة الدينية»[1].

❑ بقي أن نقول أن الشيخ شلتوت جعل تأويل الشيخ محمد عبده ورشيد رضا لقصة بقرة بني إسرائيل من هذا النوع. حيث قال: «وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي فهذا الحمل تأويل منهما لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة، وما هو المعهود من كلام العرب»[2] .

---

(١) تفسير القرآن الكريم» لمحمود شلتوت ص(٤٥ ـ ٤٦).

(٢) «تفسير القرآن» لمحمد شلتوت ص(٥٠).

* المنهج الثاني ـ منهج القائلين بالتخييل ـ:

وهو يتفق مع المنهج الأول في ناحية ويخالفه في ناحية إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما في المنهج الأول، ولكن لا إلى واقع يزعم ويدعى أنه مراد وإنما إلى تخييل ما ليس بواقع واقعًا فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون إخبارًا بما حصل وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين أو على ألسنة الطيور والحيوان للإيحاء فقط بمغزى الحكايات من الإرشاد إلى فضيلة والحث عليها أو التحذير من رذيلة والتنفير منها.. ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والادعاء فقد اقتحمت قدسيته وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وتزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار»[١] .

ولقد وردت عبارة نشدّ عليها وردت في ذم الشيخ شلتوت لهذا المنهج الباطل توقع الشيخ محمد عبده، وغيرهم في سلك هذا المنهج المذموم حيث يقول: «هذه الآراء فضلاً عما لها من تلك النتائج السيئة هي فاسدة في ذاتها؛ لأن القرآن عربي نزل بلغة العرب وقانون اللغة المتواتر يقضي بحمل الكلام على ظاهره وما تدل عليه ألفاظه من المعاني المعروفة لها عند المخاطبين ما لم يمنع من ذلك الحمل مانع»[٢] نشد على هذه العبارة؛ لأنه وصف آنفًا منهج الشيخ وتلميذه بهذا الوصف.

فهل يريد الشيخ شلتوت بهذا أن يشرك محمد عبده ورشيد رضا مع أولئك؟ هذا ما يفهم من عباراته ونصوصه المنقولة، وعلى كل حال سواء أكان يشركه أم لا يشركه فهي شهادة من تلميذ ببطلان منهج أستاذه يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

(١) «تفسير القرآن الكريم» لمحمود شلتوت ص(٤٦ ـ ٤٧).

(٢) «تفسير القرآن» لمحمود شتلتوت ص(٢٧٣ ـ ٢٧٤).

وكلمة حق يجب أن نسوقها قبل سياق نصوص محمد عبده وتلميذه رشيد ذلك أنه لم يصدر عنهما أي تصريح بأن قصص القرآن منافية للحقيقة أو وصفها بالكذب ومغايرة الواقع أقول: إنه لم يصدر نص صريح بهذا أما أن كلامهما يحتمل ذلك ويحتمل غيره فهذا أمر لا ننفيه ولندع نصوصهم تتحدث.

◻ قال الشيخ محمد عبده في تفسيره قصة آدم في الجنة التي تحدثت عنها الآيات في قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٥].

يقول الشيخ محمد عبده: «وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه: أن القرآن كثيرًا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق: ٣٠] فليس المراد أن اللَّه تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحوه قوله عز وجل بعد ذلك الاستواء إلى خلق السماء ﴿ **فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت: ١١] والمعنى في التمثيل ظاهر».

ثم قال: «وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا: أن إخبار اللَّه الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض ـ وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض؛ لأنه يعمل باختياره ويعطي استعدادًا في العلم والعمل لا حدّ لهما هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض ـ وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان

لعلم كلّ شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمارها ـ وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته ـ وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن اللّه تعالى في ذلك وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض ـ ولو لا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري.

هذا ملخص ما تقدم في سياق آيات القصة، وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم؛ فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموم[1] في ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسبيل كما قال تعالى في القصة من سورة طه ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ**﴾، ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال: كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب، وكان من قريش كذا يعني القبيلة التي أبوها قريش، وفي كلام العرب كثير من هذا.

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر اللّه تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وفسرت كلمة التوحيد وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر وفي الحديث تشبيه المؤمن

---

(١) هكذا وردت ولعلها (مسموع).

بشجرة النخل ـ ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الأمر الإلهي قسمان: أمر تكوين، وأمر تكليف، والمعنى على هذا أن اللَّه تعالى كون النوع البشري على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال فيها سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فأولها طور الطفولية وهي لا هم فيها ولا كدر وإنما هي لعب ولهو كأن الطفل دائمًا في جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار جارية الأنهار متناغية الأطيار وهذا معنى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين أي أنه تعالى خلق البشر ذكورًا وإناثًا هكذا ـ وأمرهما بالأكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر، وأن الفطرة تهدي إلى قبحه ووجوب اجتنابه وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ووسوسة الشيطان وإزلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلابس النفوس البشرية فتقوي فيها داعية الشر، أي أن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه ـ والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن حدّ الاعتدال الفطري ـ وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة ورجوعه إلى اللَّه تعالى عند الضيق والتجائه إليه في الشدة وتوبة اللَّه تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى المخرج من الضيق والتفلت من شرك البلاء بعد ذلك الاعتبار والالتجاء وذكر توبة اللَّه على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن اللَّه تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ويرده الوحي المحكم المتواتر..

وبقي طور آخر أعلى من هذه الأطوار وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الإلهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية وبيانه في قوله تعالى. ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩][1].

□ ذلكم ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده في تأويل قصة آدم في الجنة ومنه تدرك أن الإمام لم يصرح بما صرح به خلف اللَّه من أن قصص القرآن منافية للواقع مخالفة للحقيقة، وهو لا شك وافقه في حمل القصة على غير ظاهر ألفاظها إلى معنى أو معان أخرى لا يدل عليها ظاهر الكلام ومن غير مسوغ لذلك.

وهو مذهب لم يذهب إليه الشيخ محمد عبده في هذه القصة فحسب بل هو منهج سار عليه وبعض تلاميذه في معظم قصص وأخبار القرآن الكريم ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. قال السيد رشيد رضا: «ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية إذ يراد أن من شأن مثلها في وضوحه أن يكون معلومًا حتى كأنه مرئي بالعينين»[2]، ثم ذهب في تفسير الآية ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي أماتهم بإمكان العدو منهم فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٤) وانظر «تفسير المراغي» (١/ ٩٤ ـ ٩٦) فقد نقل هذا النص ووصف أستاذه بالإجادة.

(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢/ ٤٥٧).

من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار ففتك بهم وقتل أكثرهم ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه وللاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك: «ثم أحياهم»، وإنما يكون الإحياء بعد الموت والكلام في القوم لا في أفراد لهم خصوصية؛ لأن المراد بيان سنته تعالى في الأمم التي تجبن فلا تدافع العادين عليها ومعنى حياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها فكل من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم مدغمين في غمارهم لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم ذلك أن من رحمة اللَّه تعالى في البلاء يصيب الناس أن يكون تأديبًا لهم ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة أشعر اللَّه أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها»[١].

ويبين الشيخ محمد عبده رأيه في القصة في القرآن الكريم بعض بيان حين يقول: «يظن كثير من الناس الآن كما ظن كثير ممن قبلهم ـ أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة، وليس القرآن تاريخًا ولا قصصًا وإنما هو هداية وموعظة فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة

(١) المرجع السابق (٢/٤٥٧ ـ ٤٥٨) وانظر «تفسير المراغي» (٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وبيان سنن الإجتماع كما قال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧][1].

وهو يكرر مثل هذا الكلام في مواضع عديدة من التفسير فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. «إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا أن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها. وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم المتصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها»، ثم يقول: «إن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان»[2].

* وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] الآيات يقول الشيخ محمد عبده: «جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب

(١) «تفسير المنار» محمد رشيد رضا (٢/ ٤٧٠).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٣٢٧).

يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكًا ويهز النفوس للاعتبار هزًا»(١) .

❑ قال الشيخ رشيد: «قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر»(٢) .

❑ وقال الشيخ محمد عبده في موضع آخر عن التاريخ والقصة القرآنية: «ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن اللّه تعالى فيهم إنذارًا للكافرين بما جاء به محمد ﷺ وتثبيتًا لقلبه وقلوب المؤمنين به، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها وإنما يذكر موضع العبرة فيها»(٣) .

❑ وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع والموضوعات المروية في بناء الكعبة كثيرة»(٤) .

❑ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، قال الشيخ رشيد رضا: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل»(٥).

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٣) «تفسير المنار» (٢/ ٢٠٥).
(٤) «تفسير المنار» (٤/ ٧).
(٥) «تفسير المنار» (٣/ ٥٢).

▢ وقال الشيخ محمد عبده: «بيّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية»[١].

ولا ندري ما الذي يقصده الشيخ بهذا؟ هل يريد أنه إذا كانت قصصه ليست للتاريخ وإنما للهداية والاعتبار فإنها لا تلتزم حقائق التاريخ بل تشتمل على ما لم يقع وما لم يحدث؟!

وهل يريد بزعمه وزعم تلميذه أن قصص القرآن «لا تتجاوز موطن الهداية»، وأنها لم ترد إلا «للعظة والاعتبار» الورود الذي يسوغ لقائلها أن يتجاوز الحقائق ويروي ما لم يقع ولم يحصل ما دامت في حيز الهداية والعظة كما يسوغ للحكيم أن يروي حكمته ويسديها إلى الناس على ألسنة الحيوانات والطيور.

▢ هل يريد بهذا أن يرفض قوله تعالى ووصفه لقصص القرآن بأنها الحق ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

وهل يقصد الشيخ بقوله: «ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار» إباحة ردّ شيء من جزئياتها وتكذيبها وأن ذلك لا يخالف عقيدة المسلم؟!

إن كان وتلاميذه يقصدون هذا ولم يصرحوا به كما صرح به خلف الله في رسالته الملحدة فهو أمر يذكرنا بقوله تلميذه الأستاذ محمد فريد وجدي:

وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٩٩).

يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف على هذه الميثولوجيا «علم الأساطير» ووجد دينه ماثلاً فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد متيقنًا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية، وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسًا في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديًا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض»[١] .

◻ والحق أنا لا نرى كبير فرق بين قولي الشيخ محمد عبده والأستاذ خلف اللَّه فإن رأي الشيخ في قصص القرآن أنها «تمثيل وتخييل وهي للعظة والهداية» ورأي خلف اللَّه: «أنها مخالفة للواقع ومختلقة وهي للعظة والهداية».

فهما متفقان على الشطر الثاني، ومتفقان في الشطر الأول على أن ظاهر لفظها غير مراد وأنها غير واقعة عبر الأول عن ذلك بالتمثيل والتخييل وعبر الثاني عنه بالاختلاق.

ولا ينفي هذا قوله في موضع آخر: «وجملة القول أن طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة، وما كان لمحمد الأمي الناشئ في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي إليها بفكره، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ولكنها هداية اللَّه تعالى لعباده أوحاها إلى صفوته منهم ﷺ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّه﴾ فعلينا وقد ظهرت الآية ووضحت السبيل أن لا نلتفت إلى روايات الغابرين في تلك القصص ولا نعد مخالفتها للقرآن شبهة نبالي بكشفها»[٢] .

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٣٣/٨/٣٠م مقال «مذهب القرآن في المتشابهات» لمحمد فريد وجدي.
(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢/ ٤٧٢).

☐ وإني لأستعيد هنا نصوصًا ذكرتها تؤيد ما قلته. قال السيد رشيد: «ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية»[١]، ويقول: «وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع»[٢]، ويقول في إحدى القصص: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل[٣] ويقول أخيرًا: «قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر»[٤].

☐ ويقول شيخه محمد عبده: «بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين»[٥].

وإني لأدعو كل مسلم أن يجعل البحث عن الحقيقة هدفه وأن لا تعميه منزلة الرجل بين الناس عن طلبها وأن يجعل الحق ميزانًا للأقوال لا أن يجعل الرجال ميزانًا لها.

وبعد أن يؤمن بهذا فلينظر فيما سقناه من النصوص في مذهب الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه في القصة في القرآن الكريم. وما لم نذكره اختصارًا ثم ليقل رأيه بعد هذا وليرشدنا إلى الحق إن كنا قد تجاوزناه فالحقيقة ضالتنا»[٦].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٤٥٧).
(٢) المرجع السابق (٤/ ٧).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٢).
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٤٧).
(٥) المرجع السابق (١/ ٣٩٩).
(٦) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٤٤٢ ـ ٤٦٦).

* شذوذ المدرسة العقلية في كيفية خلق عيسى من مريم عليها السلام:

* قال تعالى: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

تأثر رجال المدرسة العقلية الحديثة كثيرًا بالمستشرقين الفرنسيين وغيرهم، ويظهر تأثرهم بهم أكثر ما يظهر في محاولاتهم الدائبة على تقريب الأخبار الخارقة في القرآن إلى الأذهان بصرفها إلى خضوع الأسباب لمسبباتها، وتعليلها بما يوافق العلم والعقل بزعمهم.

ومن ذلك تأويلهم لخلق عيسى عليه السلام المذكور في هذه الآية، وكان الواجب التوقف في تفصيل كيفية نشوء الحمل لأنه من الأمور الغيبية التي لا تثبت إلا بالوحي ولم ينص الوحي على كيفية ذلك، فكان المنهج السليم ومنهج السلف التوقف في كيفيته وإسناد علم ذلك إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وعلينا أن نؤمن أن مريم عليها السلام ليست بغيًّا بل اصطفاها اللَّه وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وأن اللَّه أرسل إليها ملكًا تمثل لها بشرًا أخبرها بمهمته وهي أن يهب لها غلامًا، ثم نفخ اللَّه فيها من روحه فحملت بعيسى عليه السلام.

أما محاولة تقريب حملها بعيسى عليه السلام إلى الأذهان بما تكون به هذه الواقعة أمرًا عاديًّا لا إعجاز فيه ولا في كونه آية للناس فيها باطل نرفضه. فكيف إذا كان تأويله بما هو بعيد عن الحقائق متأثر بنظريات علمية ثبت بطلانها وزيفها، ولندع السيد رشيد رضا يشرح لنا محاولتهم حيث يقول: «وأقول: اعلم أن الكافرين بآيات اللَّه ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جمودًا على العادات، وذهولاً عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات. ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شئون الكون ما لم

يكن معتادًا من قبل، فمنه ما يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ونحن معاشر المؤمنين نقول: إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات إما أن يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة، فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه، ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك، وأما أن تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب وحينئذ يجب بأن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوبًا عقليًا مطردًا وإذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئًا ما ويعده مستحيلاً؛ لأنه لا يعرف له سببًا، ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين لعدوه من خرافات الدجالين، ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد، وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك بتجاربهم، وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزًا فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول نعم. إنه خلاف الأصل وإن كونه جائزًا لا يقتضي وقوعه بالفعل، ونحن نستدل بوقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه»[1].

إلا أن تعدي السيد رشيا رضا حدود التفسير وتجاوزه لمنهج السلف يظهر في محاولته تقريب هذه الواقعة إلى السنن المعروفة في نظام الكائنات، وذلك بصرفها عن أن تكون خارقة وآية للناس إلى أن تكون غير ذلك. حيث يقول: «ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

الكائنات بوجهين:

أحدهما: أن الاعتقاد القوي الذي يستولى على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا، وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضًا، وكم من أمرئ سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقدًا أنه سم ناقع فمات مسمومًا به، والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول: إن مريم لما بشرت بأن اللَّه تعالى سيهب لها ولدًا بمحض قدرته وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين، انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاح السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ، وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متممًا لهذا التأثير.

الوجه الثاني: وهو أقرب إلى الحق وإن كان أخفى وأدق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح، وهي أن المخلوقات قسمان أجسام كثيفة وارواح لطيفة، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون فيه من النمو أو يكون النمو منه فلولا الهواء لما عاشت هذه الأحياء والهواء روح، ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك الريح وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطًا بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب إلى الثاني، والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها في الأشباح، فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحًا هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون حتى أننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد

من قدماء فلاسفتنا، ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل أجل وأعظم، فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم.

ثم قال: «إذا تمهد هذا فنقول: إن اللَّه المسخر للأرواحِ المنبثة في الكائنات قد أرسل روحًا من عنده إلى مريم فتمثل لها بشرًا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ اللَّه أعلم»[1] .

ذلكم ما قاله رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر خلق عيسى عليه السلام فهو أمر ليس فيه من خارق العادات شيء بل هو إما اعتقاد قوي استولى على قلب مريم واستحوذ على مجموع أعصابها لما بشرت بأن اللَّه تعالى سيهب لها ولدًا بمحض قدرته فانفعل مزاجها انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح؟! فلم يكن في الأمر عجبًا!! ولم يكن فيه «آية للناس»؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

وهم بهذا التأويل وإن لم يرجحوه قد فروا من طريق السلامة إلى طريق الضلال وفتحوا طريقًا سهلاً للبغايا الفاسدات وليزعمن إذا وقع منهن الحمل أنهن لم يرتكبن جريمة الزنا، وإنما وقع منهن الاعتقاد؟! وما الذي بأيدينا حتى نثبت كذبهن إذا جعلنا الاعتقاد هذا سبيلاً للحمل، وأي فضل اختصت به مريم عليها السلام بل أي أمر عجب جعله اللَّه آية للناس فليعلم بطلان هذا الزعم.

وأما أن اللَّه المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحًا من عنده إلى مريم، فتمثل لها بشرًا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ اللَّه أعلم»[١] .

◻ وهذا هو الذي ورد في القرآن ما يشير إليه، وكنا نود لو اكتفى رجال المدرسة بهذا التأويل في الأمر الغيبي ولم يأتوا من عندهم ومن خارج ما تدل عليه ألفاظ القرآن بتأويلات باطلة ومفاهيم ضالة.

ولكنهم أرادوا زيادة التقريب إلى الأذهان خشية ألا تقبل أذهان «أحرار الأفرنج» التأويل السليم للآية فجاءوا بتأويل آخر تقبله أذهانهم ولكنه مخالف لما دل عليه القرآن الكريم فكان حقًّا علينا أن نرفضه ونرده على أصحابه ليبقى التأويل السليم والفهم السلفي الصحيح هو رائدنا في تفسير الآية، واللَّه الهادي.

*** إنكارهم لنزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وردهم للحديث المتواتر:**

فقد تواتر في السنة النبوية الشريفة نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وممن حكى التواتر هذا ابن جرير الطبري[٢] آنفًا والشوكاني في تفسيره[٣] وابن كثير[٤] وابن حجر العسقلاني[٥] وابن عطية الغرناطي الأندلسي في تفسيره[٦] .

وأبو الوليد بن رشد[٧] والسفاريني[٨] والكتّاني[٩] والشيخ محمد شفيع[١٠]

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٠). (٢) «تفسير الطبري» (٦/ ٤٥٨).

(٣) «فتح القدير» (١/ ٥٣٥). (٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٦١٥ ـ ٦٢١)، و(٤/ ١٤٢).

(٥) «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني (٦/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(٦) «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٢/ ٤٧٣).

(٧) «إكمال إكمال المعلم» (شرح صحيح مسلم) لأبي عبداللَّه محمد بن خلفة الوشتاني الأبي (١/ ٢٦٥).

(٨) «لوامع الأنوار البهية» لمحمد بن أحمد السفاريني (٢/ ٩٤ ـ ٩٥).

(٩) «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» لأبي عبداللَّه محمد الكتّاني ص(١٤٧).

(١٠) «مقدمة التصريح بما تواتر في نزول المسيح» كتبها الشيخ محمد شفيع ص(٥٦).

والشيخ مصطفى صبري[١] وأبو حيان الأندلسي في تفسيره[٢].

لكن رجال المدرسة العقلية الحديثة جاءوا بالعجب العجاب في تفسير هذه الآية مهدوا للأمر أول تمهيد فأنكروا صحة الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام فضلاً عن تواترها وزعموا أنها «روايات مضطربة مختلفة في ألفاظها ومعانيها اختلافًا لا مجال معه للجمع بينها، وقد نص على ذلك علماء الحديث وهي فوق ذلك رواية وهب بن منبه، وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهما في الحديث عند علماء الجرح والتعديل»[٣] وأضاف الشيخ شلتوت قائلاً: «وموجز ما نقول فيها: أنها لا تخرج عن كونها أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد مهما صحت لا تفيد يقينًا يثبت عقيدة يكفر منكرها»[٤].

ثم يصف أولئك العلماء الأفاضل الذي حكوا التواتر ومنهم من ذكرنا آنفًا كابن حجر والطبري وابن كثير والشوكاني وغيرهم بأنهم قوم «تظاهروا بالانتساب إلى الدين والغيرة على أحاديث الرسول واستباحوا لأنفسهم - في سبيل أغراضهم الدنيا - أن يصطنعوا كل أساليب التلبيس والتمويه في شأن أحاديث عيسى التي لا يمكن أن يكون منها متواتر حتى على أوسع الآراء في تحققه وهي مع آحاديتها يكثر ويشتد في معظمها ضعف الرواة واضطراب المتون، ونكارة المعاني، فتراهم يقولون هي متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين، وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين، فإذا رأوا في بعضها ضعفًا أو اضطرابًا أو نكارة حاولوا التخلص من ذلك

---

(١) «موقف العقل والعلم والعالم» (٤/ ٢٤٧) لمصطفى صبري.

(٢) «النهر الماد من البحر» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٤٧٣) بهامش تفسير البحر المحيط.

(٣) «الفتاوى» للشيخ محمود شتلوت ص(٦٢).

(٤) المرجع السابق ص(٧٧).

فقالوا: إن الضعيف فيها منجبر بالقوي وأن العدالة لا تشترط في رواة المتواتر. وهكذا يخلعون عليها ثوبًا مهلهلاً من القداسة، لا رغبة في علم ولا غيرة على حق ولكن مكابرة وعنادًا وإصرارًا على التضليل، وليقال على السنة العامة وأشباه العامة أنهم حفاظ وأنهم محدثون!»(١) !.

فإن قال قائل: إنه لا يقصد في اتهامه الخطير هذا أولئك العلماء الذين ذكرت ولم يسم أحدًا منهم؟ قلت: إن كلامه ولا شك يشملهم ويعمهم فإنهم هم الذين قالوا: «أنها متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين»، وهم الذين قالوا: «إن الضعيف فيها منجبر بالقوي».

فإن كان لا يقصدهم فإن كلامه يشملهم بل كدت أقول يخصهم شاء ذلك أم أبى.

ثم أدرك أن كلامه هذا لا يقوم على الأصول الصحيحة في نقد الحديث أو قواعد الجرح والتعديل فذهب يلتمس مخرجًا آخر فزعم «أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل الحكم الذي لا يحتمل التأويل حتى تكون قطعية الدلالة، فقد تناولتها أفهام العلماء قديمًا وحديثًا، ولم يجدوا مانعًا من تأويلها»(٢).

◻ وقال الشيخ شلتوت أيضًا: «إنه ليس في الأحاديث التي أوردوها في شأن نزول عيسى آخر الزمان قطعية ما، لا من ناحية ورودها ولا من ناحية دلالتها»(٣).

وهذا هو ما ذهب إليه شيخه «الأستاذ الإمام» محمد عبده حيث قال

---

(١) المرجع السابق ص(٧٧ ـ ٧٨).
(٢) المرجع السابق ص(٧٨).
(٣) «الفتاوى» لمحمود شلتوت ص(٧٩).

عن طريقته: «ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي؛ لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر. وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله»(١) .

وقد أراد أن يدافع السيد رشيد عن ظاهر هذه الأحاديث بأنه لا يوافقهم ثم أشار إلى تأويل آخر ليسلكوه هو أشد فتنة وضلالاً ممن أنكر التواتر فقال: «هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه، ولأهل هذا التأويل أن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه»(٢) ، وإنما قلنا: أن هذا التأويل أشد ضلالاً وفتنة ممن ينكر التواتر لأن من أنكر التواتر إذا صح عنده التواتر عمل به واعتقد. أما من زعم أن هذه الأحاديث نقلت بالمعنى فالتأويل الباطل هو سبيله في كل ما خالف معتقده سواء كان الدليل متواترًا أو غير متواتر وحجته أنها رويت بالمعنى.

❐ ونقل الشيخ شلتوت عن الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي فتواه في نزول عيسى وجاء فيه «لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حي الآن بجسمه وروحه وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها، ثم قال: «ولكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة،

(١) «تفسير المنار» (٣/٣١٧).
(٢) «تفسير المنار» (٣/٣١٧).

والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر»[1].

ومن هذا ندرك مبلغ جهدهم في إنكار تواتر هذه الأحاديث وهو جهد ضال؛ لأنه لا يقوم على الأسس الصحيحة لنقد الحديث مع جمع للروايات ثم نقدها ونقد رجالها بما تبطل به صحتها وتواترها ولكنهم يصفونها ـ اعتباطًا ـ بأنها أحاديث غير متواترة وهذا منهج مألوف لهم في إنكار الأحاديث المتواترة التي لا توافق هواهم وقد مر بنا بعض ذلك في إنكارهم تواتر ما تواتر عند السلف من علامات الساعة قال الشوكاني بعد أن ساق الأحاديث الواردة في المهدي والدجال ونزول عيسى: «فتقرر أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة والأحاديث الواردة في الدجال متواترة والأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم متواترة»[2].

وغير ذلك من الآيات التي ذكرنا هناك تواترها، وقد أنكر رجال المدرسة العقلية صحتها فضلاً عن تواترها وأولوها تأويلات باطلة على نحو ما نقلنا عن الشيخ عبده آنفًا عن الدجال وكونه رمزًا للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها»[3].

*** نقل رشيد رضا تأويل الشيخ عبده لهذه الآية بقوله:**

«يقول بعض المفسرين: «إني متوفيك»، أي منومك وبعضهم إني قابضك من الأرض بروحك وجسدك «ورافعك إليَّ» بيان لهذا التوفي، وبعضهم إني أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميتك حتف

---

(١) «الفتاوى» لشلتوت ص(٨٢).

(٢) انظر تحقيق عبدالفتاح أبو غدة لكتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للكشميري ص(٦٤).

(٣) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٧).

أنفك، ثم أرفعك إليَّ. ونسب هذا القول إلى الجمهور، وقال للعلماء: ههنا طريقتان أحدهما وهي المشهورة أنه رفع حيًّا بجسمه وروحه وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه اللَّه تعالى ولهم في حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيبًا ـ أقول: وفاتهم أن مخالفة الترتيب في الذكر للترتيب في الوجود لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة ولا نكتة هنا لتقديم التوفي على الرفع إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكان. (قال) والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه، فإن الروح هي حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار، فإنه يزيد وينقص ويتغير والإنسان إنسان؛ لأن روحه هي هي (قال) ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي؛ لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبرًا عن رأيه وفهمه وكان ذلك مزهقًا لروحها ذاهبًا بحكمتها كان لا بد لهم

من إصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر»[١].

◻ ومن هذا ندرك أن الشيخ جعل عيسى عليه السلام رمزًا لغلبة روحه وسر رسالته على الناس كما جعل الدجال رمزًا للدجل والخرافات وكلاهما مذهب جديد سبق إليه الشيخ عبده وتلاميذه. قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي: «فزمان عيسى هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر وأما الدجال فهو رمز الخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها، والقرآن أعظم هاد إلى الحكم والأسرار وسنة الرسول ﷺ مبنية لذلك»[٢].

◻ يا ضيعة الأمة حين تنبذ العقائد الثابتة بما دل عليه القرآن الكريم وما تواتر في السنة النبوية.

وانظر إلى عجب العُجاب من قول السيد رشيد رضا: «وجملة القول: أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حيًّا حياة دنيوية بهما.. وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام إلى الآن بثها في المسلمين»[٣].

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٧).

(٢) «تفسير المراغي» (٣/ ١٧٠).

(٣) الجزء العاشر المجلد ٢٨ للمنار ص(٧٥٦).

إذن فهذه العقيدة أسطورية؛ لأنها لا تستند إلى الكتاب ولا إلى السنة حاول بثها بين المسلمين أكثر النصارى منذ ظهور الإسلام.

ولا أدري كيف يصفهم بأنه «حاولوا» ولا يقول: «نجحوا»؛ لأنهم تمكنوا من بثها في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما بل في منابع تلك الكتب وتمكنوا من خداع أصحاب هذه الكتب بل من خداع جمهور علماء المسلمين ولم يكشف زيفهم ودسهم لهذه الأسطورة إلا الشيخ محمد عبده وتلاميذه، هذا على التسليم بأن القرآن لا يدل على هذه العقيدة.

ورحم اللَّه الشافعي الذي أدرك ببصيرته جناية تقديم العقل على النقل فقال: «إنما فسد العرب لما تركوا لسان الفطرة واتبعوا لسان أرسطو طاليس».

□ يقول الشاعر:

من أنت يا رسطو ... ومن أفلاط قبلك يا مبلدْ
هل أنتمُ إلا الفراش ... وقد رأى نارًا توقَّدْ
فدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشدًا لأبعدْ
فلتخسأ الحكماء عن ... رب له الأفلاك تسجُدْ

*** أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي:**

□ تكلمنا عن أثر المدرسة في تفسير القرآن، وأنهم يحمّلون الآيات ما لا تحتمله، ويؤولون الحقائق القرآنية تأويلاً منحرفًا عن فهم سلف الصالح.

انظر مثلاً إلى «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن» لأبي زيد الدمنهوري وقد سبق ذكر شطحاته.

وانظر إلى طنطاوي جوهري في كتابه «الجواهر في تفسير القرآن العظيم»، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ الآيات «وأما علم تحضير الأرواح، فإنه من هذه الآية

استخراجه، أن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوربا ثانيًا»[١] ، وقال: «ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم وعلم اللَّه أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير، وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٢] .

▢ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ونحوها من الآيات يقول: «.. أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن»[٣] .

لا شك أن هذا التفسير وأمثاله من أخطر التفاسير للقرآن الكريم بل هو تلاعب بالآيات وصرف لها عن حقائقها الثابتة إلى معان لا تثبت إلا بقدر ما تثبت مكتشفات علمية تهتز يمنة ويسرة بين الثبات والسقوط ـ هذا في الآيات التي قد يفهم منها ما أورده في تفسيرها فما بالك بما يورده من تفسير لا

(١) «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» لطنطاوي جوهري (١/ ٨٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ٨٩).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٩٩).

تحتمله الآي من بعيد ولا من قريب.

(ب) في السنة النبوية:

وقد سبق ذكر ذلك بالتفصيل وردهم لأحاديث صحيحة بل ومتواترة، وعدم أخذهم بأحاديث الآحاد، وثمرة من ثمارهم النكدة عدو السنة محمود أبو رية.

(جـ) في القصة القرآنية:

قولهم في القصص القرآني بأنه من قبيل التمثيل فتح الباب على مصراعيه أمام محمد أحمد خلف اللَّه ليقول: «إنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير»[١].

ويستدل[٢] لإثبات هذه النتيجة التي توصل إليها بما جاء في المنار عن احدى قصص القرآن «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل واللَّه أعلم»[٣] ويستدل[٤] أيضًا بقول الشيخ محمد عبده: «وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه: إن القرآن كثيرًا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فليس المراد أن اللَّه تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء: ﴿فَقَالَ

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه (١٧٨ ـ ١٨٠).
(٢) المرجع السابق ص(١٦٤).
(٣) «تفسير المنار» (٣/٥٢).
(٤) «الفن القصصي في القرآن الكريم» (١٦٨ ـ ١٦٩).

لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، والمعنى في التمثيل ظاهر»[١].

(د) في الفقه:

ونحن وإن كنا لا نزعم أن كل انحراف في تقنين الأحكام الشرعية وميل بها عن الحق أنه أثر من آثار المدرسة العقلية إلا أننا نؤكد أن كثيرًا من ذلك يستند إلى آرائهم ويستدل بأقوالهم ويستشهد بها وما هذا إلا معيار لتأثرهم بها، نذكر من هذا مسألة تعدد الزوجات دع عنك تحرير المرأة وخروجها إلى العمل واختلاطها بالرجال في ميادينه.. إلخ.

وقد سبق للشيخ عبده أن دعا إلى تطبيق ما ذهب إليه في مسألة تعدد الزوجات ونحن نذكر دعوته هنا حتى ندرك أن ما حدث بعد إنما هو من آثاره ومدرسته قال: «لا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصًا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة»[٢].

إذن فهو يدعو إلى تغيير الحكم؟! ترى هل يدعو إلى تغييره دفعة واحدة أو بطريقة أخرى؟! يفسر هذا تلميذه السيد رشيد بقوله: «إن قاعدة اليسر في الأمور ورفع الحرج من القواعد الأساسية لبناء الإسلام ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، و﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

[المائدة: ٦]، ولا يصح أن يبني على هذه القاعدة تحريم أمر تلجئ إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة.. وهو مما يشق امتثاله دفعة واحدة لا سيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس، وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد فلم يبق إلا أن يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي»[١] ؟!!

إذن فليس الأمر في المنع «دفعة واحدة»؛ لأنه يشق على من اعتادوا المبالغة فيه والحل أن يقيد بقيد ثقيل.. وهو شرط يعز تحققه.. ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي.

وليس المانع من إلغاء التعدد دفعة واحدة «أمر شرعي وإنما المشقة على من اعتادوا المبالغة فيه، والعلاج التدرج في ذلك إلى أن يصل الأمر إلى اعتياد الناس على عدم التعدد ولا يشق على أحد إلغاؤه ومن ثم إلغاء التعدد.

لن أذكر هنا أثر تلك الدعوة على الأفراد في أقوالهم ودعواتهم؛ لأنها كلها تنتهي إلى الدعوة إلى تطبيقه وتقنينه، وإذا ما اكتفينا بذكر القوانين التي سنتها بعض الدول المسلمة في ذلك نكون قد تجاوزنا آراءهم إلى النتيجة والنتيجة هدفنا من الإشارة إلى الأثر.

وفي الواقع أن الدول التي تأثرت بهذه الدعوة انقسمت إلى قسمين ولا يزال بعضها في مرتبة «قيد ثقيل يعز تحققه.. ومن لم يلتزمه فزواجه غير

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٥٩).

«إسلامي»، واستطاع بعضهم أن يصل إلى مرتبة «دفعة واحدة».

أما القسم الأول فدول المغرب وسوريا والعراق قيدته المغرب قضائيًّا بالعدل بين الزوجات، وقيدته سوريا بالقدرة على الإنفاق، وقيد في العراق بمصلحة مشروعة وبالعدل بين الزوجات، وبالقدرة على الإنفاق عليهن.

«وورود أحد هذه القيود في القانون معناه أنه أصبح ملزمًا ويتعين على القاضي أن يتحقق من توافره بحيث إذا لم يكن هذا الشرط متوافرًا أو ذاك كان تعدد الزوجات غير جائز؛ لأن المفروض أن أحكام القانون جميعها ملزمة ويحمل الناس على احترامها وتطبيقها طوعًا أو كرهًا»[1].

أما التي أخذت بالطريقة الثانية فتونس فمنعت تعدد الزوجات ومن تزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقابًا بالسجن مدة عام وبخطية (أي غرامة) قدرها (٠٠٠ و٢٤٠) فرنك أو بإحدى العقوبتين فقط «(الفصل ١٨)»[2].

◻ ومصر انتهى الأمر سنة ١٩٦٧م ففي هذه السنة صدر قانون الأسرة في مصر والجديد الذي جاء فيه ما نصّت عليه المادة (١٣٤).

أ ـ للزوجة التي تزوج عليها زوجها وإن لم تكن قد اشترطت عليه في العقد ألا يتزوج عليها أن تطلب التفريق بينها وبينه وفي مدى شهرين من تاريخ علمها بالزواج ما لم ترض به صراحة أو دلالة.

ب ـ ويتجدد حقها في طلب التفريق كلما تزوج بأخرى.

جـ ـ وإذا كانت الزوجة الجديدة قد فهمت من الزوج أنه غير متزوج بسواها ثم ظهر أنه متزوج فلها أن تطلب التفريق.

كما نصت هذه المادة على أن «التفريق للزواج بأخرى طلاق بائن»[3].

---

(١) «تعدد الزوجات» ص(٢٦٢).

(٢) المرجع السابق ص(٢٦٢).

(٣) «تعدد الزوجات» لعبد الناصر توفيق العطار ص(٢٣٧).

وهذا ولا شك «قيد ثقيل يعز تحققه..»؟!.

□ والاتجاه العام إلى تقييد تعدد الزوجات سائر على منهج مدروس وقد بدأت بعض السلطات في بعض البلدان الإسلامية في إصدار قوانين تحرم من يعدد زوجاته من بعض الحقوق أو المزايا التي يتمتع بها سائر المواطنين كحرمانه من الاشتراك في نقابة أو ناد معين أو قصر الإعارة للخارج على المتزوجين بواحدة أو السماح بالعلاج المجاني لزوجة واحدة أو قصر الإعفاء الضريبي على المتزوجين بواحدة[1] ونحو ذلك.

□ وهذا كله ولا شك في سبيل «تقييد تعدد الزوجات بقيد ثقيل.. يعز تحققه ـ ومن لم يلتزمه فزواجه غير «إسلامي» «والانتقال بعد هذا إلى الخطوة الأخرى «منع تعدد الزوجات» دفعة واحدة»، وبهذا لا يشق هذا الأمر على «من اعتاد على تعدد الزوجات»؟!.

وقبل أن نترك هذه النقطة نقول: إن المدعو عبدالعزيز فهمي باشا زعم أن القرار يحرم بتاتًا تعدد الزوجات؟!، وإلى تحريم تعدد الزوجات ذهب الشيخ الأزهري عبدالمتعال الصعيدي قائلاً: «لولي الأمر أن ينهى عنه إذا أساء المسلمون استعماله فيصير حرامًا لنهيه عنه، وإن كان في ذاته مباحًا»؟!!

ولذا فلا عجب أن يقول الدكتور عفّت الشرقاوي معلقًا على ما ذهب إليه عبدالعزيز فهمي ونعمّ به عبدالمتعال «ومع ما يبدو في هذا من الغرابة والتجوّز في الاستنتاج، وخروجه عن المألوف المأثور، فإنه كان النتيجة الطبيعية لتأثرنا بالنظم الأوربية في تشريع الزواج.. وكان ذلك في جملته تطورًا واضحًا لنزعة قديمة حمل لواءها «محمد عبده» محاولاً التوفيق بين النص القرآني وهذا التصور الجديد»[2] .

(١) المصدر السابق ص(٣١٦ ـ ٣١٧).
(٢) «الفكر الديني في مواجهة العصر» لعفّت الشرقاوي ص(٢٣٧).

هـ ـ في السياسة :

عمى الألوان مرض يصيب البصر لا يستطيع صاحبه التفريق أو التمييز بينها، وأحسب أن عمى الألوان هذا يصيب البصيرة فلا يستطيع صاحبه أن يفرق بين دين ودين، ومنهج وآخر.

◻ نظرت طائفة من المسلمين أو من المنتسبين للإسلام إلى ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى، وإلى ما حدث من صراع هناك بين الدين والعلم، بين الدين والسياسة، بين الدين والدولة، نظروا إلى «رجال الدين» يستندون إلى كتب «محرفة»، وما فيها يخالف حقائق العلم ونظرياته، أضف إلى هذا تشدد أولئك «رجال الدين» في مواجهة خصومهم.

◻ ليس هناك مجال آخر دين محرف أقواله تصادم حقائق علمية، ورجاله متصلبون متشددون، فكان لا بد من قيام ثورة للفصل بين الدين والدولة، بين الدين والسياسة بين الدين والعلم، فعزلوا الدين وأقصوه.

حسب من أصيب بعمى البصيرة أن كل دين كهذا الدين المحرف، فأراد من ينتسب إلى الإسلام منهم أن يطلب تلك الثورة على دينه الذي ينتسب إليه ـ إما عن جهل منه وإما عن خبث فيه ـ فدعوا إلى فصل الدين عن الدولة، وجعل الدين مجرد عبادة تؤدى في المسجد فإذا خرجت إلى الشارع فقد تعدت حدودها وتجاوزت مراسيمها ووجب عقابها وقمعها.

فليبق الدين في المسجد؟!

ولتبق الوطنية والقومية.. إلخ في الشارع، وليسرح الناس وليمرحوا حسب نظامهما، دينهم الوطن وعقيدتهم القومية.

◻ وكان من السابقين السابقين إلى هذه الدعوة الشيخ محمد عبده حيث قال: «إن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه»[1] . والشيخ

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» رشيد رضا (٢/ ١٩٤).

نفسه هو الذي صاغ برنامج «الحزب الوطني» المصري وجاء فيه «الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني[١] فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذاهب، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرس أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه»[٢] ، ودافع عن القبط في مصر قائلاً: «ليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها إلى شائن من العمل تعللاً بأن رجلاً أو رجالاً منها قد استهدفوا لذلك..»[٣] .

□ وهو في هذا يقلد أستاذه الأفغاني الذي دعا إلى القومية والوطنية «الفرعونية» في مصر حيث يقول موجهًا حديثه للعوام: «إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد.. تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت.. انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح[٤]

* * *

(١) لاحظ الفصل بين الدين والسياسة.

(٢) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده جمع محمد عمارة (١٠٧/١)، و«التاريخ السري» بلنت ص(٤٤٢).

(٣) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده جمع عمارة (١٠٨/١).

(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (٤٦/١ ـ ٤٧) و«زعماء الإصلاح» لأحمد أمين ص(٧٨ ـ ٧٩).

◻ واتبعا القول بالعمل فجدا واجتهدا في سبيل هدم الخلافة الإسلامية، واستقلال العرب عن الأتراك والتقريب بين الأديان.

وقد سرت هذه الأفكار والمبادئ في المجتمع الإسلامي بعد ذلك وانتشرت ولا نزال حتى ساعتنا هذه نعاني من آثارها.

وظهرت آثارها أول ما ظهرت في الثورة الكمالية الإلحادية في تركيا حيث عملت أول ما عملت على فصل الدين عن الدولة وقالوا فيما قالوا: «إننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقى إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا وعصرنا العلماء عصراً نمحقهم به محقًا، وسرنا وراء فرنسة خطوة خطوة»[١].

◻ وأشاد بعض العرب بهذه الحركة وفتن بها كثير منهم قال أحدهم: «حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدين وفتاويهم وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية، واستغنائها عن قراءة البخاري في السفن البحرية»[٢].

وفي سنة ١٩٢٥م وضع علي عبدالرزاق كتابه الإسلام وأصول الحكم خاض فيه في مبحثين:

١) هل منصب الخلافة ديني أم سياسي أم مزيج من كليهما معًا؟

٢) هل منصب الخلافة ضروري للمسلمين؟[٣].

وهو في سبيل فصل الدين عن الدولة تضمن:

١ ـ جعل الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا.

---

(١) مجلة المنار مجلد ١٦ جـ٢ ص عدد صفر ١٣٣١ هـ ص(١٣٢).

(٢) «هذا هو الإسلام» لفاروق الدملوجي ص(٢١٣).

(٣) «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرزاق ص(٥).

٢ ـ أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين ولا بلاغ الدعوة إلى العالمين.

٣ ـ وأن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضوع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص وموجبًا للحيرة.

٤ ـ وأن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغًا للشريعة مجردًا عن الحكم والتنفيذ.

٥ ـ وإنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

٦ ـ وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية.

٧ ـ وأن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده ﷺ كانت لا دينية»[١].

وجاء فيه «الدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات أهون عند اللَّه تعالى من أن يبعث لها رسولاً وأهون عند رسل اللَّه تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها»[٢].

وزعم «أن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص للَّه تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير، وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا فذلك مما لا ينظر الشرع السماوي إليه ولا ينظر إليه الرسول»[٣].

☐ وقال: «التمس بين دفتي المصحف الكريم أثرًا ظاهرًا خفيًّا لما يريدون

---

(١) «حكم هيئة كبار العلماء في كتاب الإسلام وأصول الحكم» ص(٥ ـ ٦).
(٢) «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق ص(١٥٤).
(٣) المرجع السابق ص(١٧١ ـ ١٧٢).

أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الإسلامي ثم التمس ذلك الأثر مبلغ جهدك بين أحاديث النبي ﷺ، تلك منابع الدين الصافية في متناول يديك، وعلى كتب منك فالتمس منها دليلاً أو شبه دليل فإنك لن تجد عليها برهانًا، إلا ظنًا وأن الظن لا يغني عن الحق شيئًا»(١).

◻ ولن ندع مثل هذا التحدي لهذا القزم المتعملق من غير ردّ، ولن نأتيه بشبه دليل بل نأتيه بالصاعقة قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾ [النساء: ١٠٥]، وهل الحكم بين الناس إلا عين السياسة وهدفها ولا نريد أن نعدد الأدلة بعد هذا فهي جد طويلة ولكن أتينا بما طلبه «التمس دليلاً أو شبه دليل..» إلخ؟!.

◻ وقال بنحو هذا محمد أحمد خلف اللَّه في كتابه «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة»، حيث يقول: «إن رياسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية (!!) لم تكن دينية بحال من الأحوال وإنما كانت مدنية صرفة»(٢).

◻ وقال: «والقرآن الكريم قد أعرض إعراضًا تامًّا عن الحديث في أي نظام أساسي للدولة العربية الإسلامية وترك أمر ذلك للمواطنين (!!) يقررون فيه ما يشاءون (!!)»(٣).

ودعوا إلى حركة القومية العربية وقالوا: «إن هذه الحركة لم تتخذ من الإسلام خاصة ومن الدين عامة أساسًا لها، وإنما مضت على أساس عربي خالص»(٤) «وإن الفكرة العربية أكثر انتشارًا وأوسع نفوذًا من الفكرة الإسلامية»(٤).

(١) المرجع السابق ص(١٥١).
(٢) «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٨٢).
(٣) «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٨٢).
(٤) «مجلة العربي» العدد الأول مقال (القومية العربية كما يجب أن نفهمها) لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٢٢ و٢٤).

ودعوا إلى توحيد الأديان وصهرها بعضها ببعض وهو سبيل من سبل القومية قال أبو ريّة: «إن الناس سيصلون إن شاء اللَّه بعلومهم وعقولهم إلى مرتقى تزول فيه الجنسيات الدينية وتختفي العصبيات المذهبية ويجتمعون على دين واحد يشمل الناس جميعًا وهذا الدين يقوم على ثلاث قواعد:

١ ـ إيمان باللَّه.

٢ ـ عمل صالح في الحياة.

٣ ـ إيمان باليوم الآخر.

◻ أما ما وراء ذلك مما هو خارج عن علمهم فأمره مفوض إلى ربهم وبذلك يعيشون الحياة تحت ظل السعادة ظليل متحابين متعاونين على عمل ما فيه الخير لكل قبيل»[١].

◻ وإذا ما استنكر أحدهم الترحم على نصراني قال: «إذا كان حكمكم على الكافر صحيحًا فإن النصراني ليس بكافر»[٢].

ولنقف هنا ولنجمع الشتات

القومية الوطنية

التقريب بين الأديان

فصل الدين عن الدولة

أحسبها وجوهًا متعددة لقضية واحدة، وهدفها واحد: إقصاء الدين الحق وقيام قومية وطنية.. لا دينية «علمانية».. تنبذ الدين وتقصيه عن ميدان السياسة وحينئذ يسهل انقيادها لمن خطط لذلك ووقف خلفه من وراء الستار هل ترون الأصابع الخفية؟! إنها الصهيونية العالمية تسعى للقضاء على

(١) «دين اللَّه واحد على السنة جميع الرسل» لمحمود أبو رية ص(١٦٨).

(٢) المرجع السابق ص(٢٨).

القومية الدينية.

وصهر الأديان تحت عنوان التقريب بينها وهو تذويب لها وتدمير.

وفصل الدين عن الدولة.

وظفرت في يومنا هذا على حلم كبير من أحلامها فقد صرح زعيم عربي بـ

فصل الدين عن الدولة بمنع الخطباء في المساجد من التعرض لما يجري في السياسة... إلخ.

وسعي ويسعى في بناء.

«مسجد إسلام» و«كنيسة نصرانية» و«معبد يهودي».

في سيناء في سبيل التقريب بين الأديان أليس «خير أوجه الوحدة الوطن» كما يقول الشيخ محمد عبده[1] آخر أخبار هذا المشروع أن هذا الزعيم طلب من ممثلة أفلام الخلاعة والجنس أن تتبرع لبناء هذه المعابد ولو بدولارين.

و ـ في الاجتماع والأسرة:

والحديث هنا متشعب الأطراف متعدد الجوانب وأهم الأطراف وأخطر الجوانب قضية المرأة أليست المرأة هي الأم وهي الأخت وهي البنت وهي الزوجة وهي المربية وهي المعلمة؟! وهي في كل قاعدة تقف عليها أو منصب يجد الرجل والطفل والشاب ما يجذبه إليها ويشده ومن هنا يكون تأثيرها.

إن صلحت أصلحت وإن فسدت أفسدت أليست المرأة الصالحة خير متاع الدنيا؟! إذن فاظفر بذات الدين تربت يداك.

وأحسب أن المرأة جوهرة يجب أن تصان عن أعين اللصوص وغبار

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (٢/ ١٩٤).

الطريق ما الذي ترجوه من امراة خلعت جلبابها وهتكت سترها وتزينت وتبرجت وفتنت وفتنت واختلطت برجال تأججت غرائزهم وانفلت زمامهم، ما إن يفتح أحدهم مجلة حتى يرى الصورة المثيرة، ويذهب إلى دار السينما فيرى ما هو أشد ويفتح التلفاز والمذياع فيسمع ويرى قصص الحب والغرام وماذا بعد هذا؟!

ينظر إلى زميلته في العمل أو على كرسي المدرسة وقد اكتست من المدنية سربالاً وتزينت بزينتها ولبست لباسها وأصابها ما أصاب الرجل نفسه وخلا لهم المكان والزمان بعد هذا؟!

ما الذي ترجوه من امرأة تسلم أولادها لمربية وتخرج إلى واجهات المتاجر والمعارض وتتخذ وسيلة لإغراء المشترين حيث تحدثهم بأرق حديث وألينه، أو تتجه إلى آلات المصانع ودخان المعامل وتهين نفسها بين العمال والموظفين هذا يغمزها وذاك يلمزها وذاك ينظر إليها بعين النهم؟! أو تنساق وراء مغريات الحضارة والحياة الغربية وتتبع شهواتها ورغباتها والمتعة المحرمة؟ كل هذا ولا شك سبب خطير لوقوعها في الرذيلة، إن لم تختصر الطريق وتجعل الرذيلة مهنتها..

وحينئذ فلا أسرة؟ وتشتت الأسر ضياع للمجتمع، وضياع المجتمع ضياع للأمة؟ إذن فضياع المرأة ميزان لضياع الأمة يرتفع ضياعها بارتفاع ضياع المرأة وينخفض بانخفاضه ويسلم بسلامتها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[1]، وفي رواية «**أضر على أمتي**».

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة، ورواه مسلم في كتاب الرقاق ورواه الترمذي في كتاب الأدب باب: ٣١ ورواه ابن ماجه في «الفتن»: باب فتنة النساء حديث ٤٠٦٢ ورواه أحمد (٥/ ٢٠٠ و٢١٠).

* وقبل هذا قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] عدد سبحانه في هذه الآية متاع الحياة الدنيا وجعل في مقدمته النساء قال ابن حجر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك»[١].

◻ أدرك ذلك المقياس المعز لدين اللَّه لما قيل له: إن نساء قصر الإخشيد قد أغرقن في الترف ورفعن نقاب الحياء والسرف واستهنَّ بالفضيلة وتركن رسالتهن قال في زهو وانتصار: «اليوم فتحت يا مصر»[٢].

◻ وأدرك هذا الشاعر العربي حين قال:

الأم مدرســـــة إذا أعددتهـا أعددت شعبًا طيب الأعـــراق

◻ وأدرك هذا أيضًا الاستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية وجندت جنودها لهذا الهدف، ولقد خدمها ولا زال يخدمها في تحقيقه كثير وكثير من الناس منهم من يعلم أنه جند من جنود الاستعمار ومنهم من يعلم أنهم جند من جنود الصهيونية نفسها ومنهم إمعة يخدمهم من حيث لا يدري.

ظهر أول كتاب في مصر يدعو إلى «تحريرها» من النظام الإسلامي سنة ١٨٩٤م عنوانه: «المرأة في الشرق» لمؤلفه مرقص فهمي المحامي وبعده بسنوات خمس أصدر قاسم أمين كتابه الأول «تحرير المرأة» دعا فيه إلى:

١) القضاء على الحجاب الإسلامي المعروف.

٢) إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها.

٣) تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي.

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (٩/ ١٣٨).

(٢) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(١٤).

٤) منع الزواج بأكثر من واحدة[١] .

ونحن ندرك صلة الشيخ محمد عبده بهذا الكتاب فهي لا تخفى وسبق الحديث عنها وأقل ما قيل في هذه الصلة أن هذا الكتاب «وضعه ـ قاسم أمين ـ بإيعاز من الأميرة نازلي وبتشجيع من الشيخ محمد عبده»[٢] .

وقد حقق الأستاذ محمد عمارة في «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين. . وأن في هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغته النهائية بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين»[٣] .

❑ وقد أحدث صدور هذا الكتاب ضجة في المجتمع المصري دونها الضجة التي أحدثها علي عبدالرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أو طه حسين في «في الشعر الجاهلي» أو محمد أحمد خلف اللّٰه في «الفن القصصي في القرآن الكريم». ذلك أن هذه الكتب إنما يعنى بها رجال السياسة والأدب وعلوم القرآن وإن شئت فقل الطبقة المثقفة.

أما «تحرير المرأة» فيمس كل الطبقات لارتباطه بحياة كل أسرة وتناوله المباشر لأحد أركانها ولهذا كان له من الأثر والصدى في المجتمع ورود الفعل ما لم يكن لتلك.

❑ قالوا عن الكتاب فيما قالوا: «إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب

---

(١) المرجع السابق ص(٧٣ ـ ٧٤).

(٢) المرجع السابق ص(٧٤).

(٣) «الأعمال الكاملة» للإمام محمد عبده: جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٥٢).

مصدر تغير عظيم في أفكار الأمة ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم في أخلاقها..»[١].

لذلك فلا عجب أن يقوم ضد هذا الاتجاه الفكري طائفة من الناس كبيرة إما لغرض ديني محض، وإما تقربًا للمجتمع المصري الرافض لهذا الاتجاه وهو الجانب الأكبر.

وقف فيمن وقف ضد هذا الإتجاه الحزب الوطني[٢] الذي شجب هذا الاتجاه في أول اجتماع عقده بعد صدور الكتاب في ٥ شعبان ١٣١٧هـ ١٨ سبتمبر ١٨٩٩م وفتح صدر صحيفته اللواء لكل طاعن في قاسم أمين وأفكاره[٣].

وحينما توفي قاسم أمين سنة ١٩٠٨م وأقام له شيعته حفلة تأبين أشادوا فيها بدعوته إلى السفور قابل رجال الحزب الوطني هذه الحركة بإقامة احتفال كبير للدعوة إلى الحجاب[٤].

وفي مقابلة هذا كان «حزب الأمة» من المناصرين لقاسم أمين وأفكاره على صفحات «الجريدة» وكان لطفي السيد باشا في مقدمة المروجين لها بمقالاته العديدة[٥].

وكان لا بد من تدخل الاستعمار الذي استغل فترة الحرب العالمية الأولى فاعتقل رجال الحزب الوطني وأوعز إلى أنصار الدعوة النسائية بإصدار مجلتهم «السفور»[٥] وحتى هذا الوقت كانت النساء الداعيات إلى السفور

(١) المرجع السابق (١/ ٢٤٥).
(٢) هذا حزب وطني جديد ليس هو الذي شارك محمد عبده في صياغة دستوره وسبق الحديث عنه.
(٣) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(٧٥ ـ ٧٦).
(٤) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(٧٨).
(٥) المرجع السابق ص(٨٠ ـ ٨١).

يخرجن في مظاهرات وهن متحجبات ومنهن هدى شعراوي وصفية زغلول حرم سعد زغلول أحد تلاميذ الأستاذ الإمام.

وفي عام ١٩٢٢م تلقت هدى شعراوي(١) دعوة من الاتحاد النسائي الدولي بروما وعند عودتها ورسو الباخرة في الميناء المصري ألقت حجابها في ماء البحر.. ثم كونت الاتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣م ووضعت حجر الأساس له في إبريل ١٩٢٤م.

ودعا الاتحاد النسائي إلى تطبيق المبادئ التي نادى بها مرقص فهمي وقاسم أمين وفي مقدمتها تعديل قوانين الطلاق ومنع تعدد الزوجات علاوة على المطالبة للمرأة بالحقوق الاجتماعية والسياسية المزعومة(٢) وبعد عشرين عامًا من إنشائه أي سنة ١٩٤٤م استطاع الاتحاد النسائي أن يمهد لعقد المؤتمر النسائي العربي وجاءت قراراته بالدعوة إلى تطبيق ذلك؟!.

□ هل تريدون أن أذكر شيئًا من صلة الصهيونية العالمية بذلك؟ إذن فاعلموا أن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت إلى المؤتمر بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٤٤م أشادت فيها بالاتحادات النسائية في البلاد العربية وقالت فيها: إنها «واثقة» من أن النساء العربيات سيقمن بدورهن إلى جانب شقيقاتهن في بلدان العالم أملاً في نشر التفاهم والسلم العالمي في المستقبل «ولسنا في حاجة إلى أن نذكر الجهد الكبير الذي بذلته مسز روزفلت في تكوين الوطن القومي لليهود في فلسطين..»(٣).

(١) هدى شعراوي ابنة (محمد باشا سلطان) الذي رافق جيش الاحتلال في زحفه على القاهرة ودعا الأمة إلى استقباله وعدم مقاومته، وأهاب بها إلى تقديم كافة المساعدات المطلوبة له، وسجل له التاريخ صفحة خالدة حينما تقدم مع فريق من الخبراء بهدية من الأسلحة الفاخرة إلى قادة جيش الاحتلال شكرًا لهم على إنقاذ البلاد؟! وخدمة لأهداف الاستعمار فجاءت البنت تواصل أعمال والدها.

(٢) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» لمحمد عطية خميس ص(٨٢ ـ ٨٣).

(٣) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» مجمع محمد عطيه خميس ص(٨٥).

□ وعقب هذا المؤتمر تكون «الحزب النسائي» سنة ١٩٤٥م وفي عام ١٩٤٩م تكون حزب بنت النيل وزعيمته درية شفيق وأصدر العديد من المجلات بالعربية والفرنسية للكبار والصغار.

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن إيرادات هذا الحزب المالية وقدرته علي إصدار هذه المجلات؟ والجواب كما نشرت الصحف بعد ذلك أنه من سفارتي بريطانيا وأمريكا؟!!!.

□ ولقد لقي هذا الحزب الترحيب من الاستعمار بكافة دوله، وزيرة الشئون الاجتماعية في إنجلترا تقوم بزيارته ورئيسة الاتحاد الدولي تبرق إلى رئيسة الحزب تدعوها للزيارة في أثينا. وجمعية سان جيمس النسائية بانجلترا تهنئ الهيئات النسائية المصرية علي كفاحها وتعلن تأييدها لها، ورئيسة لجنة الحقوق الاقتصادية بالاتحاد الدولي تقوم بزيارة إلى مصر لغرض الاطمئنان على أحوال الجمعيات النسائية في مصر[١] .

□ اهتمام عجيب ما عهدناه منهم فيما فيه صلاحنا وصلاح ديننا ولكنهم يدركون أنهم بذلك إنما يسعون لخدمة مصالحهم الصهيونية؟! نعم الصهيونية ذاتها!! أتريدون شاهداً على ذلك! لقد دعا المؤتمر النسائي الدولي إلى اجتماع في ستوكهلم عاصمة السويد ومن قراراته قرار يقضي بمطالبة وزير الداخلية في السويد بإنزال أشد العقوبات على مسيو أنيراير؟ أتدرون لماذا؟!! لمواصلته أعمال الدعاية ضد الصهيونية في السويد!! وقد كتب مسيو أنيراير على إثر ذلك إلى الجمعية العربية والحكومة المصرية يستنكر موقف مندوبات الهيئات النسائية المصرية الممثلة في المؤتمر لموافقتهن على هذا القرار[٢] !!.

(١) المرجع السابق ص(٨٦ ـ ٩٣).
(٢) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(٩٤).

وبهذا وغيره كثير تبدو لنا صلة الحركات النسائية بالاستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية»[١] .

◻ هذه قصة الصلة بين الاستعمار والاتحادات النسائية، والصلة بين الحركات النسائية ودعوة محمد عبده وتلميذه قاسم أمين وهي صلة قوية واضحة .

*** موقف علماء المسلمين منهم :**

◻ يقول الدكتور فهد الرومي :

وأسمح لنفسي هنا أن أستبق الأحداث وأجيب هنا على سؤال هام قد يخطر على ذهن من يقرأ ما سأكتب هنا .

سيقول قائل : تحيّزك هنا بيّن وإجحافك بحقهم واضح وظلمك لهم ظاهر! كان الواجب إذا أردت تقييم أولئك الرجال أن تذكر أقوال أنصارهم وخصومهم، أن تذكر أقوال المدح والثناء عليهم والإعجاب بهم والإطراء لهم، وتذكر في مقابل ذلك عبارات التجريح والذم لهم والتحذير منهم، أما أن تعمد إلى أقوال الخصوم وتدع أقوال الأنصار فليس هذا من الإنصاف في شيء؟

أقول لهذا رويدك . . لقد قلت بعض الحق لو كان قصدي من سياق الأقوال هو تقييم رجال المدرسة العقلية بها، والحق أن هذا ليس كل قصدي .

ذلكم أن تقييمهم لا يكون بعرض أقوال الناس فيهم وإنما يكون بعرض أقوالهم أنفسهم على الكتاب والسنة وبمقدار موافقتهم لهما تكون سلامتهم والعكس بالعكس وهو ما فعلناه في كثير من القضايا التي بحثناها .

---

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٧٥٩ : ٧٧١).

□ أما مرادنا هنا من عرض أقوال (من سميتهم خصومًا)[1] فهو أن نبين للقراء أنه كان بين علماء المسلمين من لم ينخدع بهم ويعميه الإعجاب بهم عن كشف مثالبهم وتجاوزهم وأخطائهم، وأنه كان بين العلماء من أدرك ذلك في حينه وأخذ على عاتقه كشفه وبيانه للناس، ولكنهم كانوا قلة في العدد والعدة ولم تكن هناك دولة تساندهم ولم يكن هناك استعمار والمستعمرون للناس عامة بصورة المصلحين الساعين إلى ما فيه خيرهم وخير بلادهم ولا تزال هذه الصورة لهم إلى ساعتنا هذه هي الطاغية على الحقيقة حتى عند العلماء منهم، وحتى أن الأستاذ أنور الجندي يقول عن أحد الناقدين لهم: «وهكذا يمضي الدكتور محمد حسين في إثارة الشبهات حول حقيقة جمال الدين ومواقفه مخالفًا كل ما ذهب الناس إليه من الثقة به واعتباره رائد النهضة وموقظ الشرق»[2] .

□ إذن فلا يحتاج هذا إلى بيان أقوال المؤيدين لهم والمناصرين لأفكارهم ومبادئهم، وإنما يحتاج الأمر إلى بيان: من رفض أقوالهم، وكشف للناس حقيقتهم وسيرتهم وهذا ما سنفعل إن شاء اللَّه فنبدأ:

أ ـ المعاصرين لهم:

* الشيخ محمد الجنبيهي مؤلف كتاب «بلايابوزا» والشيخ يوسف النبهاني يتصديان لمحمد عبده وشيخه الأفغاني:

ونبدأ ذلك بأقوال الشيخ محمد الجنبيهي صاحب كتاب «بلايا بوزا»

(١) الحقيقة أنهم ليسوا كلهم خصومًا بل فيهم من هو معجب بهم في بعض الجوانب لكن إعجابه هذا لم يمنعه من قول الحقيقة في جوانب أخرى وحتى الخصوم الذين ننقل عنهم هنا لم يخاصموهم فيما نعلم لأمر دنيوي أو حقد أو حسد وإنما لأمر ديني وغيرة منهم على الإسلام، ولا يعدّ هذا تجريحًا أو طعنًا في نقدهم.

(٢) «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي ص(٢٦٢).

الذي وضعه ردًا على طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» ويرمز الشيخ الجنبيهي بـ «بوزا» لطه حسين وهو اصطلاح فرنساوي وهي قطعة من الخشب وزنها خفيف. . على هيئة قبل الرجال ولقد ركبت تلك القطعة على مقعر من رصاص ثقيل. . فتراها كلما ألقيت فوق الأرض كانت قائمة وقد ضربها عقلاء الأقدمين مثلاً لكل ضال حائر مغرور ذي لسانة وسفه فقد مزايا الأدباء وشذ عن مناهج الفضلاء متلبسًا بعناد وإصرار شيطاني من حيث لا يشعر بما يقول ولا بما يعمل فلا تتوجه به أمياله إلا إلى مخالفة الفضلاء ومعارضة الأدباء بما لا يعلم عاقبته ولا يستطيع أن يقيم على صحته دليلاً»[١] .

وحينما يتحدث الشيخ عن الأفغاني ومحمد عبده، فإنه لا يتحدث حديث التخرص والظنون وإنما حديث من خالطهم وعاشرهم، فهو حديث خبير بهم حيث يقول: «إني نشأت بعد بلوغ الرشد وطلب العلم في الأزهر الشريف مصاحبًا تلميذ جمال الدين الأفغاني ومحاذيًا له قدمًا بقدم بعدما أتى جمال الدين الديار المصرية، وكثيرًا ما جالست ذلك الرجل وتذاكرت معه مذكرات ذكرتها في بعض الكتاب وما كان يدعوني إلى مجالسته إلا صاحبي الذي كان يظن أن يجذبني إلى الميل إلى ما مال إليه من فتنة ذلك الفاتن وكنت أطمع أن أكون سببًا في خلاصه من تلك الفتنة (ولكن اللَّه غالب على أمره)[٢] » .

إذن فحديثه حديث المخالط المعاشر فلنذكر حديثًا له مع جمال الدين الأفغاني، كان محور الحديث بينهما ما يروى من الحديث القدسي «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني»[٣] قال الجنبيهي: «ولقد

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٢٨ ـ ٢٩).
(٢) «بلايا بوزا) لمحمد الجنبيهي ص(٣٨).
(٣) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: «قال بن تيمية: أنه ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي وشيخنا» «المقاصد الحسنة» ص(٣٢٧).

كان لي في هذا الحديث القدسي مع جمال الدين الأفغاني واقعة كانت سببًا لعدم اتصالي به مع شديد رغبته ورغبة تلميذه الذي أشرنا إليه من قبل، وتلك الواقعة هي أني سألته عن هذا الحديث لعلمي أنه ينكر الأحاديث القدسية؛ لأنه طبيعي لا يعترف بوجود إله، وكنا في مجمع من الناس فقال: ليس هذا وقت الكلام على هذا الحديث فأملهني لوقت آخر «إلى أن قال: أنه وجده في مجالس اللاهين في قهوة من القهاوي فقال له: «هذا وقت الكلام على ذلك الحديث الشريف» فما كان جوابه إلا أن قال: ذهب فيلسوف إلى المنتزه في يوم العيد فوجد الناس على حال مضحك: منهم من هو مخمور ومنهم من هو لاعب ومنهم من هو مرافق لامرأة من المومسات ومنهم من هو راقص ومنهم من هو متبلس بما لا يرتضيه أبناء البشر فنظر ذلك الفليسوف إلى السماء قائلاً: «الآن وقعت الحسرة في قلبك أهؤلاء كلهم عرفوك»، فعند ذلك تغير حالي وعلمت أن الرجل ضال فقلت له: أن هذا الفيلسوف لأحمق ومجنون. قال: ولم ذلك قلت: لأن من جهل ربه في الدنيا يعرفه فيما بعد الموت ومن جهله في الرخاء يعرفه عند الشدة فما ذلك الفيلسوف إلا ضائع العقل والدين ثم تركت الرجل محزونًا؛ لأن فتنته لم تؤثر في قلبي أثرًا كان يريده وكان ذلك الموقف آخر عهدي به»[١] .

ويتحدث الجنبيهي عن المقادير التي جمعت بين دول الاستعمار وأنهم «ألهموا أن المتمسكين بآداب الدين القويم لن يغلبوا ما داموا متمسكين به سواء كثروا أو قلوا لأن المتمسك بدينه مرتكن على قوي متين لا يغلب ولا يقاوم فلذلك أجمعوا رأيهم على أن يعتمدوا على العلماء السياسيين منهم في حل روابط ذلك التماسك فقرر أولئك السياسيون فيما بينهم أن روابط الدين القوية لا تنحل إلا بثلاثة أمور: استبدال العلم النافع الذي كان يسأل رسول

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(١١٨ ـ ١١٩).

اللّه ربه أن يزيده منه بالعلم الذي كان يستعيذ بربه منه، والأمر الثاني تولية المناصب لغير أهلها.. والأمر الثالث إيجاد أسباب قوية توقد نيران العداوة والبغضاء والتشاجر بين المسلمين حتى لا يتمسكوا بدينهم ولا يتفقوا على عمل مرضٍ» إلى أن قال: «وبمقتضى هذه الفكرة السياسية بعث جمال الدين الأفغاني إلى الديار المصرية لتنفيذ مفهوم تلك الفكرة»[١] .

ويتحدث عن علماء الأزهر آنذاك بأنهم أيقنوا أنه أي الأفغاني ـ من رجال الفتنة التي يتيحها اللّه لأشرار العلماء»[٢] .

□ ويتحدث عن محمد عبده ويسميه (ابن عبده الغرابلي)؛ لأن أهله كما يقول الدكتور محمد محمد حسين من الفقراء الذين يمتهنون صناعات صغيرة منها صناعة الغرابيل[٣] ، قال الجنبيهي عن محمد عبده: «أن الأسباب التي جعلت ابن عبده الغرابلي محبوبًا لفحول السياسيين ولولاة الأمور من الدول المتحالفة على محو الإسلام اسمًا ورسمًا وصيرته محمودًا عند محرري الجرائد الأورباوية تتمدح باسمه وتعتني بعمل تذكارله هي بعينها الأسباب التي يتناول بها أستاذ الجامعة المصرية ـ يقصد طه حسين ـ مرتبًا كبيرًا بسبب شهادة الدكتوراه التي تناولها من أوربا لسبب عداوته للدين ورجاله حتى يكون إذا أعلوا شأنه فتنة لأبناء المسلمين»[٤] .

□ ويستدل الجنبيهي على سوء اتجاه محمد عبده الفكري بعلاقته باللورد كرومر فيقول: «فهلا فكرت.. في الأسباب التي صعدت بمحمد بن عبده الغرابلي.. وقد اتخذه جناب اللورد كرومر أستاذًا ومرشدًا في الدين وفي

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٤٥ ـ ٤٦).
(٢) المرجع السابق ص(٤٧).
(٣) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٨٧).
(٤) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٣٥ ـ ٣٦).

السياسة ثم نعاه بعد موته.. فهل كان ابن عبده الغرابلي في عصره من أكابر المرشدين الدينيين وكان ذلك اللورد متعطشًا لأن يسلك سبيل المؤمنين.. فهلا تفكر في الأسباب التي جعلته محبوبًا لرؤساء الدول المتحالفة على محو الإسلام اسمًا ورسمًا وما ذلك إلا لأنه أجهد نفسه في حلّ روابط المدنية الإسلامية السماوية..»[1].

◻ وتحدث عن محمدعبده بعد عودته من المنفى في البلاد الشامية «فلما انقضت مدة النفي ورجع إلى الديار المصرية كانت ثقة اللورد كرومر به أكبر ثقة فسكن في منشية الصدر بعيدًا عن عيون الرقباء، وكانت الواسطة بينه وبين اللورد رجلاً إنكليزيًّا يسمى (بلنت) كان يتزيا هو وزوجته بزي عرب البادية.. فلما قويت رابطة التواصل بين ذلك الإنكليزي وبين ابن عبده الغرابلي أعطاه قطعة أرض.. ليكون له جارًا وفي ذلك الحين اتخذه اللورد أستاذًا ومرشدًا يسترشد برأيه في كل عمل يطلبه في تنفيذ الغرض الذي أجمع عليه السياسيون فكان الإصلاح الأزهري الذي ذهب بالدين وعلمه النافع أدراج الرياح من إشارات ذلك المفتون، وكذلك كان إصلاح المحاكم الشرعية، وما أنشئت الجامعة المصرية إلا بإرشاده وكان من تعليماته لذلك اللورد أن لا يتولى المناصب العالية متمسك بدينه وكان بين ذلك التلميذ وبين المبشرين رابطة وداد قوية فكانوا يزورونه في غالب الأحيان للإسترشاد به في مهمات التضليل التي أجمعوا عليها.. وكان من مساعدة اللورد كرومر لشيخه ومرشده أن ولاه مناصب القضاء الأهلي حتى وصل به إلى وظيفة مستشار.. ثم عينه مفتيًا بالديار المصرية ليكون له الحق في التداخل بشئون الأزهر الذي أجمع السياسيون على خرابه فكان كل من أراد أن يلتحق

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(١٠).

بالمناصب العالية يتظاهر بازدراء الدين ورجاله ويكون كزب الأرض في ثباته على تمثيل هيئة العناد والإصرار بعدم الإنقياد لأي واعظ كان من النصحاء.. وما زالت تماثيل زب الأرض تتفاقم رزاياها وتنتشر مصائبها من سفهاء الزيغ الذي افتتنوا بذلك الطالب المارق من الدين ظانين أن انتشار صيته في الممالك كان لمهارته في العلم وتمسكه بالحق وليس الأمر كذلك وإنما هي فتنة اتخذها اللورد كرومر طريقًا مسلوكًا لتنفيذ أغراض السياسيين في البطش بالدين الإسلامي والخلافة الإسلامية وضياع العلم الديني وكان أمر اللّه قدراً مقدورًا»[(١)] .

ونذكر بعد هذا رأي الشيخ يوسف النبهاني وهو مع رأي الجنبيهي كما يقول الدكتور محمد محمد حسين: «يصوران الجانب الآخر لصدى دعوة الأفغاني ومحمد عبده عند المعاصرين وهو الجانب الذي اختفى الآن أو كاد يختفي تحت تأثير الضغوط والحماية التي تساند هذه المدرسة وتحارب خصومها»[(٢)] .

والشيخ النبهاني ـ أيضًا ـ إنما يتحدث، ويقول بعد معاشرة ومخالطة للأفغاني إذن فقوله قول من أدرك الأمور على حقيقتها لا قول متخرص ظان.

يصفهم بادعاء الاجتهاد المطلق وهم «الجاهلون» قال نظمًا:

وكم من قرون قد توالت ولم يجل ... بدعوى اجتهاد مطلق عالم كفراً
فكيف ادعاه الجاهلون بعصرنا ... فما أقبح الدعوى وما أفظع الأمرا[(٣)]

---

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٥٠ ـ ٥٣) باختصار.

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٩٤).

(٣) «الرائية الصغرى» ليوسف النبهاني ضمن العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية له ص(٣٥٤).

* ويرى أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. يرى أنهم هم المرادون بها ويستدل بما نقله السيوطي في الدر المنثور عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه سئل عن هؤلاء القوم فقال: لم يأتوا بعد وذكر ذلك البيضاوي، ثم قال النبهاني: «قلت: لا شك أن المنافقين المذكورين في هذه الآيات السابقة واللاحقة، والخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه وغيره من أئمة الإسلام متصفون بهذه الأوصاف الذميمة إلا أنهم لم يدعوا أنهم مصلحون لدين الإسلام ويلقبوا أنفسهم بهذا اللقب مثل هذه الفرقة الضالة فرقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري في مطابقة الآية لهذه الفرقة أكثر من مطابقتها للمنافقين والخوارج وإن شملتم جميعًا أحكامها»[1] .

❑ وقال نظمًا:

فما بالهم لا يصلحون نفوسهم ... أما هي بالإصلاح من غيرها أحرى[2]

❑ وقال:

وكل امرئ لا يستحي في جداله ... من الكذب والتلفيق مهما أتى نكرًا

فمن قال صلوا قال قائلهم له ... يجوز لنا في البيت نجمعها قصرًا[3]

❑ وقال

وأعداؤهم من بيننا كل عالم ... ولا سيما إن كان في فقهه بحرًا

❑ وقال:

فإياك أن تغتر منهم بفاجر ... وإن أنت قد شاهدت من فعله الخيرا

---

(١) «الرائية الصغرى» ص(٣٥٦).
(٢) المرجع السابق ص(٣٥٦).
(٣) المرجع السابق ص(٣٦٢).

فذلك شيء جاء ضد طباعهم ... وقد فعلوا أضعاف أضعافه شرا
وكم أيد الإسلام ربي بفاجر ... فنهدي له لا الفاجر الحمد والشكرا
أشد من الكفار فينا نكاية ... وأعظم منها في ديانتنا ضرا
من الكفر ذو الإسلام يأخذ حذره ... ومن هؤلاء القوم لا يأخذ الحذرا(١)

❑ وقال عن جرائدهم ومجلاتهم:

بها خلطوا بالحق باطل غيهم ... بها مزجوا الإسلام بالملل الأخرى(١)

❑ وقال عن الأفغاني:

تسمى جمال الدين مع قبح فعله ... كما وضعوا لفظ المفازة للصحرا(٢)

❑ وقال عن محمد عبده:

فمن جهة يدعي الإمام ويقتدي ... بأعمال أهل الكفر من جهة أخرى
يذم خيار المسلمين وعندما ... يرى حاجة للكفر يستحسن الكفرا
لكيما يقال الشيخ حرّ ضميره ... فيبلغ عند القوم مرتبة كبرى
وما زال مشهوداً على الدين شره ... وإن زعم العميان أن به خيرا

❑ ويصف عبده ـ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

وعاد إلى مصر فأحدث مذهبًا ... ولوث من أقذاره ذلك القطرا
وأيّد أعـداء البـلاد بسعيه ... وأوهم أهل الجهل أن بهم خيرا
يحسن بين الناس قبـح فعالهم ... ومهما أساءوا راح يلتمس العذرا
بمقدار ما خان البلاد وما أتى ... لأعدائها نصحًا علا عندهم قدرا

❑ وقال:

ونال بجاه القوم في الناس رتبة ... بها حاز فيمن شاءه النفع والضرا

---

(١) المرجع السابق ص(٣٦٢ ـ ٣٦٣).
(٢) «الرائية الصغرى» ص(٣٥٤).

❑ وقال:

فمن رهبة أو رغبة كم سعى له طغام من الجهال أكسبهم خسرا

❑ وقال عن منهجهم في التفسير:

وقد ضل في القرآن مع عظم نوره كما خبطت عشواء في الليلة القمرا
فتفسيره من رأيه ليس خاليًا فإما يرى فسقًا وإما يرى كفرا
أحذّر كل الناس من كتب دينه وبالرد والأعراض تفسيره أحرى

❑ وقال عنه:

يعاشر نسوان النصارى ولا يرى بذلك من بأس وإن كشف السترا
ويأكل معهم كل ما يأكلونه ويشربها حمراء إن شاء أو صفرا
ويفتي بحل المسكرات جميعها إذا هي بالأسماء خالفت الخمرا
ويأكل مخنوقًا ويفتي بحله لئلا يقولوا أنه ارتكب الوزرا
وتحليله لبس البرانيط والربا به بعض أهل العلم قد ألحق الكفر
وكم زار باريز ولندره ولم يزر مكة يومًا ولا طيبة الغرا
وإن كان يومًا للرياء مصليًّا يرى فاعلاً يومًا وتاركها شهرا

❑ وقال:

وقد كنت في لبنان يومًا صحبته لقرب غروب الشمس من ضحوة كبرى
وصليت فرض الظهر والعصر بعده لديه وما صلى هو الظهرا والعصرا
وكان صحيح الجسم لا عذر عنده بلى إن ضعف الدين كان له عذرا

❑ وقال:

وقبل غروب الشمس صاحبت شيخه لقرب العشا أيام جاورت في مصرا
ولم أره أدى فريضة مغرب فقاطعت شيخ السوء من أجلها الدهرا

❑ وقال:

ولو لا حديث المصطفى لأسامة ... يقول به هلا شققت له الصدرا
لما صحت الدعوى بإسلام بعضهم ... لدي وما استبعدت عن بعضهم كفرا
وكنت كتبت الكاف والفاء بعدها ... على جبهات القوم كي يعرفوا والرا
كما جاء في الدجال يكتب لفظها ... فيقرأ من يقرأ ومن لم يكن يقرا
فقد أشبهوه في معان كثيرة ... من الدّجل والإلحاد والبدع الأخرى
وما الفرق إلا أنهم في قلوبهم ... عماهم ودجال الورى عينه عورا
مقدمة للجيش عنه تقدموا ... وجند له من قبله مهدوا الأمرا
تقدم فيهم نائبًا عنه عبده ... أغوى الذي أغوى وأغرى الذي أغرى(١)

❑ وقال عن رشيد رضا ومجلته المنار:

غدا ناشراً فيه ضلالات شيخه ... كما نشر الزّراع في أرضه البعرا

❑ وقال:

وكم ضل رأيًا من سقامة فهمه ... بأمر صحيح من شريعتنا الغرا
ولو سأل الأشياخ أدرك سره ... ولكنه مع جهله قد حوى كبرا(٢)

❑ وقال عن الثلاثة:

ثلاث أثاف تحتها نار فتنة ... ومن فوقها الإلحاد صار لها قدرا
وقد دخلوا حزب المسون بهمة ... بها حل كلّ من محافله الصدرا
ومذهبهم حكم الديانات واحد ... تساوى به الإسلام والملل الأخرى(٣)

---

(١) «الرائية الصغرى» ليوسف النبهاني من ص(٣٦٥: ٣٧٤).
(٢) المرجع السابق ص(٣٧٧).
(٣) «الرائية الصغرى» ليوسف النبهاني ص(٣٨٤).

وهذا رجل آخر يكشف حالهم ويعلنها للناس وهو الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقًا يقول: «أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرب كثيرًا من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني كما أنه على ما يقال وسيأتي إيضاحه في هذا الكتاب هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر»[١] .

◻ وقال عن محمد عبده: «فلعله وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا أن يلعبا في الإسلام دور لوثر وكلفين زعيمي البروتستانت في المسيحية فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين وإنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد بالنهوض والتجديد»[٢] .

◻ وقال عنه أيضًا: «وكان من مضار الشيخ بالإسلام وعلمائه الناشئين بعده أنّ حملة الأقلام بمصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية كما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة التي انتقدتها في هذا الكتاب وأوجدوا من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه في أذن الشرق الإسلامي. ولا شك في تأييد القوة الماسونية له كان ذلك حثًا للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم على نيل ما أرادوا بواسطة الشذوذ في الرأي والتزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الإنتماء إلى الماسونية»[٣] .

◻ ولا نريد أن نذكر بعد هذا موقف الشيخ عليش ـ رحمه اللَّه تعالى ـ

---

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٤٤).

(٣) المرجع السابق (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

الذي كان يلاحقهم في صحن الأزهر بعصاه أو موقف أبي الهدى الصيادي الذي وصف جمال الدين بأنه «مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية»(١) أو اعترافات أتباعه أنفسهم بأن الأفغاني «برز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم زاعمًا أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفلك ويتجاذبها الجو أن القول بوجود محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الإنسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات»(٢) أو وصف السلطان عبدالحميد لجمال الدين الأفغاني بأنه رجل الإنجليز، وأنه مهرج(٣).

ب: من بعدهم:

سبق أن ذكرنا الموقف المشرف للعلماء الذين أتوا من بعدهم ونقدوا، المدرسةالعقلية نقدًا لاذعًا ومن هؤلاء الدكتور محمدحسين فقد كشف عن عور المدرسة العقلية الحديثة وانحرافها وقبح ما تدعو إليه.

- ومنهم أيضًا الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه القيم «التفسير والمفسرون» وسيد قطب في كتابه «الظلال» والدكتور علي جريشة ومحمد شريف الزيبق والأستاذ غازي التوبة في كتابه الفكر الإسلامي المعاصر.

❏ ولقد استعرض غازي التوبة جملة من أخطاء محمد عبده فعد منها:

دعوته للتقريب بين الأديان حتى صار مطية لهيئات ودول حاقدة على الإسلام والمسلمين وما ذلك إلا لأنه لم يلتزم حد الإسلام بل اتبع هواه فكان أمره فرطا.

❏ واستعرض الأستاذ غازي جملة الاخطاء والانحرافات بعد أن قسمها

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/ ٩٠).
(٢) المرجع السابق (١/ ٤٣).
(٣) «مذكرات السلطان عبدالحميد» ترجمة محمد حزب عبدالحميد ص(٦٧).

إلى قسمين:

أ) نتائج سياسية: وعد منها:

١ ـ التعاون مع رياض باشا عميل الإنجليز.

٢ ـ التعاون مع المحتل الإنجليزي.

٣ ـ الاصطدام مع عباس الثاني فقد كانت في مصر آنذاك سلطتان سلطة الاحتلال وسلطة الخديوية إحداهما مغتصبه والأخرى شرعية تمثلت الأولى في الثعلب العجوز اللورد كرومر والثانية الخديوي عباس الثاني.

٤ ـ تبرير وجود المحتل.

٥ ـ تكوين مدرسة سياسية باسم محمد عبده حيث وجد الاحتلال في محمد عبده وتلاميذه مدرسة سياسية تحقق أغراضه وتنفذ مآربه فرعاها ونماها.

ب) النتائج الفكرية:

كان الاستعمار يشعر بتحول المجتمع المسلم نحو الحضارة الغربية وأخذه منها في كل مجال وتقليده لها في كل أمر ولكنه كان يؤمن ـ في الوقت نفسه بأن الهوة ستبقى قائمة بين الغرب والمسلمين من جهة ولا يؤمن الانتكاس من جهة ثانية طالما أن الإسلام باق على طبيعته وحقيقته لذلك فقد صب جهودًا كبيرة كي يحوّر ويحوّل الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولها دون التحرج من ناحية أخرى، وقد وجد الاستعمار في محمد عبده ضالته التي تحقق له هدفه ذاك في التحويل والتحوير أو قل التي تبدأ له بالخطوة الأولى في ذاك التحويل والتحوير»[١] .

---

(١) «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة انظر ص(٤٤ ـ ٦٥).

▫ والدكتور محمد محمد حسين غير مكثر في ميدان الكتابة لكنه رصين الأداء مقتدر في استفتاء جوانب موضوعه ينظر إلى الأمور في عمق كما قال الأستاذ أنور الجندي[1] ، وقد كان لدراسته العميقة في دعوة الأفغاني وتلاميذه نتيجة خطيرة توصل إليها حيث يقول: «الذي يبدو لي هو أن دعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها كان لها ـ ككل الدعوات السرية ـ ظاهر وباطن فظاهرها يخاطب الجماهير. وهو يصور ما يريد صاحب الدعوة أن يعرفه جمهور المسلمين مما يعجبهم ويقع من قلوبهم موقع الارتياح والقبول، وباطنها يمثل حقيقتها التي يخفيها أصحابها عن الناس، ولا يكشفون الستر عنها قبل أن تحقق أهدافها بالوصول إلى مركز السلطة ومحمد عبده كان تابعًا لسيده الأفغاني أو خادمًا له كما تعود هو نفسه أن يكتب إليه في بعض رسائله والأفغاني كان يريد أن يعيد الدور نفسه الذي لعبه الإسماعيلية من أصحاب الدعوات الباطنية التي تتستر وراء التشيع»[2] .

▫ وقال عنهما أي الأفغاني ومحمد عبده: «وكانا ـ ككل الثوار من أصحاب الدعوات السرية ـ يعلنان ما يحبه الناس ويستهويهم غير ما يبطنان مما ينكره الناس وما يبلغهم مطامعهم»[3] .

▫ هذا الرأي ليس رأي رجل خراص وإنما رأي رجل وقف جزاءًا كبيرًا من نشاطه لدراسة حقيقتهم وجلاء أهدافهم حتى إذا ما وصل إلى درجة كبيرة من ذلك كشف للمسلمين ما توصل إليه مستندًا إلى حقائق ثابتة من أقوالهم أو أفعالهم التي لا تنكر وقد عرفت عنهم واشتهروا بها، وهو حينما يكشف

---

(١) «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي ص(٢٦٤).
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد حسين ص(٨٣).
(٣) مجلة «رسالة الطالب المسلم» لقاء مع الدكتور محمد محمد حسين ص(١٠٠) العدد الأول ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨هـ.

هذا لا يكشفه لحقد أو حسد وإنما يكشفه لغرض إسلامي نبيل هو أن لا تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناسٍ يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد حتى أن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول اللَّه ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون»[1] .

إذن فنقده نقد عارف مطلع، هدفه الإصلاح، وهذا ما نبحث عنه.

❑ ونختم الحديث هنا برأي صنيعة من صنائعهم وأثر من آثارهم هو الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي لكنه مع هذا أبى إلا أن يقول الحق في منهجهم.

أما أنه متأثر بهم معجب فشاهده أنه قال في إهداء كتابه «النظرات»: «إن كان لي في هذا السفر فضيلة يعجب بها الفاضل أو رأي يرضى عنه العاقل، أو ديباجة يثني عليها الأديب فلا يد فيها لأحد من الناس غير هؤلاء الرجال الثلاثة ولي نفسي والدي السيد محمد لطفي ووليّ عقلي أستاذي الشيخ محمد عبده، ووليّ أمري سيدي سعد باشا زغلول أولئك الذين أهدي إليهم كتابي؛ لأنه حسنة من حسناتهم وصنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعياتهم وأولئك الذين أحسنوا إلي في هذه الحياة إحسانًا لا أزال أذكر أياديهم البيضاء فيه حتى يعتاق نفسي حمامها وعظامي رجامها»[2] إلخ.

ولكن هذا الولاء ولا دخل لنا فيه، ولمحمد عبده ولسعد زغلول وهو

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٤٩ ـ ٥٠).

(٢) نقل لي هذا النص شيخنا وأستاذنا عبدالفتاح أبو غده جزاه اللَّه خيرًا عن الطبعة الأولى من كتاب «النظرات» لمصطفى لطفي المنفلوطي سنة ١٣٢٨هـ الصفحة الأولى.

مرادنا لم يمنعه من قول الحق في نقد منهج محمد عبده حيث عرض لذكره في مقالة عنوانها «يوم الحساب» تخيل فيها أنه قد انتقل من العالم الأول إلى العالم الثاني ورأى كأنه بعث بعد الموت، وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم فألهم أنه موقف الحشر، وأنه يوم الحساب ثم تخيل حوارًا جرى هناك بين محمد عبده وقاسم أمين عاتب فيه الأول الثاني على دعوته إلى السفور، فإذا بقاسم أمين يجيب «أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك: إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ.. وإنك نصحتني بما لم تنصح به نفسك، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول، وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقتلته، إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت وفهموا غير ما فهمت فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين، وأنت تعلم أن دِينًا خرافيًّا خير من لا دين.

أوّلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها، فتركوها جملة واحدة! وقلت لهم: إن الولي إله باطل والله إله حق فأنكروا الألوهية حقها وباطلها، فتهلل وجه الشيخ وقال له: ما زلت يا قاسم في أخراك مثلك في دنياك لا تضطرب في حجة ولا تنام عن ثأر»[1].

□ حسبك بهذا الاتهام من صنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعياتهم وخلاصة ما نقلنا من نقد لهم هنا أنهم:

١ ـ غير ملتزمين للشعائر الإسلامية من صلاة أو حج.. إلخ.

(١) «النظرات» لمصطفى لطفي المنفلوطي (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

٢ ـ إن تعاونهم مع الاحتلال ودول الاستعمار إما لأنهم عملاء كما يقول بعض النقاد أو سذاجة منهم كما يقول آخرون.

٣ ـ إن لهم دعوة باطنية يظهرون منها ما يخالف حقيقتها وباطنها.

٤ ـ إنهم جاروا مذهب الاعتزال في كثير من مذاهبهم حتى اطلق عليهم أنهم معتزلة العصر الحديث.

٥ ـ إنهم الوسيلة التي اتخذها الاستعمار والمستعمرون لتحويل وتحوير الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية.

٦ ـ إن منهجهم في التفسير ضال ومنحرف.

كل هذا وغيره كثير كشفه الناقدون لهم لكن هذا كله، ولكنهم كلهم لم يكن لهم من الأثر ما يذكر، في التقليل من رواج حسن سيرتهم بين الناس وانخداع العلماء بهم قبل العوام حتى وصلوا إلى درجة لا يجرؤ عالم من العلماء على نقدهم علانية أمام ملأ من الناس في مجتمعهم.

لم يكن السبب في هذا سرًّا لا يعلمه أحد بل علمه وخبره الكثيرون وأعلنوه للناس أيضًا، قالوا: إن السبب أن الاستعمار يقف خلفهم ويؤيدهم ويساند دعوتهم ويحميهم أينما ساروا، ويحمي أفكارهم ومبادئهم في اللحظة التي يحتاجون فيها إلى الحماية ويسعى إلى ترويج آرائهم بين المسلمين وإيصال صوتهم ودعوتهم إلى الناس.

وجنّد الاستعمار جنوده من المستشرقين للثناء عليهم ومدحهم حتى يروج ذلك بين الكتاب المسلمين فينقلوه عنهم نقل الإعجاب والتأييد «والإفتخار» برجلين أو رجال من الشرق نالوا رتبة عالية عند رجال الغرب في المباحث الدينية، وهي رتبة تهفو إلى بلوغها أنظار طلاب الشهرة ولو على حساب الدين فأخذوا ينقلون ويروجون أفكارهم ومبادئهم لا نقل الفاحص

الناقد، وإنما نقل المؤيد المسلم لهم ما يقولون.

◻ وبهذا راجت بين الناس أفكارهم وطغت على أذهانهم مبادؤهم فلا يسمعون صيحة «مخنوق» ضدهم ولا همس هامس في نقدهم، ولا صرخة محذّر بين صيحات المخدوعين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

حتى ألجأوا بعض من يريد قول الحقيقة إلى قولها مشوبة بالثناء عليهم ومدحهم وتمجيدهم تقربًا إلى المخدوعين بهم.

ذلك أثر من آثار الاستعمار، ونتيجة لدراسة نقدية مزعومة من المستشرقين لا ندعي ذلك ادعاء ونثبت هنا ما يقيم أساسه.

*** موقف الاستعمار البريطاني منهم واعترافه بما قدموه له من خدمات:**

سبق أن ذكرنا ما يثبت حماية الاستعمار لهم ودفاعه المستميت عن دعوتهم، ونعيد هنا للمناسبة بعضه ونزيد عليه.

ونبدأ أول ما نبدأ برجل أعلن عداءه للإسلام حيث قال: جئت (إلى مصر) لأمحو ثلاث القرآن والكعبة والأزهر[١].

ترى من الذي عاون هذا الرجل لتحقيق هدفه؟! إنهم ولا شك رجال المدرسة العقلية من حيث يدرون (فيكونوا عملاء) أو من حيث لا يدرون (فيكونوا سذاج).

◻ قال كرومر في تقريره السنوي لعام ١٩٠٥م عن محمد عبده: «كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ولآرائه المتحررة المستنيرة أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى»[٢].

---

(١) «الخنجر المسموم» لأنور الجندي ص(٢٩).

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٧٨).

☐ وقال أيضًا: «لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد إليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الإصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم إذا ساروا فيه فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين»[١] .

☐ وقال أيضًا: «إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وإنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي»[٢] .

وقد امتثل هو ما دعا إليه فمال إليهم وعطف عليهم وقدم لهم كل عون وتشجيع فكانوا له (حلفاء طبيعيون) فوجبت عليهم حمايته.

☐ صرح اللورد كرومر بنفسه: «إن الشيخ محمد عبده يظل مفتيًا في مصر ما ظلت بريطانية العظمى محتلة لها»[٣] .

☐ وقال السيد رشيد: «وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديوي: إن كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لأجل فصله من الإفتاء فاسمح لي بأن أقول: أنه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فإن الشيخ محمد عبده يكون هو المفتي حتى يموت»[٤] .

هذه بعض حمايته في الداخل أما إذا ذهب إلى الخارج كالآستانة مثلاً، فإنه يكتب إلى تلميذه السيد رشيد «إن السلطان لا يستطيع حبسي لو أراده

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (٣/ ٤٢٦).

(٢) Medern Egept: Cromer P. 180

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٥٠١).

(٤) المرجع السابق (١/ ٥٦٤).

وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك أسباب لا أحب ذكرها الآن»[١]، ولكن السيد رشيد يذكر السبب في هذا «وهم لا يجهلون أن السفارة البريطانية كانت بالمرصاد؛ لأنها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضًا»[٢] .

بل إن الاحتلال الإنجليزي كان عاملاً أساسيًا من عوامل عودة محمد عبده من المنفى في الشام إلى مصر وقد صرح اللورد كرومر بهذا في كتابه مصر الحديثة حيث قال: «إن العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني»[٣] .

هذه إشارة تكفي اللبيب في بيان مدى تعاون إمام المدرسة العقلية الحديثة وأستاذها مع الاحتلال ومدى حمايتهم له وهو أمر له معناه.

* **ترحيب المستشرقين بالمدرسة ونتائجها:**

كان لأفكار المدرسة العقلية صدى كبيرًا في دراسات المستشرقين، والحقيقة أنا لا ندري من أين نبدأ وإلى أين ننتهى بين عبارات الثناء والترحيب بهم من المستشرقين ولعلنا نكتفي ـ أيضًا ـ بالإشارة.

فهذا جب يقول عنهم: «لسوء الحظ ظل قسم كبير من المسلمين المحافظين ولا سيما في الهند لا يخضعون لهذه الحركات الإصلاحية المهدئة وينظرون إلى الحركة التي تزعمتها مدرسة عليكره بالهند ومدرسة محمد عبده بمصر نظرة كلها ريبة وسوء ظن لا تقل عن ريبتهم في الثقافة الأوروبية نفسها»[٤] ، ثم وضح هذا المستشرق الإنجليزي جب دور المدرسة العقلية

---

(١) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده» جمع محمد عماره (١/ ١١٧).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٨٦٠).

(٣) «الفكر الإسلامي الحديث» لغازي التوبة ص(٤٥).

(٤) «إلى أين يتجه الإسلام» للمستشرق جب عن مجلة المجتمع العدد ٣٦٤ في ٩ رمضان =

بقوله: «إن في كل البلاد الإسلامية ـ باستثناء شبه جزيرة العرب وأفغانستان وبعض أجزاء من أواسط إفريقيا ـ حركات معينة تختلف قوة واتساعًا ترمي إلي تأويل العقائد الإسلامية وتنقيحها»، ثم قال: «وقد اتجهت مدرسة محمد عبده بكل فروعها وشعبها نحو تحقيق هذا الهدف»، ثم ذكر «أن الأب (بانيرث) المبشر يرى أن حركة الإصلاح الإسلامي ـ على النحو الذي تسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسحيية الغربية بالتشجيع»[١] .

ولعله يكفي هنا أن ننقل عن جب رأيه في تلاميذ محمد عبده حيث يقول: «إن تلامذته هم من أولئك الذين تعلموا على الطريقة الأوروبية وذلك من ناحيتين أولاهما إن ما كتبه الشيخ كان بمثابة درع واقية للمصلحين الاجتماعين والسياسيين فإن عظمة اسمه قد ساهمت نشر أخبار لم تكن تنشر من قبل ثم إنه قد أقام جسرًا من فوق الهوة السحيقة بين التعليم التقليدي والتعليم العقلي المستورد من أوربا الأمر الذي مهد للطالب المسلم أن يدرس في الجامعات الأوروبية دون خشية من مخالفة معتقده وهكذا انفرجت مصر المسلمة بعد كبت، فقد ساهم الشيخ محمدعبده أكثر من أي شخص آخر في خلق اتجاه أدبي جديد في إطار الروح الإسلامية»[٢] .

أما الجاسوس البريطاني الفريد سكاون بلنت فيصف دعوتهم بأنها «الإصلاح الديني الحر» ويصفهم بأنهم «زعماء الإصلاح في الأزهر» ويصف مدرستهم بأنها «تلك المدرسة الواسعة التقية»[٣] .

◘ وقال عن الأفغاني: «ومن أغرب ما يروى أن الفضل في نشر هذا

= ٩٧هـ ص(٢٩).

(١) المرجع السابق ص(٦٣) عن «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة ص(٦١ ـ ٦٢).

(٢) «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» ص(٧٠).

(٣) «التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر» الفرد سكاون بلنت ص(٧٦).

الإصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني»(١).

□ وقال عن محمد عبده أنه «رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام ويجب أن لا يتوهم أحد أني إذ استخدم هذه الألفاظ ألقي القول على عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة، ولكني أقولها معتمداً على معرفتي بأخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته في أول الأمر معلمًا دينيًا ثم قائدًا لحركة الإصلاح الاجتماعي.. وأخيرًا حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد»(٢).

وتحدث عن هدف الأفغاني فقال: «كان همه أن يطلق العقول من الأغلال التي قيدتها طوال الأجيال الماضية»، وأن هذا «يماثل ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر»(٣).

وهذا جولد زيهر يبين قصد مدرسة المنار بأنه «تحقيق قدرة الإسلام على الحياة بين تيارات العصر الحديث عن طريق إصلاح الأحوال المغلولة بقيود المذاهب الجامدة»(٤) واعتبر السيد جمال الدين الأفغاني المحرك الأول لهذا الاتجاه(٤).

وحسبي أن أقف هنا في بيان الصراع بين المحذرين منهم وبين الاستعمار والمستشرقين، ولا يزال ـ حتى ساعتنا هذه ـ صوت الاستعمار هو الأكثر رسوخًا في أذهان الناس(٥).

---

(١) المرجع السابق ص(٧٧).
(٢) المرجع السابق ص(٨٠).
(٣) المرجع السابق ص(٧٨).
(٤) «مذاهب التفسير الإسلامي» لجولد زيهر ص(٣٤٧ ـ ٣٤٨).
(٥) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٩٩ ـ ٨٠٨).

*** من رفض هذه الحجج وردّها ندعوه إلى المباهلة:**

بعدما أطلنا النفس في عوار هذه المدرسة وكيف أن رجالها كانوا وراء كل مصيبة ألّمتْ بأمتنا في واقعنا المعاصر.. فمن لم يقبل هذه الحجج لانحراف الناس عن سواء السبيل، ويقول عن هذه المدرسة: إنها المدرسة الإصلاحية المستنيرة، وإن إمامها نعم الإمام، وأنه سعى لنصرة دين اللَّه حتى لا تقضي عليه عمائم الأزهر أو: «الإسطبل» كما كان يسميه، وكثيراً ما كان يقول:

ولكن دينًا قد أردت صـــلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائمُ

فمن نعت القوم بأنهم أئمة هذا الدين وأن طريقهم خير طريق وهو الأوحد المستقيم فإنا ندعوه للمباهلة.

❑ قال ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٦٩٧): «في قصة أهل نجران.. وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصرّ بعد ظهور الحجّة، وقد دعا ابن العباس إلى ذلك ثم الأوزاعي ووقع ذلك لجماعة من العلماء.

ومما عُرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة ووقع ذلك لي مع شخص كان يتعصّب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها شهرين».

❑ يقول الحافظ ابن حجر: «جرى بيني وبين بعض المحبين لابن عربي منازعة كثيرة في أمر ابن عربي، حتى تبرأت من ابن عربي بسوء مقالته ـ وهذا هو الملحد الذي يقصده ابن حجر ـ فلم يسهل ذلك بالرجل المنازع لي في أمره، وهددني بالشكوى إلى السلطان بمصر بأمر غير الذي تنازعنا فيه يتعب خاطري، فقلت له: ما للسلطان في هذا دخل، إلا تعال نتباهل وقلت: ما تباهل اثنان فكان أحدهما كاذبًا إلا وأصيب، فقال لي: باسم اللَّه قال: فقلت له: قل اللّهم إن كان ابن عربي على ضلال فالعني بلعنتك،

فقال ذلك. فقلت أنا: اللَّهم إن كان ابن عربي على هدى فالعني بلعنتك وافترقنا.

قال: وكان سكن الروضة فاستضافه شخص من أبناء الهند جميل الصورة، ثم بدا له أن يتركهم وخرج في أول الليل مصممًا على عدم المبيت، فخرجوا يشيعونه إلى الشختور، فلما رجع أحس على شيء مر على رجله فقال لأصحابه: مر على رجلي شيء ناعم فانظروا فنظروا فلم يروا شيئًا، وما رجع إلى منزله إلا وقد عمي وما أصبح إلا ميتًا، وكان ذلك في ذي القعدة سنة سبع وسبعين، وكانت هذه المباهلة في رمضان منها، وعند وقوع المباهلة عرفت أن السنة ما تمضي عليه، وكانت بمحضر من جماعته»(١).

* وأخيراً:

نقول لكل معاند ومخالف:

أنت القتيـــل بكـل من أحببتـــهُ فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

* * *

(١) «غاية الأماني» (٢/ ٣٧٤).

* **الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ يدافع عن أهل الحديث ويرد على الشيخ محمد الغزالي:**

الشيخ محمد الغزالي رمز كبير من رموز الدعوة بمصر، وله قلم سيّال في الرد على العلمانيين والمستشرقين وهو فارس لا يُشق له غبار في هذا الميدان. وهو وإن كان حبيبًا إلى النفوس إلا أن الحق أحب إلينا منه، وقد كبا به جواده حينما يتكلم عن أهل الحديث، أو يطعن ويرد بعض الأحاديث التي وجدت في «الصحيحين» فانبرى للرد عليه عالم من البيت المبارك بيت الشيخ محمد بن عبدالوهاب شيخ الإسلام، وهو فضيلة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ فجزاه اللَّه عن المسلمين خير الجزاء فيقول في رده على كتاب الشيخ محمد الغزالي «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»:

«وهذا الكتاب الذي طلبت الكشف عنه طار به أهل الفتن وأعداء السنن، لجريانه مع أهل الأهواء في أهوائهم، وقد ضرّم ناره، وأشعل الفتيل في زناده «خضراء الدِّمَن»[1] ، وما أدراك ما خضراء الدمن، وسوء منبتها، فنشرت منه وانتقت، فدخلت فتنته إلى بيوت لم تعرف الكتاب ولا كاتبه؛ لأنه يخدم مصالح معلومة في بث الخلاف، وتفريق العلماء، وانتقاد الدعاة، وتطوير قلوب أبطأ تطويرها.

لكن هذا حريق ضُرِّمت ناره، وحريق الأقلام قد يُطفئه سيل المداد من ذوي السداد.

◻ ألم تر - أيها الفاضل المودود - كم أقرّ الكاتب عين الرافضة والعلمانيين حين اجترأ على الفاروق المحدث ﷺ فخطّأه فيما رواه إذ خالف ما يراه ويهواه، فقال ص(١٧): «إن الخطأ غير مُستبعد على راو، ولو كان

(١) يعني بها «جريدة الشرق الأوسط».

في جلالة عمر»!.

ثم ألم تر كيف عطف وكرّ على خبّاب بن الأرت الذي أسلم سادس ستة، وروّحت روحه في جنة الخلد قبل مجئ الغزالي بثلاثة عشر قرنًا[١]، فطعن في علمه إذ ساق ما رواه البخاري ومسلم عن خباب: «إن المسلم يُؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب»، فقال الغزالي ص(٨٧) متطاولاً: «كلام خباب ﷺ عليه مسحة تشاؤم غلبت عليه لمرضه الذي اكتوى منه».

□ ثم ألم تر ـ أيها الأخ ـ قوله عن سلمان الفارسي ﷺ ص(١١٦) إثر سياق حديث له، قال: «حديث سلمان ليس إلا تعبيرًا عن حالة نفسية خاصة» انتهى.

□ فقل لي أيها الموفق، أفيعز على ذي هوى أن يردّ الحجج والدلائل بمثل ما ردّ به الغزالي: عمر مخطئ فيما رواه عن رسول اللّه ﷺ، وخبّاب متشائم، وسلمانُ ذو حالة نفسية خاصة.

□ ثم قف ـ أيها الودود ـ على قوله ص(١٢٨): «إن من قال بقطع الصلاة بالثلاثة المذكورين في حديث أبي ذر وغيره هم القاصرون من أهل الحديث».

أتدري من الذين قالوا بقطع الصلاة بالثلاثة المذكورة؟ إنهم جمع خِيرة؛ منهم: أنس، وأبو ذر، وأبو هريرة ﷺ، وابن عباس في رواية، والحسن البصري، وأبو الأحوص، وأحمد في رواية وغيرهم.

ثم سل أطفال المسلمين عمن ذكرت لك أسماءهم من الأئمة الأعلام: أقاصرون هم؟ فإن أجابوك بأنهم كَمَلَة مُنتخبون فستقاسمني القول بأن الغزالي

---

(١) لا نشهد لمعيّن أنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بما شهد له الشارع.

عَظُم رَغَبُه في إطاحة من يُخالفه، بألفاظ نابيات، وتحريرات واهيات، شأن أهل الهوى، ومن قال ما شاء لقِي ما لم يشأ.

*** أيها الصاحب:**

قرأت وقرأت الكتاب، فألفيته غنيًا فقيرًا: غنيًّا من القصص والسخريات، فقيرًا من عالي الكلام والاختيارات، نصب الكاتب فيه نفسه قاضيًا وحكمًا، وبيْن منْ؟ بين أهل الفقه وأهل الحديث في فهمهم للسنّة، فدلَّ بذلك على ضيق أفقه، وضعف فقهه، إذ أهل الفقه المتقدمون جلّهم محدثون، وأهل الحديث السالفون جلّهم فقهاء.

واعتبر ذلك بمالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والليث والثوري، ونحوهم. أليسوا أمراء المؤمنين في الحديث؟ ثم أليسوا فقهاء الأمة؟»[١].

□ وردّ على الغزالي قوله ص(١٩):

«أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سوأة فكرية وخُلُقية، رفضها الفقهاء المحققون»!

□ قال الشيخ صالح: «وهذا تعالم، بل كذب، فمن أولئك الفقهاء المحققون الذين رفضوا هذا؟ لم يصح خلاف لأحد؛ إلا أن يعني الغزالي نفسه! وهو الأظهر فالأمة مجمعة على هذا في النفس، وليس هذا من قول أهل الحديث وحدهم، قال: الشافعي في «الأم»:

«لم أعلم مخالفًا من أهل العلم قديمًا ولا حديثًا في أن دية المرأة نصف دية الرجل».

(١) المعيار لعلم الغزالي في كتابه «السنة النبوية» للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ص(٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣).

ونقل الإجماع وأثبته: ابن المنذر، وابن حزم، وابن عبدالبر، وابن رشد والقرطبي، وجمع، والعلماء تواتر عندهم نقل هذا الإجماع.

فإذا انكشف لك هذا فاعلم ـ علمت الخير ـ أن قوله: «هذه سوأة فكرية وخلُقية» اتهام لأمة الإسلام، ولشريعة الإسلام، وشهادة على الصحابة والتابعين والعلماء بعدهم أجمعين بأن إجماعهم وفقههم سوأة في الفكر، بل وفي الخُلُق، فالفكر فكر سوء، والخُلُق مذموم هابط!

هذا مكان هذه الأمة ـ وإجماع علمائها ـ في قلب هذا الرجل.

وتذكر هنا قوله ص(١٦٠) آخر كتابه، وكأنما يشهد على نفسه: «إن الذين يخطئون في الفهم، ويجورون علي في حكم لا ينبغي أن يُسقطوا عوجهم الفكري على دين الله» انتهى»[١].

◻ وعن قول الشيخ الغزالي في المعازف والموسيقى[٢] ص(٦٣): «التطرف في التحريم نزعة غير إسلامية».

◻ قال الشيخ صالح: «لا يبعد عن خاطرك أن الأئمة الأربعة وفقهاء الملّة أفتوا بتحريم المعازف، ولم يُخالف إلا الظاهرية، وبعض أفراد شذّوا ممن قبلهم، ولهذا فإن تهويله وتقريره لما يريد بعنوان مثل هذا، يُفهم أنه متهم للأئمة بأنهم حرّموا حلالاً، نازعين إلى غير الإسلام، فلم يتّبعوا الإسلام، وإنما نزعوا إلى غيره من تقاليد وأديان.

وكلامه في المعازف والغناء كلام من ركب الثقافة، فسعى إلى تقرير ما يريد، بعيداً عن القواعد العلمية، والبينات الشرعية»[٣].

---

(١) «المعيار» ص(٤٦ ـ ٤٧).

(٢) قال الشيخ في غير هذا الموضع «من لم يستمع الغناء فهو جلف الطباع»!.

(٣) «المعيار» ص(٥٨، ٥٩).

◘ وعن تنقّص الغزالي وسخريته من علماء الأمة قال الشيخ صالح: «هذه ـ أيها الأخ ـ خلّة من تمكنتْ منه أصابته المقاتل، ولحوم العلماء مسمومة، وتنقّص العلماء من شيم السفهاء، وكِلام الكَلام كجراح السهام، أفلم تشعر بطعن ينفذ إلى حشاك كلما تنقّص الغزالي إمامًا أو عالمًا؟».

قد سمعت مقالة قبل في عمر وخباب وسلمان والقاصرين ـ عنده ـ من أهل الحديث ـ فاسمع تنقصه من نافع أول سلسلة الذهب عن ابن عمر:

قال ص(١٠٣) بعد سياق حديث وأثر: «ونافع ـ غفر اللَّه له ـ مخطئ. وورواية نافع هذه ليست أول خطأ يتورّط فيه، بل قد حدّث بأسوأ من ذلك»، ثم وصفه ص(١٠٥) بأنه: «راو تائه». فاسمع هذا، ثم تذكّر قول الإمام مالك: «كنت إذا سمعتُ نافعًا يُحدّث عن ابن عمر لا أبالي أن لا أسمعه من غيره».

لكن لا يعزُبُ عن لب مثلك ـ أيها الأخ ـ أن ذنب نافع هو روايته ما يخالفِ تفقّه الغزالي، وذلك ذنب يهوي بصاحبه!

وعِش تر، وتذكّر قول ساكن المعرّة:

وقال السُّها للشمس أنت خفيّة ... وقال الدجى للصبح لونُكَ حائلُ
وطاولت الأرضُ السماء سفاهة ... وفاخرتِ الشُّهبَ الحصى والجنادلُ

ولعلّك ـ أيها الصاحب الموفق ـ اطلعت على نفيه صفة للَّه تعالى يثبتها أهل السنة[1]، وردّه حديث البخاري ـ رحمه اللَّه ـ، ثم قوله ص(١٢٧): «بعض المرضى بالتجسيم هو الذي يُشيع هذه المرويات، إن المسلم الحق ليستْحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار» انتهى.

فالبخاري ومن حذا حذوه فيهم خصلتان: مرضى بالتجسيم، وليسوا

---

(١) يعني الشيخ بها صفة الساق الواردة في قوله تعالى: ﴿**يوم يكشف عن ساق**﴾.

من المسلمين حقًّا!

ولا يقول ذلك إلا أشعري مجازف.

◻ ولا تعجب ـ إذن ـ من قوله ص(١١٤) عن الحافظ المنذري: «إنه ليس لديه فقه صحيح».

ولا تعجب ـ إذن ـ من قوله عن كلام لابن خزيمة، وغيره من المتقدمين، والمازري، والقاضي عياض، لما وجّهوا حديث فقء موسى عين ملك الموت توجيها صحيحًا عليه المعتمد والترجيح، قال ص(٢٩) عن مقالهم السديد: «نقول نحن (!!) هذا الدفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يُساغ» انتهى.

◻ هذه حُجج السُّوقة والهمل: دفع بالألفاظ المبتذلة الشوهاء في أوجه العلماء الفقهاء.

واسمعه حين قال ص(١١٨): «من زعم أن السنة تنسخ القرآن فهو مغرور» انتهى.

وهؤلاء الذين قالوا بالنسخ جمع من العلماء منهم: حسان بن عطية، وأحمد في رواية، وابن حزم، وجمع من الظاهرية؛ قالوا بوقوع النسخ مطلقًا، وذهب آخرون إلى وقوعه في زمن النبي ﷺ؛ منهم: القاضي في «التقريب»، والغزالي، والباجي، والقرطبي.. وغيرهم.

أفأولئك مغرورون؟

ومن استهزأ وسخر من العلماء السابقين فلا تستكثر منه مقالاً، أو تستغرب منه فعالاً، لأن لحومهم ـ كما أسلفت مسمومة»[1].

◻ يقول الشيخ صالح آل الشيخ في نقده للغزالي: «وقد بلغ هذا الرادُّ

(١) «المعيار» ص(١٥ ـ ١٩) مختصراً.

للسنن أطوريه حين اتهم الأمة وعلماءها تهمة ما تجاسر عليها مستشرق أو حاقد، فقال قالة سوء ص(٤٦) فأصغ لها، قال: «إنني أشعر أن أحكامًا قرآنية ثابتة أُهملت كل الإهمال، لأنها تتصل بمصلحة المرأة»!.

واسمع قوله ص(٣٣) عمن ذهب إلى إجبار البكر على الزواج بمن رضيه لها والدها، قال: «ولا نرى (!!) وجهة النظر هذه إلا انسياقًا مع تقاليد إهانة المرأة وتحقير شخصيتها» انتهى.

فالذين قرروا ترجيح جواز إجبار البكر لأدلة أقاموها.. وإن كان ترجيحهم مرجوحًا ـ تركوا القرآن والنص عند الغزالي، واتبعوا تقاليد تهين المرأة، وتحقّر شخصيتها.

لكنْ؛ أتدري من أولئك؟! هم القاسم، وسالم ـ وهما من فقهاء المدينة النبوية السبعة ـ وعامر الشعبي، وابن أبي ليلى، والليث ومالك، والشافعي، وأحمد في رواية وإسحاق.

هؤلاء الأئمة متهمون بترك القرآن والحُكم به رعاية لتقاليد أهانت المرأة! نعوذ باللَّه من الحور بعد الكور»[1].

▫ ويقول الشيخ صالح: «ومن ضعف الكاتب في الحديث قوله ص(٥٥): «ولم يجئ في أحد «الصحيحين» ما يُفيد منع النساء من الصلاة في المساجد» انتهى. وقد جاء في «الصحيحين» عن عائشة ﵂ قالت: «لو أن رسول اللَّه ﷺ رأى من النساء ما رأينا لمنعهن من المسجد»[2].

▫ ويقول الشيخ صالح: «ومن ضعفه في الأصول قوله ص(٦٥): «الحديث الصحيح له وزنه، والعمل به في فروع الشريعة له مساغ وقبول» انتهى.

---

(١) المصدر السابق ص(٢٠ ـ ٢١).

(٢) المصدر السابق ص(٢٨).

📖 وهنا مخالفتان بدعيتان:

الأولى: قوله: «العمل به في فروع الشريعة». تنحية لما صحّ من السنن والأحاديث عن الاحتجاج بها في العقائد وأصول الدين، وتلكم نزعة اعتزالية اشتهرت في قالَبي الأشعرية والماتريدية، ونحوهما من زيْغ الخلف عن محجة السلف.

الثانية: قوله: «العمل به.. له مساغ وقبول» مخالف لإجماع الأمة من الفقهاء ومحدثين، وأصوليين، على أن الحديث إذا صح وجب العمل به في الفقهيات.

وكلمات الأئمة في هذا ذائعة سائرة، وقد يترك أحدهم العمل به للنظر في دلالته بما يسوغ النظر فيه مما عرف في الأصول..

أما قوله: «له مساغ وقبول»، فباطل وردّ، والمستقيم أن يقول: «واجب وحتم، إن لم تكن دلالته محتملة»[١].

* رده على الغزالي في طعنه على السلفية:

📖 قال الشيخ صالح: «ومن تناقضه قوله ص(١١) عن كتابه «لعلّ فيه درسًا لشيوخ يحاربون الفقه المذهبي لحساب سلفية مزعومة» انتهى.

ولمزه للدعوة السلفية لا يضيرها، إذ الدعوة دعت إلى التوحيد الحق، وأخذت دين اللَّه كله، بشمولية واتزان، واعتبر بذلك بدعوة إمام الدعوة في هذه القرون شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ومن نهج نهجه، واقتفى سننه، في الدعوة إلى تعظيم اللَّه وتوحيده، والإلزام بشرع اللَّه.. رحم اللَّه أئمتنا رحمة واسعة. ومن شذّ من أتباعها، فغلا أو جفا، أو أخطأ وكبا،

---

(١) «المعيار» ص(٤١ ـ ٤٢).

فعلى نفسها جنت براقش، خطؤه على نفسه، لا تتحمّل ما أخطأ فيه دعوتنا»(١) .

* **تفسيره أحاديث بخلاف فهم أهل السنة:**

□ قال الشيخ صالح: «وتارة يُفسِّر أحاديث بتفسير أجمع أهل السنة على خلافه خذ مثلاً قوله ص(١٤): «أمتنا تعد الكذب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار؛ لأنه تزوير للدين، وافتراء على اللّه لقوله ﷺ: **«إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمّدًا فليتبوأ مقعده من النار»** انتهى.

وتلكم التي تحكم بالخلود على الكاذب على رسول اللّه ﷺ هي الأمة الخارجية، لا أمة السُّنّية، ففسّر الحديث بتفسير الخوارج والمعتزلة، مِن جعله الوعيد خلودًا، والكبيرة كفرًا»(٢) .

* **ضعفه النفسي أمام الغرب وحال العصر:**

□ قال الشيخ صالح آل الشيخ: «وهذا الضعف قصم ظهورًا، فردّها على أدبارها حائرة ثكلى، ومن قوى يقينه باللّه وشرعه، لم يرفع بحال الغرب رأسًا، ولم يبالهم باله، إذْ برد الإيمان وبشاشته جالبة للعزة والاعتزاز بشرعنا وأحكامه، مهما شوّش المرجفون، وحاك الشبه المتحيرون، والكاتب كثيرًا ما يستحضر شبه المستشرقين، وإخوانهم الذين نافقوا، فيكون ردّ الشبهة عنده بأي طريقٍ، حتى ولو كانت عسفاء أو هوجاء اسمع إلى قوله لما وقف موقفه المنكور من الاختلاط والسفور، مبديًا باعث الموقف الخفي، قال

---

(١) «المعيار» ص(٦٦ - ٦٧).
(٢) «المعيار» ص(٣٤ - ٣٥).

ص(٤٦): «قد استغلّ الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور! وشنّ على تعاليم الإسلام حربًا ضارية، كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه».

فهذه كلمات خِلَلَها حالة نفسية تصوغ المواقف وتُبْدي المرجوح راجحًا، والضعيف قويًّا.

ومن ذلك قوله ص(٥٢) عن الأوربيين ومن شابههم: «إذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة، أو قاضية، أو وزيرة، أو سفيرة فلهم ما شاءوا، ولدينا وجهات نظر فقهية تجيز ذلك كله» انتهى.

وهذا غوص في بحار العقلانية، وتجرّد عن التحقيقات الشرعية، والمسألة دين، وغدًا سؤال.

ومن ذلك قوله ص(٩٥): «عندما تناقلت الصحف (!) أن الشيخ عبدالعزيز بن باز أخرج شيطانًا بوذيًّا من أحد الأعراب، وأن هذا الشيطان أسلم.. كنت أرقب وجوه القرآء، وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين» انتهى.

ويعني بالعلم علم الغربيين الفجرة، وبالدين دين الشيخ وأمثاله»[1].

◻ وتجده قلقًا في نفسه من مخالفة الشرع للقوانين الدولية ويقول ص(٥٩): «ولست أحبّ أن أوهِّن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استنادًا قويًّا إلى النصوص القاطعة» انتهى.

فهذه نقول كاشفات للحال النفسية المتوترة التي أنشأ أثناءها كتابه، وأنه بناه مريدًا دفع شبهات عن الإسلام بأي طريق وأي سبيل، حتى ولو كان السبيل ردًّا لقول العلماء والإجماعات، أو سلوكًا لسبيل الشذوذ في الآراء

(١) انظر المصدق السابق ص(٦٩ ـ ٧٣).

المعطلة عن محجة الاستدلال ونور العلم الوثيق الصحيح».

*** من أخطائه الاعتقادية:**

▫ قال الشيخ صالح: «ومن أخطائة العقدية قوله ص(١٤٢): «العلم الإلهي مسطور في كتاب ضابط شامل محيط ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ انتهى.

وهذا تعدٍّ وابتداع بما لم يُسبق إليه، إذا المسطور في اللوح المحفوظ هو ما في السماء والأرض، لا العلم الإلهي كله، فعبارته فيها عدم توقير لصفات اللَّه وفيها ابتداع وتعالم»[1].

▫ ومن أغلاطه قوله ص(١٤٤): «لقد شاء اللَّه لحكمة لا نعلمها أن يخلقنا ويكلفنا، وقال في وضوح ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ انتهى.

▫ والحكمة من الخلق والتكليف يعلمها صبيان أهل التوحيد ألا وهي تحقيق عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾»[2].

*** العلم... العلم:**

▫ ويسوق الشيخ في مقدمه كتابه قول ابن قتيبة: «قد كنا زمانًا نعتذر من الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم! وكنا نؤمِّل شكر الناس بالتنبيه والدِّلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا يُنكر مع تغيّر الزمان. وفي اللَّه خلف وهو المستعان»[3].

(١) المصدر السابق ص(٧٦).
(٢) المصدر السابق ص(٧٦ ـ ٧٧).
(٣) المصدر السابق ص(٥).

□ ويقول: «ولقد شهدت وشهدتُ أن العلم في زماننا قد استدْبر، وأن البُغاث «بأرضنا» قد استنسر.

قد أعوز الماء الطَّهورُ وما بقى   غيرُ التيمُّمِ لو يطيبُ صعيدُ»[٢]

* أصل الإنسان وبدع المدرسة العقلية:

أصل الإنسان لا شك أمر غيبي لا سبيل إلى القطع في علمه ومعرفته إلا عن طريق الوحي والسنة الصحيحة المطهرة.

ولقد خلق اللَّه آدم عليه السلام أبا البشر من تراب خلقًا متكاملاً يؤهله لأن يكون خليفة في الأرض بإذن اللَّه، وألقى في ذهنه من العلم ما خفي على الملائكة عليهم السلام لتكون مزية عليهم ليسجدوا له بإذن اللَّه وأمره، ثم ليسكنه بعد هذا الجنة هو وزوجه لتقع منهما المعصية فينزلهما اللَّه إلى الأرض، أرض الابتلاء والامتحان.

ولم تزل البشرية كذلك إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.. ذلكم المعتقد في خلق الإنسان هو الذي اعتقده السلف وقامت أركانه على قواعد القرآن وآياته وصحيح السنة.

إلى أن ظهرت نظرية داروين سنة ١٨٥٩م التي قال عنها «فون باير» في كتابه «المذهب الداروني»: «إن الرأي القائل أن النوع الإنساني متولد من القردة السيمانية هو بلا شك أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الإنسان».

ويأتي الأستاذ محمد فريد وجدي وينكر على داروين نظريته ولكنه أيضًا يخالف نصوص القرآن مخالفة صريحة حين ينكر خلق آدم خلقًا

---

(١) المصدر السابق ص(٧٩)، والبيت قاله الأمير الشاعر ابن حَيُّوس، «ديوانه» (١/ ١٥٨) ط المجمع الدمشقي.

مستقلاً من طور العدم إلى طور الإنسانية الكاملة فيقول:

«ونحن لا نريد من قولنا أن أهل العلم تبينوا وَهَن أصول مذهب داروين أنهم أصبحوا يقولون بالخلق المستقل فهذا ما لا يقول به إلا الشاذ من أهل العلم اليوم، ولكنهم يرون لتسلسل الأحياء بعضها من بعض نواميس أخرى غير نواميس داروين»[1] .

ولا تعتقد أن فريد وجدي هو الفارس الوحيد في ميدان الشذوذ، فقد سبقه وزاد عليه الفارس الذي لا يُشقّ له غبار في هذا المجال الشيخ محمد عبده، ومن خلفه تلاميذه السيد رشيد رضا، وأحمد مصطفى المراغي، وتبعهم بعد ذلك الأستاذ عبد الصبور شاهين فزاد وأتى بما لم يأت به أحد.

◘ لم يرفض الشيخ محمد عبده نظرية ـ داروين كما أنه لم يصرّح بقبولها، ولكنه فسّر الآيات القرآنية بما يفسح المجال لمن يريد أن يقول بها وأنكر معارضة القرآن لذلك؟!

«ليس هذا تجنيًا منا على الشيخ عبده بل هو مع حسن الظن أيضًا، حينما نعلم أن الشيخ وتلميذه رشيد يساوون بين الاعتقاد بأن أبا البشر آدم عليه السلام والاعتقاد بأنه القرد أو غير ذلك ما دامت الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر.

وحتى ندع القارئ يسبقنا إلى الحكم عليهما نكتفي هنا بإيراد نصوص لهم.

◘ فقد قال الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً

---

(١) «على أطلال المذهب المادي» لمحمد فريد وجدي (١/١٠٣ ـ ١٠٤) ـ الطبعة الأولى ـ طبع دائرة معارف العشرين القرن ـ مصر.

وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] «ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر، فمن المفسرين من يقول إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش، فإذا صح هذا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبًا يحملون النفس على ما يعتقدون.. والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ بالتنكير وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول وبث منهما جميع الرجال النساء، وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفًا عند جميعهم فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما، وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلاً هو مأخوذ عن العبرانيين فإنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخًا متصلاً بآدم وحددوا له زمنًا قريبًا. وأهل الصين ينسبون البشر إلى أب آخر ويذهبون بتاريخه إلى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون، والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه إلى موسى عليه السلام فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وإنه بقي كما جاء به موسى»[1] .

وبهذا أكد الشيخ أن آدم ليس أبو البشر كلهم وإنما قلت أكد لأنه: ـ

١ ـ استدل بأن الآية لا تدل (بالنص ولا بالظاهر) على ذلك.

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

٢ ـ وأنه لو كان آدم أبا البشر كلهم لما قال ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ بل قال جميع الرجال والنساء.

٣ ـ وأن من الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما.

٤ ـ أن العلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين باعتقادهم أن آدم أبو البشر.

وبهذا أضاء الشيخ عبده النور الأخضر لمن يريد أن يقول بنظرية داروين بأن يجعل تطبيقها على آباء البشر الآخرين عدا آدم عليه السلام.

فإن ذهبت تعترض على هذا وتقول: ـ ورد في القرآن الكريم الخطاب ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وورد في قوله ﷺ: «**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب**»(١) وما رواه أحمد في «مسنده» عن رسول اللَّه ﷺ: «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»(٢).

إذا ما قلت هذا سهل عليه تأويل ذلك وكيف لا يسهل هذا على من يرد أحاديث البخاري ومسلم ويرد الأحاديث المتواترة كما مر بنا، يقول الشيخ عبده في تأويل ذلك: «وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله: «يا بني آدم» لا ينافي هذا ولا يعد نصًّا قاطعًا في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها وسفكوا الدماء، وأقول زيادة في الإيضاح إذا كان جماهير المفسرين فسروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم

---

(١) رواه البزّار عن حذيفة بن اليمان.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١١).

يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم (!!) وهي أن آدم أبو البشر»(١) .

ويؤيد هذا الكلام تلميذه السيد رشيد بنوع من الأخبار لو لم يكن فيها تأييد لما ذهب إليه لاعتبرها من الإسرائيليات التي أدخلها كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ولشن عليهما هجومًا لا ينقطع ونعى على الإسلام أمثالهما ولكن والحال أن هذه الأخبار في مقام تأييده فلا بأس من الاستدلال بها والدفاع عن المعتقدين لها قال: «وقد نقل عن الإمامية والصوفية أنه كان قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب وعندنا آدمون كثيرون قال في «روح المعاني»: ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبرًا طويلاً نقل فيه أن اللَّه تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة وأن الدنيا بقيت خرابًا بعدهم خمسين ألف سنة ثم عمرت خمسين ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام، وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضًا أنه قال لعلك ترى أن اللَّه لم يخلق بشرًا غيركم بل واللَّه لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين»، ثم قال: «ثم نقل عن زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم وهذا من جرأته وجرأة أمثاله الذين يتهجمون على تفكير المسلمين لأوهى الشبهات»(٢) .

□ ثم يجمل لنا السيد رشيد رأي أستاذه «للأستاذ الإمام في هذا المقام رأيان:

أحدهما: أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية

---

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

والتاريخية له ومن تنكير ما بثه منها ومن زوجها، على أنه يمكن الجواب عن هذا الأخير بأن التنكير لمن ولد منهما مباشرة كأنه يقول بث منهما كثيرًا من الرجال والنساء وبث من هؤلاء سائر الناس وعن الأول بأنه لا يزال غير قطعي.

وثانيهما: أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادي البشرة المنتصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الإنسان، وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين ومن اقتنع بقولهم من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف.

□ ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هذا المقام ولكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنه لا يقول: أن القرآن ينفي هذا الاعتقاد وإنما يقول: أنه لا يثبته إثباتًا قطعيًا لا يحتمل التأويل وقد صرحنا بهذا؛ لأن بعض الناس كان فهم من درسه أنه يقول أن القرآن ينفي هذا الاعتقاد أي اعتقاد أن آدم أبو البشر كلهم وهو لم يقل هذا تصريحًا ولا تلويحًا وإنما بين أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات من أن للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أبًا لهم كلهم في جميع الأرض قديمًا وحديثًا كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلمًا مؤمنًا بالقرآن»[1].

□ ثم يقول السيد رشيد: «وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون إلى أن المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من عدة أصول؟ هل يقولون إذا أراد أن يكون مسلمًا وتعذر عليه ترك يقينه في

---

(١) «تفسير المنار» (٤/٣٢٦).

المسألة أنه لا يصح إيمانه ولا يقبل إسلامه وإن أيقن بأن القرآن كلام اللَّه وأنه لا نص فيه يعارض يقينه»[١] .

❑ ويقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي: وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية بل أخذوه تسليمًا وهو أن آدم أبو البشر»[٢] ، وقال: «وقال بعض العلماء أبهم اللَّه تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها، فلندعها على إبهامها، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أبًا كان ذلك غير مخالف لكتابنا، كما هو مخالف للتوراة التي نصت صراحة على أن آدم أبو البشر فحمل ذلك بعض الناس على الطعن في كونها من عند اللَّه ووحيه»[٢] .

❑ وكان الأولى بالشيخ المراغي أن يدعو إلى إنكار هذه الفكرة والرد عليها وبيان مخالفتها لنصوص القرآن؛ حتى إذا ما ثبت للناس بعد هذا بطلان هذه النظرية وقف المسلم شامخًا معتزًا بدينه، وكأنه يقول أرأيتم الدين الحق يقول كلمته مخالفًا نظرية في وقت دولتها وعصر سطوتها حتى حسبها بعض الناس حقيقة علمية، ولكن الإسلام يقول كلمته ولا يقف يعضُّ بنانه حائرًا بين تأييدها أو إنكارها جاهلاً الحق فيها أو يقف حائرًا بين هذه النظرية وحقيقة دينه الناصعة فيها، بل يقول حقائق دينه، ولو خالفت ما توهمه المتوهمون وزعمه الزاعمون.

❑ ويفسر الشيخ رشيد رضا المراد بالنفس بقوله: «هذا وأن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات ـ أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٢٧).

(٢) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (٤/ ١٧٥).

خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ولا فرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما دل عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والصوفية، أو بدئت بعدة أصول ابنث منها عدة أصناف كما عليه بعض الباحثين ـ ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر»[1].

ثم قال: «على كل حال وكل قول يصح أن جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسًا وهي التي يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة لهم فتراهم على اختلافهم في أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف: أنهم إخوتنا في الإنسانية فيعدون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر سواء اعتقدوا أن أباهم آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك»[2].

◻ لا نريد الرد عليه هنا بإثبات أن مناط الوحدة والألفة في الإسلام هو الدين لا الإنسانية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]»اهـ.

*** الدكتور عبدالصبور شاهين يخالف إجماع الأمة ويأتي بالعجب العجاب فيتصدى له الدكتور عبدالعظيم المطعني ويلقمه حجراً:**

في كتابه «أبي آدم.. قصته الخليقة بين الأسطورة والحقيقة» الذي صدر فيه عام ١٩٩٨م عن دار النشر المسماة بـ «الروافد الثقافية» أنكر الدكتور

(١) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (٤/ ١٧٥).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٧).

عبدالصبور شاهين أن يكون آدم أبًا للبشر، ولا أن يكون هو أول مخلوق عاقل من غير الجن والملائكة ولنترك المجال لفضيلة الشيخ الدكتور عبدالعظيم المطعني الذي أفحمه في رده، وقال قولاً شافيًّا.

❑ يقول الدكتور المطعني في كتابه «أبي آدم.. قصته الخليقة.. بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض»: «الفكرة التي تبناها الكتاب من أول سطر فيه إلى آخر سطر، هي باختصار شديد الآن، أن آدم عليه السلام ليس هو أبا البشر، ولا هو أول مخلوق عاقل من غير الملائكة والجن؟!

بل هو أبو الإنسان، وأن اللَّه تعالى خلق قبله من جنسه خلائق كثيرين عاشوا قبل آدم هذا ملايين السنين، وكانوا في تلك الأزمان خاضعين للتصرف الإلهي من التسوية والتعديل والتهذيب، ثم انقرضوا جميعًا بعد أن انتخب اللَّه منهم آدم ـ هذا ـ من أب وأم منهم، كما انتخب حواء زوجة آدم من أب وأم كذلك من آخر أجيال البشر الأولين، الذين انقرضوا تمامًا. ولم يصبح في الوجود منهم أحد، وأن آدم وحواء وحدهما هما اللذان بقيا ليكونا أبوين لنوع جديد من ذلك الجنس الذي انقرض. أي نوع الإنسان المستمر توالده حتى الآن إلى قيام الساعة؟!

والفروق بين البشر والإنسان عند الدكتور عبدالصبور شاهين نوجزها الآن في الفروق الآتية:

ـ البشر أقوام همجيون لا سمع ولا بصر لهم ولا عقل؟!

ـ الإنسان هو النوع المنتخب المهذب الراقي، لهم سمع وأبصار وعقول.

ـ البشر لم يرسل اللَّه فيهم رسولاً، ولم يكونوا من أهل التكليف الإلهي، فلا إيمان باللَّه، ولا أوامر ولا نواهٍ كلفهم اللَّه بها؛ لأنهم كما ردد هذا الدكتور شاهين مرات، كانوا بمثابة مشروع إلهي تحت التنشئة، ينتقلون بصنع اللَّه من طور ـ إلى طور آخذين في الصعود نحو الرقي والكمال، وهذا

هو ما قاله دعاة «نظرية النشوء والارتقاء» أو الانتخاب الطبيعي من قبل، وأن «البقاء للأصلح».

ـ البشر مخلوقون من تراب أو طين.

ـ أما الإنسان فإنه هو المخلوق من «ماء» أو من «علق» أو من «نطفة».

هذه هي الفكرة، التي تمثل خطوط العرض والطول في هذا الكتاب؛ لأنها ملكت كل حواس ومشاعر المؤلف وعاشت في وجدانه ـ كما قال هو ـ خمسة وعشرين عامًا أو تزيد. هذه الفكرة هي التي نواجهها في هذه الدراسة. ولكن قبل البدء في المواجهة، لا بد من تحرير مدخل لهذه الدراسة، نعرض فيه بعض الأمور المهمة، التي تتصل بفكرة الكتاب، من جهة، وبمنهج المؤلف في عرضها، ثم الجهة التي اعتمد عليها في إثبات الفكرة التي تحمس لها، والنظر في الطريقة، أو الطرق، التي سلكها في انتزاع الأدلة منها، وهل سلمت له أدلته فيكون قد أثبت الفكرة التي تبناها بما لا مجال للطعن فيه، أم لم يسلم له استدلال في الواقع، وإن كان هو يراه مقنعًا يفيد اليقين، أو حتى الظن القوي، الذي يشيع في النفس نوعًا ما من الاطمئنان.

فالدعوى التي ادعاها المؤلف دعوى «غريبة» حقًّا، والدعاوى الغريبة، إذا وجه بها مدَّعُوها الناس تكون في أمس الحاجة، إلى أدلة قوية تكافئ المقام الذي يحدثه رد الفعل. وإلا كانت وهمًا من أوهم الأوهام»[1].

*** موقف السلف من هذه القضية:**

◻ وخلاصة موقف السلف: أن هذه القضية أمر غيبي، يجب الإيمان

---

(١) «أبي آدم.. قصة الخليقة بين الخيال الجامح.. والتأويل المرفوض» للدكتور عبدالعظيم المطعني ص(٧ ـ ٨) ـ مكتبة وهبة.

بها كما وردت في كتاب اللَّه، وكما أشارت إليه أحاديث الصادق المصدوق ﷺ.

والوقوف في الإيمان بها عند دلالات النصوص المقدسة دون تحريف، أو تأويل تأباه دلالات اللغة العربية التي نزل بها القرآن، أو تأباه حقائق الإسلام الواضحة. وأن هذه القضية لا يحتاج المسلم في الإيمان بها جملة وتفصيلاً إلى مصادر أخرى غير المصادر الإسلامية المقدسة.

- وأنهم لا يقولون فيها غير ما قاله اللَّه ورسوله. شأنهم فيها شأنهم في كل أمر غيبي لا يملك الحديث عنه إلا علام الغيوب.

- لهذا، فإننا نختلف كل الاختلاف مع الدكتور عبدالصبور شاهين في موقفه غير المنصف، حيث ذكر في إحدى مقدمات كتابه الفقرة الآتية:

«قال المفسرون بألفاظ مختلفة، ومعان متفقة: إن اللَّه تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام، أوحى إلى الأرض: إني خالق منك خلقًا منهم من يطيعني، ومنهم من يعصني، فمن أطاعني منهم أدخلته الجنة، ومن عصاني أدخلته النار، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها، فلما آتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض: إني أعوذ بعزة اللَّه الذي أرسلك لا تأخذ مني شيئًا يكون فيه غدًا للنار نصيب، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئًا. قال: يا رب، استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها؟

فأمر اللَّه ميكائيل عليه السلام، فأتى الأرض فاستعاذت باللَّه أن يأخذ منها شيئًا، فرجع إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئًا؟

فبعث اللَّه ملك الموت، فأتى الأرض فاستعاذت باللَّه أن يأخذ منها شيئًا، فقال ملك الموت: وإني أعوذ باللَّه أن أعصي له أمرًا، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى، ومن سبختها وطينها، وأحمرها وأسودها

وأبيضها وسهلها وحزنها، فكذلك كأن في ذرية آدم الطيب والخبيث، والصالح والطالح، والجميل والقبيح ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم..»[١].

□ قدَّم المؤلف لهذه الفقرة بقوله:

«جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بـ «العرائس..» ثم عقب عليها بقوله:

على هذه مضت كل كتب التفسير تقريبًا، وكلها تنقل عن مصدر واحد، مع انطواء الرواية، على كثير من صور السذاجة»[٢].

وهذا الصنيع من المؤلف يوحي لجمهور قراء كتابه أن ما ذكره صاحب «عرائس المجالس» هو التصور الإسلامي الوحيد في قصة آدم، بدليل أن جميع المفسرين أطبقوا على ترديد ما ذكره صاحب «العرائس» وهو ينقل في كتابه خرافات لا حصر لها، لا يصدقها عقل، ولم يرد بها نقل مع بُعد ما ذكره عن الاعتقاد الإسلامي الصحيح في نشأة آدم عليه السلام.

وهذا الذي ذكره إنما هو مجرد رواية، أو روايات غير معتمدة في النظر الصحيح. فلم ينص عليه السلف في مسائل الاعتقاد، ولم يرد في مسائل ما أجمعت عليه الأمة، ووجوده في كتاب التاريخ والسير، ليس معناه اعتماده والإيمان به، وهذه الروايات وإن وردت في بعض المصادر الإسلامية بدون تنبيه عليها، فإنها لا تسلم من الطعن في مصادر أخرى. وعلماء الكلام، وغيرهم نصوا بكل وضوح على مسائل الاعتقاد الصحيح الذي يجب على المسلم الوقوف عندها. ولهم في ذلك مؤلفات مطولة وموجزة، مثل «منهاج السنة النبوية» للإمام ابن تيمية، و«مجموعة الفتاوى الكبرى» له، ومثل «الإبانة» للإمام أبي الحسن الأشعري.

---

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور شاهين ص(٧).

(٢) المصدر السابق ص(٩).

فكان حريًا بالدكتور شاهين أن يغفل هذا الجانب ولا يذكر ما يسيء إلى سلف الأمة الصالح، ثم يكتفي به ليضع السلف موضع السخرية أمام قراء كتابه ويظهرهم بمظهر المرددين ـ بلا وعي ـ لأكاذيب بني إسرائيل، والنقل عنهم بلا أدنى روية. وهو يعلم الحركات النقدية الواعية، التي قام بها العلماء حول الأكاذيب الإسرائيلية في التفاسير والسيرة والتاريخ والأحاديث النبوية، ووضع الضوابط التي يعرف بها الصحيح من الأقوال، ويعرف بها كل ما هو مكذوب أو معلول. وقد استمرت هذه الحركات الوثابة من عصر الإمام البخاري، وبلغت ذروتها في عصر ابن الصلاح صاحب كتاب «علوم الحديث» المتوفى في القرن السابع الهجري. وما يزال أهل العلم حتى يومنا هذا يضيفون إضافات حسنة إلى جهود أولئك العلماء الأعلام. ولكن يبدو أن بريق الفكرة، التي أراد الدكتور شاهين عرضها على الناس، قد أنساه الإشارة إلى بعض الأساسيات «الواقية» التي تحول بين القراء وبين سوء الظن بعلماء الأمة، الذين نحن عالة عليهم الآن»[1] .

❑ يقول الدكتور المطعني في رده على الدكتور عبدالصبور شاهين:

«عرض المؤلف في الشطر الأول بعد المقدمة لثلاث نقاط هي:

ـ القصة بين العقل والنقل.

ـ النظرة العلمية.

ـ نظرة القدماء إلى وجود الخليقة.

أما المقدمة فقد أشار فيها إلى خطورة الفكرة التي وضع من أجلها الكتاب، وهي الفصل التام بين البشر والإنسان وأشار فيها إلى أن باحثًا معاصراً من تونس كتب بحثًا ذهب فيه إلى أن البشر غير الإنسان. وأن

---

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(١٢ ـ ١٤).

المؤلف ـ أعني الدكتور عبدالصبور شاهين ـ يتفق معه في أصل الفكرة ويختلف معه في التفاصيل[1] .

أما النقاط الثلاثة الأول، فقد كان الغرض منها لدى المؤلف أن قصة الخليقة يغلب عليها الغموض والاضطراب بين العقل والعلم والروايات الدينية بوجه عام، وأن إزالة هذا الغموض، وذاك الاضطراب، لا يمكن حصوله من جهة العلم العملي التجريبي، ولا من جهة الروايات الدينية التي ساق جانبًا منها، وإنما السبيل الوحيد هو ما ورد في القرآن الكريم، لكن لا على فهم القدماء للآيات القرآنية التي تحدثت عن «قصة آدم» بل على نظر جديد مغاير تمامًا لما ذكره المفسرون، وما قام عليه إجماع علماء الأمة، وفي ذلك يقول:

«أما القرآن، وهي الكلمة النهائية في الخطاب ما بين السماء والأرض، أو ما بين الأعلى والأدنى، فإنه ـ ولا شك ـ يقدم للعقل الإنساني الحقائق النهائية في الموضوع. ولكن الأجيال تتفاوت في فهم النص المقدس؛ حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الديني، حتى الآن من النصوص، مناقضًا للعلم، ولا سبيل إلى اللقاء بينهما»[2] .

ظاهر جدًا أن الدكتور عبدالصبور شاهين ينكر في هذه الفقرة التي نقلناها عنه، ينكر ما أجمعت عليه الأمة في فهم الآيات التي تحدثت عن خلق آدم وزوجه وذريته، والسبب عنده أن هذا الفهم يبدو مناقضًا للعلم، ويعني بالعلم تلك النظريات المتضاربة، الناتجة عن دراسة بعض الجماجم والآثار. ونذكر القارئ الكريم أننا نقلنا من قبل من كلام الدكتور شاهين ما أفاد رفضه هو نفسه لنتائج التجارب العلمية. وحتى إذا فرضنا أن اختلافًا ما

---

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(١٣ ـ ١٦) واسم الباحث هو: بشير التركي.

(٢) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(٤٢).

حدث بين معان وردت في القرآن، وبين نتائج علمية من هذا النوع تحدث عنه في كتابه، فإن الخطأ يكون في نتائج التجارب العلمية لا في معاني القرآن إذ لم يثبت ـ ولن يثبت ـ حدوث تناقض بين الحقائق العلمية اليقينية، وبين المعاني القطعية الواردة في كتاب اللَّه العزيز. والدكتور شاهين نفسه يدرك هذه الحقيقة تمامًا.

وبعد أن هوَّن من شأن ما أجمعت عليه الأمة في شأن خلق آدم وذريته، نراه يقترح البديل الذي يزيل ما بين العلم والعقل وبين القرآن من تعارض، أو تناقض فيقول بعد أن تساءل هل يمكن التوافق بين ما يفهم من القرآن وبين العلم والعقل: وهذه عبارته بالحرف «وهل من سبيل إلى لقاء بينهما»؟

«نحن نرى أن ذلك ممكن، من خلال فهم واعٍ للنصوص القرآنية. فهمٌ يخرج عن المذهب التقليدي، الذي التزمت به التفاسير كلها؟ ويسعى إلى استنطاق النظم القرآني، ما دام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن»؟[1] .

□ معنى هذا الكلام أن تناقضًا عظيمًا حدث بين العلم والقرآن في مسألة بدء الخليقة، وأن آدم عليه السلام هو أبو البشر والإنسان والناس والإنس، وأن هذا التناقض لن يُزال إلا بالنظر الجديد في دراسة الآيات القرآنية، الذي سيقوم به الدكتور عبدالصبور شاهين بعد قليل، بعد رفضه القاطع لما أجمعت عليه الأمة ـ سلفًا وخلفًا ـ من فهمهما للآيات التي تتحدث عن خلق آدم وما تربت عليه من وقائع؟

ولا يُفْهمُ من كلامه هذا أنه يريد تلك الروايات الواهية، من خارج القرآن والحديث الصحيح؛ نحن نرفض أن يكون مراد المؤلف تلك الروايات.

---

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(٤٢).

ولرفضنا هذا سببان قويان:

الأول: أن تلك الروايات الواهية التي وردت في كتب التراث ليست هي عقيدة الأمة، ولا فهمها المجمع عليه في وقائع الخلق الأول. بل إن عقيدة الأمة أرفع قدرًا وأصدق تصورًا، وأصح سندًا مما حفلت به الروايات النظرية التي لا تثبت أمام النظر الغامض السليم، ومن يدعي قصر عقيدة الأمة على تلك الروايات الواهية فقد أعظم على اللَّه الفرية. وسلوك الدكتور شاهين نفسه ـ كما سيأتي ـ هو الدليل أو السبب الثاني الذي حملنا على القول ـ بكل اطمئنان ـ على أنه لم يرد هذا الذي نفينا آنفًا أن يكون هو مراده من عبارته الثانية التي نحن بصدد التعليق عليها هنا.

الثاني: أن الدكتور شاهين ـ فيما سيأتي عمد إلى الآيات التي تحدثت عن خلق آدم، ورفض تفسير علماء الأمة لها، وقام بوضع تفسير آخر من عنده مخالف كل المخالفة للتفسير المجمع عليه عند سلف الأمة وخلفها سعيًا وراء إثبات الفكرة التي من أجلها وضع كتابه «أبي آدم».

وهذا يؤكد ـ بكل قوة ووضوح ـ أنه لم يقصد رفض الروايات الواهية، فهي مرفوضة قطعًا ـ وإنما أراد رفض التفسير الصحيح، الذي أجمعت عليه الأمة جمعاء ثم بنت عقيدتها في خلق اللَّه آدم عليه، وهو نفسه يعلن ذلك مرات، ويسم منهج سلف الأمة وخلفها بالمذهب التقليدي، الذي ترتب عليه حدوث صدام عنيف بين العلم والقرآن؟!

ومسألة بدء الخلق مسألة غيبية محضة. والأمور الغيبية لا صلة للعلم التجريبي بها لا من قريب ولا من بعيد، والمعول عليه فيها هو الوحي الأمين، أو الخبر الصادق عن لسان رسول اللَّه ﷺ. فإذا ورد على لسان الشرع معنى قطعي، وجب على العقل التسليم به سواء فهم وأدرك كنهه، أو لم يفهم ولم يدرك. أما العلم فإن جاءت نتائج بحثه مطابقة لخبر الشرع فتلك

هي محمدة تحسب للعلم وأهله، وإن اختلفت فعلى العلماء أن يتهموا أنفسهم بالعجز أو الخطأ في الاستدلال. ويبقى الحق مع ما قرره الوحي أو الرسول ﷺ. إذن، فما كان ينبغي ـ أصلاً ـ وضع العلم التجريبي في درجة مكافئة للوحي، تمهد لنشوء خصومة بينهما، ثم تحمل هذه الخصومة بعضنا للاعتداء على النصوص المقدسة فننزلها من هاماتها العُلى، لنعقد مصالحة بينها وبين دلالات العظام البالية، والجماجم المحطمة ونحن كما قال ربنا: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ واللَّه وحده هو «علام الغيوب».

أما الشطر الثاني من الكتاب، فقد وقفه المؤلف على حديث القرآن عن الإنسان.

والغرض منه إثبات التفرقة بين مفهوم «بشر» ومفهوم «إنسان» وأن «بشر» الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ليس هو آدم قط بل هو أب لبشر كثيرين.

وأن «بشر» هذا ليس هو الذي أمر اللَّه الملائكة بالسجود له، وليس هو المخلوق الذي خلقه اللَّه لعبادته، وأرسل إليه رسله؛ لأن «بشر» هذا ومن تناسل منه كانوا مثل الدمى لا عقل ولا سمع ولا أبصار لهم. بل هم «مشروع بدائي جدًّا موضوع تحت التعديل والتسوية والترقي شيئًا فشيئًا، خاضع للتنشئة عبر ملايين السنين؟ وبعد ما لا يعلمه إلا اللَّه من تطاول الأزمان حدثت تصفية جذرية فانقرض بنو البشر جميعًا، ولم يصطف اللَّه منهم إلا اثنين هما: آدم وحواء، اصطفاهما بعد تلك التجارب الطويلة من أبوين وأمّين؟

فآدم هذا غير «بشر» الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

وهكذا تطور الوجود من بشر مخلوق من تراب ثم انقرض تمامًا إلى «إنسان» مخلوق من ماء، هو الذي أسجد اللَّه له الملائكة، وكلفه بعبادته،

وأرسل إليه رسله، ثم راح الدكتور عبدالصبور شاهين يستدل على هذا الزعم الغريب بالآيات القرآنية بعد حملها على غير معناها كما سنرى فيما يأتي:

*** المنهج الذي سلكه في كتابه:**

لكل باحث منهج يختاره في سبيل الوصول إلى غايته من بحثه. ويصطبغ هذا المنهج بصبغة المادة موضوع الدراسة ومنزع الاستدلال.

ومنهج الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين في محاولته إثبات الفكرة التي تبناها لا يخرج عما أثبتناه في عنوان هذه الدراسة أو المواجهة، وهما دعامتان رئيستان:

الأولى: الخيال الجامح أو المفرط في التصور؛ لأن التفرقة بين البشر الذي انقرض عنده، والإنسان الذي يعمر الأرض ـ الآن ـ ويتناسل ويتوالد إلي يوم القيامة، أن تصور هذه التفرقة من صنع الخيال الجامح، أو الوهم الموغل في الإيهام، ومحال أن يكون لهذا التصور مثقال ذرة من واقع، أو خيال مقبول.

إن عمل هذا الخيال هو المسيطر على هذه الفكرة من الألف إلى الياء، أو من ما قبل الألف إلى ما بعد الياء.

أما الدعامة الثانية: فهي التأويل المرفوض المرفوض، حيث لم يَدَعْ المؤلف نصًّا واحدًا، يقف حجرة عثرة في طريق فكرته إلا سارع إلى تأويله بما يتفق مع مراده. ولولا ذلك الخيال الجامح، وهذا التأويل المرفوض لوئدت فكرته في صلب أبيها قبل أن تستقر في رحم أمها، ولكنه بهاتين الدعامتين طارت الفكرة بلا جناحين، ولكنه طيران وقف بها عند نقطة البدء، فلا صعود ولا إقدام، وذلك شأن كل ما ليس له وجود إلا في الوهم.

والمنهج الذي سلكه الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين يذكرنا بمذهب المعتزلة في الانتصار لمعتقداتهم وآرائهم في مسائل النظام السياسي ومسائل الاعتقاد.

فهم ـ مثله ـ ما كانوا يأخذون الأحكام من واقع النصوص المقدسة، بل كانوا يقررون ما يرون من آراء ومذاهب، ثم ينزلون النصوص المقدسة عليها، فما وافق معتقداتهم اعتمدوه، وما خالفها فلهم فيه مسلكان:

الأول: أن يصرفوه عن ظاهر معناه ويؤولوه بما يتفق وآراءهم، غير عابئين بدلالات اللغة وطرائق البيان في المفردات والتراكيب، وقد سجَّل عليهم خصومهم شناعات منكرة نتجت عن تأويلاتهم التعسفية للنصوص مما لا يقره نقل، ولا يقبله عقل.

أما الثاني: فقد كانوا يطعنون في صحة النص إذا استعصى عليهم تأويله، وهذا خاص بما كان غير قرآن؛ لأن القرآن قطعي الثبوت.

هذا ما أردنا بيانه في هذا المدخل، ونكتفي به. أما ما يتعلق بالشطر الثاني من الكتاب فهو ما عنون له المؤلف بـ «حديث القرآن عن الإنسان» وهو غرضنا الأهم من تحرير هذه الصفحات. فلنول وجوهنا شطره، وباللَّه ومن اللَّه التوفيق»[(١)] .

□ يقول الدكتور المطعني على تفرقة عبدالصبور بين بشر وإنسان:

«وهذا تحكم بغيض حمله عليه التعصب لرأيه بعد أن أقام فواصل وهمية بين البشر من جهة والإنسان والإنس والناس من جهة أخرى.

□ وهذه البدعة لم يقل بها أحد من أهل العلم، ولا وردت بها الآثار اللغوية. بل اللغة تقرر أن هذه الكلمات: البشر، الإنسان، الناس، الإنس،

---

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(١٤ ـ ٢٠).

تطلق على بني آدم عليه السلام، وهي وإن كان لكل منها اعتبار خاص في التسمية بها، فلا يراد لغة ولا عرفًا ولا شرعًا منها إلا الدلالة على بني آدم.

والدكتور شاهين يعلم ذلك جيدًا، ولكن تعصبه لرأيه المعروض في كتابه «أبي آدم» أنساه كل الضوابط اللغوية، وغير اللغوية.

□ وبقي في هذا المبحث تحكُّم آخر، مهد له بقوله:

«غير أن خلق زوج آدم من نفسه مشكل. فهل حواء من ضلع آدم، كما ورد بذلك آثار؟ أو أن حواء خلقت خلقًا مستقلاً ـ يعني من أب وأم ـ كما هو شأن آدم؟».

ثم يختار المؤلف الرأي الثاني كما أشرنا في المدخل، ونراه هنا يشير إلى حديث صحيح رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ، يقرر أن حواء خلقت من ضلع آدم بلا أب ولا أم، وهذا الحديث يتفق مع ظاهر المعنى في آيتي النساء والأعراف: ﴿وَخَلَقَ مِنها زَوْجَهَا﴾ في النساء، ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا﴾ في الأعراف.

لكن المؤلف يضرب بدلالة الآيتين والحديث عُرْض الحائط، ويتشبث بتأويلين لا وزن لهما، ولم تدع إليهما ضرورة شرعية أو عقلية أو لغوية؟

الأول: تأويل النفس في الآيتين بالنوع أو الجنس، أي خلق اللَّه حواء من فصيلة آدم وجنسه، لا من جنس آخر.

والثاني: حمل الخلق من ضلع آدم على التمثيل والتشبيه والمعنى المراد منه الرمز إلى اعوعاج في طبع المرأة؟

□ وإنما قلنا إن هذين التأويلين لا وزن لهما لسببين:

الأول: أن إبقاء المعنى على ظاهر المراد من الآيتين والحديث سائغ لا حرج فيه. والتأويل يُحتاج إليه حين يمنع من ظاهر الكلام مانع شرعي أو

عقلي، ولا مانع هنا قط.

الثاني: أن إجراء المعنى في الآيتين على الظاهر يتضمن أن حواء مخلوقة من جنس آدم وفصيلته وفي هذا تمام النعمة المراد وهو الامتنان بالخلق والجعل»[(١)] .

□ ويقول الدكتور المطعني أيضًا: «يعلم القارئ قبل اطلاعه على كتاب «أبي آدم» للدكتور عبدالصبور شاهين أن البشر والإنسان لهما معنى واحد هو ابن آدم، أو أبناء آدم. ولا يعرف لهذا مخالف من سلف الأمة أو خلفها.

لكن الدكتور شاهين يفاجؤنا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فجاء كتابه هذا ببدعة «العصر» وأعلن أن البشر غير الإنسان، وأن الأمة طوال خمسة عشر قرنًا من الزمان غفلت عن هذه الحقيقة، أو ضل عنها بصرها وزاغ»[(٢)] .

*** مشروع إنسان !!!**

□ يقول د. عبدالصبور في كتابه «أبي آدم» ص(٨٨): «فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنسانًا، بل كان مشروع إنسان في حيز الفطرة قبل أن يكون إنسانًا في حيز القوة»؟!!.

□ يقول الدكتور المطعني: «ولم يقتصر ذكر كلمة «مشروع، أو المشروع» في كلامه على هذا الموضع، بل ذكره مرات في كتابه «أبي آدم»، الدكتور شاهين ـ هنا ـ يغرق في الخيال أو الوهم بلا حدود، أو يرجم بالغيب بلا ضوابط.

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(٢٧ ـ ٢٨).
(٢) المصدر السابق ص(٣٠).

ثم يغرق ويغرق مرة أخرى حين يكرر في كتابه أن هذا المشروع ظل تحت الرعاية الإلهية المكثفة ملايين السنين؟ يا سبحان اللَّه؟ ملايين السنين وهو مشروع إلهي؟ فلماذا هذا البطء يا دكتور؟ ألعجز في قدرة اللَّه، تعالى اللَّه عما نقول علواً كبيراً؟ أم لحكمة غابت عن مدارك ذوي التبصير؟!!!»، ثم يأتي الدكتور المطعني بالآيات التي وردت فيها «كن فيكون»، ثم يقول: «هذه سبع آيات يخبر اللَّه فيها عن نفسه، بأن أداة الخلق والتكوين عنده هي كلمة «كن» فيكون ما قضى وأراد دون مسافة فاصلة بين صدور الأمر، ووقوع المأمور به».

❑ ثم يقول الدكتور المطعني ص(٣٩ ـ ٤٠): «نسألك يا سيادة الدكتور: خلق السموات والأرض وما بينهما أكبر وأظهر أم خلق الناس؟ أنت لا بد قائل في الجواب: بل خلق السموات والأرض وما بينهما أكبر وأظهر؛ لأن اللَّه عز وجل قال في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

هذا الخلق الأكبر من خلق الناس خلقه اللَّه في ستة أيام كما جاء في القرآن مرات عديدات:

* ففي سورة الأعراف [٥٤] جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾.

* وفي سورة السجدة [٤] قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ..﴾.

فإذا كان خلق السموات والأرض وما بينهما من أفلاك ونجوم وكواكب، هذا العمل الضخم الفخم ثم إنجازه بما فيه من دقائق وأسرار وإحكام في ستة

أيام، فكيف يقع الوهم أن مشروع تطوير «البشر» إلى «إنسان» استغرق ملايين السنين؟ ولو كان الأمر هكذا لذكر اللَّه تعالى بيانًا عنه كما ذكر مدة خلق الكون، ومراحل الأجنة في بطون أمهاتها».

*** دعوى الدكتور عبدالصبور شاهين بخلو المجتمع البشري من التكليف:**

□ يقول الدكتور المطعني ص(٥٥): «ومن غرائب مدعيات المؤلف، أنه بعد أن سلب عن مفهوم «البشر» كل وسائل الإحساس، وصورهم في أشكال ممسوخة لا تعرف لهم وجهًا من قفا، ولا بطنًا من ظهر، ادعى أنهم كانوا مهملين من جانب اللَّه، بل هم كالأنعام أو هم أضل:

فلم يكلفهم اللَّه بمعرفة ذاته، ولم يطالبهم بتوحيده، ولم يأمرهم بخير، ولم ينههم عن شر، ولِمَ لم يكونوا كذلك عند المؤلف وهم - عنده - صم بكم عمى، في صورة جماد متحرك، ولكن حركاته وسكناته همجية غشيمة ليس من ورائها قصد ولا إرادة؟!

وهذه الدعوى من المؤلف هي - كما يمثل الفلاسفة والمناطقة لكل أمر وهمي - القُبَّعة السوداء التي يُبحَثُ عنها في غرفة مظلمة لا وجود لها».

□ وفي هذه الدعوى يقول المؤلف: «ولأمر ما وجدنا القرآن لا يخاطب البشر، بل يخاطب الإنسان، والتكليف الديني منوط بصفة الإنسانية لا بصفة البشرية، فلم يعد للبشر وجود منذ ظهر آدم عليه السلام وتناسلت ذريته، وورث الأرض، وما عليها»[1].

□ ثم يقول الدكتور المطعني: «إذن تعالى نحتكم إلى فيصل ما بين الحق والباطل والصواب والخطأ:

* ففي سورة آل عمران الآية (٧٩) يقول اللَّه جل شأنه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ

(١) «أبي آدم» للدكتور عبدالصبور ص(٩٨).

أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾. فقد وضع القرن أفراد البشر في هذه الآية موضعًا فوق درجة التكليف العام (العادي) الذي هو صفة لكل فرد منهم، ذلك الموضع (الفوق) هو:

ـ أن البشر صالحون لأن ينزل اللَّه على من يختار منهم وحيًا من عند اللَّه (الكتاب).

ـ أن البشر صالحون لأن يجعل اللَّه من يختار منهم ولي أمر أو حاكمًا عامًّا لشعب أو أمة (الحكم).

ـ أن البشر صالحون لأن يتخذ اللَّه منهم أنبياء (النبوة) وهذا فضل اللَّه في أعلى درجاته يهبه اللَّه لمن يشاء من البشر.

* وفي سورة المدثر (٣١) يقول أحكم الحاكمين: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

* وفي السورة نفسها الآية (٣٦) يوقل رب العالمين: ﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ﴾.

فلو كان البشر غير مكلفين لما أنزل اللَّه عليهم وحيًا، وما جعلهم ساسة الناس على الأرض، وما بعث منهم رسولاً ولا نبيًّا، وما لفت أنظارهم مذكِّرًا لهم، وما أنذرهم بطشه وعقابه. أليس هذا هو التكليف بدرجاته العليا والدنيا يا دكتور عبدالصبور؟

◘ لو كنا نواجه غيرك لقلنا له: أم أن التكليف معنى آخر عندك لم يعلمه اللَّه، ولا رسوله، ولا صالحو المؤمنين؟

شيء وحد يزيل كل هذه التحكمات والمغالطات، هو أن تقرّ أن البشر والإنسان وصفان لموصوف واحد. إذا أقررت بهذا وقفت مع الأمة في صف واحد، وإن أصررت ـ ولا نخالك تصر وقفت وحدك في صف، ووقفت الأمة كلها وراء رسولها في صف واحد أمامك.

◻ يا سيادة الدكتور: هل أنت ما تزال متمسكًا بقولك:

«أما الإنسان فلا يُطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام، وآدم على هذا هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر) ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله، تمهيدًا لظهور ذلك النسل الجديد»؟!![1] .

لقد غاليت وأسرفت في الادعاء يا سيادة الدكتور، وزاد من خطر مغالاتك استنادك فيها إلى القرآن الأمين، والقرآن بريء كل البراءة مما تنسب إليه. أما تخشى يا دكتور أن ينطبق عليك قول الحق عز وجل: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [المائدة: ١٣].

إنهم كانوا يحرفون الألفاظ والمعاني، قاتلهم الله، وأنت تحرِّف المعاني، وفي كلا التحريفيْن جرأة مذمومة وخيمة العواقب. ونحن ـ والله ـ ما كنا نتوقّع صدور هذا عنك مع ما لك من جهاد في سبيل الدعوة، فهل هذا من باب «لكل جواد كبوة، ولكل حليم نبوة» أم من باب «من مأمنه يؤتى الحذر»؟

◻ إن الأمل كبير في أن يعلن الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين براءته من هذا «اللغو» وأن يسارع بإعدام كتابه «أبي آدم» لأن في بقاء نسبته إليك فضائح؟ أم ترى أنك مجتهد، والمجتهد إذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر. لا يا دكتور، ليس هذا اجتهاداً، وإن كان الاجتهاد مع النص واقعًا في فهم النص إن كان احتمالي الدلالة أو احتمالي الثبوت.

لكن النص الذي حاولت الاجتهاد فيه نص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، يعني إنه في «حصانة من التأويل» فيجب التسليم بظاهر معانيه،

---

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(٩٨).

وبخاصة أن هذه القضية التي تناولتها في كتابك «أبي آدم» فوق أن نصوصها معصومة من التأويل، فإن لها محصنًا ثانيًا، وهو إجماع الأمة على التسليم بظواهر معانيها، فهل تسمح لنفسك استمراء الاعتداء على حرمة النص المقدّس، وإهدار إجماع الأمة ـ خاصتهم وعامتهم ـ القائم عليها.

إنه لمن أصعب الصعوبات علينا أن نراك منفردًا عن الأمة فتشمت فيك أعداءك إياهم وما أكثرهم؟ وما ألأمهم؟ وما أغدرهم؟ وما أخسّهم؟»(١).

وفي مقدمة هذه الأمة ـ بعد رسولها الكريم ـ أصحابه الكرام البررة، الذين قال فيهم علاَّم الغيوب: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح: ٢٩].

هؤلاء الذين أثنى اللَّه عليهم في هاتين الآيتين من آل عمران والفتح، وفي غيرهما من آيات كتاب اللَّه العزيز، في مقدمة من قسا عليهم المؤلف في الحكم وجار، ورماهم بالسذاجة والبله والبهلولية. درى الدكتور أو لم يدر؛ لأنه وهو يرسل هذه الأحكام ـ جزافًا ـ وبلا ضوابط أو معايير، ما كان يقيم وزنًا لمفهوم اللفظ بل قصر ذهنه على «منطوق اللفظ». والإنسان قد يقع في بحور من الإثم بإهماله مراعاة «مفهوم اللفظ» والدكتور على دراية بالمعاني التي تستفاد من دلالات الألفاظ والتراكيب سواء كانت تلك الدلالات قريبة أو بعيدة.

❑ وننقل للقراء هذه الفقرة من كلامه بالألفاظ والتراكيب التي خطها هو

---

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(٥٥ ـ ٥٨).

بقلمه: «ومعنى هذا أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ).

«ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بث الروح في الجسد؟! فقد حدث ذلك في مرحلة «الخلق» الأولى، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني، كما يتحرك سائر الكائنات من (حشرات)[1] وطير، وحيوان»[2] ؟!

◻ قف إمام قوله: «ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بعث الروح في الجسد»؟!

المؤلف يقصد النفخ في قوله اللَّه عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ هذا النفخ عند المؤلف نفخ من نوع خاص سيأتي ذكره بعد قليل أما عند الأمة ـ بدءًا من رسولها الكريم، وأصحابه البررة، والذين اتبعوهم بإحسان، إلى يومنا هذا فإن المراد بنفخ روحٍ من اللَّه في ذلك البشر الأول (آدم) هو النفخ الذي صار به «الجماد» إنسانًا ارجع إلى أحاديث رسول اللَّه كلها فلا تجد فيها ما يخالف هذا الفهم، ثم إلى تفاسير علماء الأمة لكتاب اللَّه العزيز، وكتب السيرة والتاريخ وكل مصادر المعرفة الإسلامية، فأنت غير واجد فيها ما يخالف هذا المعنى البدهي.

فإذا بحثت عن من وصفهم المؤلف بالسذاجة في عبارته المذكورة لم تبصر أمامك إلا أمة الإسلام لم يتخلف منها أحد. أفلست معي ـ إذن ـ بأن سيادة الدكتور قد وصف كل أفراد الأمة بالسذاجة والبله والبهلولية؟!

وهل هذا الاتهام الآثم عندك ـ أيها القارئ ـ هين أم عظيم؟ إن هذا

---

(١) هي في الأصل (حشر) وكتبناها هكذا (حشرات) جريًا على العرف اللغوي السائد.

(٢) «أبي آدم» ص(١٠٥).

التفسير للنفخ عند المؤلف تفسير بدعي شنيع، ولا نملك إلا أن نرده على القائل به مهما كان حظه من الثقافة والمعرفة. وإذا استقصينا استعمال القرآن لهذا النفخ وجدناه في كل مواضع وروده يحيل الجماد أو الأموات أحياء، إما ببعث الروح في الجسد لأول مرة. وإما لإعادة الحياة إليها بعد الموت، كما هو الشأن في البعث العام يوم القيامة. وليس فيه موضع واحد أريد به المعنى البدعي الذي انفرد به المؤلف ووصف مخالفيه فيه بالبله.

*** معنى النفخ عنده:**

بقي أن نعرف معنى النفخ عند الأستاذ الدكتور، ولكن قبل بيان معنى النفخ عنده، نذكر بمعنى التسوية التي سبقته في الآية ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ إنها عنده هي مهمة المشروع الإلهي لتهجين البشر عبر ملايين السنين ـ تحت المراقبة الإلهية الدقيقة ـ أمكن من خلالها نجاح ذلك المشروع المدهش فصار البشر إنسانًا، ودخل بوّابة الزمان بحضوره وحضارته هكذا قال؟!

هذا هو معنى التسوية، كرره في كتابه «أبي آدم» مرّات عديدات.

وقد شبّه المؤلف هذه التسوية بالهندسة «المعمارية» هندسة البناء وتجميله ومن الطريف أن المؤلف يسمى التسوية الإلهية: الهندسة المادية الظاهرية، وقد استغرق ملايين السنين؟!

أما النفخ عنده ـ فهو كما يقول: «ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السوّي بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها العقل؟ والحياة الاجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء.

وبذلك اكتمل مشروع بناء الإنسان، فكان آدم هو أول «إنسان» وطليعة

سلالة التكليف بتوحيد اللَّه وعبادته»[١] .

يعني: أن نفخ الروح في الآية كان بشق السمع والبصر وتركيب جهاز العقل فيه»!!![٢] .

* مصدر الأمة في نشأة الإنسانية:

من البواعث التي دعت المؤلف إلى تأليف كتابه «أبي آدم» حماية الأمة من التصديق بالروايات الإسرائيلية في نشأة الحياة الإنسانية على الأرض وإيجاد صيغة توفق بين القرآن والعقل والعلم فيها.

وقلنا آنفًا أنه لا منافرة بين القرآن والعقل والعلم في هذه القضية: لأنها قضية غيبية من اختصاص الوحي الصادق والقرآن لم يأت فيها بما يثير العلم، أو يغضب العقل، وعلى العقل والعلم أن يجثوا على الركب أما صوت الوحي لا في قصة آدم وحدها، بل في كل مسائل الغيب، أو مام يسمى بما وراء الطبيعة. فإن اصطنع علم عالم أو عقل عاقل خصومة مع الوحي في هذه الأمور فإنما يرجع ذلك إلى جهل العلم، وجنون العقل، ورحم اللَّه كل شيء عرف قدر نفسه.

ونقول هنا: إننا نختلف مع سيادة الدكتور كل الاختلاف في دعواه أن الأمة استقت عقيدتها في نشأة الحياة الإنسانية من الروايات الإسرائيلية الباطلة، كلا يا سيادة الدكتور: لأن الأمة لم تخرج قيد أنملة عن وحي ربها، وكفاها القرآن هاديًا وموجهًا، وما جاء به القرآن حول هذه القضية واضح كل الوضوح، كامل كل الكمال.

فلا الأحافير التاريخية ولا الروايات الإسرائيلية هي التي لقنتها عقيدتها

(١) «أبي آدم» لشاهين ص(١٠٥).

(٢) «أبي آدم» للمطعني ص(٦٩ ـ ٧٢).

في نشأة الحياة الإنسانية، وإنما هاديها هو القرآن في ماضيها وحاضرها ومستقبلها بإذن اللَّه.

ولم تتأثر كل التفاسير بالروايات الإسرائيلية. بل القليل منها، وأنت تعلم أن التفسير غير المفسَّر (اسم مفعول)؟ فرنين الآيات في الآذان، وأثرها في القلوب يمحو تلك الأساطير من النفس، وإن ظلت أسطرًا سوداء على الورق. وسل ـ إن شئت ـ أي مسلم عن قصة آدم فلن تجد على لسانه إلا ما جاء به القرآن مالئًا كل قلب مسيطرًا على كل نفس.. وأما الزبد فيذهب جفاء كما قال عز وجل، والإسرائيليات ـ عمومًا ـ نهض جيش عرموم من العلماء الأقدمين والمحدثين، وتتبعوها أثرًا أثرًا، وخبرًا خبرًا في شتى مصادر الفكر الإسلامي: في كتب التفسير وفي كتب الحديث، وفي كتب السيرة والتاريخ، ونبهوا عليها، وحذروا منها. وهي في كتب التفسير هين أمرها، أما في كتب الحديث فإن البلاء بها عم وطم، وهذا ما دعا الأقدمين من التصدي لها، فوضعوا تاريخ الرواة وصنفوهم أصنافًا كثيرة ونصوا على من تقبل روايته ومن ترد روايته، وجمعوا الأحاديث الموضوعة في مجلدات شتى ورتبوها ترتيبًا منهجيًا رائعًا، وأمام هذه الأعمال المجيدة، يسهل التمييز بين الحق والباطل والغث والسمين ولا يخشى على الأمة بعد هذا من ضلال، لكن بقيت كتب بعينها وضعها مؤلفوها بحسن نية أو بسوء نية، يحشو أدعياء الدعوة عقولهم بها في مادة وعظهم وخطبهم ودروسهم، ولو أن الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين أنفق من الخمسة والعشرين عامًا، التي أنفقها في هذا الكتاب «أبي آدم» لو أنفق خمسة أعوام منها في إحصاء تلك الكتب الضالة المضلة، وكتب تقريرات عنها، ونشرها في كتاب ليحذر منها أو طالب بجمعها من على الأرصفة وإعدامها، لقدم للدعوة أجل عمل، بدلاً من شَغْل نفسه بموضوع العلم به لا ينفع، والجهل به لا يضر.

وآخر ما نذكّر به أن هذا الكتاب «أبي آدم» من أوله إلى آخره، إنما هو مجموعة من أخبار مسندة إلى اللَّه، أي أن المؤلف يسوق أحداثًا ليس لها في الوجود فاعل لو كانت صوابًا، إلا اللَّه عز وجل:

فاللَّه هو الذي خلق آدم الأول (؟!) واللَّه الذي خلق ذرية آدم الأول، بلا سمع ولا بصر ولا عقل، وجعلهم يتناسلون عبر ملايين السنين، واللَّه الذي أهملهم وحرمهم من النور والهدى فلم يرسل إليهم رسولاً، ولم يعرِّفهم بالتوحيد، ولم يطلب منهم عبادة، واللَّه هو الذي أبادهم وطهر الأرض منهم، وأحل آدم الثاني وزوجه وذريته محلهم.

واللَّه الذي خلق آدم الأول من تراب، أمَّا آدم الثاني فقد خلقه من صلب أب، وترائب أم، إن له والدًا ووالدة، وحواء لم تخلق من ضلع آدم، بل لها أب وأم كذلك.

إن هذه كلها أخبار تروى عن اللَّه في كتاب «أبي آدم» وتسند إليه على لسان الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين، فما هي المصادر التي استقى منها هذه الحقائق، التي غابت عن فكر الإنسانية جمعاء؟ وإذا كان الإسلامُ يُجرِّمُ من يتحدث عن لسان الرسول بغير سند، ويمنع الرواية عنه بغير دليل، فما بالنا بإسناد وقائع خطيرة إلى اللَّه، بغير ما أخبر اللَّه به عن نفسه، ولا أخبر بها عن رسوله؟ هذا ما نريد من المؤلف تدبره، وإنعام النظر فيه، ثم اتخاذ القرار المناسب نحوه فإن الأمر جد خطير.

ونذكر الداعية الكبير بقول اللَّه تعالى، وهو يتوعد الذين خاضوا في أمرٍ غيبي، ليس لهم به علم، فوصف اللَّه خوضهم هذا بأنه «شهادة زور، وأنه سوف يسألهم عنها يوم القيامة، وذلك في سورة الزخرف.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

إنهم شهدوا شهادة زور واحدة.. وأنت شهدت ـ مجتهداً ـ عشرات الشهادات. فماذا أنت فاعل حين يقول اللَّه لك: أشهدت خلقهم يا عبدالصبور؟!

والأمر للَّه من قبل ومن بعد.. وعلى اللَّه قصد السبيل.

نداء: «من كل قلوبنا نادي الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين أن يعود إلى حظيرة الأمة في فهمها لقصة آدم؛ لأن خطو الأفراد نحو الأمة مقبلين عليها، أخف من خطو الأمة نحو الأفراد مقبلة عليهم؛ لأن الأمة هي الأصل. ومن نأى عن أصله اغترب. ومن عاد إلى أصله اقترب. ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية».

عزيزنا الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين: ما كان أحوجنا نحن وأنت، إلى غير هذا منك، وإلى غير هذا منا. وفقنا اللَّه وإياك إلى ما يرضيه، ويرضي رسوله، وصالحي المؤمنين، وسلام على عباده الذين اصطفى والحمد للَّه رب العالمين»[1].

* رئيس قسم السموم بجامعة القاهرة الدكتور إسماعيل منصور يبث سمومه في الأمة فيتصدى له الرجال:

الدكتور إسماعيل منصور رئيس قسم الطب الشرعي والسموم بجامعة القاهرة والخطيب بمسجده بمنطقة الإمام الشافعي بعد انتقاله من المنصورة حيث كان يخطب بمساجد الجمعية الشرعية، ثم أخرج سمومه للناس من خلال كتبه «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب»، وكتاب «شفاء الصدر بنفي عذاب القبر»، وكتاب «تبصير الأمة بحقيقة السنّة»، وهو يرى أن تدوين الحديث بدعة ضالة أحلّت بالأمة، وكتب السم بقلمه: نجمع صحاح البخاري ومسلم

---

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(١٥٨ ـ ١٦٠).

وسنن الترمذي وأبي داود وابن حبان وابن ماجه ومسند أحمد والدارمي وابن خزيمة والنسائي والدارقطني على الترتيب ثم نرمي بها في محرقة الباطل.

وعلى دربه يسير الدكتور محمد بن الشيخ عبداللطيف مشتهري، وقد كان والده داعية فذًا فإذا بالابن العاق الضال يسوّد الصفحات طعنًا في السنة الصحيحة عامله اللَّه بما يستحق.

* **أخي**: عش مع الحديث تفز.. ودر معه حيث دار.. اقصد النهر وخلّ القنوات.. إذا جاء نهر رسول اللَّه ﷺ بطل نهر معقل «فحكمة اللَّه مطويّة فيما يأمر به على ألسنة رسله، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه، ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله، ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا» كما يقول ابن الأثير الأديب.

* **أخي**: إن هذه الأقلام التي حادت عن سواء السبيل وتنكبت الصراط المستقيم وأنكرت وردت الأحاديث الصحاح بهواها حسابها شديد عند ربها ومولاها.

لا بُورِكت تلك الأكفُّ فإنها ... ضربتْ على الآذان سدًّا عاتيا
حجبت صديع[1] الرشد عنها فارتمت ... تجتاب ليل الغيِّ أسفع داجيا
بعثوا الصحائف يلتوين كأنما ... بعثوا بهنّ عقاربًا وأفاعيا
صحف يَزِلُّ الصدق عن صفحاتها ... ويظلُّ جدّ القول عنها نابيا[2]

***

(١) الصديع: الصبح.

(٢) انظر «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (١/ ٢٢٠).

جهاد أهل السنة الرجال
للمتصوفة والشيعة الرافضة الضلال

*** المتصوفة حادوا عن سواء السبيل وغيّروا وبدّلوا عقائد الأمة :**

ضربنا الأمثلة الكثيرة في جناية تقديم العقل على الشرع، وكيف طعنوا في السنة المشرفة بل وأنكروها.

وعلى الجانب الآخر ضُرب جانب التوحيد في الصميم بدعوى أصحاب المواجيد وأنصار التصوف الفلسفي وظهرت دعاوى مارقة من الاتحاد والحلول كدعوى الحلاج المقتول على الزندقة، ثم ظهر القول بوحدة الوجود، وكان الذي تولّى كبره شيخ الصوفية الأكبر وكبريتهم الأحمر ابن عربي وسار على نهجه العفيف التلمساني، والصدر القونوي، وابن سبعين، وابن الفارض صاحب التائية، وظهرت الدعوى الفاجرة لعبدالكريم الجيلي، والسهروردي المقتول على الزندقة.. وطفحت كتب المتأخرين بالخبيث الذي يصم الإسلام في الصميم ككتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني، وفيه ما لا تصدقه العقول مما يظنه أهل الهوس والجنون أنها كرامات.

*** شيخ الإسلام ابن تيمية الجبل والطود الذي دحر التصوف :**

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية في عصره المدافع الأول عن الاتباع والتوحيد وجاهر بتكفير ابن عربي ومن على شاكلته، وابتلي في ذات اللَّه فصبر حتى مات في سجنه.. ونفع اللَّه بكتبه ومؤلفاته في دحر التصوف.. وعلى طريقه سار شيوخ أنصار السنة كالشيخ حامد الفقي، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ عبدالرحمن الوكيل والشيخ محمد خليل هرّاس.

*** الوكيل يذبّ عن التوحيد ويبيّن عوار الصوفية في كتابه «هذه هي الصوفية»[1] :**

◻ يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل في مقدمة كتابه «هذه هي

(١) كل يؤخذ من قوله ويترك.. وأبى اللَّه العصمة إلا لكتابه.. نأخذ من الكتاب طيبه وهو أكثر الكتاب ومعظمه إلا هنات لا نأخذ بها.. ومنها جرحه غير المفرس لمن عدّله أهل العلم من الثقات.. فمعروف الكرخي يقول عنه ابن حنبل: «كان مع معروف رأس =

الصوفية»: «هداني اللَّه سواء سبيله، وسلكت بي رعايته مسلك التوحيد والإيمان، فماذا حدث بعد؟ تطلعت نفسي إلى الماضي الوثني - وهي نَهْب حسرة حزينة المأساة، وخميل أفراح معطّرة - تطلّع الناجي من السعير ما زالت في أتونه المتأجّج ضحايا تعسة منكودة جنت عليها الصوفية ما جنت عليّ، وتطلّعت إلى الريف الحزين، يستعبده شيوخ الطرق، ويغصبون أيتامه ما يُوَصْوِص فيهم من رَمَق خابي الشعاع، وأرامل ما هُنّ في حاجة ملهوفة إليه ليَسْدُدْن خَلّة، أوْ يسترن عورة، ومساكينه حتى الذبالة المحتضرة من حشاشتهم.

تطلّعت إلى الريف الوديع تجعل منه الصوفية فساد عقيدة، وضلالة فكر، وذل ومهانة في الأخلاق، ورَدْعة بدع وجهالة وخرافة وأساطير، وعبودية خانعة لهوى الأحبار، وسدانة يعكف فيها السدنة على بغي طواغيتهم، يبشرون بسماحة برِّه، وأريحيه رحمته!!

◻ وتطلّعت إلى المدينة يعبث في أرجائها الصوفية، فتحيل أهلها - حتى الكثير من المثقفين منهم - عبيد قبور، وعُبّاد جيف، وأحلاس منكر وزور، وموالي أذلاء لكل طاغية باغية.

◻ تطلّعت إلى هؤلاء وأولئك، وذكرت ما كابدته، فصرخت موجعًا من هول الفاجعة أحاول إنقاذ الضحايا التعسة، المُغِذّة السُّرَي وراء الذئاب الضواري من الصوفية!!

◻ وأكتب ما أكتب، ضارعًا إلى اللَّه وحده أن يمدّ المعونة، فمنه وحده يُسْتَمَدُّ. وأن يتبيّن لتلك الضحايا المسكينة أنها تتجرّع الغسلين تحسبه رحيقًا، وتطعم الْوَزِين تظنه فاكهة الخلد، وتدين بوثنية - هي شر ما ابتدع الشيطان

= العلم»، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف». ثم يجرحه هو!! لا والف لا.

لأوليائه من وثنيات، وتخالها توحيداً مطيّبًا بروْح اللَّه!!»[١، ٢] .

□ ويقول: «وقد يعيب علينا بعض من سحرتهم طقوس الصوفية، وشاعريتها الكهنوتية العنف في المحاجة، لكننا نقول: رويدكم!! فإنما نسمي الأشياء بأسمائها، ونصفها بصفاتها، فلا نقول عن الزّقوم إنه تفاح الجنة، ولا عن الغِسْلين إنه رحيق الفردوس، ولا عن الشرك إنه توحيد»[٣] .

□ ويقول الشيخ: «إن الحق والدفاع عنه يحتّمان علينا أن نسمي كل شيء باسمه، ونصفه بصفاته، وإلاّ افترينا عليه، وجعلنا للباطل السَّوْرة والصوْلة، وراجينا في الإيمان. أما هذه النعومة والطراوة والرخاوة المخنثة في الذياد عن الحق، والجهر بكلمة الحق، أما ذلك فشر أنواع الجبانة الذليلة، والخداع والرياء والعجز المهين!! قولوا عنا ما شئتم، فإن للحق صولة تجتاح كل صولة، ولن ينال منها أن ترموا بعض جنده بالعنف في البيان والمحاجة. وعجيب أن نُرمى بالعنف، أو يُنتقد علينا هذا في الدفاع عن أعظم مقدسات الدين والفضيلة، واللَّه يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: ٧٣].

قولوا ما شئتم، فليس بنافع ما تتقوّلون به في الذياد عن الصوفية أو الإبقاء على رمقها الشاحب المحتضر!! بل ستبقى رغم ما تتقوّلون به تلك

(١) «هذه هي الصوفية» لعبدالرحمن الوكيل ص(٧) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) نعذر هؤلاء بالجهل، ولقد فرق شيخ الإسلام بن تيمية بين كفر النوع وكفر العين وأن الرجل قد يرتكب فعل الكفر ولا يكفر به فربما كان الرجل جاهلاً أو متأولاً أو نشأ ببلدة لا تعرف الإسلام، أو كان حديث عهد بإسلام أو غلبة علماء السوء على البلدة. وشيخ الإسلام ابن عبدالوهاب يقول: «وإن كنا لا نكفر من طاف بقبر الجيلاني أو صنم البدوي، وإنما نعذره بجهله فكيف نكفرّ من لم يهاجر إلينا سبحانك هذا بهتان عظيم»، وهذا نقله عنه السهسواني في «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان».

(٣) «هذه هي الصوفية» ص(١١).

الحقائق الصاعقة العاصفة المدمرة تدك هياكل الصوفية، ستبقى شاهد عدل وحق ساطع البرهان على أن الصوفية عدو الإسلام الألدّ الخصام، بيْد أن هذا العدو يسحرك بغزل التقبيل، ويسكرك بخمرة العناق، حتى إذا أغْمَضَتْ عينيك النشوة الحالمة، أنفذ إلى صميم قلبك خنجره المسموم.

وما نشتري بما نكتب رضاء الناس، وإنما نبتغي به رضاء اللَّه، فللَّه ما بذلت من جهد، وأضرع إليه سبحانه أن يدخره لي جهدًا في سبيله، وألا يضيّعه بذنب منا نقترفه، وهو مولانا ونعم النصير»[1] .

◘ وانظر إلى بعض قذائف الشيخ:

«إله ابن الفارض»:

تحت هذا العنوان قال الشيخ الوكيل في كتابه ص(٢٤، ٢٥): «يؤمن هذا الصوفي ببدعة الاتحاد، أو الوحدة سمّها إن شئت، بصيرورة العبد ربًّا، والمخلوق خلاّقًا، والعدم الذاتي الصِّرف وجودًا واجبًا، وإذا شئت الحق في صريح من القول، فقل: هو مؤمن ببدعة الوحدة، تلك الأسطورة التي يؤمن كهنتها بأن الرب الصوفي تعيّن بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله في صور مادية أو ذهنية، فكان حيوانًا وجمادًا وإنسًا وجنًّا وأصنامًا وأوثانًا..»، ثم يدلل من تائية ابن الفارض.

جَلَتْ في تجلّيها الوجود بناظري ... ففي كل مَرْئيٍ أراها برؤيةِ

◘ وقوله:

فإنْ دُعِيَتْ كنتُ المجيبَ، ولم أكُنْ ... منادًى أجابت من دعاني، ولبّتِ

◘ وقول:

ولا فَلَكٌ إلا ومن نور باطني ... به ملك يهدي الهدى بمشيئتي

(١) «هذه هي الصوفية» ص(١٢ ـ ١٣).

ولا قَطْرَ إلا حَلّ من فيض ظاهري ... به قطرةٌ عن السحائب سحَّتِ
ولولاي لم يُوجَدْ وجودٌ، ولم يكن ... شهودٌ، ولم تُعهد عهودٌ بذمَّةِ
فلا حَيٌّ إلا من حياتي حياته ... وطوع مرادي كل نفسٍ مريدةِ

◻ ويقول:

وكُلُّ الجهات السِّتِّ نحوي توجّهتْ ... بما تَمّ من نُسْكٍ وحجٍّ وعمرة
لها صلواتي بالمقام، أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صَلَّتِ

◻ ويقول:

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم ... بمظهر حَوَّا قبل حُكم البُنُوّةِ
وتظهر للعشاق في كل مظهر ... من اللَّبْس في أشكال حسنٍ بديعة
ففي مرة «لبُنى» وأخرى «بثنية» ... وآونة تُدعى «بعزّة» عَزَّتِ

◻ ويقول:

وما كان لي صلّى سوايَ، ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كلِّ سجدةِ

وإذا تصفحتَ الكتاب تجد زندقة الصوفية في أبشع صورها منقولة من كتبهم بأرقام الصفحات، وبرقم الطبعة:

*** التجسد في النساء:**

تحت هذا العنوان يكتب الوكيل عن زندقة ابن عربي، وتجسد الذات العلية في النساء تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا:

◻ يقول ابن عربي: «فإذا شاهد الرجل الحق[1] في المرأة كان شهودًا في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل؛ لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة؛

(١) الحق عند الصوفية هو الذات الإلهية في وجودها المطلق.

فلهذا أحب الرسول ﷺ النساء؛ لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يُشاهد الحق مجرّدا! عن المواد أبدًا، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح»[١].

ويقول: «وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمَّى مُحْدَثات هي العليّةْ لذاتها، وليست إلا هو»[٢].

* إله الجيلي.. وادعاء الجيلي الربوبية العظمى:

❑ يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل في كتابه ص(٤٣ ـ ٤٤) عن الجيلي: «وهذا الكاهن الوثني الأكبر يدين بدين صنميه ابن الفارض وابن عربي، غير أن اللون الفاضح الصارخ في زندقته هو اعتقاده أن اللَّه ما هو إلا إنسان كامل، وأن الإنسان الكامل ما هو إلا الرب الأكبر الجامع بين الحق والخلق في وحدة، ولقد سبقه بهذا الإلحاد ابن عربي، ولكن الجيلي كان حَفيًّا به أكثر مديرًا حول محوره زندقته، ولقد رأى الجيلي ألا يمنّ بهذه المرتبة على أحد قبله، فمضى يؤكد القول أن إنسانيته هي أفق الربوبية والألوهية الأسمى».

❑ وينقل ما يقوله الجيلي في ادعائه الربوبية:

لي الملكُ في الدارين، لم أر فيهما ... سواي، فأرجو فضله، أو فأخشاهُ
وقد حُزتُ أنواع الكمال، وإنني ... جمالُ جلال الكل، ما أنا إلا هوُ

❑ ويقول:

ومهما ترى من عرشه ومحيطه ... وكرسيه، أو رفرفٍ عزّ مجلاهُ
فإني ذاك الكلُّ، والكلُّ مشهدي ... أنا المُتَجلي في حقيقته، لا هو

---

(١) «فصوص الحكم» لابن عربي (٢١٧/١) طبعة الحلبي.
(٢) «فصوص الحكم» (٧٦/١) طبعة الحلبي.

وإني رب للأنـــام وســـيـدٌ　　جميع الورى اسم، وذاتي مُسَمَّاهُ[1]

* الحلاّج الزنديق:

يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل ص(٤٩): «عجيب أن يمجد الغزالي الحلاّج، وهو يعلم أنه قائل هذه الأبيات:

سبحان من أظهر ناسوته　　سر سنا لاهوته الثاقبْ
ثم بدا في خلقه ظاهراً　　في صورة الآكل والشاربْ
حتى لقد عاينه خلقه　　كلحظة الحاجب بالحاجبْ

* * *

مزجت روحك في روحي كما　　تمزج الخمرة بالماء الزلالْ
فإذا مَسَّك شيء مسّني　　فإذا أنت أنا في كل حال[2]

* خطايا الوثنية في بذاءة القونوي:

يقول الصدر القونـوي في كتابه «مراتب الوجـود»: «فالإنسـان هو الحـق، وهو الذات، وهو الصفـات، وهـو العـرش، وهو الكرسـي، وهـو اللوح، وهو القلم، وهو المَلَك، وهو الجن، وهو السموات وكواكبها، وهـو الأرضون وما فيها، وهو العالم الدنياوي، وهو العالم الأخـراوي، وهو الوجود، وما حواه، وهو الحـق، وهو الخـلق، وهـو القـديـم، وهو الحادث»[3].

---

(١) «الإنسان الكامل» للجيلي (١/ ٢٢) ط ١٢٩٣هـ.
(٢) «الطواسين» للحلاج ص(١٣٠، ١٣٢).
(١) من كتاب «مراتب الوجود» مخطوط بالظاهرية بدمشق رقم ٥٨٩٥ عام نقلاً عن «الإنسان الكامل» ص(١١٥) للدكتور بدوي.

* **إله النابلسي:**

تحت هذا العنوان كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل في كتابه ص(٥٨) عن النابلسي: «يقول معقبًا على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح: ١٠]. يقول: «أخبر تعالى أن نبيه محمدًا ﷺ هو اللَّه تعالى وتقدّس وبيعته بيعة اللَّه ويده التي مدت للبيعة هي يد اللَّه».

ويُفسر قول اللَّه لموسى: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ**﴾ بقوله: «بأن تكون أنا، وأكون أنا أنت، فاستمع لما يوحى إليك مني، وهذا نظير حديث الإنسان الغافل لنفسه، يحدثها وتحدثه».

ويُفسِّر قوله سبحانه لموسى: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ [طه: ٣٩]. أي: ذاتي فأظهر بك، وتغيب أنت، وتظهر أنت، وأغيب أنا، وما هما اثنان، بل عين واحدة»[١].

◻ وينعي الوكيل على فلاسفة التصوف الفلسفي قولهم بوحدة الأديان ص(٩٣)، وحكمهم بنجاة فرعون ص(٩٥)، والحكم بنجاة إبليس ص(٩٦) وفعل قوم لوط مع الدواب على قارعة الطريق يعدها الشعراني في طبقاته الكبرى كرامة لعلي حيش[٢]، ومثلها لأبي خودة كرامة وهي كبيرة دميمة صفيقة غليظة[٢].

وكتاب الشيخ الوكيل «وهذه هي الصوفية» يحتاج إلى قراءة متأنية وهو هام قيم في بابه.

◻ يقول الشيخ الوكيل ص(١٨٢): «وإني وقد ناضلت الصوفية

---

(١) عن رسالة اسمها «حكم شطح الولي» للنابلسي مخطوطة بالظاهرية بدمشق رقم ٤٠٠٨ نقلاً عن «شطحات الصوفية» ص(١٥٣) للدكتور بدوي.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ١٣٥، ١٢٢، ١٣٢) طبعة صبيح.

ـ بهـدى اللَّه ـ أعرق أن هذا النضال يثير عليّ بَغْيَ أحقادهم، ويقف بي على شفا خطر يَدْهمُ بغتة منهم بجوْره، غير أني أومن بالحكمة الرائعة المؤمنة: «لأن يكون الناس جميعًا عدوًا لي في الدنيا، خير من أن يكون اللَّه وحده خصمي يوم القيامة»، وأجعل من هذه الآية الكريمة منارًا لي ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

ولن أضع القلم ـ وحسبي اللَّه ـ إلا إذا أصميتُ الصوفية وأدميت، أو إلاّ إذا تهدّمت أنا، أو قضيْت! فلن تخشى صولةُ الحق سورة الباطل».

☐ وقال ـ رحمه اللَّه ـ واعظًا مذكرًا: «أيها التائهون في كهوف الظلمات! عودوا إلى الحق من هَدْي اللَّه الحق، ثم انظروا حواليْكم حين تنيبون إلى اللَّه، وتعملون بهديه، ألا ترون الإسلام رّفاف الألوية في عزّة على قمة الوجود الإنساني كله، وعلى الذرى السامقات من كل مناحيه؟! ألا ترون هداه يناسم في رحمة شرقه وغربه؟ ألا ترون الحياة فياضة الصفاء والبشر والخير، تنعم بالسلام الوديع الرفيق الآمين؟ ألا ترون القلوب ينابيع ثرّة للإخاء والحب والإيثار؟ ألا ترون الكون كله محاريب إيمان، وحمى حق وعدل، ومغاني سلام كريم؟! لا تعجبوا إذا رأيتم ذلك كله فإنه وعد اللَّه العلي الكبير القدير: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

☐ كل هذا يحققه اللَّه للمسلمين إذا هم أخلصوا للَّه وحده دينهم، ووعد اللَّه لن يتخلّف؛ لأنه الكريم القدير، وقد حقق اللَّه سبحانه وعده لمحمد ﷺ، ولأصحاب محمد، ولكل من سلك بالحق سبيل محمد،

وسيحققه لكم إذا اتبعتم سبيله. دعوة صادقة الحب أيها الحيارى: لا منجاة لكم من آلامكم وأحزانكم ومن الخوف الذي يعصف بكم، والقلق الذي تضطرب به مشاعركم، لا منجاة لكم من تلك الهموم الساجية إلا إذا لذتم بحمى اللَّه وحده، تؤمنون به، وتتدبرون آياته، وتهتدون بهديه، وتقتدون برسوله وحده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[(١)].

*** فضيلة الشيخ الوالد بقية السلف الشيخ محمد صفوت نور الدين..**

رجل العامة.. الذي إذا رُؤي ذُكر اللَّه تعالى برؤيته:

❑ ومن الربانيين الصادقين شيخنا ومقدم أهل السنة بمصر الشيخ الرباني محمد صفوت نور الدين، ويعلم اللَّه أن له أوفى نصيب من الحديث الحسن «أولياء اللَّه الذين إذا رؤوا ذكر اللَّه تعالى برؤيتهم».

❑ هذا الشيخ المتواضع الوقور البسّام الذي طاف المشارق والمغارب دعوة إلى التوحيد.. ينزل إلى الناس في أماكنهم وينشر دين اللَّه عز وجل، وأشهد باللَّه أن له حالاً مع ربه ينبيك عنه وجهه النيّر، ينبيك وجه هذا الشيخ المبارك أنه ناسك في قدس المحاريب، وأنه متهجد تحت سَجَوات الليل، وأنه ضارع متبتل أوّاه منيب.

❑ إنه رجل العامة وهذه الصفة لا تنطبق إلا على أقل القليل من الرجال الكرام.. كانت له هيبة الكرام من العلماء الصادقين، وحنوّ الوالد الشفيق فمنّ اللَّه على أنصار السنة به وبرئاسته فكانت أيامه عامرة بالخير.. ويذكر بالخير دائمًا للشيخ أنه هو وحده وفي أيامه فقط وثقت جماعة أنصار

---

(١) «هذه هي الصوفية» ص(١٨٠ ـ ١٨١).

السنة صلتها بشباب الحركة الإسلامية من الدعاة الذين هم على نهج السلف الصالح . . وإذا دعى رجل إلى اللَّه بسمته ودلّه ووقاره كان ذلكم هو فضيلة الشيخ المربي الفاضل محمد صفوت نور الدين.

◻ وأشهد اللَّه أن الشيخ في بيانه ووعظه وخطبه كان يأخذ بمجامع القلوب، وإذا أخذ في شرح حديث يغلب على الظن أنه لن يستغرق إلا دقائق معدودات فإذا بفتح اللَّه على لسان الشيخ ساعات وساعات، فتعلم أن الرجل الصالح مؤيد . . وقد ختم اللَّه حياته الصالحة بعمرة وموت في مكة الطيبة تركنا الشيخ والدعوة أحوج ما تكون إليه وإلى حكمته وبصيرته.

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
من مبلغ الملبسين عنا بانتزاحهم ... حزنًا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي قد كان يضحكنا ... أنسًا بقربهم قد عاد يبكينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
ليُسق عهدكمُ عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

*** الشيعة الرافضة الاثنا عشرية بإيران وعلى رأسهم الخميني إمام الضلال تفضحهم كتابات شيخ أهل السنة بباكستان إحسان إلهي ظهير فيقتلونه:**

يوم أن ظهرت ثورة الخميني بإيران وقامت دولتهم صفّق الجهال كثيرًا لهم، وظنوا أن مجد الإسلام سيعود على أيديهم، وساقوا شباب الحركة الإسلامية سوقًا إلى مظاهرات عارمة لتأييدهم وظهرت كتب تمدح الخميني وكأنه مجدد العصر، وإمام هذا الزمان، وأن «الخميني الحل الإسلامي البديل»، ومَنّ اللَّه على الأمة برجل كان أمّة، كانت كتاباته عن الفرق الضالة، فكتب عن «القاديانية» و«الإسماعيلية» و«البريلوية» و«البهائية»

و«البابية» و«التصوف»، وهذه كلها أسماء كتب لشيخ أهل السنة بباكستان الشيخ إحسان إلهي ظهير، ولقد خصّ الشيعة بمعظم كتاباته فكتب «الشيعة والتشيع» و«الشيعة والسنة» و«الشيعة وأهل البيت» و«الشيعة والقرآن» بعد أن اطلع على مصادرهم ونسب كل قول إلى مصدره وذكر الطبعة ورقم الصفحة فأخزاهم اللَّه على يده المباركة واللَّه إن أعتى الجيوش في حرب الشيعة وتأديبهم لا تقوم مقام كتابات الشيخ إحسان.

*** العالم الرباني المجاهد شيخ علماء باكستان:**

الشيخ إحسان إلهي ظهير (١٣٦٠ ـ ١٤٠٧هـ) الذي فضح الرافضة والقاديانية والبابية والبهائية والإسماعيلية والنحل المارقة:

حفظ الشيخ إحسان إلهي ظهير القرآن في سن التاسعة، ودرس علومه في الجامعة الإسلامية بمدينة ججرانوالا، ودرس كتب الحديث النبوي على يد الحافظ محمد جوندلوي ـ شيخ العلامة عطا اللَّه حنيف ـ وذلك في مدينة فيصل آباد. ودرس الفلسفة والمنطق على يد الشيخ شريف اللَّه حتى برع فيها، ويظهر ذلك من خلال ردوده العلمية في مؤلفاته التي يرد فيها على الملل والنحل والعقائد.

تنقله في الدراسات الجامعية والعليا ومناصبه:

١ ـ حصل على ليسانس في الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان ترتيبه الأول على جميع طلبةالجامعة، وحصل على نسبة ٩١٪، وذلك في عام ١٩٦١م.

٢ ـ بعد نجاحة في الجامعة الإسلامية رجع إلى بلاده باكستان، والتحق بجامعة البنجاب بكلية الحقوق والعلوم السياسية، وحصل على الليسانس.

٣ ـ ثم حصل في الدراسات العليا على الماجستير في الشريعة، وفي

اللغة العربية والفارسية والأردية.

٤ ـ رئيس تحرير مجلة ترجمان الحديث ـ التابعة لجمعية أهل الحديث بلاهور، باكستان.

٥ ـ مدير تحرير مجلة أهل الحديث الأسبوعية.

٦ ـ زاول الخطابة، ومناظرة المنحرفين، وكان قوي الحجة له قدم راسخة في المناظرة.

٧ ـ كان خطيبًا بارعًا شديدًا في نشر دعوته[1].

☐ وللشيخ القدح المعلي في جهاده في الدعوة ونشر السنة، وقمع البدعة، وبيان أباطيل أهل الزيغ والانحراف... وقلمه المبارك وكتبه القيمة أشد وقعًا من السهام في نحور أهل الضلال من أصحاب الملل الفاجرة والمارقة والغلاة بارك اللَّه في هذه الكتب، وجاب الدول لفضح هذه النحل وألقى محاضرات بالكويت، والجامعات السعودية وأيام موسم الحج، وألقى ندوات ومحاضرات بالعراق، وأمريكا، وزار بريطانيا ومصر وإيران للبحث عن كتب ومصادر القاديانية، والبهائية والشيعة لتوثيق ما كتبته هذه الفرق من كتبها. وزار المغرب وتونس وأسبانيا وفرنسا بحثًا عن الكتب والمصادر التي تتعلق بالإسماعيلية.

* إخلاصه وتجرده يضعان القبول لكتبه:

يفوح عبق الإخلاص من كتب الشيخ إحسان ومن دعائه نصرًا للسنة ونصحًا للأمة يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

---

(١) «إحسان إلهي ظهير ـ الجهاد والعلم من الحياة إلى الممات» لمحمد بن إبراهيم الشيباني (ص٧ ـ ٨) مكتبة ابن تيمية ـ الكويت.. وبقية الترجمة تحتوي معظم الرسالة مع تقديم وتأخير وزيادات.

«... إني لأرجو اللّه تعالى العلي القدير أن ينفع به الخلائق، الأحياء والأباعد، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم ويجعله ذخيرة لي في الدين والدنيا، وفي الحياة بعد الممات، وأن يحشرني في زمرة أصحاب نبيّه، وعظمة أصحابه ورفاقه وتلامذته، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعن أسلاف هذه الأمة وعلمائها ومحسنيها، جعلنا منهم، إنه سميع مجيب»[1] .

❑ ويقول: «... وأخيرًا أدعو اللّه العلي القدير أن ينصر الحق وأهله، ويخذل الباطل ومعتنقيه، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه»[2] .

❑ ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

«... إننا حين نكتب ما نكتب قاصدين هذا أو ذاك خدمة ولا حتى للعلم وغير العلم، أو إرضاء لفلان، أو إغضابًا لفلان، بل نكتب ما نكتب خدمةً للإسلام، وذودًا عن حرماته ومقدساته، نافين عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين عصبية له وغيرةً عليه، رادين على من يريد تشويه صورته النقية الصافية وتبشيع وجهه المضيء المنير بخرافاته وترّهاته، وببدعه وشركياته.

هذا هو الهدف، وهذه هي الحقيقة من البحث والكتابة في الفرق المنحرفة، والطوائف الباغية الخارجة على الإسلام. فما كتبنا عنهم حتى اليوم إلا ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة. وما علينا إلا البلاغ المبين، واللّه ولي التوفيق فهو حسبي ونعم الوكيل»[3] .

❑ ويقول في زيارته لمصر والتي أثمرت كتابه «الرد الكافي على مغالطات

---

(١) «الشيعة والتشيع» لإحسان إلهي ظهير ٣٠ محرم ١٤٠٤هـ.
(٢) «الشيعة والقرآن» لإحسان إلهي ظهير ١٧ ربيع الأول ١٤٠٣هـ.
(٣) «الإسماعيلية» لإحسان إلهي ظهير ١٢ شوال ١٤٠٥هـ.

الدكتور علي عبدالواحد وافي» في ٢٦/ ١١/ ١٤٠٤هـ - ١٤/ ٨/ ١٩٨٤م:

«... أدعو اللَّه تعالى القدير أن يوفقني لأداء هذه المهمة خلال يومين قبل مغادرتي مصر الطيبة، وأن يلهمني الرشد والصواب. وأخيرًا أتوجه إلى علماء مصر والأزهر خاصة، مهيبًا بهم وداعيًا إياهم أن يقوموا بواجبهم الديني ودورهم الذي تحتم عليهم دفاعًا عن شريعة اللَّه ودينه الذي ارتضاه لنفسه دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

لقد قدمنا ما كان في وسعنا وذخرنا مع أننا جئنا إلى مصر ببضاعة مزجاة فعليهم أن يوفوا الكيل ويتصدقوا بعلمهم على المسلمين، ويردوا عنهم كيد المبطلين المنتحلين، واللَّه ولي النعم وهو ملهم التوفيق، وصلى اللَّه على رسوله خير خلقه محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه الأخيار ومن تبعهم إلى يوم الدين»[1] .

❑ ويقول: «... وأرجو اللَّه العلي القدير أن يخلص نياتنا لوجهه الكريم ويجعلنا مدافعين عن حوزة العقيدة الصحيحة والصراط المستقيم إنه سميع مجيب»[1] .

*** مناظراته ومناقشاته:**

بعد دراسات متعمقة ومستفيضة لجميع الفرق المنحرفة طيلة السنوات الماضية، وبعد اطلاع واسع على هذه الأفكار والعقائد، ومعرفة مبادئها وأهدافها المخربة استطاع الشيخ إحسان بفضل اللَّه تعالى أن يوقف هذه الدعوات عند حدِّها، ويبطل كثيرًا من معتقداتها وأفكارها؛ وذلك من خلال المناظرات والمناقشات التي جرت بينه وبين دعاتها ورجالها.

ومن هذه الطوائف: طوائف الخرافيين، والمقلدين، والمتعصبين،

---

(١) «الرد الكافي على مغالطات الدكتور علي عبدالواحد وافي».

والاشتراكيين، والشيوعيين، والشيعة، والقاديانيين، والنصارى، والبهائيين. فسجن من جراء ذلك مرات عدة.

*** قيمة كتبه ومؤلفاته:**

حين يتجول الإنسان في بساتين كتب الشيخ إحسان تلوح أمام ناظريه كلمة الشيخ محمد رشيد رضا في مقدمة كتاب «الاعتصام» للشاطبي: «ادخل دار الكتب الخديوية، وارم ببصرك إلى الألوف من المصنفات في خزائنها، تر أن كثرتها قلة، وكثيرها قليل؛ لأن القليل منها هو الذي تجد فيه علمًا صحيحًا لا تجده في غيره؛ لأنه مما فتح اللَّه به على صاحبه دون غيره» وأيم اللَّه لقد كانت كتب الشيخ إحسان من هذا القليل.

قليل منك يكفيني ولكن ... قليلك لا يُقال له قليلُ

وقد اهتمت الأوساط العلمية والحكومات بما كتبه الشيخ إحسان لما فيها من دراسات مهمة ومفيدة ومتعمقة لعقائد هذه الفرق وأفكارها، ومفيدة لكل مهتم في دراسة الفرق.

فهذا الملك فيصل ـ رحمه اللَّه ـ قد طلب من المختصين في السعودية شراء كتب الشيخ إحسان إلهي وتوزيعها على حسابه الخاص في أفريقية وآسية وأوربة. واهتم الشيخ عبدالعزيز بن باز رئيس إدارات الفتوى والتشريع والإرشاد والدعوة، ورئيس الجامعة الإسلامية سابقًا كذلك. والشيخ إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم آل الشيخ وزير العدل بالمملكة العربية السعودية. والشيخ محمد بن علي الحركان ـ رحمه اللَّه ـ الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، والشيخ محمد عبداللَّه المطلق سفير السعودية في الباكستان، والشيخ الشربتلي في مكة المكرمة، والمراكز الإسلامية في جميع بلدان العالم، والمكتبات العامة والتجارية.

* **مؤلفاته باللغة العربية:**

(١) الشيعة والسنة: فرغ منه وطبع في ١٨ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في الأوساط العلمية، والدينية، وأزال النقاب عن الوجه الحقيقي للتقية المصطنعة بالكذب والافتراء، وأبان حقيقة هذا المعتقد: في اللّٰه، وفي الرسول عليه السلام، وفي الصحابة والأئمة، كما بين حقيقة معتقد هؤلاء في كتاب اللّٰه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب المعجزة العظيمة التي جاء بها النبي عليه السلام والباقية إلى قيام الساعة.

وللمرة الأولى في تاريخ التأليف في الملل والنحل يؤلف كتاب بهذا التفصيل الذي لم يسبق إليه، بالمراجع المستندة، والمصادر المعتمدة، والكتب الموثوقة لدى القوم أنفسهم، مع ذكر العبارات التي احتجوا بها واستشهدوا فيها وبالصفحات والمجلدات والطبعات فجاء الكتاب لا نظير له في المؤلفات الحديثة.

(٢) الشيعة وأهل البيت: طبع عدة طبعات آخرها الثالثة سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

وهو يتحدث عن حقيقة هؤلاء الذين يتحدثون ويزعمون أنهم يحبون آل البيت وموالاتهم، وتبرهن الأدلة على أنهم أشد الناس عداوة لأهل البيت وسنة النبي عليه السلام، كما يبرهن الشيخ في الكتاب ليس فقط على مخالفة أهل البيت بل إهانتهم واتهامهم بتهم وأقاويل وتلفيقات أهل البيت منها براء. فمن كان في بيته هذا الكتاب فقد عرف حقيقة ادعائهم حبَّ آل بيت النبي ﷺ الذي هو في الحقيقة طعن لهم وإهانة.

(٣) الشيعة والتشيع: فرق وتاريخ. يعتبر من آخر الكتب التي ألفها

الفقيد في هذه الملة وهي سلسلة ليست بالكثيرة ـ أربعة كتب ـ ولكنها في الحقيقة تغني طالب العلم الباحث عن هذه الملة وكتبها من عقدية وتاريخية، بل إن المؤلف ـ رحمه الله ـ عندما أظهر ما في كتب هذه الملة من الزيغ والضلال الذي لا يقبله العقل السليم حتى من الشيعة، جعلهم يفكرون ويتعقلون ويتبصرون ويدققون النظر لتمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ في مذهبهم وقد تميزت الكتب الأربعة بعدم التكرار والمشابهة عما في الأخرى.

وميزة هذا الكتاب أنه يشتمل مع تاريخ التشيع والشيعة وتغيير التشيع الأول وتبدل الشيعة الأولى وفرقها التي حدثت ونشأت بهذا الاسم، وانقرضت أو بقيت، ومطاعنها على أصحاب رسول الله ﷺ ولا سيما عثمان ومعاوية وغيرهما ﷺ والرد عليها ردًّا علميًّا ومنطقيًّا.

(٤) **الشيعة والقرآن**: يفضح الشيخ إحسان موقف الشيعة من القرآن، وقولهم بتحريف القرآن ونسبة ذلك إلي كبار أئمتهم من خلال كتبهم والمصادر الشيعية حتى لا تنطلي التقية الشيعية على السذّج من أهل السنة.

(٥) **الرد الكافي على مغالطات الدكتور علي عبدالواحد وافي: في** كتابه «بين الشيعة وأهل السنة» ٢٦/ ١١/ ١٤٠٤هـ ـ ٢٤/ ٨/ ١٩٨٤م.

موضوعه أن أحد الكتاب من الدكاترة المصريين قد ألف ردًّا على الشيخ إحسان إلهي بعد صدور كتابه «الشيعة والسنة» أسماه «بين الشيعة وأهل السنة» يناصر فيه مذهب الشيعة، وأن مذهبهم لم يكن بعيداً كل البعد عن مذاهب أهل السنة، ولم تكن وجوه الخلاف بينه وبينهم لتزيد كثيراً عن وجوه الخلاف بين أهل السنة بعضهم مع بعض.

كيف يسوغ له أن يبرئ ساحتهم من الاعتقادات التي يحملونها، ويدينون بها؛ وهي أساس مذهبهم وديانتهم، بكل سذاجة وبكل طيبة، وبكل

جرأة ملتمسًا لهم الأعذار التي لم يلتمسوها لأنفسهم قط، ومخترعًا لهم المعاذير التي لم يرضوها لهم، في بلدة سنية خالية من الشيعة والتشيع، بعد أن ذاقت الأمرين في عصر من ماضيها؛ أيام تسلُّط طائفة الفاطميين على السنة وذبحهم لهم. ولقد شهدت في وقتهم مساجد أهل السنة وجوامعهم ومجالسهم العديدة شتائمهم وسبابهم لسادات الصحابة والخلفاء الراشدين أصحاب محمد ﷺ وذلك لقرون طويلة.

إنه لمن المؤسف أن تنطلي على كثير من أهل السنة السذج مكايد الرافضة وحيلهم ودموع التماسيح التي تصدر عنهم والبكاء على مقتل الحسين رضي الله عنه وحب آل البيت. والتاريخ يروي لنا الحقائق التي تدينهم وبين زيف هذا الحب المصطنع المخادع.

لقد جاء هذا الكتاب ردًّا على هذا المخدوع بالدفاع عنهم لعله يستنير به ويستفيد منه، ولا يجعل العجلة الأساسية ديدنه في المستقبل؛ لأنَّ بها موالاة من يتبرأ اللَّه تعالى من أفعالهم ﴿**من يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب اللّه عليهم**﴾.

(٦) **الإسماعيلية** - تاريخ وعقائد - فرغ منه وطبع في ١٢ شوال ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

قسم الكتاب إلى قسمين: قسم تاريخي ويشتمل على أربعة أبواب: وقسم عقائدي وهو القسم الأكبر في الكتاب.

❑ **وهو يشتمل على أبواب خمسة:**

١ - الإسماعيلية ومعتقداتها.

٢ - الإسماعيلية ونسخ شريعة محمد ﷺ.

٣ - الإسماعيلية والتأويل الباطني.

٤ - ماهية الدعوة ونظامها.

٥ ـ الإسماعيلية مجموعة تعارضات وتناقضات.

ولا بد من أمور يجب علينا ذكرها والالتفات إليها، قد ناقشها هذا الكتاب يشتمل على ذكر إسماعيلية الدور الأول وعقائدهم ومعتقداتهم وتاريخهم وأخبارهم، ومنهم إسماعيلية دور التكوين والنشأة إلى آخر دور الظهور الذي ينتهي بقتل الآمر بن المستعلي بن المستنصر، سنة ٥٢٤هـ الذي يعبر عنهم بالإسماعيلية إلى الطوائف والفرق المختلفة، وهو ينتهي إلى موت المستنصر سنة ٤٨٧هـ وتولية المستعلي بالخلافة الإسماعيلية مع ذكر الافتراق الذي وقع في الإسماعيلية بدون التطرق إلى تفاصيلها لانتهاء دور الظهور عند جميع الأطراف الإسماعيلية، ولم يشمل الكتاب إسماعيلية الدور الجديد الذي يبدأ «بالحسن الصباح» في فارس «وقلعة الموت» وغيرها من القلاع الجبلية، و«بالدعوة الطيبة» تحت رعاية الصليحيين في اليمن والعقائد التي تجاهر بها كل من الطائفتين أولاً، ثم الطوائف الأخرى المتعرفة منهما.

جاء هذا الكتاب مبتكرًا في موضوعه حيث حصل مؤلفه على وثائق ومستندات من كتب القوم وغيرها تدينهم لم تقع في حوزة أحد من قبل أبدًا.

(٧) البابية ـ عرض ونقد القسم الأول ـ:

◻ يقول الشيخ: وأما البابية والبهائية فلم أزل حريصًا على اقتناء المعلومات عنهما وجمع الكتب، مشتغلاً بالمناظرات والمناقشات مع رجالهما ودعاتهما، وبكتابة الردود القصيرة في مجلتي، وهذا مع انهماكي في المعارك السياسية بجانب المعارك الكلامية مع الطوائف المنتشرة الكثيرة في بلادي من الخرافيين والبدعيين والمقلدين والمتعصبين، والاشتراكيين والشيوعيين، والشيعة، والقاديانيين، والنصارى وغيرهم.

لنا في كل يوم من معدٍّ سبابٌ، أو قتالٌ أو هجاءُ، فالبابية والبهائية لم

تؤسسا إلا لمخالفة هذا الدين القويم، والصراط المستقيم، وللدعاية الباطلة ضد الإسلام، وأنه لا يتلاءم مع هذا العصر ومتطلباته وحاجته، وإن البهائية هي وحدها التي تطابق مقتضيات العصر فكان من الضروري أن تبين الحقيقة الصادقة؛ فموازنة الإسلام ومقارنته مع البهائية إهانة له وانتقاصة لهذا الدين العظيم حيث إنه لا توافق بين الحق والباطل، وبين العلم والجهل، وبين الظلمات والنور: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢١].

(٨) **القاديانية** - فرغ منه وطبع في ٢٧ رمضان ١٣٨٦هـ المدينة المنورة، وبعد فقد أنشئت في القرن العشرين فئتان خبيثتان بإيعاز من الاستعمار الكافر لتحويل المسلمين عن قبلتهم وكعبتهم، ومهوى أفئدتهم ومسكن مهجهم، مكة المكرمة، وحصرهم في الأوطان التي يسكنونها والبلدان التي يعيشون فيها لتقطع تلك الرابطة الوثيقة التي تربط ملايين البشر من الشرق والغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، الرابطة التي يتألم لأجلها من يسكن في بخارى وسمرقند وغيرها من بلدان المسلمين.

وقد مرّ بنا ذكر طرف من عقائدهم الفاسدة.

□ ولقد وجه الشيخ إحسان إلهي في الكتاب نداء إلى الجمعيات الإسلامية وإلى كل من يهمه أمر الإسلام والمسلمين، وإلى رابطة العالم الإسلامي بمكة، والمؤتمر الإسلامي العالمي، ومجلس البحوث الإسلامية بالقاهرة، والجامعة الإسلامية بالمدينة، وغيرها من الجمعيات والجامعات؛ بأن يعملوا على إنقاذ المسلمين من مخالب هؤلاء الكفار المرتدين - في العالم الإسلامي عامة وفي أفريقية وأوربة خاصة، حيث يشكل القاديانيون خطرًا كبيرًا على الإسلام والمسلمين مساندة الاستعمار وأعداء الملة الحنفية الذين

يمولونهم ويمدونهم بكل الإمكانات والوسائل لكي يبعدوا المسلمين عن الإسلام الحقيقي وما فيه من عزة وكرامة باسم الإسلام خداعًا ومكرًا لقلة وجود العلماء المسلمين الحقيقيين، وشغور مناصبهم في تلك البلاد وجهل أكثر المسلمين بحقيقة القاديانية الأصلية وأهدافهم وغفلة العالم الإسلامي عن أفريقية في الوقت الذي تنشر القاديانية أكثر من خمس مجلات راقية بمعونة أعداء الإسلام للدس، وإفساد عقائد المسلمين، ونشر أفكار الكفر بينهم. بينما لا توجد مجلة واحدة للمسلمين في أفريقية كلها تجابههم وتبين فساد عقيدتهم وهذا مع مئات المبلغين القاديانيين الذين يتجولون من أدنى أفريقية إلى أقصاها غير القارات الأخرى. وقد أقاموا سبعًا وأربعين مدرسة، وبنوا ستين ومئتي مسجد هناك. هذا غير ما يتبع ذلك من المكتبات العامة والخاصة والمؤلفات والنشرات وترجمة القرآن إلى لغات شتى كما فتحوا في الآونة الأخيرة المستشفيات والدور الاجتماعية في مختلف أنحائها، وأصبح عدد أتباعهم حسب نشراتهم الإحصائية أكثر من مليوني شخص في مدة لا تتجاوز خمس عشرة سنة.

(٩) البريلوية عقائد وتاريخ ١٢/ ٦/ ١٤٠٣هـ - ٢٣/ ٣/ ١٩٨٣م:

البريلوية جديدة من حيث النشأة والاسم، ومن فرق شبه القارة الهندية من حيث التكوين والهيئة، ولكنها قديمة من حيث الأفكار والعقائد، مثل الفرق المنتشرة الكثيرة في العالم الإسلامي بأسماء مختلفة، وصور متنوعة، من الخرافيين وأهل البدع.

عندما يقرأ القارئ هذا الكتاب في أي قطر من الأقطار سيجد أن هذه الفرق شبيهة بالفرق الموجودة عنده في بلاده ولكنها بأسماء أخرى مختلفة، فهي كالتيجانية والسنوسية والمهدوية والقاديانية والسهروردية والنقشبندية والجستية والرفاعية وغيرها من الفرق الكثيرة المنتشرة في العالم الإسلامي.

▫ يقول المؤلف: عندما ألفت هذا الكتاب عن هذه الملة قرأت ما قرابته ثلاث مائة مؤلف عنها حتى أضحى هذا الكتاب كما ترى.

فهذه الملة شأنها شأن الملل الضالة الأخرى التي ادعت العصمة لمؤسسيها ومروِّجي باطلها. فهذا أحمد رضا زعيم هذه الطائفة ولد سنة ١٢٧٢هـ ـ ١٨٦٥م ادعى أن قول اللَّه عز وجل: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾ ينطبق عليه.

▫ ويقول عنه مريدوه: «إن البريلوي لم ينطق بلسانه المبارك بلفظة غير شرعية، واللَّه عصمه من كل زلة».

وقالوا: «إن اللَّه صان قلمه ولسانه من الخطأ».

وقالوا: ـ وما أقبح ما قالوا ـ إن الحضرة الأعلى ـ أي البريلوي ـ كان في يد الغوث الأعظم ـ يعني الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ كالقلم في يد الكاتب. والغوث الأعظم في يد رسول اللَّه محمد ﷺ كالقلم في يد الكاتب، والرسول في الحضرة الإلهية ما ينطق عن الهوى.

وقالوا: «إن رضا اللَّه في رضا الرسول ورضا رسول اللَّه في رضى البريلوي».

وقالوا: «إن وجود البريلوي كان آية من آيات اللَّه المحكمات».

(١٠) البهائية ـ نقد وتحليل ٢٤/١٢/١٩٧٥م.

ولد مؤسس البهائية ومنشئها المرزة حسين علي في قرية «نور» من قرى المازندران من إيران، يوم ٢ محرم سنة ١٢٣٣هـ ٢/١١/١٩٨٧م.

تلقى العلوم الشيعية والصوفية وهو صغير حتى بلغ الثالثة عشرة، ثم اشتهر بالعلوم المتنوعة فكان يتكلم في أي موضوع شاء ويحل أي معضلة تعرض له، ويتباحث في المجامع مع العلماء ويفسر أعوص المسائل الدينية

وأوتي جدلاً ولحنًا، وكانت له معرفة واسعة وإلمام تام بالروايات الشيعية وكتبها، ولا سيما الكتب التي تروى عن المهدي والمهدوية، كما كان مطلعًا على كتب الصوفية والباطنية والفلاسفة القدامى والفلسفة السفسطائية القديمة مع دعواه الكذب «ما قرأت ما عندهم من العلوم وما دخلت المدارس فاسأل المدينة عني كنت فيها لتوقن بأني لست من الكذابين» والدارس لكتبه، والباحث فيها، يجد أنه أمام مقتطفات صوفية، وسرقات باطنية، ومقتبسات كلامية، وعبارات طويلة مسروقة من كتب القدامى.

علاقاته بالاستعمار البريطاني: كان له اتصالات بالدول الأجنبية كبريطانية التي أعانته في دعواه؛ وذلك لصرف المسلمين عن الدين الصحيح الحق، وصرفت عليه الأموال الطائلة، وسافر إلى بريطانية وإلى روسية وتركية وغيرها من البلاد لترويج نحلته الباطلة.

❑ جاء كتاب الشيخ إحسان إلهي لإعلام المسلمين بخطر هذه الفرق الباطنية الخبيثة الباطلة التي تحاول أن تندس في صفوف المسلمين لتمزيق شملهم، وتشتيت كلمتهم وتمزيق صفوفهم. وبالفعل؛ لقد كان لهم ماكان حتى صدوا كثيرًا من المسلمين عن دعوة الحق وعن الكتاب والسنة في الهند، وباكستان، وإفريقية، وغيرها من البلاد. ولا زالوا يفعلون. لهذا جاء الكتاب صرخة مدوية لتحذير الحكومات الإسلامية والعربية من خطر هؤلاء ومن ارتباطهم بالصهيونية العالمية التي تمدهم بالمال والعتاد لتروج فكرتهم وتسود.

بلغت مصادر الشيخ إحسان إلهي في هذا الكتاب مائتين وثمانية وسبعين مرجعًا عربيًا وأجنبيًا ومن كتب القوم.

(١١) الباطنية بفرقها المشهورة.

(١٢) فرق شبه القارة الهندية ومعتقداتها.

(١٣) النصرانية ـ وكان يضع اللمسات الأخيرة عليه.

(١٤) **التصوف** ـ المنشأ والمصادر ـ الجزء الأول ـ ١٤٠٦هـ.

(١٥) **التصوف** ـ الجزء الثاني ـ وهذا آخر مؤلفاته، انتهى منه قبل وقوع الحادث بسبع ساعات في مدينة سيالكوت في ولاية البنجاب.

*** أعداد مراجعه في كتبه:**

١ ـ القاديانية : رجع فيه إلى (١٥٠) مرجعًا.

٢ ـ البريلوية : رجع فيه إلى (١٨٠) مرجعًا.

٣ ـ البابية : رجع فيه إلى (١٧٤) مرجعًا.

٤ ـ الشيعة والسنة : رجع فيه إلى (٨٨) مرجعًا.

٥ ـ الشيعة والقرآن : رجع فيه إلى (٨٤) مرجعًا.

٦ ـ الشيعة وأهل البيت : رجع فيه إلى (٢٣٠) مرجعًا.

٧ ـ الشيعة والتشيع : رجع فيه إلى (٢٥٩) مرجعًا.

٨ ـ الإسماعيلية : رجع فيه إلى (٣٦٢) مرجعًا.

٩ ـ الرد الكافي : رجع فيه إلى (٢٥٩) مرجعًا.

١٠ ـ البهائية : رجع فيه إلى (٢٧٨) مرجعًا.

*** مؤلفاته: باللغات الأخرى:**

١ ـ القاديانية: بالإنجليزية.

٢ ـ الشيعة والسنة: بالفارسية.

٣ ـ كتاب الوسيلة: بالإنجليزية والأردية.

٤ ـ كتاب التوحيد.

٥ ـ الكفر والإسلام: بالأردية.

٦ ـ الشيعة والسنة: فارسي ـ إنجليزي ـ تايلاندي.

*** نسأل اللَّه أن يتقبّل الشيخ إحسان إلهي ظهير في عداد الشهداء:**

في الساعة ١١ ليلاً يوم ١٤٠٧/٧/٢٣هـ بجمعية أهل الحديث بلاهور.. وفي ندوة العلماء «أهل الحديث» في حضور ٢٠٠٠ شخص دوّت انفجارات بالمكان أصيب الشيخ إحسان إلهي ظهير.

وقُتل من العلماء في هذه الحادثة عشرة غير الشيخ إحسان وأصيب ١٠٠ شخص ١٤ منهم في حالة خطيرة، وسقطت بعض العمارات والبيوت القريبة من مكان الحادث وخيم الحزن العام على باكستان مدنها، وأُغلقت بعض المحال التجارية في لاهور، وإسلام آباد وكراتشي، وأذاع راديو الرياض الخبر، وعرضت السعودية عن طريق سفيرها طلب معالجته في مستشفيات الرياض.

جيء به من باكستان إلى المملكة العربية السعودية للعلاج في مستشفيات الرياض بناءً على طلب من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبداللَّه ابن باز رئيس إدارات الإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، وذلك عندما كلم الملك فهدًا عن إحسان؛ فأمر الملك بطائرة من باكستان إلى الرياض، ولكن وفاته المنية قبل أن يستكمل علاجه وفاضت روحه إلى بارئها في الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين ١ شعبان ١٤٠٧هـ الموافق ٣٠ من مارس ١٩٨٧م، فغُسِّل هناك، وصلى عليه الشيخ عبدالعزيز بن باز وجمع كبير من محبية، وسُمِع البكاء والنشيج من الناس حزنًا على المجاهد الكريم، ثم نُقِل جثمانه بالطائرة إلى المدينة المنورة حيث دفن في مقبرة البقيع مع الصحابة وآل البيت وأمهات المؤمنين، فنعم المكان ونعم جار القبر نسأل اللَّه أن يرزقه الفردوس الأعلى، وأن يجعله من أهل عليين.

*** من ذكرى النوادر تستمد العبر:**

❑ قال الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني:

«نعم، من ذكرى النوادر من الأشياء والحكم والأفذاذ والشجعان تستمد العبرة، وتستلهم الفكرة؛ فنادر الشيء هو الباقي ذكره في النفوس والعقول، وعلى منواله يستفيد الأحياء من الذي تركه.

كان إحسان إلهي ظهير قليلٌ من الرجال في هذه العصور أمثاله، وكان شجاعًا في قولة الحق، باحثًا عن الحقيقة، ناصحًا لأمته، مرددًا كلام نبيه: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**»، قالوا: لمن؟ قال: «**للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**». مبينًا عوار الخبث والخبثاء لأكثر من عشرين سنة. وقف مع الحق، ونُصْرته والقيام به، لا تهمه في نشره لومةُ لائم ولا صرخة جاهل، ولا عواء جبان، ولا تهديد عدو؛ فكلفه ذلك حياته، فهل مَنْ وضع حياته لنصرة الحق ولا يعرف ذلك؟ اللَّهم إلا الذي حمل الفكرة، ولا يعرف ما هية تلك الفكرة؛ فحامل الفكرة لا بد أن يكون ناصرها ومؤيدها، والمؤمن بها وناشَرها والمجاهرَ بها؛ وإلا فكيف تنتشر الفكرة؟ وكيف تقمع البدعة؟ إذا لم يكن حاملها بشجاعة إحسان! وتنقيب إحسان لأعداء الفكرة نجاةً لحملة الفكرة (وبينهما أمور مشتبهات فاتقوا الشبهات كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه)، إحسان ـ رحمه اللَّه ـ أراد أن يحمي قومه من أن يقعوا في حبائل الشيطان؛ فأوضح لهم خبث الأفكار التي ينادي بها أربابها، أراد أن يحذر أمته وبني قومه من خطورة الوقوع فيها لأنها النار التي تلظى، والشر الذي ليس وراءه إلا الشر «النجاء النجاء إني أنا النذير العريان».

وضع الجبناء الذين لا يقوون على صد اندفاع الحق، وسطوع شمسه، المتفجرات ليُسكتوا صوتَ إحسان بالموت، ونسوا أن إحسان الآن بدأ يتكلم، انهالت الناس والجماهير على كتب إحسان تطلبها من كل مكان، وفي كل مكتبة، وبدأ القراء يقرؤون بعد أن كانوا لا يقرؤون، والآن بدؤوا يفهمون بعد

أن كانوا لا يتعمقون في القراءة، الآن بدأوا يحذرون بعد أن كانوا يأمنون.

الجبان جبان وإن عز، والنفيس نفيس وإن قلّ، فالعبرة بقيمة الأشياء.

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له».

بقيت الكتب تنهل منها الناس، وبقي من أبناء الشيخ إحسان، هشام، وابتسام، ومحتشم، وميمونة، ستناديهم كتب أبيهم أن يكونوا مثل أبيهم. وأصبح واضح للمسلمين تمامًا ضلال الشيعة وفرقهم...

❑ الشيعة الاثنا عشرية الجعفرية الإمامية وهم الرافضة فئة ضالة مارقة.

❑ قالوا بتحريف القرآن، وممن قال بذلك الكليني والنوري والحر العاملي والخميني.

❑ وفي السنة المطهرة كانت لهم أصول منكرة كقولهم إن الإمام يوحى إليه بل يأتيه خلق أعظم من جبريل، ومن سمع حديثًا من أحد من الأئمة له أن يقول فيه: قال اللَّه؛ لأن قولهم كقول اللَّه.

❑ وفيهم روح القدس التي بها «عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى»، وبها يرون ما غاب عنهم في أقطار الأرض وما في عنان السماء، ويذهبون إلى عرش الرحمن كل جمعة ليأخذوا من العلم ما شاءوا.

❑ وقالوا: إن اللَّه سبحانه يناجي عليًا والأئمة.

❑ وهم جهمية في نفي الصفات، وقدرية في نفي القدر، ومرجئة في قولهم بأن الإيمان معرفة الإمام وحبه، ووعيدية بالنسبة لغيرهم، حيث يكفّرون ما عدا طائفتهم.

❑ ويعتقدون أن الأئمة أنزلت عليهم كتب إلهية، وعندهم كتب الأنبياء يقرءونها ويحكمون بها.

❑ وقالوا: إن الأئمة يأكلون من الجنة في الدنيا، وأن حساب الخلق إلى الأئمة يوم القيامة.

❑ وقالوا: إن لقم بابًا إلى الجنة، وأهل قم لا يحشرون كسائر الناس.

❑ وقالوا: بالإمامة، والعصمة، والتقية، والغيبة، والرجعة، والظهور والطينية، والبداء وغيرها من العقائد الكفرية مما يضيق المجال هنا لشرحه وبيانه(١).

* تكفير علماء الأمة للشيعة الإمامية الاثنا عشرية بسبب تكفيرهم للصحابة ولعنهم إياهم:

كتب الشيعة الإمامية وأقوال أئمتهم مليئة باللعن والتكفير لمن رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه من المهاجرين والأنصار وأهل بدر وبيعة الرضوان وسائر الصحابة أجمعين وتقول كتبهم: إن الصحابة بسبب توليتهم لأبي بكر قد ارتدوا إلا ثلاثة: سلمان والمقداد وأبا ذر.

❑ يقول ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «إن الرافضة تقول: إن المهاجرين والأنصار كتموا النص، فكفروا إلا نفرًا قليلاً.. إما بضعة عشر أو أكثر ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالا منافقين، وقد يقولون: بل آمنوا

(١) انظر كل كتب الشيخ إحسان إلهي ظهير: «الشيعة والتشيع»، و«الشيعة والسنة»، و«الشيعة وأهل البيت»، و«الشيعة والقرآن»، و«موقف الخميني من الشيعة والتشيع» لمحمود سعد ناصح، و«أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية» للدكتور ناصر القفاري، و«جاء دور المجوس» للدكتور عبداللَّه الغريب.

ثم كفروا»[١] .

وهم يخصون كبار الصحابة بمزيد من الطعن والتكفير لهم، ولهم في ذلك أقوال ونصوص تقشعر من سماعها جلود المؤمنين.

◻ وهم يخصون أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ وزراء رسول الله ﷺ وأصهاره بالنصيب الأولى من التكفير، وانظر ما كتبه المجلسي شيخهم وكافرهم في كتابه «البحار» الذي يعدونه المرجع الوحيد في تحقيق المذهب، وانظر إلى «الكافي» للكليني، ورجال الكشي ونصوص كتب الشيعة تربو على المجلدات في تكفير الشيخين، بل ترى أن من أعظم الكفر الحكم بإسلامهما[٢] ، وحينًا تنعتهم بأنهم الجبت والطاغوت[٣] وتارة تصب عليهم اللعنات ولا سيما في أدعية الزيارات[٤] ، وأذكار ما بعد الصلوات حيث يستبدلونها بلعن الشيخين وسائر المسلمين[٥] .

◻ وقالوا: إن إبليس أرفع مكانًا في النار من عمر، وأن إبليس شرف عليه في النار.

وزعموا أن محمد بن أبي بكر بايع عليًّا ـ عليه السلام ـ على البراءة من أبيه وأن أباه في النار «معاذ الله».

◻ وقالوا تحت قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قالوا: «ما بعث الله نبيًّا

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٣٥٦).
(٢) «أصول الكافي» (١/ ٣٧٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٤٢٩).
(٤) «من لا يحضره الفقيه» لابن بابوية القمي (٢/ ٣٥٤).
(٥) «مستدرك الوسائل» للنوري ـ (١٠/ ٣٤٢).

إلا وفي أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده، فأما صاحبا نوح.. وأما صحابا محمد فجبتر وزريق[١].

وزريق مصغر لأزرق والمراد أبو بكر، وجبتر معناه الثعلب والمراد به عمر.

◻ وفي قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾، قالوا: فلان وفلان، ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعني: نعثل، ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ طلحة والزبير. ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ﴾ معاوية»[٢].

قال المجلسي في «بحار الأنوار» (٢٣/ ٣٠٦): «المراد بفلان وفلان أبو بكر وعمر، ونعثل هو عثمان».

وكتب الشيعة الاثنا عشرية الرئيسية تطفح بهذا الركام:

«الكافي» للكليني، و«من لا يحضره الفقيه» لابن بابوية القمي، و«بحار الأنوار» لمحمد باقر المجلسي، و«وسائل الشيعة» للحر العاملي، و«مستدرك الوسائل» للنوري الطبرسي.

* ولذا كفّرهم الأئمة:

◻ قال النووي: «إن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع»[٣].

◻ قال الشيخ ملا علي القاري: «قلت: وهذا في غير حق الرافضة الخارجة في زماننا فإنهم يعتقدون كفر أكثر الصحابة فضلاً عن سائر أهل

(١) «تفسير القمي» (١/ ٢١٤) طبعة النجف ١٣٨٦هـ.
(٢) «تفسير القمي» (٢/ ١٠٦)، و«بحار الأنوار» للمجلسي (٢٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٥٠).

السنة والجماعة، فهم كفرة بالإجماع بلا نزاع»[١] .

◻ وذكر النووي في «شرح مسلم» أن الإمامية لا يكفرون الصحابة، ويرى أن التكفير إنما هو عند غلاة الشيعة[٢] ، فالإمامية في عصر النووي كانوا لا يكفرون الصحابة، أو أن الإمام ـ رحمه اللَّه ـ لم يعرف ذلك عنهم.

وقد ذهب إلى كفرهم الإمام مالك، وأحمد، والبخاري وغيرهم كالقرطبي وابن تيمية والألوسي.

* **الإمام مالك**: روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال: سمعت أبا عبداللَّه يقول: قال مالك الذي يشتم أصحاب النبي ﷺ ليس لهم اسم أو قال: نصيب في الإسلام[٣] .

◻ قال ابن كثير عند قوله تعالى: **﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾** [الفتح: ٢٩].

قال: «ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمة اللَّه عليه ـ في رواية عنه تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من أهل العلم»[٤] .

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لملا علي القاري (٩/ ١٣٧).

(٢) «شرح النووي» (١٥/ ١٧٣).

(٣) «السنة» للخلال (٢/ ٥٥٧).. وإسناده صحيح.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢١٩)، وانظر «روح المعاني» للألوسي (٢٦/ ١١٦)، فقد ذهب إلى تكفيرهم، وانظر أيضًا في استنباط وجه تكفيرهم من الآية ـ في «الصارم المسلول» ص(٥٧٩).

◘ قال القرطبي: «لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدًا منهم، أو طعن عليه في روايته فقد رد على اللّه رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين»(١) .

* **الإمام أحمد**: وردت عنه روايات عديدة في تكفيرهم:

فقد روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال: سألت أبا عبداللّه عمن يشتم أبا بكر وعمر وعائشة؟ قال: ما أراه على الإسلام».

◘ وقد جاء في كتاب «السنة» للإمام أحمد قوله عن الرافضة: «هم الذين يتبرءون من أصحاب محمد ﷺ ويسبونهم، وينتقصونهم ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علي وعمار والمقداد وسلمان، وليست الرافضة من الإسلام في شيء»(٢) .

* **وقال البخاري ـ رحمه اللّه ـ**: «ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم ولا يعادون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم»(٣) .

◘ وقال عبدالرحمن بن مهدي: هما ملتان الجهمية والرافضة(٤) .

◘ وسأل رجل الفريابي عمن يشتم أبا بكر؟ قال: كافر، قال: فيصلى عليه؟ قال: لا. وقال: لا تمسوه بأيديكم ارفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته(٥) .

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٩٧).
(٢) «السنة» للإمام أحمد ص(٨٢) تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري.
(٣) «خلق أفعال العباد» للإمام البخاري ص(١٢٥).
(٤) المصدر السابق ص(١٢٥)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣٥/ ٤١٥).
(٥) «الصارم المسلول» لابن تيمية ص(٥٧٠).

وممن كفّرهم أحمد بن يونس، وأبو زرعة الرازي، وابن قتيبة.

◻ قال عبدالقاهر البغدادي: «وأما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والجهمية والإمامية الذين أكفروا خيار الصحابة ـ فإنا نكفرهم ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا ولا الصلاة خلفهم»[1].

◻ وقال القاضي أبو يعلى: «وأما الرافضة فالحكم فيهم. إن كفّر الصحابة أو فسّقهم بمعنى يستوجب به النار فهو كافر».

* **وقال ابن حزم**: «وأما قولهم ـ يعني النصارى ـ في دعوى الروافض تبديل القرآن، فإن الروافض ليسوا من المسلمين».. وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في «الكذب والكفر»[2].

ثم قال: «ومن قول الإمامية قديمًا وحديثًا أن القرآن مبدل..».

ثم قال: «القول بأن بين اللوحين تبديلاً كفر صريح وتكذيب لرسول اللّه ﷺ»[3].

◻ وقال الإسفراييني: «وليسوا في الحال على شيء من الدين، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين».

◻ وقال أبو حامد الغزالي: «فلو صرّح مصرح بكفر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد خالف الإجماع وخرقه، وردّ ما جاء في حقهم من الوعد بالجنة والثناء عليهم والحكم بصحة دينهم وثبات يقينهم وتقدمهم على سائر الخلق في أخبار كثيرة»، ثم قال: «فقائل ذلك إن بلغته الأخبار واعتقد مع ذلك كفرهم فهو كافر»[4].

(١) «الفرق بين الفرق» لعبدالقاهر البغدادي ص(٣٥٧).

(٢) «الفصل» لابن حزم (٢/ ٢١٣).

(٣) «الفصل» (٥/ ٤٠).

(٤) «فضائح الباطنية» لأبي حامد ص(١٤٩).

❑ وقال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: «نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء».

والشيعة المعاصرون يعدون هذا من ضرورات مذهبهم ومنكر الضروري كافر عندهم.

❑ وقال السمعاني: «واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية؛ لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة، وينكرون إجماعهم وينسبونهم إلى ما لا يليق بهم»(١) .

❑ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفسًا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب ـ أيضًا ـ في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم.

بل من يشكك في كفر مثل هذا؟ فإن كفره متعين»(٢) .

❑ وساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث الثابتة في السنة، والمتضمنة نفي دعوى النص والوصية التي تدعيها الرافضة لعلي، ثم قال بعدها معقبًا: «ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة فإنهم أطوع لله ولرسوله في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه فيقدموا غير من قدّمه، ويؤخروا من قدّمه بنصه، وحاشا وكلا، ومن ظن بالصحابة ﷺ ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور، والتواطئ على معاندة الرسول، ومضادته في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام، وكان إراقة دمه أحلّ من إراقة المدام»(٣) .

---

(١) «الأنساب» للسمعاني (٦/ ٣٤١).

(٢) «الصارم المسلول» ص(٥٨٦ ـ ٥٨٧).

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/ ٢٥٢).

◻ وكفرهم شيخ الإسلام ابن عبدالوهاب في رسالته «الرد على الرافضة»، والشيخ شاه عبدالعزيز الدهلوي في «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص(٣٠).

◻ وكفرهم الإمام الشوكاني: فقال: «وبهذا يتبين أن كل رافضي خبيث يصير كافرًا بتكفيره لصحابي واحد، فكيف بمن كفّر كل الصحابة واستثنى أفرادًا يسيرة»[1].

◻ وعندما جاء بعض آياتهم لمناظرة العالم الرباني الشيخ الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» قال لهم: «لو كنا نتفق على أصول واحدة لناظرتكم، ولكن لنا أصول ولكم أصول، وبصورة أوضح لنا دين ولكم دين»[2].

◻ وكفرهم الشيخ تقي الدين الهلالي في رسالته «مناظرتان بين رجل سني وإمامينِ مجتهدينِ شيعيين»[3].

*** للمخدوعين في «حزب الله» الاثنى عشري نقول:**

◻ إن لم ترضوا بأقوال هؤلاء العلماء الجهابذة من أساطين الإسلام، فاقرءوا رسالة الشيخ محب الدين الخطيب: «الخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثنى عشرية»، والشيخ محمد بهجة البيطار في كتابه «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» ص(١٣١)، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والدكتور مصطفى السباعي في مقدمة كتابه: «السنة ومكانتها في التشريع» ص(١٧)، وهو شيخ الإخوان في سوريا ـ رحمه الله ـ، والشيخ ابن باز، والشيخ الألباني، وشيخ علماء الجزائر البشير الإبراهيمي، وأحمد أمين،

(١) «نثر الجوهر على حديث أبي ذر» للشوكاني.
(٢) «وجاء دور المجوس» ص(١٥١).
(٣) المصدر السابق ص(١٤٨).

والدكتور محمد رشاد سالم.

* سلوا التاريخ يخبركم عن الرافضة الإثنى عشرية:

❑ [«من الذي تآمر مع التتار حتى استولوا على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم، وقتلوا معه ـ غدرًا وفي ساعة واحدة ـ مائتي وألف شخصية من العلماء والوجهاء والقضاة، واستمرت المذابح فيها بضعًا وثلاثين يومًا، قُتِل فيها حوالي ثمانمائة ألف مسلم ومسلمة؟

❑ ومن الذي تسبب في انحسار المدّ الإسلامي العثماني في أرجاء أوربة، وطعن الخليفة العثماني في ظهره بزحفه على عاصمة الخلافة بينما كان يتغلغل بجيوشه في أحشاء النمسا إلى أن دخل قلب «فيينا»، وكادت أوربا تدخل في حظيرة الإسلام لولا اضطرار الجيش العثماني إلى الانسحاب والرجوع إلى الرافضة لدحرهم ودفعهم؟»[(١)] .

❑ ومن الذي تحالف مع ملك المجر ضد الدولة العثمانية؟][(٢)] .

❑ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «كانوا من أعظم الأسباب في استيلاء النصارى قديمًا على بيت المقدس حتى استنقذه المسلمون منهم»[(٣)] .

❑ «ومن الذي سلّم أرض المسلمين في باكستان الشرقية لقمة سائغة للهندوس حتى يقيموا عليها الدولة المسخ «بنجلاديش»؟»[(٤)] .

(١) انظر: «الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا» للدكتور محمد عبداللطيف هريدي ـ دار الصحوة ـ القاهرة.
(٢) مقدمة كتاب «حقبة من التاريخ» لعثمان الخميس والمقدمة للدكتور محمد إسماعيل المقدم ص(٩ ـ ١٠) ـ دار الإيمان.
(٣) «منهاج السنة» لابن تيمية (٤/ ١١٠).
(٤) مقدمة: «حقبة من التاريخ» ص(١٠).

□ يقول الشيخ إحسان إلهي ظهير: «وها هي باكستان الشرقية ذهبت ضحية بخيانة أحد أبناء «قزلباش» الشيعة يحيى خان في أيدي الهندوس»[١].

□ «وقد عارض شيوخ الشيعة في باكستان تطبيق الشريعة الإسلامية وقد قال زعيم الشيعة مفتي جعفر حسين في مؤتمر صحفي: بأن الشيعة يرفضون تطبيق الحدود الإسلامية؛ لأنها ستكون على مذهب أهل السنّة»[٢].

* الخميني ضال مضل:

□ الخميني ضال مضل وارجع إلى كتابه «الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه» وكتابه «تحرير الوسيلة» ومختصره «من هنا المنطلق» وكتابه «جهاد النفس أو الجهاد الأكبر». والأحاديث الواردة في الصحاح والتي بدونها يضيع ديننا لا ترد على لسانه أبدًا بل يرد في كتابه «الحكومة الإسلامية» ص(٣٧ وما بعدها) أنه لا يعترف بها.

□ يترحم الخميني على «النوري» صاحب كتاب «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» والذي طبع سنة ١٢٩٨هـ. وقد قال علماء الشيعة عنه إنه من أعظم علماء الشيعة وكبار رجال هذا القرن.

ويحيل الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية» عند ذكره لأحد الأحاديث إلى كتاب «دعائم الإسلام» وهو الكتاب الأكبر عند الإسماعيلية الباطنية الغلاة.

ويرجع الخميني إلى كتاب «الكافي» للكليني وفيه من الكفريات والضلالات الشيء الكثير كالأحاديث الواردة فيه بنقض القرآن وتحريفه، وأن الأئمة يوحى إليهم، وأنهم يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى

(١) «الشيعة والسنة» لإحسان إلهي ظهير ص(١١).
(٢) «الأنباء الكويتية» ـ العدد ١٧ ـ ربيع الثاني ١٤١٢هـ ص(٧١، ٧٢).

عليهم شيء، وأنهم إذا شاءوا أن يعلموا علموا، وأنهم يعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا باختيار منهم، وفيه تكفير أبي بكر وعمر وعمرو وعثمان، وعقيدة الكليني في القرآن أنه ناقص محرف.

*** الخميني الضال يذهب إلى تحريف القرآن:**

هناك إجماع من الشيعة وعلى رأسهم الخميني على تقدير النوري، صاحب كتاب «مستدرك الوسائل» ويترحم عليه، و«الكافي» للكليني، و«الوسائل» للحر العاملي، و«الاحتجاج» لأحمد الطبرسي وكلها تقول بتحريف القرآن.

وبين أيدينا وثيقة وهذه الوثيقة كتاب باللغة الأردية موثق من عدد من آياتهم المعاصرة ومنهم الخميني وهو طبقًا لما جاء في صدر الكتاب مراعين في ذكرهم النص الأردي:

١ ـ آية اللَّه العظمى.. محسن حكيم طباطبائي مجتهد أعظم نجف أشرف.

٢ ـ آية اللَّه العظمى.. أبو القاسم خوئي نجف أشرف.

٣ ـ آية اللَّه العظمى.. روح اللَّه خميني.

٤ ـ آية اللَّه العظمى.. محمود الحسيني.

٥ ـ آية اللَّه العظمى.. محمد كاظم شعريعتمداري.

٦ ـ مصدقة ماليجناب سيد العلماء علامة سيد علي تقي النقودي مجتهد لكهنو.

ويتضمن هذا الكتاب نصًّا بالعربية في حدود صفحتين كله يدور حول كيفية لعن صنمي قريش وهما حسب اعتقادهم ـ أبو بكر وعمر ـ واتهامهما بتحريف القرآن الكريم.. ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ**

كَذِبًا﴾.

◻ وسنكتفي من هذا النص بموضع الشاهد لحديثنا.

«بسم الله الرحمن الرحيم. اللَّهم العن صنَمْي قريش وجبتيها وطاغوتيهما وإفكيها وابنتيها اللذين خالفا أمرك وأنكروا وحيك وعصيا رسولك وقلبا دينك وحرّفا كتابك»[(١)].

◻ الخميني: الذي يقول في كتابه «جهاد النفس» ص(١٨) عن معاوية رضي الله عنه: «معاوية ترأس قومه أربعين عامًا، ولكنه لم يكسب لنفسه سوى لعنة الدنيا وعذاب الآخرة»، ويقول في «الحكومة الإسلامية» ص(٧١): «ولم تكن حكومة معاوية تمثل الحكومة الإسلامية أو تشبهها من قريب ولا بعيد».

ويتهم الصحابي الجليل سمرة بن جندب بأنه يفتري أحاديث تمس من كرامة أمير المؤمنين[(٢)].

◻ يعتقد الخميني في نصوص «الكافي» للكليني، وقد ورد فيه أن الصحابة ارتدوا إلا ثلاثة.

◻ الخميني: الذي يتهجم على هارون الرشيد فيصفه بالجهل فيقول: «وها هو التاريخ يحدثنا عن جُهّال حكموا الناس بغير جدارة ولا لياقة، هارون الرشيد، أية ثقافة حازها؟ وكذلك من قبله ومن بعده»[(٣)].

◻ الخميني: الذي يطعن في خيار الأمة وينال من شرف روّادها يثني على الأقزام الملاحدة مثل النصير الطوسي فيقول: «ويشعر الناس بالخسارة أيضًا بفقدان الخواجة نصير الدين الطوسي وأمثاله ممن قدّموا

---

(١) «تحفة العوام» مقبول جديد ص(٤٢٢).
(٢) «الحكومة الإسلامية» للخميني ص(٧١).
(٣) «الحكومة الإسلامية» ص(١٣٣).

خدمات جليلة للإسلام»[١] .

والطوسي هذا هو محمد بن محمد بن الحسن الخوجه نصير الدين الطوسي المسئول مع عدو اللَّه ابن العلقمي ومستشاره ابن أبي الحديد عن الذبح العام الرهيب الذي ارتكبه الوثني هولاكو في أمة محمد ﷺ عند استيلائه على عاصمة الإسلام بغداد سنة ٦٥٥هـ، وكان الطوسي قبل ذلك من ملاحدة الإسماعيلية.

□ قال ابن القيم: «ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة واستشفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين. . ونصر في كتبه قدم العالم وبطلان المعاد. . وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»[٢] .

*** الخميني الضال المضل المغالي في أئمته الاثنا عشر:**

فيقول: «إن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون»[٣] .

ويقول في ص(٥٢): «والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارًا فجعلهم اللَّه بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا اللَّه، وقد قال جبرائيل ـ كما ورد في روايات المعراج ـ لو دنوت أنملة لاحترقت».

ويقول: «والأئمة الذين لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة»[٤] .

(١) المصدر السابق ص(١٢٨).
(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/ ٢٦٣).
(٣) «الحكومة الإسلامية» ص(٥٢).
(٤) المصدر السابق ص(٩١).

ويقول في ص(٥٢): «وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل».

□ قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: «ومن اعتقد في غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساوٍ لهم فقد كفر، وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء»(١).

وهذا هو مذهب غلاة الرافضة كما قال ابن تيمية في «منهاج السنة» (١/ ١٧٧).

□ ونحن نقول عن الخميني إمام حزب اللّه أنه إمام من أئمة الكفر: جاء في بيان التنظيم الدولي للإخوان المسلمين وصف حكم الخميني بأنه «الحكم الإسلامي الوحيد في العالم»(٢).

وقالت مجلة الاعتصام: «أن ردود الفعل التي أحدثتها (حركة الخميني) كان مبعثها أن حركة الخميني حركة إسلامية مائة في المائة»(٣).

*** ونحن نقول عن الخميني أنه إمام من أئمة الكفر:**

□ وندلل على هذا بما سبق وقلناه عن عقيدته وبالآتي أيضًا.

(١) الاتجاه الوثني عنده:

في كتابه «كشف الأسرار» تحت عنوان «ليس من الشرك طلب الحاجة من الموتى»:

يقول: «يمكن أن يقال إن التوسل إلى الموتى وطلب الحاجة منهم شرك؛

---

(١) «الرد على الرافضة» لشيخ الإسلام ابن عبدالوهاب ص(٢٣).

(٢) انظر: «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة» وهو من سلسلة الكتب التي تصدرها دار المختار الإسلامي ص(٥٢).

(٣) مجلة الاعتصام ـ العدد الخامس ـ السنة الثانية والأربعون ربيع أول ١٣٩٩هـ.

لأن النبي والإمام ليس إلا جمادين فلا يتوقع منهما النفع والضرر.

والجواب: إن الشرك هو طلب الحاجة من غير اللّٰه مع الاعتقاد بأن هذا الغير هو إله ورب.

وأما إذا طلب الحاجة من الغير من غير هذا الاعتقاد فذلك ليس بشرك، ولا فرق في هذا المعنى بين الحي والميت، ولهذا لو طلب أحد حاجته من الحجر والمدر لا يكون شركًا، مع أنه قد فعل فعلاً باطلاً!!!.

ومن ناحية أخرى نحن نستمد من أرواح الأنبياء المقدسة والأئمة الذين أعطاهم اللّٰه قدرة.

لقد ثبت بالبراهين القطعية والأدلة العقلية المحكمة حياة الروح بعد الموت، والإحاطة الكاملة للأرواح على هذا العالم!!!»[1] .

(٢) اعتقاده تأثير الكواكب والأيام على حركة الإنسان وهو قول الصابئة الكفار:

يقول الخميني: «يكره إيقاعه ـ يعني عقد الزواج ـ والقمر في برج العقرب، وفي محاق الشهر، وفي أحد الأيام المنحوسة في كل شهر وهي سبعة: يوم ٣، ويوم ٥، ويوم ١٣، ويوم ١٦، ويوم ٢١، ويوم ٢٤، ويوم ٢٥ ـ وذلك من كل شهر ـ»[2] .

□ ويقول صاحب «التحفة الاثنا عشرية: «إن الصابئين كانوا يحترزون عن أيام يكون القمر بها في العقرب، أو الطرف، أو المحاق وكذلك الرافضة»، وكانت الصابئة يعتقدون أن جميع الكواكب فاعلة مختارة، وأنها هي المدبرة للعالم السفلي، وكذلك الرافضة»[3] .

---

(١) «كشف الأسرار» للخميني ص(٣٠).

(٢) «تحرير الوسيلة» للخميني (٢/ ٢٣٨).

(٣) «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص(٢٩٩) لشاه عبدالعزيز الدهلوي، واختصره الشيخ محمد شكري الألوسي ـ المطبعة السلفية ـ.

(٣) قوله بالحلول والاتحاد:

«وله كتابان خطيران في ذلك: «مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية»، و«سر الصلاة».

*** قوله بالحلول الخاص:**

يقول عن أمير المؤمنين علي: «خليفته [يعني خليفة الرسول ﷺ] القائم مقامه في الملك والملكوت، المتحد بحقيقته في حضرة الجبروت واللاهوت، أصل شجرة طوبى، وحقيقة سدرة المنتهى، الرفيق الأعلى في مقام أو أدنى، معلم الروحانيين، ومؤيد الأنبياء والمرسلين عليّ أمير المؤمنين»[١].

❏ ومن منطلق دعوى حلول الرب لعلي ـ كما يُفترى ـ ينسب الخميني لأمير المؤمنين علي أنه يقول: «كنت مع الأنبياء باطنًا ومع رسول اللَّه ظاهرًا»[٢].

ويعلق الخميني قائلاً: «فإنه عليه السلام صاحب الولاية المطلقة الكلية والولاية باطن الخلافة.. فهو عليه السلام بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس بما كسبت!!، ومع كل الأشياء معيّة قيّومية ظلية إلهية ظل المعية القيومية الحقة الإلهية إلا أن الولاية لما كانت في الأنبياء أكثر خصهم بالذكر»[٣].

ويقول في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، قال: «أي: ربكم الذي هو الإمام»[٤].

---

(١) «مصباح الهداية» للخميني ص(١).
(٢) «مصباح الهداية» ص(١٤٢).
(٣) المصدر السابق ص(١٤٢).
(٤) «مصباح الهداية» ص(١٤٥).

ب: قوله بالحلول والاتحاد الكلي:

يقول: «النتيجة لكل المقامات والتوحيدات عدم رؤية فعل وصفة حتى من اللَّه تعالى، ونفي الكثرة بالكلية، وشهود الوحدة الصرفة»[١].

ثم ينقل عن أحد أئمته أنه قال: «لنا مع اللَّه حالات هو هو ونحن نحن، وهو نحن، ونحن هو»[٢].

ثم يعلق على ذلك بقوله: «وكلمات أهل المعرفة خصوصًا الشيخ الكبير محي الدين مشحونة بأمثال ذلك مثل قوله: الحق خلق، والخلق حق، والحق حق، والخلق خلق».

«ويستدل على مذهبه في وحدة الوجود بقول ابن عربي والذي يصفه بالشيخ الكبير[٣]، والقونوي، ويصفه بـ «خليفة الشيخ الكبير محي الدين»[٤].

«وهكذا يتبين أن الخميني قد أخذ منهج أهل الحلول والاتحاد»[٥].

* ثالثًا: دعوى النبوة:

أفرزت لوثات التصوف عند الخميني دعوى غريبة وكفرًا صريحًا حيث يرسم للسالك أسفارًا أربعة:

- ينتهي السفر الأول إلى مقام الفناء.
- وينتهي السفر الثاني إلى الفناء عن الفناء وتتم دائرة الولاية.

---

(١) «مصباح الهداية» ص(١٣٤).
(٢) المصدر السابق ص(١١٤).
(٣) المصدر السابق ص(٨٤، ٩٤، ١١٢).
(٤) المصدر السابق ص(١١٠).
(٥) «أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية» ـ للدكتور ناصر القفاري (٣/ ١١٥١).

ـ أما في السفر الثالث فإنه: «يحصل له الصحو التام ويبقى بإبقاء اللَّه، ويسافر في عالم الجبروت والملكوت والناسوت، ويحصل له حظ من النبوة، وليست له نبوة التشريع، وحينئذ ينتهي السفر الثالث، ويأخذ في السفر الرابع»(١).

ـ وبالسفر الرابع: «يكون نبيًّا بنبوة التشريع»(٢).

فمراحل السفر عنده هي: الفناء، والولاية وفيها الفناء عن الفناء، والنبوة بلا تشريع، ثم النبوة الكاملة.

وقوله هذا يتضمن أن النبوة مكتسبة عن طريق «رياضات» ومجاهدات أهل التصوف.

□ قال القاضي عياض: «نكفّر من أدعى النبوة لنفسه، أو جوّز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة الصوفية»(٣).

وقد ذكر الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية: «أن الفقيه الرافضي بمنزلة موسى وعيسى»(٤)، وادعى فخر الحجازي: «أن الخميني أعظم من النبي موسى وهارون» فعينه نائبًا عن طهران ورئيسًا لمؤسسة المستضعفين أعظم مؤسسة مالية في البلاد(٥).

* الخميني يكفر صحابة رسول اللَّه ﷺ عامة ويصرح بتكفير الشيخين:

يقرر الخميني في كتابه «تحرير الوسيلة» مشروعية التبري من أعداء الأئمة في الصلاة(٦) ـ وأعداء الأئمة في قاموس الشيعة هم صحابة رسول اللَّه

(١، ٢) «مصباح الهداية» ص(١٤٩).
(٣) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ١٠٧٠ ـ ١٠٧١).
(٤) «الحكومة الإسلامية» ص(٩٥).
(٥) «الثورة البائسة» لموسى الموسوي ص(١٤٧).
(٦) «تحرير الوسيلة» للخميني (١/ ١٦٩).

ﷺ إلا ثلاثة أو سبعة.

وهو في كتابه «كشف الأسرار» يصرّح بتكفير الشيخين[(١)] .

وقد ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في ترجمته لبعض نصوص «كشف الأسرار» ما يتضمن مجاهرة الخميني بهذا الكفر[(٢)] .

*** ونكفر الخميني بتفضيله مهدي الشيعة المنتظر على النبي محمد ﷺ :**

فقد قال الخميني في خطاب له بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي ـ كما يعتقدون ـ في الخامس عشر من شهر شعبان ١٤٠٠هـ وأذيع من راديو طهران: «لقد جاء الأنبياء جميعًا من أجل إرساء قواعد العدالة لكنهم لم ينجحوا حتى النبي محمد خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية.. لم ينجح في ذلك، وإن الشخص الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر»[(٣)] .

▫ وفي احتفال رسمي وجماهيري أقيم في عبدان في ١٧/ ٣/ ١٩٧٩م تأييدًا لإقامة الجمهورية الإسلامية ألقى د. محمد مهدي صادقي خطبة في هذا الاحتفال سجلت باللغتين العربية والفارسية، ووصفتها الإذاعة بأنها مهمة ومما جاء في هذه الخطبة:

«أصرح يا إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن مكة المكرمة حرم اللّه الآمن يحتلها شرذمة أشد من اليهود..» وذكر قبل ذلك بأنه حين تثبت ثورته سينتقلون إلى القدس وإلى مكة المكرمة وإلى أفغانستان وإلى

---

(١) «كشف الأسرار» ص(١١٢) وما بعدها، وانظر «صورتان متضادتان» لأبي الحسن الندوي ص(٥٧ ـ ٥٨).

(٢) «صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالي الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية» لأبي الحسن الندوي ـ ندوة العلماء ـ الهند.

(٣) «مجلة المجتمع» الكويتية العدد (٤٨٨) في ٨/ ٧/ ١٩٨٠م، و«نهج الخميني في ميزان الفكر الإسلامي» لبشار عواد ص(٤٥ ـ ٤٧) دار عمار للنشر.

مختلف البلاد»[١] .

□ وانظر ما كتبه الشيخ محمد عبدالقادر آزاد رئيس مجلس علماء باكستان عما شاهده في أثناء زيارته لإيران، حتى يقول: بأنه رأى على جدران فندق هيلتون في طهران والذي يقيمون فيه شعارات مكتوبًا عليها «سنحرر الكعبة والقدس وفلسطين من أيدي الكفار»[٢] .

* * *

(١) أذيعت هذه الخطبة من صوت الثورة الإسلامية من عبادان الساعة ١٢ ظهراً من يوم ١٧/ ٣/ ١٩٧٩م.
(٢) «الفتنة الخمينية» للشيخ محمد آزاد ص(٩).

صفحة من جهاد المجددين
وفضحهم للمبتدعة الآثمين

*** الإمام المجدد الرباني الشاطبي صاحب كتاب الاعتصام وجهاده للبدع، وفضحه للمبتدعة:**

لا يعرف قدر الرجال إلاّ الرجل وإنما يعرف الفضل لأهله أهله، فللّه در الشيخ محمد رشيد رضا إذ يقول عن الإمام الشاطبي: «العلماء المستقلون في هذه الأمة ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين. والإمام الشاطبي من هؤلاء القليل، وما رأينا من آثاره إلا القليل؛ رأينا كتاب «الموافقات» من قبل، ورأينا كتاب «الاعتصام» اليوم، فأنشدنا قول الشاعر:

قليل منك يكفيني ولكن   قليلك لا يُقالُ له قليلُ»

❑ وقال عن كتاب الشاطبي «الاعتصام» «تجد فيه علمًا صحيحًا لا تجده في غيره؛ لأنه مما فتح اللّه به على صاحبه دون غيره» و«لولا أن هذا الكتاب أُلّف في عصر ضعف العلم والدين في المسلمين لكان مبدأ نهضة جديدة لإحياء السنة، وإصلاح شئون الأخلاق والاجتماع، ولكان المصنف بهذا الكتاب وبصنوه كتاب «الموافقات» ـ الذي لم يسبق إلى مثله سابق أيضًا ـ من أعظم المجددين في الإسلام، فمثله كمثل الحكيم الاجتماعي، عبدالرحمن بن خلدون، كل منهما جاء بما لم يسبق إلى مثله، ولم تنتفع الأمة كما كان يجب ـ بعلمه.

كتاب «الموافقات» لا ندّ له في بابه «أصول الفقه وحكم الشريعة وأسرارها» وكتاب «الاعتصام» لا ندّ له في بابه، فهو ممتع مشبع»[(١)].

«كان الإمام الشاطبي ـ رحمه اللّه ـ مشهورًا بمقاومة البدع وأهلها، وكان يبين للناس السنن ويحذر من البدع.

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي ـ مقدمة بقلم الشيخ محمد رشيد رضا (ص٣، ٤) ـ المكتبة التجارية ـ الكبرى بمصر.

وقد كان الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ أحد أولئك الأعلام الأفذاذ الذين كانت لهم جهود مميزة في محاربة البدع وأهلها.

□ وكان ـ رحمه الله ـ تولى الخطابة في الجامع الأعظم، فلما حاول أن يبين للناس ما دخل على الخطابة والإمامة من البدع، وجد مقاومة شديدة من أرباب البدع؛ حيث نسبوه إلى البدعة والضلاله والغباوة والجهل»[1]، وفي ذلك يقول ـ رحمه الله ـ:

«ابتدأت بأصول الدين عملاً واعتقاداً، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول؛ وفي خلال ذلك أبيِّن ما هو من السنن أو من البدع، كما أبين ما هو من الجائز وما هو من الممتنع، وأعرض ذلك على علم الأصول الدينية والفقهية، ثم أطلب نفسي بالمشي مع الجماعة التي سمّاها رسول الله ﷺ بالسواد الأعظم، في الوصف الذي كان عليه هو وأصحابه وترك البدع التي نصّ عليها العلماء أنها بدع وأعمال مختلفة.

وكنت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريبًا في جمهور أهل الوقت، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعًا في الأزمنة المتقدمة فكيف في زماننا هذا؟؟!

فتردد النظر بين ـ أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، لا سيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل. ما فيه من الأجر

---

(١) «الإمام الشاطبي ـ عقيدته وموقفه من البدع وأهلها» لعبدالرحمن آدم علي (ص٨٧، ٨٨) ـ مكتبة الرشد.

الجزيل - وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذًا باللّه من ذلك، إلا أني أُوافق المعتاد، وأعد من المؤلفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من اللّه شيئًا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأُمور، فقامت عليَّ القيامة، وتواترت عليَّ الملامة، وفوّق إلى العتاب سهامه، ونسبت إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجًا لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعبًا وضيق عليَّ مجالاً رحبًا، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات، لموافقات العادات، أولى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول.

وربما ألمُّوا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكتب ويسألُون عنها يوم القيامة فتارة نسبت إلى القول بأن الدعاءَ لا ينفع ولا فائدة فيه كما يعزي إلى بعض الناس، بسبب أني لم ألتزم الدعاءَ بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة. وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء.

وتارة نسبت إلي الرفض وبغض الصحابة ﷺ، بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب. وقد سئل (أصبغ) عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين فقال: هو بدعة ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة. قيل له: فدعاءَه للغزاة والمرابطين؟ قال: ما أرى به بأسًا عند الحاجة إليه، وإما أن يكون شيئًا يصمد له في خطبته دائمًا فإني أكره ذلك. ونص أيضًا عز الدين

ابن عبدالسلام: على أن الدعاءَ للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة.

وتارة أُضيف إليَّ القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكرى لهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة أحملُ على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل علي مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذًا في المذهب الملتزم أو في غيره. وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك وللمسألة بسط في كتاب (الموافقات).

وتارة نسبتُ إلى معاداة أولياء اللَّه، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين ـ بزعمهم ـ لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة، بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها ـ وهي الناجية ـ ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان. وسيأتي بيان ذلك بحول اللَّه، وكذبوا عليَّ في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد للَّه على كل حال.

◘ فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبدالرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه إذ حكى عن نفسه فقال: «عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقًا أو مخالفًا، دعاني إلى متابعته على ما يقول، وتصديق قوله والشهادة له. فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك ـ كما يفعله أهل هذا الزمان ـ سماني

موافقًا وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله ـ سماني مخالفًا، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد، سماني خارجيًّا، وإن قرأت عليه حديثًا في التوحيد سماني مشبهًا، وإن كان في الرؤية سماني ساليًّا، وإن كان في الإيمان سماني مرجئيًّا، وإن كان في الأعمال، سماني قدريًّا، وإن كان في المعرفة سماني كراميًّا، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر، سماني ناصبيًّا، وإن كان في فضائل أهل البيت، سماني رافضيًّا، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما، سماني ظاهريًّا، وإن أجبت بغيرهما، سماني باطنيًّا. وإن أجبت بتأويل؛ سماني أشعريًّا، وإن حجدتهما، سماني معتزليًّا، وإن كان في السنن مثل القراءة، سماني شفعويًّا، وإن كان في القنوت[1] ، سماني حنفيًّا وإن كان في القرآن، سماني حنبليًّا، وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار ـ إذ ليس في الحكم والحديث محاباة ـ قالوا: طعن في تزكيتهم. ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرءون على من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي؛ ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئًا. وإني مستمسك بالكتاب والسنة وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم».

هذا تمام الحكاية فكأنه ـ رحمه الله ـ تكلم على لسان الجميع. فقلما تجد عالمًا مشهورًا أو فاضلاً مذكورًا، إلا وقد نبذ بهذه الأمور أو بعضها؛ لأن الهوى قد يداخل المخالف، بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها، والقوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك حمل على صاحب السنة،

(١) يريد القنوت في الوتر دائمًا، أما القنوت في صلاة الصبح، فالشافعية هم الذين يلتزمونه.

إنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه والتقبيح لقوله وفعله، حتى ينسب هذه المناسب.

□ وقد نقل عن سيد العبّاد بعد الصحابة (أويس) القرني أنه قال: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدعا للمؤمن صديقًا، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا ويجدون على ذلك أعوانًا من الفاسقين، حتى ـ واللَّه ـ لقد رموني بالعظائم. وأيم اللَّه لا أدع أن أقوم فيهم بحقه».

فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريبًا كما بدأ؛ لأن المؤالف فيه على وصفه الأول قليل، فصار المخالف هو الكثير، فاندرست رسوم السنة حتى مدت البدع أعناقها، فأشكل مرماها على الجمهور فظهر مصداق الحديث الصحيح.

ولما وقع عليَّ من الإنكار مع ما وقع ما هدى اللَّه إليه وله الحمد، لم أزل أتتبع البدع التي نبه عليها رسول اللَّه ﷺ وحذر منها، وبيّن أنها ضلالة وخروج عن الجادة وأشار العلماءُ إلى تمييزها والتعريف بجملة منها، لعلي أجتنبها فيما استطعت. وأبحث عن السنن التي كادت تطفئُ نورها تلك المحدثاتُ لعلي أجلو بالعمل سناها، وأُعدّ يوم القيامة فيمن أحياها، إذ ما من بدعة تحدث إلا ويموت من السنن ما هو مقابلتها، حسبما جاء عن السلف في ذلك.

□ فعن ابن عباس قال: «ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدعة وتموت السنن».

□ وفي بعض الأخبار: لا يحدث رجل بدعة إلا ترك من السنة ما هو خير منها.

□ وعن لقمان بن أبي إدريس الخولاني أنه كان يقول: «ما أحدثت أُمة في دينها بدعة إلا رفع بها عنهم سنة.

□ وعن حسان ابن عطية قال: «ما أحدث قوم بدعة في دينهم إلا نزع اللَّه من سنتهم مثلها ثم لم يُعدها إليهم إلى يوم القيامة، إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى وهو مشاهد معلوم.

فوجوت بالنظر في هذا الموضع الانتظام في سلك من أحيا سنة وأمات بدعة. وعلى طول العهد ودوام النظر اجتمع لي في البدع والسنن أُصول قررت أحكامها الشرعية، وفروع طالت أفنانها لكنها تنتظمها تلك الأُصول، وقلما توجد على الترتيب الذي سنح في الخاطر، فمالت إلى بثها النفس، ورأت أنه من الأكيد الطلب[1] لما فيه من رفع الالتباس الناشئ بين السنن والبدع؛ لأنه لما كثرت البدع وعم ضررها، واستطار شررها، ودام الإكباب على العمل بها، والسكوت من المتأخرين عن الإنكار لها، وخلفت بعدهم خلوف جهلوا أو غفلوا عن القيام بفرض القيام فيها، صارت كأنها سنن مقررات، وشرائع من صاحب الشرع محررات، فاختلط المشروع بغيره، فعاد الراجع إلى محض السنة كالخارج عنها كما تقدم، فالتبس بعضها ببعض، فتأكد الوجوب بالنسبة إلى من عنده فيها علم؛ وقلما صنف فيها على الخصوص تصنيف، وما صنف فيها فغير كاف في هذه المواقف، مع أن الداخل في هذا الأمر اليوم فاقدُ المساعد عديمُ المعين؛ فالموالى له يخلد به إلى الأرض، ويلقي له باليد إلى العجز عن بث الحق، بعد رسوخ العوائد في القلوب، والمعادي يرميه بالأردبيس، ويروم أخذه بالعذاب البئيس؛ لأنه يرد عوائده الراسخة في القلوب، المتداولة في الأعمال، دينًا يتعبد به، وشريعة يسلك عليها لا حجة له إلا عمل الآباء والأجداد، مع بعض الأشياخ العالمين، كانوا من أهل النظر في هذه الأمور أم لا. ولم يلتفتوا إلى أنهم عند موافقتهم للآباء والأشياخ مخالفون للسلف الصالح، فالمتعرض لمثل هذا الأمر

(١) كذا في الأصل، ولعل فيها تحريفًا من النساخ.

ينحو نحو عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في العمل حيث قال: ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا اللَّه قد فنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره.

وكذلك ما نحن بصدد الكلام عليه، غير أنه أمر لا سبيل إلى إهماله، ولا يسع أحدٌ ممن له منَّة إلا الأخذ بالحزم والعزم في بثه، بعد تحصيله على كماله، وإن كره المخالف فكراهيته لا حجة فيها على الحق ألا يرفع منارُه، ولا تكشف وتجلى أنواره، فقد خرج أبو الطاهر السِّلفي بسنده إلى أبي هريرة أن النبي ﷺ قال له: **«يا أبا هريرة علِّم الناس القرآن وتعلمه، فإنك إن مُت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما يزار البيت العتيق، وعلِّم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت ألا توقف على الصِّراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين اللَّه حدثًا برأيك»**.

◻ قال أبو عبداللَّه بن القطان: وقد جمع اللَّه له ذلك كله من إقراء كتاب اللَّه والتحديث بالسنة، أحب الناس أم كرهوا، وترك الحدث حتى إنه كان لا يتأوَّل شيئًا مما روى، تتميمًا للسلامة من الخطإ.

على أن أبا العرب التميمي حكى عن ابن فروخ أنه كتب إلى مالك بن أنس: إن بلدنا كثير البدع وإنه ألف كلامًا في الرد عليهم. فكتب إليه مالك يقول له: إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل فتهلك. لا يرد عليهم إلا من كان ضابطًا عارفًا بما يقول لهم لا يقدرون أن يعرجوا عليه فهذا لا بأس به، وأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه أو يظفروا منه بشيءٍ فيطغوا ويزدادوا تماديًا على ذلك.

وهذا الكلام يقضي لمثلي بالإحجام دون الإقدام، وشياع هذا النكر وفشوُّ العمل به وتظاهر أصحابه يقضي لمن له بهذا المقام منَّةٌ بالإقدام دون الإحجام؛ لأن البدع قد عمت وجرت أفراسها من غير مغير ملءَ أعنتها.

□ وحكى ابن وضاح عن غير واحد: أن أسد بن موسى كتب إلى أسد ابن الفرات: اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك اللَّه من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنة، وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم اللَّه بك، وشدَّ بك ظهر أهل السنة، وقواك عليهم بإظهار عيبهم، والطعن عليهم، وأذلَّهم اللَّه بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين. فأبشر يا أخي بثواب اللَّه، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد. وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب اللَّه وإحياء سنة رسوله ﷺ؟! وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحيا شيئًا من سنتي كنت وأنا وهو في الجنة كهاتين**» وضم بين إصبعيه.

وقال ﷺ: «**أيُّما داعٍ دعا إلى هذه فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه رلى يوم القيامة**».

فمن يدرك يا أخي هذا بشيءٍ من عمله؟! وذكر أيضًا: إن للَّه عند كل بدعة كيد بها الإسلامُ وليًّا للَّه يذب عنها، وينطق بعلامتها، فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكن من أهله؛ فإن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فأوصاه وقال: «**لأن يهدي اللَّه بك رجلاً واحداً خير لك من كذا وكذا**». وأعظم القول فيه. فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك أُلفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاءَ الأثر. فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد اللَّه بك المبتدع والمفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفًا من نبيك ﷺ فأحْي كتاب اللَّه وسنة نبيه، فإنك لن تلقى اللَّه بعمل يشبهه.

□ انتهى ما قصدت إيراده من كلام أسد ـ رحمه اللَّه. وهو مما يقوى جانب الإقدام مع ما روى عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه خطب الناس فكان

من جملة كلامه في خطبته أن قال: والله إني لولا أن أُنعش سنة قد أُميتت، أو أن أُميت بدعة قد أُحييت، لكرهت أن أعيش فيكم فواقًا.

◻ وخرَّج ابن وضاح في كتاب القطعان وحديث الأوزاعي أنه بلغه عن الحسن أنه قال: لن يزال للَّه نصحاءُ في الأرض من عباده يعرضون أعمال العباد على كتاب اللَّه فإذا وافقوه حمدوا اللَّه، وإذا خالفوه عرفوا بكتاب اللَّه ضلالة من ضل وهدى من اهتدى، فأولئك خلفاء اللَّه.

◻ وفيه عن سفيان قال: اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله، فوقع الترديد بين النظرين.

ثم إني أخذت في ذلك مع بعض الإخوان الذين أحللتهم من قلبي محل السويداء وقاموا لي في عامة أدواء نفسي مقام الدواء، فرأوا أنه من العمل الذي لا شبهة في طلب الشرع نشره، ولا إشكال في أنه بحسب الوقت من أوجب الواجبات، فاستخرت اللَّه تعالى في وضع كتاب يشتمل على بيان البدع وأحكامها وما يتعلق بها من المسائل أُصولاً وفروعًا وسميته بـ «الاعتصام». واللَّه أسأل أن يجعله عملاً خالصًا، ويجعل ظل الفائدة به ممدودًا لا قالصًا، والأجر على العناء فيه كاملاً لا ناقصًا؛ ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم(١).

*** خمس قواعد من الشاطبي في ذم البدع وأهلها:**

◻ قعد الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ قواعد في ذم البدع وأهلها:

القاعدة الأولى: عدم استقلال العقل بمعرفة مصالح دينيوية أو أخروية:

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «لا خفاء أن البدع من حيث تصورها يعلم

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (ص٢٥ ـ ٣٥) باختصار.

العاقل ذمها؛ لأن اتباعها خروج عن الصراط المستقيم، ورمي في عماية، وبيان ذلك من جهة النظر والنقل الشرعي العام».

أما النظر فمن وجوه:

أحدها: القاعدة الأولى:

«أنه قد علم بالتجارب والخبرة السارية في العالم من أول الدنيا إلى اليوم أن العقول غير مستقلة بمصالحها استجلابًا لها، أو مفاسدها استدفاعًا لها؛ لأنها إما دنيوية، أو أخروية. فأما الدنيوية فلا يستقل استدراكها على التفصيل البتة لا في ابتداء وضعها أولاً، ولا في استدراك ما عسى أن يعرض في طريقها، إما في السوابق وإما في اللواحق.

وأما المصالح الأخروية، فأبعد عن مصالح المعقول من جهة وضع أسبابها، وهي العبادات مثلاً، فإن العقل لا يشعر بها على الجملة، فضلاً عن العلم بها على التفصيل».

إلى أن قال: «فعلى الجملة: العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي، فالابتداع مضاد لهذا الأصل لأنه ليس له مستند شرعي بالفرض، فلا يبقى إلا ما ادعوه من العقل»[1].

القاعدة الثانية: المبتدع يستدرك على الشارع:

❐ يبين فيها الشاطبي ـ رحمه اللّه ـ: «أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن اللّه تعالى قال فيها: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

● وفي الحديث: «وعظنا رسول اللّه ﷺ موعظة ذرفت منها الأعين

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٤٦ ـ ٤٧).

ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول اللَّه، إن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ قال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[١] الحديث.

وثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: أن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه، لم يبتدع، ولا استدراك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم»[٢].

القاعدة الثالثة: «المبتدع معاند للشرع»:

□ يبين فيها الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «أن المبتدع معاند للشرع ومشاق له؛ لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقًا خاصة على وجوه خاصة، ونصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها، إلى غير ذلك؛ لأن اللَّه يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين، فالمبتدع راد لهذا كله؛ فإنه يزعم أن ثم طرقًا أخرى، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعين، كأن الشارع

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة باب الزوم السنة: «سنن أبي داود» (٤/٢٠١)، «سنن الترمذي» (٥/٤٤)، قال الترمذي: حسن صحيح، «سنن ابن ماجه» (١/١٥/١٦)، والحديث بهذه الرواية التي ذكرها الشاطبي هي عند عبدالرحمن بن عمرو السلمي عند ابن ماجه، قال عنها الألباني: صحيح. انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/١٣ ـ ١٤). لكن الحديث اشتهر برواية يحيى بن أبي المطاع بدون «تركتكم على البيضاء».

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/٤٨ ـ ٤٩).

يعلم، ونحن أيضًا نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع، أنه يعلم ما لم يعلمه الشارع. وهذا وإن كان مقصودًا للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع. وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين»[(١)] .

القاعدة الرابعة: المبتدع مضاهٍ للشارع:

□ يبيّن فيها: «أن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق الجري على سننها، وصار هو المنفرد بذلك؛ لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون، وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس، ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام.

هذا الذي ابتدع في دين اللَّه قد صير نفسه نظيرًا ومضاهيًا حيث شرع مع الشارع، وفتح للاختلاف بابًا، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وكفى بذلك»[(٢)] .

القاعدة الخامسة: المبتدع متبع للهوى:

□ يبيّن فيها ـ رحمه اللَّه ـ: «أنه اتباع للهوى؛ لأن العقل إذا لم يكن متبعًا للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضلال مبين، ألا ترى قوله اللَّه تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦].

فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده، وهو الحق والهوى، وعزل العقل مجردًا، إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك.

(١) «الاعتصام» (١/ ٥٠ ـ ٥١).
(٢) «الاعتصام» (١/ ٥١ ـ ٥٢).

والمبتدع قدّم هوى نفسه على هدى اللَّه، فكان أضل الناس وهو يظن أنه على هدى فهذه قاعدة ينبغي أن تكون من بال الناظر في هذا المقام، وإن كانت أصولية فهذه نكتتها مستنبطة من كتاب اللَّه»(١).

*** فتوى الشاطبي فيما تنتحله طائفة الفقراء (الصوفية) في الأندلس:**

☐ سُئل الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ عن حكم ما تنتحله هذه الطائفة، فأجاب بما نصه:

«سألت ـ وفقني اللَّه وإياك ـ عن قوم يتسمون بالفقراء يجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر، ثم في الغناء والضرب بالأكف، والشطح إلى آخر الليل.

والجواب، واللَّه الموفق للصواب:

إن اجتماعهم للذكر على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمن رسول اللَّه ﷺ، ولا في زمن الصحابة، ولا من بعدهم، ولا عرف ذلك قط في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، بل هو في البدع التي سماها رسول اللَّه ﷺ ضلالة وهي مردودة. ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٢)، يعني فهو مردود وغير مقبول، فذلك الذكر الذي يذكرونه غير مقبول. وفي رواية: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا هفو رد**»(٣).

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٥٣).

(٢) الحديث متفق عليه: عن عائشة ﵂، «صحيح البخاري مع الفتح» (٥/ ٣٠١)، «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٢/ ١٦)، «سنن أبي داود مع البذل» (١٨/ ١٤٦)، «سنن ابن ماجه» (١/ ٧)، «صحيح سنن ابن ماجه» للألباني (١/ ٧)، «مسند الإمام أحمد» (٦/ ٢٧٠).

(٣) «صحيح البخاري مع الفتح» (١٣/ ٣١٦)، «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٢/ ١٦)، =

☐ وعن الحسن البصري أنه سئل عن هذا فنهى عن ذلك أشد النهي.

☐ قال مالك بن أنس: فما لم يكن يومئذ دينًا لم يكن اليوم دينًا، وإنما يعبد اللَّه بما شرع.

*** الغناء والشطح:**

☐ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «وأما الغناء والشطح فمذمومان على ألسنة السلف الصالح.

☐ فعن الضحاك[1] ـ رحمه اللَّه ـ: «الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب».

☐ وقال المحاسبي: «الغناء حرام كالميتة».

☐ وسُئل مالك بن أنس عن الغناء الذي يفعل بالمدينة، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق.

وهذا محمول على غناء النساء، وأما الرجال فغناؤهم مذموم أيضًا؛ بحيث إذا داوم أحد على فعله أو سماعه سقطت عدالته لما فيه من إسقاط المروءة ومخالفة السلف.

وعلى الجملة فواجب على كل من كان قادرًا على تغيير ذلك المنكر الفاحش القيام بتغييره وإخماد نار الفتنة، فإن البدع في الدين هلاك، وهي في الدين أعظم من السم في الأبدان»[2].

= «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (٦/ ١٤٦، ١٨٠، ٢٥٦).

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي، الخراساني، أبو القاسم، مفسر، توفي سنة: ١٠٥هـ، له كتاب في التفسير. انظر «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٩٨)، «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٤/ ٤٥٣).

(٢) «الاعتصام» (١/ ٢٦٤ ـ ٢٨٥)، و«فتاوى الإمام الشاطبي» (ص١٩٣ ـ ١٩٤).

◘ سُئل الشيخ الحفار ـ شيخ الشاطبي ـ عن نفس السؤال السابق، فأجاب بما نصه:

«إن هذه الطائفة المنتمية للتصوف في هذا الزمان قد عظم الشرر بهم في الدين، وفشت مفسدتهم في بلاد المسلمين، يظهرون ما انطوى عليه باطنهم من الضلال من تحليل ما حرم اللَّه، والافتراء عليه، وعلى رسوله. وبالجملة فهم قوم استخلفهم الشيطان على حل عرى الإسلام وإبطاله، وهدم قواعده؛ فهم أعظم ضررًا على الإسلام من الكفار، بهيمة من البهائم في دينهم، ليس عندهم من الدين إلا الغناء والشطح، وأكل أموال الناس بالباطل، فسول لهم الشيطان، وزين لهم هذه الطريقة، التي هي لهو ولعب، ولبسوا فيها على الجهال بالذكر الذي يفتتحون به مجالسهم»[1].

* الشاطبي الغيور.. المُعظِّم لأسماء اللَّه الحسنى..

سمع الشاطبي من بعض من ينتمي إلى الطريقة الفقرية شرح لبعض الآيات القرآنية بألفاظ كفرية صريحة، وسئل الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ عن حكم القائل بذلك، فأفتى بقتله من غير استتابة. وهذا نص ما ما ورد:

«شهد عيه أحدهم بأنه فسر قوله تعالى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، بأن الحي: حيا المرأة يعني فرج المرأة. وأن القيوم: ذكر الرجل ـ تعالى اللَّه عن أقوال المفترين ـ.

فأجاب الشاطبي:

أن الشهود الثلاثة قد اتفقوا على معنى واحد يقتضي الحكم بقتله من غير استتابة، أما عدم استتابته فلاستتاره بتلك المقالات، وأما قتله فلأن شهادتهم اجتمعت على أنه كافر بشريعة محمد ﷺ فإن الحي القيوم من

(١) «المعيار المعرب والجامع المغرب» للونشرين (١١/ ٤٢) ـ دار الغرب الإسلامي.

أسماء اللَّه ثابت في الشريعة قرآنًا وسنة على معناه المفهوم الخاص والعام. فتحريفه إلى ذلك المعنى الخسيس كفر يصحبه من الاستهزاء ما لا يخفى. وكل من كفر بشيء من الشريعة فهو كافر بجميعها حسبما هو منقول عن السلف الصالح. فالتفسير لهذين الإسمين العظيمين بما ذكر تكذيب من المفسر بما أتى فيهما في الشريعة»(١).

* الشاطبي المنصف العادل كلامه في الصوفية الأوائل موافق لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية:

❑ كان الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ كغيره من العلماء المنصفين العادلين في الصوفية الأوائل، يجل الأوائل الذين ما انحرفوا عن الشريعة، وإنما كان زهدهم عبارة عن ترك الانغماس في الملذات، والميل إلى التقشف والشدة في العيش بما يناسب أحوالهم وأذكارهم وأورادهم مما ورد بها الأثر.

❑ يقول الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ في ذلك:

«وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعة بإطلاق، ولا هو مما صح بالدليل بإطلاق، بل الأمر ينقسم»(٢).

❑ وقال في موطن آخر:

«وأما ما يرجع إلى العوارض الطارئة على السالكين، إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني، فيتكلم فيها بحسب الوقت والحال، وما يحتاج إليه في النازلة الخاصة رجوعًا إلى الشيخ المربى، وما بين له في تحقيق مناطها بفراسته الصادقة في السالك بحسبه، وبحسب العارض، فيداويه بما يليق به

(١) «المعيار المعرب والجامع المغرب» (٢/ ٥١١ ـ ٥١٣)، و«فتاوى الإمام الشاطبي» (ص١٨٩ ـ ١٩٠) رقم الفتوى ٤٦).

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٢٠٧).

من الوظائف الشرعية والأذكار الشرعية، أو بإصلاح مقصده إن عرض فيه العارض، فمثل هذا لا بدعه فيه لرجوعه إلى أصل شرعي»[١].

❑ وقال أيضًا:

«ما يرجع إلى النظر في مدركات النفوس من العالم الغائب، وأحكام التجريد النفسي، والعلوم المتعلقة بعالم الأرواح، وذوات الملائكة والشياطين والنفوس الإنسانية والحيوانية، وما أشبه ذلك، وهو بلا شك بدعة مذمومة، إن وقع النظر فيه؛ فإنه لم يعهد مثله في السلف الصالح، وهو في الحقيقة نظر فلسفي، إنما يشتغل باستجلابه والرياضة لاستفادته أهل الفلسفة الخارجون عن السنة المعدودون في الفرقة الضالة، فلا يكون الكلام فيه مباحًا، فضلاً عن أن يكون مندوبًا إليه»[٢].

❑ ويذكر في موطن آخر أن عمل المتصوفة الأوائل لا ينبغي أن يعتبر به إلا إذا وافق أصل الشرع، وما لم يوافق ترك.

وهذا نص قوله: «كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن لا يخلو: إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة أم لا.

فإن كان له أصل، فهم خلقاء به، كما أن السلف من الصحابة والتابعين خلقاء بذلك. وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه؛ لأن السنة حجة على جميع الأمة وليس عمل أحد من الأمة حجة على السنة»[٣].

❑ وبيَّن ـ رحمه اللَّه ـ أيضًا أن الصوفية ليسوا بمعصومين، وإنما يجوز عليهم من النسيان والخطأ والمعصية كبيرة كانت أو صغيرة كسائر الناس، فلا

---

(١) نفس المصدر السابق (١/ ٢٠٨).
(٢) نفس المصدر السابق (١/ ٢٠٩، ٢١٠).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢١٧).

ينبغي قبول كل ما صدر منهم من الأعمال والأقوال إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة.

وهذا نص قوله ـ رحمه اللَّه ـ:

«فالصوفية كغيرهم ممن لم يثبت له العصمة، فيجوز عليهم الخطأ والنسيان والمعصية كبيرتها وصغيرتها، فأعمالهم لا تعدو الأمرين.

فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ، ونقف على الاقتداء بمن لا يمتنع عليه الخطأ إذا ظهر في الاقتداء به إشكال، بل نعرض ما جاء عن الأئمة على الكتاب والسنة، فما قبلاه قبلناه، وما لم يقبلاه تركناه»(١).

□ وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، ونبه عليه، فقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة اللَّه، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة اللَّه، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا

(١) «الاعتصام» للشاطبي.

منهج كالحلاج[١] مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق»[٢] .

*** العلماء العاملون هم السواد الأعظم وهم الجماعة :**

«أبو حمزة السكري هو الجماعة.. والسواد الأعظم محمد بن أسلم الطوسي»:

أورد الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ الحديث الصحيح المشهور في تفرّق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي «الجماعة»[٣] ، وفي رواية: «ما أنا عليه وأصحابي»[٤] ، وفي رواية: «السواد الأعظم»[٥] .

ثم عدد أقوال أهل العلم في «الجماعة» وانتصر للقول الثاني منها فقال:

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج الفارسي البيضاوي، صوفي ضال مضل، قال عنه الذهبي في «العبر» (١/ ٤٤٠) «ظهر أنه ادعى الإلهية، وصرّح بحلول اللاهوت في الناسوت، نودي عليه في بغداد: هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه، وعلق مصلوبًا». قتل ببغداد سنة ٣٥٩هـ.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ١٧ ـ ١٨).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤/ ١٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٨)، وأبو عاصم في «السنة» (١/ ٧، ٣٢ ـ ٣٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وحسنه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٦٣)، وصححه الألباني في تحقيقه للسنة لابن أبي عاصم.

(٤) رواه الترمذي (٥/ ٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٨ ـ ٢٩)، والبغوي في «شرح السنة»، وقال الأرناؤوط: يتقوى بحديث معاوية الصحيح.

(٥) «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٣٤، ٤١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٥ ـ ١١٦)، والطبراني في «الأوسط»، و«الكبير» و«الواسطي في تاريخ واسط» (ص١٣٥)، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجال الأوسط ثقات، وكذلك أحد إسنادي «الكبير» قال الألباني في حاشية السنة لابن أبي عاصم بعد ذكره لكلام الهيثمي هذا: «فإن كان الحديث عندهما من غير طريق الفطن هذا فهو حسن».

«الثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية؛ لأن جماعة العلماء، جعلهم اللَّه حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله ﷺ: «إن اللَّه لن يجمع أمتي على ضلالة»؛ وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل وهي تبع لها.

فمعنى قوله: «لن تجتمع أمتي» لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة.

وممن قال بهذا عبداللَّه بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف، وهو رأي الأصولين.

فقيل لعبداللَّه بن المبارك: من الجماعة الذين ينبغي أن نقتدي بهم؟ قال: أبو بكر وعمر، فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت[1]، والحسين بن واقد[2].

فقيل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟

قال: أبو حمزة السكري[3]»[4].

(١) انظر ترجمته في «الكامل» لابن عدي (٦/ ٢١٤٥)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٩/ ٨٥).

(٢) انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٣).

(٣) هو محمد بن ميمون المروزي أبو حمزة السكري، قال أحمد: ما بحديثه عندي بأس، وقال الدوري: كان من ثقات الناس، ووثقه النسائي، وقال ابن عبدالبر: ليس بقوي، وقال النسائي: قد ذهب بصره في آخر عمره، وذكره ابن القطان الفاسي فيمن اختلط، وقال الحافظ ابن حجر: ثقة فاضل من السابعة؛ مات سنة سبع أو ثمان وستين ومائة. انظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٨٦)، «تقريب التهذيب» (٢/ ٢١٢، ٤١٤)، «تهذيب التهذيب»: (١٢/ ٧٩) في الكنى.

(٤) انظر: كلام ابن المبارك في: «سنن الترمذي بشرح عارضة الأحوذي» (٩/ ١١ ـ ١٣)، وقال الترمذي: وأبو حمزة هو محمد بن ميمون وكان شيخًا صالحًا، وإنما قال هذا في حياته عندنا، وفي «شرح السنة» للإمام البغوي (١/ ٢١٦)، وذكره الحافظ ابن حجر ـ رحمه اللَّه ـ عند ترجمة الحسين بن واقد في «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٣)، وكذا عند ترجمته (٩/ ٤٨٧).

❑ وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذا جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب اللَّه ولا سنة رسول اللَّه سموه «صوافي الأمراء»، فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق.

❑ وعن إسحاق بن راهويه نحو مما قال ابن المبارك».

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «فعلى هذا القول، لا مدخل في السؤال لمن ليس بعالم مجتهد؛ لأنه داخل في أهل التقليد، فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية، ولا يدخل أيضًا أحد من المبتدعين؛ لأن العالم أولاً لا يبتدع، وإنما يبتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك، ولأن البدعة قد أخرجته عن نمط من يعتد بأقواله.

وهذا بناء على القول بأن المبتدع لا يعتد به في الإجماع، وإن قيل بالاعتداد بهم فيه، ففي غير المسألة التي ابتدع فيها؛ لأنهم في نفس البدعة مخالفون للإجماع، فعلى كل تقدير لا يدخلون في السواد الأعظم رأسًا».

❑ ثم بعد سرد أقوال العلماء[1] في معنى الجماعة قال ـ رحمه اللَّه ـ:

«فلنأخذ ذلك أصلاً ونبني عليه معنى آخر، وذلك أن الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد، سواء ضموا إليهم العوام أم لا، فإن لم يضموا إليهم فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم، فمن شذ عنهم فمات؛ مات ميتة جاهلية.

وإن ضموا إليهم العوام فبحكم التبع؛ لأنهم غير عارفين بالشريعة، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء؛ فإنهم لو تمالئوا على مخالفة العلماء فيما حدوا لهم لكانوا هم الغالب والسواد الأعظم في ظاهر الأمر، لقلة العلماء وكثرة الجهال.

---

(١) انظر هذه الأقوال الخمسة في «الاعتصام» (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٥).

فلا يقول أحد: إن اتباع الجماعة العوام هو المطلوب، وإن العلماء هم المفارقون للجماعة، والمذمومون في الحديث.

بل الأمر بالعكس، وإن العلماء هم السواد الأعظم وإن قلوا، والعوام هم المفارقون للجماعة إن خالفوا، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم.

فلا يمكن أن يعتبر العوام في هذه المعاني بإطلاق، وعلى هذا لو فرضنا خلو الزمان عن مجتهد لم يمكن اتباع العوام لأمثالهم، ولا عد سوادهم أنه السواد الأعظم المنبه عليه في الحديث الذي من خالفه فمتته جاهلية، بل يتنزل النقل عن المجتهدين منزلة وجود المجتهدين، فالذي يلزم العوام مع وجود المجتهدين هو الذي يلزم أهل الزمان المفروض الخالي عن المجتهد».

واستطرد قائلاً: «وأيضًا فاتباع نظر من لا نظر له، واجتهاد من لا اجتهاد له محض ضلالة، ورمي في عماية، وهو مقتضي الحديث الصحيح: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا**» الحديث[1].

وروى أبو نعيم عن محمد بن القاسم الطوسي[2] قال: سمعت إسحاق ابن راهويه وذكر في حديث رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم**».

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٥٠)، كتاب العلم (٦/ ٢٦٦٥)، كتاب العتصام بالكتاب والسنة، «صحيح مسلم» (٤/ ٥٨-٢)، كتاب العلم «سنن الترمذي» (٥/ ٣١)، كتاب العلم «سنن ابن ماجه» (١/ ٢٠٠)، المقدمة، «مسند الإمام أحمد» (٢/ ١٦٢، ١٩٠)، «سنن الدارمي» (١/ ٧٧)، «مشكل الآثار» للطحاوي (١/ ١٢٧)، «مسند الحميدي» (١/ ٢٦٥)، «الزهد» لابن المبارك (٢٨١)، «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ١٤٩)، «موضح أوهام الجمع» للبغدادي (٣٢١).

(٢) هو محمد بن القاسم، أبو عبدالله، خادم محمد بن أسلم، هذا قدر ما وقفت عليه من ترجمته. ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٣٨)، ونقله منه الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٩٦).

فقال رجل: يا أبا يعقوب ـ من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم[1] وأصحابه، ومن تبعهم.

ثم قال إسحاق: لو سألت الجهال عن السواد الأعظم لقالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو في الجماعة، ثم قال إسحاق: لم أسمع عالمًا منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم»[2] .

◻ قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «فانظر في حكايته تتبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس وإن لم يكن فيهم عالم، وهو وهم الغوام، لا فهم العلماء. فليثبت الموفق في هذه المزلة قدمه لئلا يضل عن سواء السبيل»[3] .

ويؤيد كلام الشاطبي قول العلماء أن الفرقة الناجية هم: «أصحاب الحديث كما قال علي بن المديني وقول الإمام أحمد: «إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم»[4] .

*** الدين النصيحة.. وكل يؤخذ من قوله ويترك:**

رحم الله الشاطبي بذبه عن السنة، وتنفيره من البدع وجهاده لأهلها

---

(١) محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد، أبو الحسنالكندي، مولاهم، الطوسي، من حفاظ الحديث، اشتهر بالصلاح، ونعته الذهبي بشيخ المشرق، توفي سنة ٢٤٢هـ من كتبه «المسند» و«الرد على الجهمية»، و«الإيمان والأعمال في الرد على الكرامية» انظر: «الجرح والتعديل» للرازي (٧/ ٢٠١)، «حلية الأولياء» للأصفهاني (٩/ ٢٣٩)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٩٥)، «شذرات الذهب» (٢/ ١٠٠)، «الأعلام» للزركلي (٦/ ٣٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

(٣) «الاعتصام» (٢/ ٢٦٧).

(٤) «معرفة علوم الحديث» للحاكم (ص٢).

بقلمه ولسانه وغفر اللَّه له فيما حاد فيه عن عقيدة السلف في الأسماء والصفات فإنه أشعري، يقول بقولهم في الرؤية ويقول بالتفويض في الاستواء والصفات السمعية كالوجه، واليدين، والعين، والرجل، والضحك والنزول، وينحي منحى الأشاعرة في الإيمان، وصفة الكلام للَّه تبارك وتعالى، ويقول في التأويل خاصة في صفات الباري بقول الأشعرية، ويرى أن ذلك فرع من الفروع[1] عفا اللَّه عنه وغفر له.

* * *

(١) انظر «الإمام الشاطبي.. عقيدته وموقفه من البدع» الباب الثاني كله (ص١٥٩ ـ ٣٠٤).

حُرّاس الهويـة الإسلامية والعقيـدة السلفية

حُرّاس الهوية الإسلامية والعقيدة السلفية

*** شيخ الإسلام ابن تيمية:**

✍ مرّ ذكر شيخ الإسلام فيما سبق، وفي نظري أن شيخ الإسلام ابن تيمية هو المثل الجميل للهوية الإسلامية والعقيدة السلفية، والشخصية السلفية في أسمى شمولها، لقد كان الهدف الأساسي لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية هو تنقية العقيدة الإسلامية من رواسب البيئة، وتهويلات أهل البدع والأهواء، حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنة، كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

❐ وصلت دعوته إلى القارات الخمس الآن، وعمّت مشارق الأرض ومغاربها، [وفرضت هيمنتها العقدية والفقهية والجهادية على المخالفين قبل الموافقين، واعتبرت شخصيته ميزانًا لمعرفة الخطأ والصواب فيما بعده من العصور. وكان علماء البلاد يُعرفون باتجاهاتهم بالميل إليه، أو الميل عنه حتى بدأ يُذكر هذا الوصف في تراجمهم فيُقال «كان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[(١)]][(٢)].

لقد كرّس ابن تيمية جهده وقلمه وحياته لاقتلاع الشركيات ومظاهرها، والبدع والخرافات وأساطيرها، والعودة بالأمة إلى الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، في العقائد والأحكام والعبادات والمعاملات، والمعيشة والاقتصاد والسياسة والاجتماع، والسلطة والحكم وغيرها من نواحي الحياة الإنسانية. أوقف حياته على تصحيح العقيدة، واتباع الدليل لتسير الأمة على

(١) «طلب العلم وطبقات المتعلمين» للشوكاني (ص١٤).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد (ص٣٣٦).

الدرب السليم الذي يؤدي إلى منهج الأنبياء في الدعوة والإرشاد.

◻ يقول الشيخ محمد خليل هراس: «هذه هي دعوة ابن تيمية: إصلاح وإحياء وتجديد. فهو بحق أبو النهضة الإسلامية، وواضع أساسها. وجميع دعاة الإسلام من بعده إنما بهديه اقتدوا، وعلى كتبه تخرّجوا»[١].

◻ وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة، من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة، أو تتركز على جانب واحد.

كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحياة وتحركات علمية وعملية، لا تزال آثارها خالدة باقية على مرّ القرون والأجيال»[٢].

لقد حارب ابن تيمية التصوف الفلسفي وعرّى أصحاب الكلام، ونقد الأشاعرة والمعتزلة والشيعة، وحارب التقليد، وجاهد في اللّه حق جهاده.

◻ قال الأستاذ المودودي: «لكن نداءه لأتباع الإسلام الخالص المحض كان نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر»[٣].

◻ لقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية سدًّا منيعًا ضد رواسب التعصّب والتحيّز، ومفاسد الجمود والركود، وعُقَد المنطق والفلسفة وأوحال الحلول والاتحاد؛ حتى تعيش الأمة حياة سعيدة مستقيمة لا شقاء فيها ولا عناء، ولا انحراف فيها ولا ضلال يتمثلها حديث: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما**

(١) «ابن تيمية السلفي» لمحمد خليل هراس طبعة اليوسفية ١٩٥٢م.
(٢) «الحافظ ابن تيمية شيخ الإسلام» للندوي.
(٣) «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» للمودودي (ص٧٩) ـ مؤسسة الرسالة.

تمسّكتم بهما كتاب اللَّه وسنة نبيه»[١] .

▣ لقد أدى شيخ الإسلام خدمات جليلة لأمته لا تُنسى في إصلاح الأحوال الدينية، والسياسية، والاجتماعية، وإليكم الخطوط العريضة لمجالات[٢] الدعوة والإرشاد التي خاضها شيخ الإسلام بكل جدارة بفضل اللَّه تعالى ومنّه:

(أ) الدعوة للإصلاح السياسي:

* ركّز ابن تيمية في هذا المجال على أمور ثلاثة:

الأول: بناء تصور سليم للحكم الإسلامي:

خلاصة هذا أنه لا يكفي أن تكون الدولة الإسلامية والإدارة فيها قوية فحسب، وإنما يجب أن تكون منسجمة أيضًا مع الأصول الواردة في القرآن والسنّة، وكما طبقها السلف الصالح.

وقد وضح شيخ الإسلام كثيرًا من آرائه في الإصلاح السياسي في كتابيه: «السياسة الشرعية» و«الحسبة في الإسلام»[٣] .

الثاني: إقامة حكومة قوية:

سعى شيخ الإسلام لتحقيق هذا الجانب، إلى إقامة العلاقات بأمراء المماليك وإقناعهم بمنهج الكتاب والسنّة في الحكم، حتى قيل في عدد من

---

(١) «الموطأ» للإمام مالك (٢/ ٨٩٩ ـ ط فؤاد عبدالباقي)، والحديث من بلاغيات الإمام مالك، ومال العلامة الألباني إلى تصحيحه من حديث عدّ حديث «... كتاب اللَّه وعترتي أهل بيتي» شاهدًا قويًا لحديث الموطأ هذا، بعدما ذكر «وعترتي أهل بيتي» في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٧٦١) لأنه يوافق لفظ «وسنّة رسوله».

(٢) راجع التفاصيل عن ميادين الإصلاح التي تناولها شيخ الإسلام، في كتاب «الفكر التربوي عند ابن تيمية».

(٣) «الفكر التربوي» (٥٣ ـ ٥٤). للدكتور ماجد عرسان الكيلاني طبعة عمان.

هؤلاء أنهم من تلاميذه وأتباعه، أمثال:

❑ زين الدين كاتوبغا المنصوري (ـ٧٠٢هـ) الذي كان حاكم حماة[١].

❑ وأرغون شاه الناصري (ـ٧٠٥هـ) الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر وحلب ودمشق[٢].

❑ والأمير سلار، نائب الملك ناصر بن قلاوون (ـ٧٠٩هـ)[٣].

❑ والأمير حسام الدين مهنا بن عيسى الطائي (ـ٧٣٥هـ) ملك العرب، الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظّمًا له ومكرّمًا[٤].

❑ السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ـ ٧٤١هـ) الذي عاد للسلطنة سنة ٧٠٩هـ بعدما قتل الجاشنكير الجركسي، وكان أول عمل له إطلاق سراح ابن تيمية من منفاه في الإسكندرية.

الثالث: بعث روح الجهاد والمقاومة لمواجهة الأخطار الخارجية:

*** ومن إنجازات شيخ الإسلام في هذا الميدان:**

❑ نجاحه في إقناع قازان الثاني أن لا ينهب دمشق خلال الغزو المغولي عام ٦٩٩هـ. وتكلّم مع قازان كلامًا أثار دهشة الحاضرين. حتى قازان نفسه تعجّب من جرأته وشجاعته في الحق[٦].

❑ لما جاوز قازان المغولي بجيشه الفرات عام ٧٠٠هـ، وقصد حلب وأخذ الناس يتركون البلاد طلبًا للنجاة من شراسة المغول. قام شيخ الإسلام

(١) «شذرات الذهب» (٦/ ٥).
(٢) المصدر المذكور (٦/ ٢٧٧).
(٣) المصدر المذكور (٦/ ١٩).
(٤) المصدر المذكور (٦/ ١١٢).
(٥) المصدر المذكور (٦/ ١٣٤).
(٦) «البداية والنهاية» (١٤/ ٨٩).

يحث الناس على الجهاد، واجتمع بالأمراء، وذهب إلى القاهرة يسأل السلطان محمد بن قلاوون الدفاع عن الشام[١].

❑ وفي عام ٧٠٢هـ حين لاح خطر المغول مرة ثالثة، كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة. وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين، وكان لوجوده الأثر الكبير في الانتصار في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ[٢].

❑ وفي عام ٦٩٩هـ، وكذلك في عام ٧٠٤هـ شارك شيخ الإسلام في الحملة ضد الإسماعيلية، في جبل كسروان، الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين والمغول[٣]، فاستتابوا خلقًا منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيدًا ومنصوراً[٤].

❑ قال الأستاذ المودودي بعد أن ذكر عمل ابن تيمية التجديدي:

«مضافًا إلى هذا التجديدي جاهد بالسيف همجية التتر ووحشيتهم.

كانت بلاد مصر والشام عند ذلك بمفازة من هذا السيل، فنفث الإمام في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين هناك روح الغيرة والحمية والحماس، وحرّضهم على مقاومة أولئك وقد شهد معاصرو الإمام أن المسلمين كان بلغ منهم الخوف والفزع من التتر أن كانوا يرتعشون لمجرد ما يسمعون ذكرهم، وكانوا يحجمون عن لقائهم خوفًا وذعراً، كأنما يُساقون إلى الموت.

ولكن ابن تيمية أيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بثَّ في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد»[٥].

---

(١) المصدر المذكور (١٤/ ١٥ ـ ١٦)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٤٥٥).
(٢) «شذرات الذهب» (٦/ ٤).
(٣) «الفكر التربوي» (ص٥٥).
(٤) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٢، ٣٥).
(٥) «موجز تاريخ تجديد الدين» (ص٧٩).

(ب) الدعوة للعدالة الاجتماعية:

اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجبات الدينية جزء مكمل للحياة الاجتماعية وأن أركان الإسلام الخمسة تتجسّد في العدل الاجتماعي.

ولتجسيد النظام الاجتماعي في واقع الحياة، وتسهيل تصوّره عمل شيخ الإسلام على إشاعة نظام التربية على منهج أهل السنّة، ضد النظم التربوية الأخرى التي فتّتت المجتمع إلى مذاهب متناحرة، وطرق متنافرة.

ويقدّم كتاب «الحسبة في الإسلام» إطارًا مفصّلاً لهذا النظام الذي يغطّي كل مظاهر الحياة الدينية والدنيوية، والمعاملات التجارية، والحرف المهنيّة والخدمات العامة[١] .

(ج) الدعوة للقضاء على انحرافات الفرق الضالّة:

بذل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه تعالى ـ جهودًا جبارة في تصحيح عقائد المسلمين؛ لأنه هو الهدف الأول الشريف لبعثة الأنبياء والرسل. فمن تكون دعوته على منهج الأنبياء يقدّم جانب تحقيق توحيد اللَّه في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، على الجوانب الأخرى من الإصلاحات في الحياة الإنسانية.

◻ ومعلوم أن شيخ الإسلام نشأ في إطار المذهب الحنبلي، ولكنه فضّل التمسك بالكتاب والسنّة في العقائد والأحكام، من دون أن يتقيّد بمذهب معين. وصرّح بهذا الأمر قائلاً:

«مع أني في عمري إلى ساعتي هذه، لم أدعُ أحدًا قطّ في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

(١) «الفكر التربوي» (ص٥٥).

وقد قلت لهم غير مَرَّةٍ: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلتُه فأنا أقرّ بذلك.

وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بالفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف[(١)] .

انطلاقًا من هذا الموقف العادل المستقيم قام شيخ الإسلام بنقد مدارس الفكر المعاصرة في ضوء الكتاب والسنّة وأقوال السلف الصالح. وشمل نقده مدرسة الفلاسفة والمتكلمين، ومدرسة الصوفية والروافض وغيرها من المدارس المنحرفة عن الخط المستقيم الذي حدّدَه الكتاب والسنّة[(٢)] .

* شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب مجدد زمانه إمام الدعوة السلفية في العصر الحديث:

«هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن مشرف النجدي التميمي. ولد سنة ١١١٥هـ ونشأ في بيت علم، فوالده من علماء البلاد وتولى القضاء في عدة جهات، وجده الشيخ سليمان كان عالمًا جليلاً وإمامًا في الفقه وهو المفتي في البلاد في وقته وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء وطلبة العلم، وعمه الشيخ إبراهيم ابن سليمان كان من أجلة العلماء، فنشأ الشيخ محمد في هذا الجو العلمي وكان حاد الذهن متوقد الذكاء سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة ودرس على والده كتب الفقه الحنبلي وكان كثير المطالعة والقراءة للكتب إلى جانب قراءته على والده، فقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وعني عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب العلامة

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٢٢٩).

(٢) راجع «الفكر التربوي» (١٧٢ ـ ١٩٣).

ابن القيم، وكان لكتب هذين الإمامين أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية المتميزة والأخذ بيده إلى مصادرة العلم الصحيحة فتكوَّن لديه الاتجاه السليم منذ صغره وتركزت في قلبه العقيدة الصحيحة، وتخرج على كتب هذين الإمامين المحققين»[١] .

* حالة المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب :

«لقد ذكر المؤرخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما عن حالة أهل نجد خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا الشيء الكثير من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح، ففي نجد كانت القبور والأشجار والأحجار والمغارات تعبد من دون اللَّه بأنواع من القربات، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد من ذاك الشيء الكثير، يقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدة له يصف المظاهر الشركية في البلاد الإسلامية وهو معاصر للشيخ محمد وقد وصف ما يفعل ويمارس حول القبور من الشرك الأكبر فيثني على دعوة الشيخ:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه ... يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهراً ما طوى كل جاهل ... ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادما ... مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة ... أهلت لغير اللَّه جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل ... ومستلم الأركان منهن باليـد

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» للدكتور صالح الفوزان (ص٥٦ ـ ٥٧) طبع أنصار السنة.

□ ويقول الإمام الشوكاني وهو من المعاصرين لدعوة الشيخ أيضًا، يقول في وصف ما يفعل عند القبور من الشرك: وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدعوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب للَّه ويغار حمية للدين الحنيف لا عالمًا ولا متعلمًا ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكًا، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيرًا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف باللَّه فاجرًا، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أي درء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير اللَّه، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبًا:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارًا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

انتهى من «نيل الأوطار» (٤/ ٩٠).

وقد ألف كل من هذين الإمامين رسالة في التحذير من هذا الشرك الذين فشا في البلدان في عصرهما فألف الصنعاني رسالة اسمها «تطهير

الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وألف الشوكاني رسالة اسمها «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور» وكلتا الرسالتين مطبوعة ومتداولة.

◻ وإليك ما قاله فاضلان من أهل العلم معاصران للشيخ محمد ودعوته، قالا ـ رحمهما اللَّه ـ:

«من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبداللَّه المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن[1] يدعوهم إلى اللَّه وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع اللَّه به شموس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع اللَّه له علم الجهاد فشمر إليه فأمر ونهى ودعا إلى اللَّه تعالى ونصح ووفى بالعهد لما نقضوه وشمر عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه، فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والاسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة فنجتمع لليلة النصف من شعبان لصلاتها الباطلة التي لم ينزل بها من سلطان ونضيع الفريضة، ونقدم قبل الصلاة الوسطى ـ صلاة العصر ـ من الهذيان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة، هذا وأضعافه من البدع لم ينهنا عنه علماؤنا بل أقرونا عليه وفعلوه معنا فلا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا ينصحون جاهلاً ولا يهدون ضالاً والكلام من جهتهم طويل عصمنا اللَّه وإياك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا

(١) كذا في الأصل ولعلّ الصواب: «يجيء» بدل يجعل.

القليل منهم ويكفيك عن التطويل أن الشرك بالله يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول ابن الكهمري: اللَّهم صل على سيدنا وولينا ملجانا منجانا معاذنا ملاذنا. وكذلك تعطيل الصفات في خطب الطيبي فيشهد أن اللَّه لا جسم ولا عرض ولا قوة.

فقبل هذا الشيخ لا تؤدى أركان الإسلام كالصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من يزكي الخارج من الأرض حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا».

□ في وسط هذا الجو المظلم الذي سبق وصفه سطعت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ورفع صوته منكرًا هذا الشرك داعيًا الناس إلى التوحيد الذي بعث اللَّه به رسوله محمدًا ﷺ فلقي من الناس ما يلقاه أمثاله من الدعاة إلى اللَّه من الأذى وأطاعه من وفقه اللَّه لقبول الحق، يقول حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن ـ رحمه اللَّه ـ: ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها اللَّه ولا يرضاها من الشرك بعبادة الأموات والأشجار والأحجار والجن، فقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد وأن يخلصوا العبادة بجميع أنواعها للَّه، وأن يتركوا ما كانوا يعبدونه من قبر أو طاغوت أو شجر أو حجر، والناس يتبعه الواحد منهم والاثنان فصاح به الأكثرون وحذروا منه الملوك وأغروهم بعداوته. انتهى من «الدرر السنية» (٩/ ٢١٦).

□ وأصول دعوته ـ رحمه اللَّه ـ هي الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، والاعتماد على الكتاب والسنة وأقوال صالح سلف الأمة، وألزم من تحت يديه إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض اللَّه ونهاهم عن الربا

---

(١) المصدر السابق (ص٦٠ ـ ٩١)، نقلاً عن كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» للشيخ عبداللَّه البسام (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦).

وشرب المسكر وأنواع المنكرات.

* **المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ:**

بدأ الشيخ دعوته في بلدة حريملا لوجود والده فيها، ولكن لما كانت الظروف غير مواتية ترك هذه البلدة بحثًا عن غيرها فاتجه إلى العيينة واتصل بأميرها عثمان بن معمر فساعده في أول الأمر واجتمع حوله طلبة وبدأ بتنفيذ الأحكام الشرعية فهدم بعض القباب الشركية ورجم في الزنا، ثم إن ابن معمر تخلى عنه خوفًا من تهديد بعض الرؤساء، فترك الشيخ العيينة وبحث عن غيرها فاتجه إلى الدرعية واتصل بأميرها محمد بن سعود وعرض عليه دعوته فقبلها وبايعه على مناصرته وصدق في ذلك، وهنا استقر الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ وانعقدت حوله حلق الدروس ووفد إليه الطلاب من مختلف الجهات وتكونت في هذه البلدة ولاية إسلامية أميرها الإمام محمد بن سعود وموجهها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وامتدت الدعوة إلى البلاد المجاورة ونشأ الجهاد في سبيل اللَّه لإعلاء كلمة التوحيد وقمع الشرك، وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشرت الدعوة وتوحدت جميع البلدان النجدية تحت رايتها، وامتدت فيما بعد ذلك إلى الحجاز وعسير وشمال الجزيرة، وكان ذلك بفضل اللَّه وحده ثم بمؤازرة آل سعود لهذه الدعوة المباركة، وصدق اللَّه وعده: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، ﴿**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾ [الحج: ٤٠][(١)].

▫ قال الشيخ محمد رشيد رضا في التعريف بكتاب «صيانة الإنسان» للسهسواني بعد أن ذكر فشو البدع بسبب ضعف العلم، وعدم العمل بالكتاب

---

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» (ص٧٦ ـ ٧٧).

والسنة، ونصر الملوك والحكام لأهل البدع، وتأييد المعممين لها قال ـ رحمه اللَّه ـ: «لم يخل قرن من القرون التي كثرت فيها البدع من علماء ربانيين، يجددون لهذه الأمة بالدعوة والتعليم وحسن القدوة، وعدول ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، كما ورد في الأحاديث، ولقد كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي من هؤلاء العدول المجددين قام يدعو إلى تجديد التوحيد، وإخلاص العبادة للَّه وحده، بما شرعه في كتابه، وعلى لسان رسوله خاتم النبيين ﷺ، وترك البدع والمعاصي، وإقامة شعائر الإسلام المتروكة، وتعظيم حرماته المنتهكة، فقامت لمناهضته واضطهاده القوى الثلاث: قوة الدولة والحكام، وقوة أنصارها من علماء النفاق، وقوة العوام والطغام، وكان أقوى سلاحهم في الرد عليه أنه خالف جمهور المسلمين، وهم كاذبون في زعمهم هذا» اهـ.

*** الشبه التي أثيرت حول دعوة الشيخ:**

تعرضت دعوة الشيخ كغيرها من دعوات المصلحين للنقد من قبل خصومها وأثيرت حولها شبهات ربما تروج على من لم يعرف حقيقتها، وقد أثير كثير من هذه الشبهات في حياة الشيخ ورد عليها بنفسه، وأثير البعض الآخر أو بالأصح أعيدت إثارة نفس تلك الشبه بعد وفاته فرد عليها تلامذته وغيرهم من محققي علماء المسلمين الذين لا يروج عليهم البهرج والكذب ولا تأخذهم في اللَّه لومة لائم ومن هذه الشبه:

١ ـ أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة وأن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء.

٢ ـ أنه يدعي الاجتهاد وأنه خارج عن التقليد وأنه يقول اختلاف العلماء نقمة.

٣ ـ أنه يحرم زيارة قبر الرسول ﷺ وزيارة قبر الوالدين وغيرهما.

٤ ـ أنه يكفر من حلف بغير اللَّه.

وقد أجاب الشيخ عن هذه بقوله: جوابي عن هذه المسائل أني أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب عيسى بن مريم ويسب الصالحين فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، الآية بهتوه ﷺ بأنه يقول إن الملائكة وعيسى وعزيرًا في النار فأنزل اللَّه في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية. انتهى، انظر «الدرر السنية» (١/ ٣٠ ـ ٣١).

٥ ـ قالوا إنه ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ وأنه يقول: لو أن لي أمرًا هدمت قبة النبي ﷺ وأنه يتكلم في الصالحين وينهى عن محبتهم.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: هذا كذب وبهتان افتراه عليَّ الشياطين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، انظر «الدرر» (١/ ٥٢).

٦ ـ قالوا: إنه يكفر جميع الناس إلا من اتبعه وأن أنكحتهم غير صحيحة.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: يا عجبًا كيف يدخل هذا في عقل عاقل وهل يقول هذا مسلم، إني أبرأ إلى اللَّه من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل اللَّه أهل الأغراض الباطلة، انظر «الدرر» (١/ ٥٥).

٧ ـ قالوا: إنه يكفر بالعموم ويوجب الهجرة إليه على من قدر على إظهار دينه.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: كل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين اللَّه ورسوله، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبدالقادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك باللَّه ولم يهاجر

إلينا أو لم يُكفِّر ويُقاتل[١] ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم. انظر «الدرر» (١/ ٦٦).

٨ ـ قالوا: إنه ينكر الشفاعة، فردّ الشيخ على ذلك بقوله: «سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهد أن رسول اللَّه ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود نسأل اللَّه الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابع التابعين والأئمة الأربعة ﷺ وهم أحب الناس لنبيهم وأعظمهم في اتباعه وشرعه، فإن كانوا يأتون عند قبره يطلبونه الشفاعة فإن اجتماعهم حجة، والقائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته ويورد علينا الدليل من كتاب اللَّه أو من سنة رسول اللَّه أو من إجماع الأمة والحق أحق أن يتبع، انتهى من «الدرر السنية» (١/ ٤٦).

٩ ـ وأما اتهام الشيخ أنه يكفر بالعموم ويقاتل المسلمين، فقد أجاب عنه الشيخ بقوله: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ما عرفه سبه ونهى عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة وللَّه الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحدًا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿وَجَزَاؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، وكذلك من جاهر بسب دين الرسول بعد ما عرف فإنا نبين لكم أن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وأن الواجب إشاعته في الناس وتعليمه الرجال والنساء، انتهى من «الدرر السنية» (١/ ٥١).

◻ وقال أيضًا لما بين بطلان الذي يفعله القبوريون: فهذا الذي أوجب

(١) يعني: لم يكفر المسلمين ويقاتلهم.

الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا اللَّه عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب اللَّه وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] انتهى من «الدرر السنية» (١/ ٥٨)»[١].

□ وقد دافع أهل العلم عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد وفاته، وفندوا أباطيل وأكاذيب خصومه، وألفوا في ذلك مؤلفات ضخمة من أشهرها:

١ ـ «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام ونسب إليه تكفير أهل الإسلام» في مجلد وهو للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن ابن حسن من آل الشيخ ـ رحمهم اللَّه.

٢ ـ «معارج القبول»، للشيخ الحسين بن مهدي النعمي من علماء اليمن في مجلد.

٣ ـ «غاية الأماني في الرد على النبهاني» للشيخ محمود شكري الألوسي من علماء العراق وهو في مجلدين.

٤ ـ «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي في مجلد، وغير ذلك من الكتب التي ألفت في الذب عن

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» (ص٨٣ ـ ٨٦).

دعوة الشيخ حتى من غير المسلمين.

وهكذا يقيض اللَّه سبحانه للحق أنصارًا في كل زمان تقوم بهم حجة اللَّه على خلقه، فللَّه الحمد والمنة، وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين»[١] .

* ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه اللَّه ـ وآثارها :

إن كل دعوة من الدعوات وكل عمل من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ومن أثره الذي يتركه، وإن دعوة الشيخ وللَّه الحمد لما كانت دعوة خالصة للَّه مترسمة منهج رسول اللَّه ﷺ مستمدة علمها من الكتاب والسنة صار لها أطيب الأثر واستمر نفعها وبقي أثرها وأنتجت للأمة خيرات كثيرة منها:

١ ـ قيام دولة إسلامية هي دولة آل سعود الذين آزروا هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، ولا تزال هذه الدولة وللَّه الحمد تحكم بشريعة اللَّه وتخدم الحرمين الشريفين وتشد أزر المسلمين في كل مكان من بقاع العالم بعمارة المساجد والمراكز الإسلامية والتعليمية.

٢ ـ تصحيح العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشركيات والبدع والخرافات وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب اللَّه وسنة رسوله، وقد طهر اللَّه كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

٣ ـ امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها حتى انتفع بها من هدفه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي في الشام ومصر والمغرب العربي وأفريقيا والسودان واليمن والعراق والهند وباكستان وأندونسيا وغيرها.

---

(١) المصدر السابق (ص٩٢ ـ ٩٣).

٤ ـ وجود حركة علمية واعية متحررة من التقليد الأعمى، فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق البلاد حتى تخرج فيه علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها قاموا بنشر هذه الدعوة ورعايتها إلى يومنا هذا، ثم أسست لهذا التعليم جامعات إسلامية تخرج الأفواج تلو الأفواج من مختلف العالم الإسلامي مسلحين بالعقيدة الصحيحة والفكر السليم ينتشرون في العالم الإسلامي وغيره للدعوة إلى اللَّه.

٥ ـ نشاط حركة التأليف والنشر، فقد قدم علماء هذه الدعوة للأمة الإسلامية رصيداً من الكتب النافعة في الأصول والفروع ومن ذلك:

١ ـ مؤلفات الشيخ محمد عبدالوهاب إمام الدعوة ويتكون من اثني عشر مجلداً في الفقه والعقائد والتفسير والحديث والسيرة.

٢ ـ مجموع الفتاوى والرسائل لعلماء الدعوة ويتكون من أحد عشر مجلداً.

٣ ـ كتب ألفها أئمة الدعوة في مختلف العصور للرد على خصوم الدعوة تبلغ العديد من المجلدات وهي مطبوعة ومتداولة.

٤ ـ نشر كتب السلف وتوزيعها على المسلمين في موسم الحج وغيره.

٥ ـ نشر كل مفيد من المؤلفات العصرية وتوزيعها مجاناً[1].

* العالم الرباني والزعيم السياسي عبدالحميد بن باديس.. يحافظ على هوية الجزائر العربية الإسلامية:

وُلِدَ الإمام الجليل الشيخ عبدالحميد بن محمد بن مصطفى بن مكي بن باديس يوم ١١/٤/١٣٠٧هـ، ٤ ديسمبر ١٨٨٩م، وقبيلته هي صنهاجة ولها

(١) المصدر السابق (ص٨٠ ـ ٨٣).

دور كبير في مقاومة الشيعة الرافضة.

* **تعليمه:**

أتم ابن باديس حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة من عمره على يد الشيخ محمد الماداس، وتلقى علوم العربية والفقه والحديث على يد الشيخ حمدان التونسي، ثم اتجه إلى الزيتونة عام ١٣٢٦ وهناك مكث أربع سنوات، وتلقى فيها علم التفسير على يد الشيخ محمد النخلي، والأدب على يد الشيخ الطاهر بن عاشور، والتاريخ على يد البشير صفر، وكان رحمه اللَّه على رأس قائمة الخريجين.

* **صفاته:**

كان للشيخ ابن باديس هيبة الإيمان يدركها من عرفه ومن لم يعرفه، وكان الشيخ الإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس فلا يتمالك نفسه حتى يقول: «ما أقوى نفوذ هذا الرجل»[(١)] ، ويقول تلميذ ابن باديس الشيخ محمد الصالح رمضان ـ الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس خمس سنوات «إن للشيخ عبدالحميد بن باديس قوة روحية خارقة سببها الجانب الروحي»[(٢)] .

كان ـ رحمه اللَّه ـ زاهدًا انتقل من بيت والده إلى غرفة بجوار مسجد قموش، وكان طعامه قليلاً لا يزيد عن الكسرة واللبن وفنجان أو فنجانين من القهوة يوميًا. وكان ـ رحمه اللَّه ـ إذا دُعي إلى طعام اشترط الاقتصار على

(١) «عبدالحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي» لمازن صلاح مطبّقاني (ص٣٧) ـ دار القلم دمشق.

(٢) في مقابلة لمازن مطبقاني مع محمد الصالح رمضان في منزله في الجزائر في ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ ـ انظر المصدر السابق (ص٣٧).

صنف واحد من الطعام، وكان يسأل عن الكسكسي فإن وجده لم يأكل معه غيره[١] .

□ وكان ـ رحمه اللَّه ـ يحرص على ارتداء البُرنس المنسوج قماشه في الجزائر. ويذكر أحد تلاميذه أنه بينما كان الشيخ يلقي درسه نظر إلى تلاميذه فرأى أحدهم يلبس برنسًا مصنوعًا قماشه في فرنسا فقال له: «ما هذا البرنس؟ أمّا أنا فأفضّل الذي صنعته أمي على الذي صنعته ضرتها»[٢] .

□ أما عن شجاعته فلا بد من ذكر موقفه حين كان في وفد المؤتمر الإسلامي الذي قابل رئيس الوزراء دلادييه، فتحدث المسئول الفرنسي إلى الوفد مهدداً بقوة فرنسا، فرّد عليه ابن باديس: «ونحن لدينا مدفع، إنها مدافع اللَّه»[٣] .

□ يقول عنه مراسل جريدة البتي ماتان الفرنسية «الشيخ ابن باديس يمثل حقًّا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجهوري يستفزّ الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة عاليه من التقدير. وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أمّا سمعته فقد اخترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله»[٤] .

□ ويقول عنه أستاذ في جامعة ستراتسبورغ «هذا الرجل الذي استطاع ألوف من مواطنيه رؤيته والحكم على حياته، ذلك أن برنامج حياته اليومي

---

(١) المصدر السابق (ص٣٩).
(٢) المصدر السابق (ص٣٨).
(٣) المصدر السابق (ص٤١).
(٤) المصدر السابق (ص٤٤) نقلاً عن الشهاب (١٣/٥) ـ ١٠ يونية ١٩٣٧.

يوضح لنا بجلاء شخصيته الحقيقية؛ لأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يخدع الجميع كل الوقت».

* الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي:

«كانت الجزائر أول قطر عربي، احتله الفرنسيون خاصة، وتعرض للاحتلال الأوروبي عامة، وكان ذلك عام ١٨٣٠م وطال الاحتلال البغيض إلى عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، حين وقع الطرفان ما يعرف باسم معاهدة إيفيان التي حصل بها الجزائريون على استقلالهم بعد ثورة عارمة اشتعلت سنة ١٩٥٤م وهي التي أجبرت المحتل الغاصب على توقيع المعاهدة والانسحاب من الأراضي الجزائرية. والتي كانت جمعية العلماء المسلمين التي أسسها الشيخ عبدالحميد بن باديس في أواخر حياته المباركة سنة ١٩٢٨م والتي استمر يجاهد من أجل إيجاد نخبة متميزة من العلماء الإيجابيين حتى وفاته سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، هي الزاد القوي الذي تربى عليه المجاهدون سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

□ ونعود فنقول: إن فرنسا اتبعت في حكمها للجزائر منذ عام ١٣٤٩هـ/ ١٨٣٠م، سياسة رهيبة، تعتبر بحق نموذجًا لسياسة الاحتلال البشع، حيث ارتكزت دعائمها على الأسس التالية:

١ ـ دمج الجزائر في فرنسا دمجًا كاملاً، وتحويلها إلى أرض فرنسية.

٢ ـ تحويل الجزائر في لغتها وثقافتها وهويتها إلى الفرنسية، وهو ما يعرف باسم الفرنسة، أي فرنسة الجزائر.

٣ ـ عدم النهوض بمستوى الشعب الجزائري وفرض سياسة التخلف عليه.

٤ ـ التفرقة العنصرية بين الشعب الجزائري من عرب وبربر لإشعال

الفتن بينهم.

٥ ـ اتباع سياسة الاقتصاد المغلق لحساب الاقتصاد الفرنسي، من حيث استثمار كافة الموارد والثروات الطبيعية والأراضي وموارد الرزق، بيد فرنسا.

٦ ـ ضرب أي حركة وطنية بالقوة وقمع الثورات بمنتهى الوحشية، ومن ذلك ما رواه المؤرخون من أن [قبيلة جزائرية فرت مرة من ظُلم وقسوة الفرنسيين، إلى كهوف الجبال، فما كان من الجيش الفرنسي إلا أن ملأ الكهوف أولاً بالدخان، ثم سد مداخلها ببناء الجدران عليها]!!!

ويتميز شعب الجزائر بروح المقاومة الجهادية، لذلك ورغم الاضطهاد اللعين من المحتل الغاصب، إلا أن المقاومة بدأت منذ وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر، الذين اتخذوا من قصة المروحة الشهيرة ذريعة لاحتلال الجزائر وغزوها عسكريًّا، إذ ادعَتْ أن الداي حاكم الجزائر، قد أهان قنصل فرنسا سنة ١٨٢٧م حين طالبه بدفع ثمن الحبوب والخيول والجلود والقروض المادية التي مضى على المماطلة في دفع ثمنها خمس وثلاثون سنة، وزعمت أن الداى رمى القنصل بمروحة كانت في يده، فردت على هذه الإهانة المزعومة، بتحريك الأسطول الفرنسي، وفرض الحصار على الشواطيء الجزائرية، ثم قامت بضرب مدينة الجزائر، وإنزال الجنود لحصارها من البر والبحر حتى اضطر الداى رغم المقاومة الباسلة إلى التسليم في ٥ يوليو سنة ١٨٣٠م.

ومع ذلك القهر المسلح لشعب الجزائر، فقد قاد المقاومة المسلحة منذ أول يوم الأمير عبدالقادر الجزائري ولمدة سبعة عشر عامًا، حتى اضطر إلى التسليم، وقبول النفي الاختياري، فاختار دمشق، وظل بها حتى مات سنة ١٨٨٣م ولم تنقطع سلسلة المقاومة ومجاهدة العدو الغاصب، وتوالت الثورات التي قادها نساء ورجال برزوا في تاريخ الجزائر الجهادي مثل، الشهيدة المجاهدة لالا فاطمة سنة ١٨٥٦م، ومحمد المعتراني سنة ١٢٩٠هـ/

١٨٧١م، وثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨١م، ثم فترت إلى حين، وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها استأنف الجهاد عدد من المثقفين والضباط وأسسوا اللجان الوطنية لتنظيم الجهاد، وشكلوا وفدًا لعرض القضية على مؤتمر الصلح بباريس، وتأسست جمعية (نجمة شمال إفريقيا) سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م بزعامة مصالي الحاج، التي نادت بحق الجزائريين في تملك أراضيهم، ووجود برلمان يمثلهم، واستخدام اللغة العربية في مناهج التعليم والدوائر الحكومية، لكن قوة البطش المحتلة عملت على حل هذه الجمعية.

وهنا نصل إلى جمعية علماء المسلمين، التي أنشأها الشيخ عبدالحميد ابن باديس[1] سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، التي حافظت على هوية الجزائر الإسلامية ولغتها العربية وهي موضوع تفصيلنا. ومن ثم فلنا معها وقفة، ومع مؤسسها وقفات، لنستلهم الدرس المستفاد، ونقدمه كهدف تربوي يفيد في بعث روح الجهاد بين الأجيال».

*** وقفة مع الصليبيين الفرنسيين قبل الحديث عن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»:**

منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر عملوا على محاربة الإسلام لعلمهم بأن الإسلام هو مصدر قوة المسلمين بالجزائر، ورافق حملة الاحتلال مجموعة من القسس ليشهدوا انتصار النصرانية على الإسلام عاقدين العزم على إعادة إفريقيا الشمالية بلدًا مسيحيًّا.

ويؤكد هذا ما قاله لويس فويو كاتب الجنرال بيجو سنة ١٨٤١م (١٢٥٦هـ): «إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا إذا صاروا فرنسيين، ولن

---

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» لصفوت منصور (ص٦٥ ـ ٦٨) ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

يكونوا فرنسيين إلا إذا تنصروا»[١] .

□ وبرر أحد الفرنسيين سياسة التنصير بقوله: «إن تعصب المسلمين هو الأمر الحقيقي الذي يدعم المقاومة التي نواجهها في أفريقيا، وهذا الدين (الإسلام) الذي احترمناه إلى يومنا هذا نقترح الآن بجرأة محاربته، وهكذا نثبّت قومنا وننشر طقوسنا على أنقاض الإسلام».

□ وطالب الأسقف لافيجري ـ الذي أصبح فيما بعد بمرتبة كاردينال ـ طالب الحكومة الفرنسية بأن عليها أن تفسح للمنصِّرين المجال ليقدموا الإنجيل للشعب الجزائري وإلا فعليها أن تطرده إلى الصحاري بعيدًا عن العالم المتمدن»[٢] .

□ واستولت فرنسا على الأوقاف الإسلامية، وقامت بالاستيلاء على المساجد، وهدمت معظمها وحوّلت بعضها إلى مكاتب وثكنات عسكرية، وسنّت القوانين للحد من حرية التعليم الإسلامي، وذلك بالتدخل في مناهج التدريس، ومنعت تفسير القرآن ولا سيما آيات الجهاد.

وفتحت المدارس الفرنسية لتعليم بعض أبناء الجزائر تعليمًا فرنسيًّا لا دينيًّا يجعل هؤلاء الجزائريين يفخرون بأن بلادهم هي بلاد الغال وأجدادهم هم الغاليون، وأنه ليس هناك وطن اسمه الجزائر، وهذا نص ما قاله أحد أبناء الجزائر المتخرّج من هذه المدارس «فما كنت لأموت من أجل هذا «الوطن الجزائري»؛ لأن هذا الوطن لا وجود له»[٣] . أما تاريخ البلاد الحقيقي فتنقله لهم بصورة مشوهة.

---

(١) «عبدالحميد بن باديس» لمازن صلاح (ص٢١).
(٢) المصدر السابق (ص٢٢)، و«رسالة الأسقف» مؤرخة في ٦ أبريل ١٨٦٨م.
(٣) «الشهاب» (١/١٢) في محرم ١٣٥٥هـ ـ أبريل ١٩٣٦م (ص٤٣ ـ ٤٤).

* البعثات التنصيرية:

ومن وسائل الاحتلال في محاربة الإسلام تشجيع البعثات التنصيرية، وعلى رأسها «جماعة الآباء البيض» التي استخدمت أحط الوسائل لتنصير الشعب الجزائري، ومن ذلك اغتنام فرصة المجاعة الكبيرة التي حدثت في الجزائر بين عامي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤ = ١٨٦٦ ـ ١٨٦٨م لجمع عدد من الأيتام لتربيتهم تربية مسيحية وتعميدهم. ومن الوسائل الأخرى بناء المستشفيات والحقيقة أن هذه الوسائل اصطدمت بمقاومة الإسلام الصلبة التي شبهتها كاتبة فرنسية بالأسمنت المسلح، وذلك في قولها: «وردّ المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين عامًا ١٨٣٠ ـ ١٨٥٠م = ١٢٤٥ ـ ١٢٦٥هـ يُحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد إليها مريض، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي كالأسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج»(١).

❑ وقد مضى لافيجري ومساعدوه في نشاطهم التنصيري رغم هذه العراقيل، ولما حقق بعض النجاح طمع في مدّ نشاطه إلى دول المغرب الأخرى، ودول أفريقية أخرى.

❑ وكان من أخطر القرارات الفرنسية اعتبار الجزائر قطعة من فرنسا وقسّمتها إلى ثلاث ولايات هي: قسنطينة، والجزائر، ووهران، وأصدرت عام ١٢٨١هـ = ١٨٦٥ قرارها المعروف «بسناتوس كونسلت» الذي ينص على أن جميع الجزائريين هم رعايا فرنسيون، ويحق لهم الحصول على الجنسية الفرنسية شريطة أن يتنازلوا عن الاحتكام إلى قانون الأحوال الشخصية

(١) «عبدالحميد بن باديس» (ص٢٤)، و«الحرب الثقافية في الجزائر المستعمرة الفرنسية» للكتابة الفرنسية يوفانتورين ـ باريس ١٩٧١ ـ (ص٢٥).

الإسلامي. وقد باء هذا القرار بالفشل؛ وذلك أن عدد الذين قبلوا الجنسية الفرنسية حتى عام ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م لم يتجاوز خمسمائة وألفي شخص. أما من بقي من الجزائريين على جنسيته الجزائرية الإسلامية فقد أخضعته السلطات الفرنسية لمعاملة قاسية لا تليق بالعجماوات. وذلك بفرضها على الجزائريين قانونًا خاصًا أسمته الأنديجينا (الأهالي) عام ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م. وهذا القانون يحد من حرية الجزائري، ويجعله عرضة للمحاكمة والغرامة لأتفه الأسباب ومنها الكلام بما لا يليق في فرنسا وحكومتها.

❑ قال محمد فريد بك «نائب الزعيم مصطفى كامل» حين زار الجزائر عام ١٩٠١م (١٣١٩هـ): «يُعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة، وحرية الاجتماع، بل ومن حرية السفر والانتقال، وحرية مطالعة الكتب والجرائد، ومن الغريب في بلاد الجزائر أنه لا يجوز للعربي أن يُسافر خارج المركز الذي يقيم فيه»، وقال في مقال آخر: «وصارت الديار مرتعًا للجهل والجهلاء، وكادت تندرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرّقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل (وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها من السواحل والثغور)»[١].

* **ابن باديس للّه دره:**

بعد أن أتم الشيخ ابن باديس دراسته في جامع الزيتونة بتونس، رحل ابن باديس إلى الحجاز، الذي كانت الدعوة السلفية قد ذاعت فيه وانتشرت، «فتشبع بأفكارها حين اتصل بشيوخها من أمثال الشيخ حمدان الونيسي

---

(١) «الشيخ عبدالحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر» لتركي رابح (ص٥٢، ٩٨)، وجريدة «اللواء» الأعداد ٦٠٩ في أكتوبر ١٩٠١م، ٦١٢ في ١٣ أكتوبر ١٩٠١م.

المهاجر الجزائري، والشيخ أحمد حسين الهندي، وقد أشار عليه الشيخ الهندي بالعودة إلى وطنه الجزائر، وخدمة الإسلام فيه قدر الجهد وخدمة اللغة العربية كذلك، وهنا يقول الشيخ ابن باديس: «ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حرّاس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن».

□ ويعقب الدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه: «عبدالحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة» على كلمة القومية بقوله (ص٣٨): «ولم تكن القومية في رأي ابن باديس إلا الحفاظ على شخصية الشعب الجزائري الإسلامية العربية أمام المحاولات الدائبة لفرنسته» وهذا تعقيب هام، حتى لا يظن القارئ المتعجل أن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ كان يأخذ بمفهوم القومية العنصري، وهو الذي تربى على الإسلام، الذي ينبذ القومية العرقية، والتي ذمها رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ قائلاً: **دعوها فإنها منتنة**»[1].

* **التعليم:**

«عندما التقى ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة في حج عام ١٣٣١هـ = ١٩١٣م اتفقا أنهما حينما يعودان إلى الجزائر سوف يبدآن حركة علمية يكون فيها التركيز على الكيف لا على الكم. ونظرًا لأهمية هذا الموقف نورد هنا نص كلمات الإبراهيمي ـ رحمه اللَّه ـ حيث قال: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» للباديسية (ص٦٩ ـ ٧٠).

أعددناه من تلامذتنا»[١] .

بدأ ابن باديس نشاطه التعليمي في المسجد الكبير بقسنطينة فور عودته من تونس عام ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م، ثم انتقل إلى المسجد الأخضر الذي بناه حسين باي عام ١١٥٦هـ، وكتب في صدر المسجد بجوار المحراب أنه بناه للعبادة والعلم. وتلك مسألة لا تحتاج إلى تدوين أو تسجيل فمتى كان المسجد لغير هذا إلا عندما أصبح أصحاب المساجد ليسوا أصحابها. بل ما أجمل بيان ابن باديس في إجلاء هذا الجانب إذ يقول: «المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي ﷺ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم...»[٢] .

إن المناهج والكتب التي أقرأها ابن باديس على أهميتها وعظيم شأنها إلا أنها في نظرنا تحتل مرتبة ثانية بعد أسلوب التعليم والتربية الذي اتبعه ابن باديس. فقد بدأ دروسه بعدد محدود من التلاميذ حتى مع مرور الأيام أصبح هؤلاء التلاميذ طبقات، تكوّنت لهم مؤسسة تعليمية شاملة أشبه ما تكون بجامعات اليوم: تقدّم المسكن والمأوى، والطعام والدواء، والرعاية الاجتماعية والنفسية لطلابها. لقد سار ابن باديس بالمسجد الأخضر خطوات عظيمة حتى أصبح مدرسة لتكوين القادة، وذلك بتربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم

(١) مقالة «أنا» لمحمد البشير الإبراهيمي ـ مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، العدد ٢١ سنة ١٩٦٦م.

(٢) «عبدالحميد بن باديس» تقرير في التعليم المسجدي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام ـ نادي الترقي بالجزائر عام ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م. أعيد نشره مصورًا عن الأصل (ص١٠٤).

من الوهن والضعف، وتعويدهم على الإحساس بأن مسئوليتهم ليست مجرّد تلقّي العلم وتلقينه بل إنقاذ أمتهم مما وصلت إليه. ولم نذكر الجامعات الإسلامية كالزيتونة والقرويين والحرمين؛ لأن تلك المعاهد كان يتخرج فيها العلماء وينبغ منهم أحيانًا بعض القادة.

أما الجامع الأخضر فإنه شابه هذه المعاهد بروح ابن باديس وفكره. وليس القصد من القادة الذين يتسنّمون المناصب والزعامة فإنهم قادة بالفعل لما تحملوه في سبيل إحياء الشعب الجزائري بعد سنين طويلة من الاحتلال.

❑ ولا تحسبن ما وصفنا به مدرسة ابن باديس مبالغةً أو إعجابًا عاطفيًا؛ فإن الطالب حين يلتحق بالمسجد الأخضر يجد نفسه في مؤسسة تعليمية تحرص عليه علميًّا وأخلاقيًا واجتماعيًّا وماديًّا حِرْص والديه أو أكثر، وما جولات ابن باديس في القطر الجزائري شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا إلا لبناء الجزائر على أسس مقتبسة من روح الإسلام وحضارته. حتى إذا تيسر له عام ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م أن يضمّ الجامع الأخضر من أبناء الجزائر من يمثلون جميع جهاتها بدأ العمل الفعلي لصهرهم في بوتقة الإسلام الذي لا يفرّق بين عربي وأمازيغي أو كتامي وصنهاجي وزناتي أو عربي من الحضر أو من البدو.. ولا يفرق بين متبع لمالك أو لأبي حنيفة.

❑ لم يكن ابن باديس مجرد أستاذ بل كان أخًا أكبر لكبيرهم، وأبًا لصغيرهم ورفيقًا لمن قارب سنُّه سنَّه. فكان من اهتمامه بالتلاميذ أنه كان يستقبلهم حين وصولهم إلى قسنطينة ويودعهم واحدًا واحدًا حين سفرهم بعد انتهاء السنة الدراسية. يوصيهم بنشر العلم والسلوك الذي يمثل الإسلام في أبهى صورة وأجملها حتى يكونوا دعاةً صادقين في دعوتهم. أما أثناء وجودهم في قسنطينة فقد اختار العرفاء ليكونوا أولاً عونًا لزملائهم في حل مشكلاتهم، وثانيًا ليراقبوا سلوكهم ولا سيما أنه كان بقسنطينة جالية أوروبية

تعيش حياتها الأوروبية اللاهية المارقة. وكان في المدينة حيّ لليهود تشيع منه المفاسد والفجور. ومع وجود العرفاء والأساتذة المساعدين فقد كان ـ رحمه اللَّه ـ يتعهد طلابه بنفسه حيث يستيقظ قبل الفجر ويمرّ عليهم في مقر سكناهم.

☐ وهناك مسألة هامة تغفل عنها برامج التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي اليوم رغم معرفة المربِّين لها وهي الصلة بين المدرسة والبيت، وقد أدرك هذا ابن باديس فكان يلتقي بالآباء في أماكن عملهم ويخصّص لهم جزءًا من وقته فيلقي عليهم الدروس فيه.

☐ ولما كان تلاميذ الجامع الأخضر ليسوا من قسنطينة وحدها فقد كانت رحلاته التي سنتكلم عليها فيما بعد تؤدي هذه المهمة فهو غالبًا ما يتعرف إلى الآباء قبل أن يلتحق أبناؤهم بالجامع الأخضر، وكم أقنع شيخ زاوية أو رئيس قبيلة أن يبعث ابنه ليتلقّى التعليم في الجامع الأخضر، ومن أبرز هؤلاء الفضيل الورتلاني والسعيد الصالحي وعمر دردور وغيرهم.

لم تكن تربية عند ابن باديس مَلء أذهان الطلاب بالمعلومات بل تعدّتها إلى التربية المتكاملة التي تؤدي إلى رفع مستوى الوعي الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي. وهذا ما أشار إليه أحد الباحثين في تعليقه على إدخال مقدمة ابن خلدون في مناهج الجامع الأخضر[1] ، ذلك أن ابن خلدون عاش حياة سياسية حافلة.

☐ كذلك اهتم ابن باديس بالبيئة فقد كانت الكتب المصرية هي التي يتم تدريسها في أنحاء الجزائر المختلفة فنادى ابن باديس بإعطاء هذه المسألة ما تستحقه من العناية والاهتمام.

---

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» (١/ ١١٧).

إن اهتمام ابن باديس بالجوانب المختلفة من الشخصية الجزائرية قادته إلى التفكير بالتدريب العسكري فكان يسأل تلاميذه من منكم أدى الخدمة العسكرية فيطلب منهم أن لا ينسوا الرمي، وينبههم إلى أن البلاد ستحتاج إليهم يومًا ما. وكان ممن أدى الخدمة العسكرية الفضيل الورتلاني(١) . وقد ظهر هذا عندما أُسست جمعية شباب المؤتمر الإسلامي واتخذت النظام العسكري في زي أعضائها وفي طريقة تنظيمها»(٢) .

أمام هذا النشاط العلمي لابن باديس كانت هناك حركة فكرية تغريبية تنادي بالاندماج التام في فرنسا وكان لهذه الفئة صحافتها الخاصة، وأبرزها صحيفتا «الأهالي» و«صوت المتواضعين»، وقد ظل هذا التيار قويًا حتى بعد انتشار حركة الشيخ عبدالحميد بن باديس. حتى إن أحدهم كتب ينفي وجود وطن جزائري ويؤكد أنه فرنسي وأمته هي الأمة الفرنسية، فرد عليه ابن باديس بأن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة منذ أقدم الأزمان، وأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت أن تكون كذلك. ولم تسع فرنسا إلى زيادة أفراد هذه الفئة، وإنما سعت إلى تمكينهم وتقوية شوكتهم بما مكنت لهم من المناصب والمكانة القيادية في المجتمع.

بدأ ابن باديس عمله فرديًا، ولكنه كان يخطط إلى الانتقال إلى العمل الجماعي المنظم. وكان أوّلَ برهان على هذا التخطيط لقاؤه بالإبراهيمي في المدينة المنورة الذي أثمر عن إعداد عدد كبير من التلاميذ ليكونوا جنودًا في جيش الدعوة الإسلامية. وقبل أن ينشئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م) بسبع سنوات فكر في إنشاء جمعية الإخاء الإسلامي

---

(١) أحمد حمّاني، هل كان ابن باديس يفكر في الثورة ويعمل لها؟» العصر: العدد ٨٥ في ٥ رجب ١٤٠٣هـ = ١٨ أبريل ١٩٨٣م.

(٢) «عبدالحميد بن باديس» (ص٥١ ـ ٥٥).

من علماء قسنطينة. ولما لم تتهيأ الظروف لمثل هذه الجمعية ظلت الفكرة في ذهنه، فبدأ بالدعوة إليها بعد التفكير في الجمعية الأولى بسنة منذ الأعداد الأولى لجريدة الشهاب.

وحتى لا يضيع الوقت قبل أن تنشأ جمعية تضم علماء الجزائر من جميع أرجائها قام بتأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م. وصادقت الحكومة على قانونها الأساسي في مارس ١٩٣١م شوال ١٣٤٩م أي قبل تأسيس جمعية العلماء بشهرين. وكان هدف هذه الجمعية وفقًا لما جاء في القانون الأساسي: نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف الدينية والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين. وأما الوسائل الموصلة لهذه الأهداف فهي تأسيس مكتب للتعليم ليدرس فيه الذين لا يجدون مكانًا في المدارس الفرنسية، وليقدم التعليم الإسلامي للذين يتلقون العلم في المدارس الفرنسية. وكذلك إنشاء ملجأ للأيتام حماية لهم من الوقوع في أيدي المنصِّرين، ونادٍ للمحاضرات لنشر الثقافة الإسلامية لمن لا يتمكنون من حضور الدروس في المساجد، ومعملٍ للصنائع تنبيهًا للأمة على أهمية الصناعة وللقضاء على البطالة، وأخيراً إرسال التلاميذ على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى[1].

وقد اختير الشيخ عبدالحميد رئيسًا لهذه الجمعية، وظل يرعاها ويهتم بها حتى إذا كان عام ١٩٣٨م = ١٣٥٧هـ وأصبح هناك عدد من الخرِّيجين فكّر في إرسالهم إلى مصر وسوريا، وقد تم إرسال بعثة إلى مصر وكان يشرف عليها الفضيل الورتلاني.

---

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» (١/ ١١٤ ـ ١١٥).

* **تعليم المرأة:**

أدرك ابن باديس ـ رحمه اللّٰه ـ أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وشطره يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم الأجنبي سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها.

◻ كَتَب ابن باديس في أحد مقالاته مؤكدًا «أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن»[١] .

◻ ويقول في مناسبة أخرى: «لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم وِرْدٌ صفاء للرجال ومنهلٌ كدر للنساء؟ هل له تأثيران حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث؟»[٢] .

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس في هذا السبيل فإنه لما تأسست جمعية التربية والتعليم حرص ـ رحمه اللّٰه ـ أن يتضمن قانونها الأساسي أن يكون تعليم البنات مجانًا (سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها وذلك تشجيعًا لهن على الإقبال على الدراسة»[٣] .

وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصيًا بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة.

ولم يكن كافيًا أن تتعلم الفتيات الصغيرات فقد خصّص دروسًا للنساء

(١) «الشهاب» (ج٨ م١١)، غرة شعبان ١٣٥٤هـ نوفمبر ١٩٣٥م.

(٢) «المنتقد» العدد ٨ في ٣٠ محرم ١٣٤٤هـ = ٢٠ أغسطس ١٩٢٥.

(٣) «الشهاب» (ج٢ م٧/ ١١٥ ـ ١١٧) غرة شوال ١٣٤٩هـ = مارس ١٩٣١م.

في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وكن يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهن جنبات المسجد المخصصة للنساء.

ولنا أن نتساءل لماذا كل هذا الاهتمام بتعليم المرأة؟

إن داعية كابن باديس لم يكن ليخفى عليه ما يدبَّر للمرأة المسلمة خُفْية وعلانية. ولم يكن منعزلاً بعيداً عن ساحة المجتمع. فكما كان بعض الجاهلين بالإسلام يحرصون على إبقاء المرأة جاهلة، كان في الطرف الآخر من يدعوها إلى الخروج غير المنضبط، بل وتلقِّي العلوم الغربية. فقد أدركت الدراسات الاستشراقية التنصيرية والاستعمارية ما يمكن أن يؤديه تعليم المرأة تعليمًا غربيًا من تحولات اجتماعية نحو التغريب. فما إن صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» حتى صفقّوا له وهلّلوا. وكانوا يدركون أن التخريب يكون أبلغ إذا كان من الداخل، فقد ذكرت الوثائق الفرنسية أهمية كتاب الطاهر الحداد «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» الذي نادى فيه بأن الشريعة الإسلامية لم تكتمل في عهد صاحب الرسالة ﷺ وأن المجال مفتوح لمزيد من التشريعات بخصوص المرأة بإعطائها مزيداً من الحقوق وبمعنى أدق تقليد المرأة الغربية[1] .

*** رحلاته الدعوية:**

□ إن الشمولية في المنهج الإسلامي تمثّلت في جميع أعمال ابن باديس.. وقد عمّت رحلاته الدعوية وشملت أرجاء وطنه الجزائري، وقد كان ابن باديس يهدف من هذه الرحلات إلى ما يلي:

١ ـ التعرف على وطنه الجزائر؛ لأن المشاهدة خير من السماع لمعرفة البيئة التي سيدعو فيها ومن ذلك أيضًا الالتقاء بالعلماء وطلبة العلم وحثهم

(١) «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» للطاهر بن حداد (ص٢٠) الطبعة الرابعة تونس.

على نشر الدعوة.

٢ ـ مقابلة شيوخ الطرق الصوفية وإجراء الحوار معهم للرجوع إلى الكتاب والسنة في زهدهم وتصوفهم، وإقناعهم بنبذ الخرافات، وتشجيعهم على إرسال أبنائهم لتلقي العلم على يديه في قسنطينة.

٣ ـ معرفة المشكلات التي تعاني منها المناطق المختلفة والعمل على حلها بقدر المستطاع، وتنبيه المناطق الأخرى إلى الاحتراز من مثل هذه المشكلات، وذلك بإلقاء دروس عامة حولها، وقد تكون هذه الدروس بناء على اقتراح بعض علماء المنطقة التي يزورها.

٤ ـ التعرف على نشاط التنصير والاستشراق والاستعمار في جذب بعض الجزائريين نحو فكره وثقافته ودعوته، وإبطال كيد هؤلاء بالتأكيد على وحدة الجزائر المنبثقة من الإسلام. فها هو عالم من قسنطينة (شرق الجزائر) يزور الغرب والجنوب والشمال، ويشعر بأنه بين أهله في كل مكان ليؤكد هذا الإحساس لدى الشعب الجزائري.

٥ ـ زيارة إخوانه الجزائريين في أماكن عملهم كالمؤسسات التجارية والمعامل والمصانع والمزارع وعدم الاقتصار على المسجد والمدرسة. وقد يحضر في هذه الرحلات مناسبات اجتماعية مختلفة كالزفاف والختان والعقيقة ويستفيد منها في توجيه الحديث إلى الحاضرين. وهذا يؤكد دور الداعية وأنه لا ينتظر أن يأتيه المدعوّون، وكذلك أن التهديد بمنعه من الوعظ في المساجد لن يوقف دعوته فهناك أماكن كثيرة يمكن أن تنطلق فيها الدعوة إلى اللّه.

*** الصحافة:**

ظهرت أولى الصحف الجزائرية القوية وهي «جريدة النجاح» عام ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م وساهم فيها ابن باديس تأسيسًا وتحريراً.

وكانت مقالاته تظهر باسم مستعار هو القسنطيني والعبسي والصنهاجي، ولمّا رأى أن هذه الصحيفة غير قادرة على إحداث الهزة العنيفة لإيقاظ الشعب الجزائري كما تصور هو، تركها ليؤسس صحافته الخاصة به.

وبالنسبة لتركه جريدة «النجاح» فمن الضروري أن نوضح أمرًا هامًا وهو أن هذه الصحيفة لم تؤيد الاستعمار وتقف في وجه الإصلاح إلاّ في السنة الثانية لتأسيس جمعية العلماء ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م فقد كانت تورد أخبار الجمعية في سنتها الأولى باهتمام وتقدير بالغين. أما أخبار الشيخ عبدالحميد بن باديس فقد كانت موضع رعاية من الصحيفة حتى ذلك التاريخ، وهناك من أخبار ابن باديس ما انفردت به صحيفة النجاح.

ولقد تخصّص باحثون جزائريون في نشاط الشيخ ابن باديس الصحفي على رأسهم الدكتور محمد ناصر في كتبه المختلفة.

□ سعى ابن باديس إلى تحقيق عدد من الأهداف من مشاركته في الحركة الصحفية الجزائرية منها:

١ ـ المشاركة في هذه الحركة بالكتابة في القضايا التي تهم الشعب الجزائري.

٢ ـ تأكيد الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين وذلك بالقيام بنشر الوعي الديني، والذبّ عن العقيدة الإسلامية مما خالطها من المعتقدات الباطلة.

٣ ـ جعل الصحافة منبرًا حرًا لتبادل الآراء والأفكار، وفتح المجال أمام الناشئة وتعويدهم على الكتابة السليمة الهادفة.

□ قام ـ رحمه اللّه ـ بتأسيس صحيفة «المنتقد» في ١١/ ١٢/ ١٣٤٣هـ (٢/ ٧/ ١٩٢٥م) وكتب في افتتاحيتها:

«وسنسلك في انتقادنا طريق الحقيقة المجردة والصدق والإخلاص

والنزاهة والنظافة في الكلام..» ويمضي قائلاً: «هذه مبادئنا هي مبادئ الصحافة الحرة التي هي قوة لا غنى لأي أمة عنها، ولا رقي لأمة ناهضة بدونها»(١) .

◻ وشنّ ابن باديس حملة على الأوضاع المخالفة للكتاب والسنة، وعلى الطرق الصوفية الضالة، لكنه لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددًا بعد أن تنبهت سلطات الاحتلال إلى خطورة أسلوبه المتميز في الكتابة.

فأصدر مجلة «الشهاب» لتعبر عن أهدافه ومقاصده.

وبعد تأسيس جمعية العلماء صدرت صحفها «السُّنّة» و«الشريعة» و«الصراط» ثم «البصائر».

*** مجالات نشاطه الصحفي:**

كما ذكرنا سابقًا أن نشاطات ابن باديس يصعب تقسيمها فكذلك نشاطه الصحفي الذي يأخذ من الإسلام شموليته، ولكن لضرورة البحث يمكن تقسيم مساهمته في الصحافة إلى عدة أقسام:

أولاً: مجالس التذكير: وهذه وإن كان بالإمكان جعلها تحت الكتابات الدينية ولكن لأن الإسلام ليس دينًا بالمعنى المعروف عند الغرب أو ما أصبح يفهم من كلمة دين في الوقت الحاضر لدى كثير من المسلمين فلذلك تركنا العنوان كما هو. ومجالس التذكير اتخذت من الكتاب والسنة منطلقًا للدعوة وهي نوعان:

أ ـ دروس التفسير، تحت عنوان «مجالس التذكير في تفسير كلام العليم الخبير»، وهي عبارة عن بعض دروسه في التفسير التي ألقاها في درسه الليلي

---

(١) «المنتقد» العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (٢ يولية ١٩٢٥).

في المسجد، أو ما ألقاه على تلاميذه، وفي ذلك يشهد له الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، خليفته على رئاسة جمعية العلماء، فيقول عنه في مقدمة تفسير ابن باديس:

. . . انتهت إمامة التفسير ـ بعد موت الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده وترجمان أفكاره ـ في العالم الإسلامي كله، إلى أخينا وصديقنا، ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل وبالشمال الإفريقي (عبدالحميد بن باديس).

◘ وفي تفسيره للآيات يتعرّض للحديث عن الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية. ولئن كانت هذه الأحاديث قد جمعت في كتاب بعد وفاته بقليل إلا أنها تستحق دراسات مختلفة منها تعرف منهج ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ في التفسير وفي شتى مناحي الفكر.

◘ ففي الفكر السياسي نجد ابن باديس يصف لنا القائد وما يجب أن يتحلى به من مزايا من خلال تفسيره لآيات من سورة النمل وهي: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ**﴾. فيقول ابن باديس: «هذه نملة وفَّت لقومها وأدت نحوهم واجبها فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم ولمن يرى الخطر داهمًا لقومه فيسكت ويتعامى ولمن يقود الخطر إليهم ويصبُّه بيده عليهم، آه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة»[1] .

كما أنه من خلال تفسير آيات أخرى يوضح ما هي الحضارة الحقة ومن هم عباد اللَّه الصالحون الذين أورثَهُم الأرض، وأن هؤلاء ليسوا الأوروبيين

---

(١) «الشهاب» (ج٤ م ١٥) ـ ربيع الثاني ١٣٥٨هـ = مايو ١٩٣٩م.

وذلك حين فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. حيث قال: «رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض، وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها. فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان - فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم اللَّه بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ «الصالحون» في الآية الصالحون لعمارة الأرض، فيا اللَّه للقرآن وللإنسان من هذا التحريف السخيف كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد وفسدت الأخلاق واعوجت الأعمال وساءت الأحوال وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة وروِّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها»[1].

□ ولما ختم ابن باديس دروس التفسير التي استمرت سنين طويلة قال له لسان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشاعر محمد العيد آل خليفة قصيدة جميلة منها:

بمثلكَ تعتز البلاد وتفخر
وتزهر بالعلم المنير وتزخَـرُ
طبعتَ على العلمِ النفوسَ نواشئًا
بمخبرِ صِدْقٍ لا يدانيه مَخْبَرُ
نهجتَ لها في العلمِ نهجَ بلاغةٍ
ونهج مفاداهُ كأنّكَ حَيْدَرُ

(١) «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» لابن باديس (ص٢١٠) عن الشهاب (ج٦ م١١) في جمادى الثانية، ١٣٥٢هـ (سبتمبر ١٩٣٥م).

حبَتْكَ عمالاتُ الجزائرِ حُرْمَةً
مُشَرَّفَةً عُظْمى بها أَنْتَ أَجْدَرُ
ففي كُلِّ وفْدٍ راشدٍ لك دعــوةٌ
وفي كل حفل حاشد لك مِنْبَرُ
يَراعُكَ في التحرير أمْضَى من الظُّبي
وأمْضى من الأحكام أيّان يُشْهَرُ
ودرسُك في التفسير أشهى من الجنى
وأبهى من الروضِ النضير وأبهرُ
ختمتَ كتابَ اللَّه خَتْمَةَ دارسٍ
بَصيرٍ له حَلُّ العَويصِ مُيَسّرُ(١)

(ب) مجالس التذكير من كلام البشير النذير:

وهو عبارة عن شرح للأحاديث النبوية الشريفة، وهو يدرس الحديث دراسة عميقة تبدأ من السند يبين درجته من الصحة والحسن، ثم ينتقل إلى شرح مفرداته، وبعد ذلك يستنبط الدروس والعبر. ولنضرب على ذلك مثالاً نذكر منه الدروس والعبر التي استنتجها ابن باديس. ففي حديث قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا سمعت الرجل يقول هَلَكَ الناس فهو أهْلَكُهُم**» رواه مالك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ومسلم، عن يحيى، عن أبي يحيى، عن مالك. ومما جاء في تعليقه على هذا الحديث تحت عنوان: أصل عام في التربية: «هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية. فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها

(١) «مجالس التذكير» (ص٤٦٤).

تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط، وهذا الحديث يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم»[١] .

*** ثانيًا: رجال السلف ونساؤه وبعض الأعلام المعاصرين:**

وإننا من خلال دراسة النماذج التي قدمها ابن باديس ندرك أنه لم يختر هؤلاء بصورة عفوية بل كانت بناءً على دراسة ووعي وفهم. ومن ذلك قدَّم ترجمة لعبادة بن الصامت رضي الله عنه أوضح من خلالها مزية أن يكون الإنسان «قويًا في دين اللَّه لا تأخذه في الحق لومة لائم»، وأن يكون «صلبًا في دين اللَّه يوالي في اللَّه ويعادي في اللَّه». وأوضح أن عُبادة رضي الله عنه كان له موالي من اليهود، ولكن لما رأى عداوتهم للإسلام وتربّصهم بأهله جاء إلى النبي ﷺ فقال له: «**إن لي موالي من اليهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى اللَّه ورسوله من ولايتهم وأتولى اللَّه ورسوله**».

* وفيه وفي عبداللَّه ابن أبي الذي لم يترك مواليه من اليهود نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]. أما الدرس الذي يستخلص من قصة عبادة أن عبادة هو «أول من سنّ سنة رفض ولاية مواليه لما رأى منهم الشر وتولى اللَّه ورسوله»[٢] .

كما أنه ترجم لبعض العلماء والزعماء المعاصرين قائلاً: «إنما تُقاس

---

(١) «عبدالحميد بن باديس»، مجالس التذكير من كلام البشير النذير: (ص٨٢)، عن «الشهاب» (ج٣ م١٠) في ذي القعدة ١٣٥٢هـ = ١٥ فبراير ١٩٣٤م.

(٢) «الشهاب» (ج١ م ١٠) في رمضان ١٣٥٢هـ (يناير ١٩٣٢م).

الأمم بما تنتجه من الرجال وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها».

❑ فقال عن الشيخ رشيد رضا «لقد كانت غايته السياسية إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزًا للأمم الإسلامية في العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية»[1] وتكلم عن أثره فقال: «وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرّك أحد منهم أو من أشبابهم يده إلا أُخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم ـ إصلاحًا وهداية، بيانًا ودفاعًا ـ كلها من آثاره»[2] .

❑ وتكلّم عن الأمير خالد بن الهاشمي، وعودته للجزائر عقب الحرب العالمية الأولى وتقلده رئاسة الواجهة الإسلامية «تدافع عن حقوقها دفاع البطل المستميت، وتقوم بحملتها في فرنسا وفي الجزائر بواسطة الخطب والصحف وبواسطة الدعاية والنشريات المختلفة، حتى إذا ضاق الاستعمار به ذرعًا أبعد عن البلاد)، ويتحدث ابن باديس عن محاولة أعداء الأمير تشويه سمعته بعد مغادرته البلاد وإلصاق التهم به فقال في ذلك: «إنما الأمة الإسلامية في القطر الجزائري لا تزال ولن تزال تحتفظ بذكرى الأمير الجليل والزعيم المبجل كما تحتفظ أشراف الشعوب بأقدس الذكريات»[3] .

* ثالثًا: القضايا المعاصرة:

ما كان ابن باديس العالم المنعزل في برج عاجي لا يعرف من الإسلام إلا فتوى في المولد أو زكاة أو صيام أو صدقة فطر أو نذر ـ ومع أنه كان

(١، ٢) «الشهاب» (ج ٩ م١١) في رمضان ١٣٥٤هـ = ديسمبر ١٩٣٥.
(٣) «الشهاب» (ج١١ م ١١) غرة ذي القعدة ١٣٥٤هـ = فبراير ١٩٣٦م.

يعلمها ويعلّمها - بل إنه عاش قضايا المسلمين الكبرى، وكان يبحث ليعلم ويعلّم ولينفع وليغيّر. كان يدرك دوره تمامًا فقد جاء الاستعمار إلى البلاد يريد فرض ثقافته وانحرافاته وماديته وعقلانيته، وانجرف نفر من الشباب الجزائري مع هذا التيار، فكتب ابن باديس حول هذه الثقافة الجديدة قائلاً: «قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنّة الشريفة وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقحم في طريقهم من وضع الذين شبّوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذيول التي ألصقها بالدين المغرضون أو أعداء الإسلام الألداء والغافلون من أبناء الإسلام»(١) .

❑ ثم يحدد أهداف الدعوة هذه ومنها:

«انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وَهْدة الشك في كل شيء يُعزى إلى الدين بسبب ما يجده فيه من خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها وأن يعزوها إلى دين اشتهر باتصاله بالعقل اتصالاً وثيقًا؛ بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم. وقد كان الإقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء سيّما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يبترا تلك الطبقة التي هي عدتنا من المجتمع الجزائري، وقد شجّعها على ذلك ما تقرؤه وتطّلع عليه من حين لآخر من سخافات الطقوس المسيحية ونحوها»(٢) .

*** التجنس:**

كذلك انتشرت موجة في الجزائر تدعو إلى الدخول في الجنسية الفرنسية

(١) المرجع نفسه: (ج٢ م٨) غرة شوال ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.
(٢) المصدر السابق.

والحصول على الحقوق السياسية والاجتماعية التي يتمتع بها المتفرنسون. وقد كانت سياسة ابن باديس أن يوضح حكم الإسلام في التجنس وأن ما يقتضيه من رفض أحكام الشريعة الإسلامية بعضها أو كلّها يُعَدّ ارتداداً عن الإسلام وخروجًا منه، ويترك هؤلاء وما اختاروا لأنفسهم. فلما عقد المتجنسون اجتماعًا في أوائل أبريل ١٩٣٤م = ذي الحجة ١٣٥٣هـ للمطالبة بتسهيل التجنس لزيادة عددهم، فيقول: «غير أننا لا نستجيز السكوت عنهم إذا رأينا منهم دعاية لتوسيع نطاق التجنيس إذ في ذلك محاولة إضعاف الإسلام باختطاف الضعاف من بنيه ومجاوزة لحدود النظر لأنفسهم بالإغراء لغيرهم»، ثم يدعوهم أن: «يكفوا عن الدعاية ويتفرّغوا للحصول على الحقوق التي أرادوها مقابل ما «ارتكبوا» والتي ينالها كلها أحط أوروبي بمجرد التجنس وهم ما يزالون ولن يزالوا يحاولون استكمالها»[١].

◻ وعندما أعلنت جمعيّة العلماء أنها كلفت رئيسها بالرد على أسئلة الناس واستفتاءاتهم وقدّمَ إليه الكثير من الأسئلة من الجزائر وتونس حول التجنس قالها مرة أخرى بصراحة لم تُعرف عن كثير من علماء شمال أفريقيا حينئذ فكتب يقول: «التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكمًا واحدًا من أحكام الإسلام عُدَّ مرتدًا عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع»[٢]. ثم وضح القضايا المختلفة المتعلقة بالمتجنس ونسله وزواجه من امرأة من جنسية غير إسلامية. والمقصود بهذا كله الجنسية الفرنسية. ويشير ابن باديس في آخر الفتوى إلى أن سؤالاً ورده من رئيس المتجنسين بتونس فكانت هذه الفتوى إجابة له[٣].

---

(١) «الشهاب» (ج٥ م١٠) محرم ١٣٥٣هـ = ١٦ أبريل ١٩٣٤م.
(٢) «البصائر» العدد ٩٥ في ١٢ ذي القعدة ١٣٥٦هـ = ١٤ يناير ١٩٣٨م.
(٣) المرجع نفسه.

* **الوحدة العربية:**

ولقد كان من بين القضايا المثارة في الصحف العربية الوحدة السياسية للأمة العربية فحدثت مناظرة بين شكيب أرسلان وسليمان الباروني وكان من رأي الأمير شكيب أنه من الصعب بل من المستحيل أن تجتمع دول في وحدة وهم لا يملكون زمام أمرهم فكان للشيخ عبدالحميد رأي في هذه المسألة مفاده أن «الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة».. ثم يشير إلى أن الدول التي حققت استقلالها يجب عليها أن تتحد[1] .

* **التقدم والمدنية:**

حظيت فكرة التقدم والرقي بمساحات واسعة في الصحف العربية والإسلامية، وكانت ثغرة دخل منها الاستعمار والاستشراق اقتنع من خلالها بعض المفكرين المسلمين بأن الإسلام هو سبب التأخر. فانبرى ابن باديس يفند هذه المفتريات وهو يفسر كتاب اللَّه الكريم، فحين فسر قول اللَّه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

☐ فيقول رحمه اللَّه ـ: «ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟! والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع من المصنع كالمعمل من العمل، وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران»، ثم يوضح ابن باديس أهمية المصانع بأنها: «تُشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى

(١) «الشهاب» (ج١١ م ١٣) ـ غرة ذي القعدة ١٣٥٦هـ (يناير ١٩٣٨).

فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة»(١) .

أما ما في الحضارة من صناعات وغيرها فإنها بنيت على أسس غير إسلامية، إنها بنيت على «القسوة، والقسوة لا تُحمد في مبدأ ولا غاية، وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها وإن كانت دلائل حضارة ومدنية»(٢) .

ولا يألو «الشهاب» ولا صاحبه جهداً في التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين والعمل على كل ما من شأنه أن يأخذ بأيديهم نحو التقدم والرقي. ومن ذلك نقل بعض المقالات من الصحف الشرقية التي تدعو إلى ذلك، ففي العدد السادس والعشرين من «الشهاب» نجد مقالاً مقتبساً من «الأهرام» يقول كاتبه: «وإذاً فالإسلام يحث على تعلم الصنائع ويسميها علماً ويعتبرها رحمة ويبين أنه كان يقوم بها ويشرف عليها أفضل الخلق وهم الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم، فهو لا يعادي علماً ولا صنعة بل يعتبر القيام بالصنائع والعلوم من الفرائض التي يُتَقَرَّب بها إلى اللّه»(٣) .

◘ والحقيقة أن قضايا الساعة كانت كثيرة ولعل من أبرزها الاتجاه الداعي إلى الفرنسة والاندماج والتشبّع بالثقافة الفرنسية. والحقيقة أننا نعاني اليوم إلى حدّ كبير ما عاناه مجتمع ابن باديس. وانظر إليه كيف صوّرهم: «الشبّان المسلمين ينشئون أولاً في وسط إسلامي، ثم يدخلون المدارس الفرنسية فيتأثرون بالوسط الجديد فيحدث تنازع بين الروحين. وأما أشكال التأثر فهي كالتالي: نجد أكثرهم لا يتكلمون غالبًا إلا باللغة الفرنسية وليس ذلك منهم

(١) «الشهاب» (ج٦ م١١) (ص٣٤٤ ـ ٣٤٥)، جمادى الثانية ١٣٥٤هـ = سبتمبر ١٩٣٥م.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) «الشهاب» العدد ٢٦ في ٧ ذي القعدة ١٣٤٤هـ = ٢٠ مايو ١٩٢٦م عن مقال لعبدالباقي سرور نشر في الأهرام.

بقصد التظاهر بالتفرنج والتشبّه السخيف بل إنهم مُرْغَمُون في ذلك بحكم تعلمهم اللسان الفرنسي، وقد لا يقف هذا التأثير عند التكلم بل يتعداه إلى التفكير نفسه حتى في شئون الحياة العادية»[١] .

◻ لم يكن ابن باديس ليناقش مثل هذه القضايا من منطلق فكري بحت بل كان يدرسها من الواقع، يختلط بهؤلاء المثقفين ويهتم بهم. فقد عقدت جمعية الأساتذة بالقطر الجزائري ـ المعلمين بالمكاتب الفرنسية ـ اجتماعها السنوي بقسنطينة عام ١٩٣٣م = ١٣٥٢هـ، فماكان من ابن باديس إلا أن أقام حفل تكريم لهؤلاء المعلمين باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دعا إليه قاضي المدينة وأعضاء شعبة قسنطينة (جمعية العلماء) ومحرر «النجاح» وبعض رجال العلم والأدب[٢] . وزيادة على دعوة كهذه فإنه يجتمع إلى هؤلاء ويحدثهم ويحادثونه ففي أحد اللقاءات مع بعض المثقفين الجزائريين بالثقافة الفرنسية دار بينه وبينهم حديث حول كيف تكسب الأمم والأفراد الاحترام في أعين غيرها فيقول: «جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوربي والمتأدب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم وانساق بنا الكلام إلى ما تكسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها، واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار...»[٣] .

◻ ولنختم هذا الفصل وحديث ابن باديس عن القضايا المعاصرة: وقوفه في وجه التنصير، وقد اتخذ لذلك عدة سبل أهمها:

---

(١) «الشهاب» (ج١ م ١٢)، محرم ١٣٥٥هـ = أبريل ١٩٣٦م.
(٢) «الشهاب» (ج ٦ م٩) (ص٢٦١)، غرة محرم ١٣٥٢هـ = ماي ١٩٣٣م.
(٣) «الشهاب» (ج٨ م ١١)، شعبان ١٣٥٤هـ = نوفمبر ١٩٣٥م.

نشر العقيدة الصحيحة، والحرص على نشر التعليم العربي الإسلامي، ثم الدعوة إلى المحافظة على الشخصية الإسلامية العربية للمواطن الجزائري. ثم لم يكتف بكل ذلك بل وجد أن العداء مستحكم في نفوس المستوطنين وبخاصة أولئك الذين كانوا يعملون منصِّرين فدرس فكرهم بعمق. وقد عجبت أن يتسع وقت ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ لمعرفة المسيحية من كتبها، ثم من منطلقاتهم الفكرية والعقديه يرد عليهم»[١].

* **نشاطه السياسي:**

ولأن الإسلام دين ودولة وشمل كل مجالات الحياة، ولما كان العلماء هم قادة الفكر والرأي في الأمة فلا بد أن يشاركوا في السياسة التي لا يقر الإسلام مطلقًا بينها وبين الدين الإسلامي.

ولتأكيد مشاركة العلماء في السياسة فقد كتب ابن باديس في مناسبات مختلفة يوضح هذا الرأي. ففي عام ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م كتب ابن باديس يقول: «ثم ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة وإنما لكل امرئ ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره»[٢].

ويواصل ابن باديس معلمًا ومفكرًا وقائدًا سياسيًّا حكيمًا حتى إذا نجح ابن باديس في عقد أول مؤتمر إسلامي عام ضم جميع الأحزاب والاتجاهات

---

(١) «ابن باديس» (ص٨٢ ـ ٨٤).

(٢) «الصراط السوي» عدد ١٥ في ٨ رمضان ١٣٥٢هـ = ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣م.

الفكرية الجزائرية انبرت الأقلام التي تحمل الفكر الغربي تنتقد ابن باديس في عمله هذا وتعيب على العلماء التدخل في الشئون السياسية، فكتب مقالاً بعنوان «واجب العلماء في المجتمع» يقول فيه: «وهكذا فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من الشئون العامة ـ كما يزعم البعض في هذه البلاد ـ بل هم أولى من غيرهم بذلك وهم رعاة الأمة المسئولين وليس لغيرهم أن يستهجن فعلهم أو يلومهم إذا هم قاموا بما يجب عليهم نحو أمتهم. وليست مهمة العالم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقط.. وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وفي كل عصر إلاّ قادة الفكر والسياسة والدين»[(١)] .

وفي إحدى زياراته لتونس دُعي لإلقاء محاضرة في جمعية الطلبة الجزائريين بتونس والجمعية الودادية الجزائرية بتونس في ربيع الأول ١٣٥٦هـ = يونيه ١٩٣٧م، فكان مما جاء في محاضرته قوله: «وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معًا، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعوّدوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجدّ»[(٢)] .

إذن كان نشاط ابن باديس السياسي مستندًا إلى فهمه للإسلام الذي ما تأخر أتباعه إلا حينما أقصَوْا العلماء عن سدّة الحكم أو عن إبداء الرأي في المسائل السياسية. فقد جاء في تفسير القرطبي ما يلي: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب»[(٣)] .

(١) «البصائر» العدد ٤٣ في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ = ١٣ نوفمبر ١٩٣٦م.
(٢) «البصائر» العدد ٧١ في ٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ = ١٨ يونيه ١٩٣٧م.
(٣) «تفسير القرطبي» (٤/٢٤٩).

«لقد بدأت مشاركة ابن باديس في السياسة منذ وقت مبكر من حياته. فإن كانت فرنسا قد فرضت التجهيل على عامة الشعب الجزائري، وسمحت بالتعليم الفرنسي لطبقة منه، فقد أخذ ابن باديس يحاربها بنشر التعليم بين طبقات الشعب كافة حتى أولئك الذين كانوا يدرسون في المدارس الفرنسية خصص لهم أوقاتًا بعد أن يفرغوا من الدراسة بالمدارس الفرنسية حتى يتلقوا العلم الإسلامي على يديه أو أيدي العلماء المسلمين الآخرين ليرتبطوا بأمتهم برابطة اللغة، والفكر، والتاريخ، والعقيدة»[1].

□ كتب الشيخ ابن باديس مقالاً تحدث فيه عن سياسة بريطانيا الاستعمارية ـ وقد كان من نوع اللحن الذي يفهمه ذوو الألباب ـ فقال: «قلّب صفحات التاريخ العالمي، وانظر في ذلك السجل الأمين هل تجد أمة غُلبت على أمرها ونُكبت بالاحتلال ورُزئت في الاستقلال ثم نالت حريتها منحة من الغاصب وتنازلاً من المستبد ومنّةً من المستعبد.

اللَّهم كلا! فما عَهِدنا الحرية تُعطى إنما عهدنا الحرية تُؤخذ، وما عهدنا الاستقلال يُمنح ويُوهب إنما علمنا الاستقلال يُنال بالجهاد والاستماتة والتضحية، وما رأينا التاريخ يُسجِّل بين دفتي حوادثه خيبةً للمجاهد إنما رأيناه يسجل خيبة للمستجدي»[2].

□ وكان مما قاله ـ رحمه اللَّه ـ يوقظ به الأمة إلى حقها في الاستقلال فيقول: «إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا مع الذين يدعون علم الغيب مع اللَّه، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما

(١) «عبدالحميد بن باديس» لمازن صلاح (ص٨٨).
(٢) «الشهاب» (ج٥ م٦)، غرة محرم ١٣٤٩هـ = يونية ١٩٣٠م.

تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن تزداد تقلّبًا.. وتصبح الجزائر مستقلة استقلالاً واسعًا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر»(١) .

◻ وكثيرة هي الدلائل على هذا التفكير ومنها أحاديثه لتلاميذه حيث يروي الشيخ محمد الصالح رمضان أن بعض شبّان الحركة الوطنية جاءوا للشيخ ابن باديس وقالوا له: أنت شخصية كبيرة، لماذا لا تدعو للاستقلال وأنت مسموع الكلمة؟ فقال لهم: «يا أبنائي من أراد أن يبني منزلاً هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال: فبماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران. فقال: هذا ما أفعله، الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف»(٢) .

◻ لم يقف ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ عند مرحلة التفكير والكتابة في الصحافة داعيًا إلى الاستقلال بل تعدى ذلك إلى مرحلة التفكير العملي. وقد رُوي عن الشيخ أكثر من حديث أبدى فيه عزمه على إعلان الجهاد. ومنها ما ذكره لي الشيخ حمزة بوكوشة قائلاً: «كنا جلوسًا مع الشيخ وكان مريضًا جدًّا وكان من ضمن الحضور محمد جلول وسي عبدالرحمن بن بيبي فقال لنا الشيخ: تعاهدوني. فقلت له ـ الشيخ حمزة ـ: نعاهدك على أمر تكون فيه. قال: وهل يمكن أن أطلب أمرًا لا أكون معكم؟ قلت: إذًا على ماذا نعاهدك؟ قال: الوقت الذي تعلن فيه إيطاليا الحرب على فرنسا فإننا نعلن الحرب عليها. ومات قبل ذلك»(٣) .

◻ وقد أورد الشيخ حمزة بوكوشة هذه القصة في مقالٍ له نشر في

(١) «الشهاب» (ج٣ م١٢) صفر ١٣٥٥هـ = مايو ١٩٣٦م.
(٢) رمضان، مرجع سابق. وقد أشار أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاح» إلى أنه صاحب هذا القول. للَّه درّه كيف ينسب لنفسه ما قاله ابن باديس رحمهما اللَّه؟! انظر «عبدالحميد بن باديس» (ص٩٢).
(٣) الشيخ حمزة بوكوشة، مقابلة معه، مرجع سابق. «عبدالحميد بن باديس» (ص٩٣).

مجلة المعرفة قبل حديثي معه بتسع سنوات.

□ وهناك رواية أخرى ذكرها لي الشيخ عبدالرحمن شيبان - وزير الشئون الدينية السابق في الجزائر - «أن مجلسًا جمع الشيخ ابن باديس وصديقه عبدالرحمن يحيى الشريف - المعروف بـ بن بيبي - فسأل ابن باديس صديقه: هل عندكم في سطيف رجال؟ فأجابه عبدالرحمن: ماذا تعرف؟ ليس في سطيف إلا الرجال! فقال ابن باديس: هل في الإمكان العثور على من يضع قنبلة في مطار عين أرنات - قرية قريبة من سطيف بنحو ٧ كيلاً - وكان هذا قبل وفاته بشهر أو شهرين»(١).

□ ويروي الشيخ أحمد حماني - رئيس المجلس الأعلى الإسلامي بالجزائر - أنه في إحدى أُمسيات خريف عام ١٩٣٩م في مجلس بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وكان الحديث حول الأوضاع السياسة في العالم وإعلان الحرب العالمية الثانية وقبول بعض كبار رجال الأحزاب السياسية التجنيد في جيش فرنسا طوعًا أو كرهًا فقال ابن باديس - رحمه اللَّه - ما معناه: «لو أنهم استشاروني واستمعوا إلي وعملوا بقولي لأشرت عليهم بصعودنا جميعًا إلى جبال أوراس وإعلان الثورة»(٢).

إن كان ابن باديس قد فكر في الثورة فقد أعد لها عدتها فكريًا ونفسيًا وعسكريًا فقد أكد أحد تلاميذ ابن باديس الأقدمين - وهو محمد الحاج بجّة من دائرة أقبو - أن الشيخ كان يسأل تلاميذه الكبار عن أدائهم للخدمة العسكرية فمن أداها ميزه عن غيره وقال لهم: «إننا سنحتاجكم يومًا ما».

---

(١) الشيخ عبدالرحمن شيبان، مقابلة شخصية معه في مكتبه بوزارة الشئون الدينية في ١٦ صفر ١٤٠٤هـ = ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣م. المرجع السابق ص(٩٣).

(٢) أحمد حماني، في ذكرى عبدالحميد بن باديس، جريدة العصر، مرجع سابق. عبدالحميد ابن باديس (ص٩٤).

وكان يوصيهم بالمحافظة على معرفتهم للرمي وكما ذكرنا من قبل أنه كان يقرب إليه الفضيل الورتلاني لأنه أدى الخدمة العسكرية، وكان يعهد إليه بتربية صغار التلاميذ على الثورة[1] .

*** تأسيس الشيخ عبدالحميد بن باديس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئاسته له طيلة حياته:**

تأسست الجمعية عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م على يد ابن باديس وتولى رئاستها حتى وفاته في ٩/٣/١٣٥٩هـ = ١٦ أبريل ١٩٤٠م. قادها في ظل النظام الذي يسمح للجمعيات الدينية، فكان ابن باديس حريصًا على إظهارها بأنها «جمعية دينية محضة» كما ورد في إحدى خطبه، وإلا فإنها في حقيقتها كانت صاحبة دور فعال في الحركة الوطنية الجزائرية حتى قال عنها مؤرخو الجزائر: «والحق أنه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيرًا واضحًا مثلما فعلت جمعية العلماء. وإذا كانت المنظمات الأخرى (بما في ذلك الأحزاب السياسية) قد خاطبت فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب فإن خطاب جمعية العلماء كان قد وصل أفقيًّا وعموديًّا إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدنية ومن ثم هزت المجتمع الجزائري هزًا عنيفًا»[2] .

☐ وقال مؤرخ فرنسي: «لا يمكن فصل العنصر الديني عن العنصر السياسي في الإسلام، وإصلاح العقائد ورفع مستوى الثقافة العربية لا ينفصل في نظر العلماء عن الموقف السياسي في صالح العروبة والوطنية الجزائرية».

---

(١) أحمد حماني، العصر عدد ٨٥، مرجع سابق. «عبدالحميد بن باديس» (ص٩٤).
(٢) أبو القاسم سعد الله، رأي في دور جمعية العلماء ـ جريدة الشعب الجزائرية اليومية في ٥ رمضان ١٤٠٦هـ = ١٤ مايو ١٩٨٦م.

❑ وفي الجامع الأخضر بقسنطينة إثر صلاة الجمعة ٤ ربيع الأول ١٣٥٦ أعلن الشيخ ابن باديس عن أصول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي سلفية بحتة وهي:

١ ـ الإسلام هُو دين اللَّه الذي وضَعهُ لهدَايةِ عِبَاده، وأرسل بهِ جميعَ رسُلِه، وكملَّه على يدِ نبيه محمد الذي لا نَبي من بعده.

٢ ـ الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنَّه:

أولاً: كما يدعُو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يُذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

ثانيًا: يُسوي في الكرامة البشريةِ والحقوق الإنسانيةِ بين جميع الأجناس والألوان.

ثالثًا: لأنه يفرضُ العدل فرضًا عامًا بين جميع الناس بلا أدنى تَمييز.

رابعًا: يدعو إلى الإحسان العام.

خامسًا: يُحرِّمُ الظلم بجميع وُجُوهِه وبأقَل قليله من أي أحد على أي أحدٍ من الناس.

سادسًا: يُمجّد العقل ويدعو إلى بناءِ الحياة كلها على التَّفكير.

سابعًا: ينشرُ دعوتَه بالحُجة والإقناع لا بالختل والإكراه.

ثامنًا: يترك لأهلِ كل دينٍ دينهم يَفهمونهُ ويطبقونهُ كما يشاءون.

تاسعًا: شرَّك الفقراء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمُزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العُمال وأرباب الأراضي والأموال.

عاشرًا: يدعو إلى رحمةِ الضعيف فيُكفى العاجز ويُعلم الجاهل ويُرشدُ

الضال ويُعان المضطر ويُغاث الملهوف ويُنصر المظلوم ويُؤخذ على يد الظالم.

حادي عشر: يُحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه.

ثاني عشر: يجعلُ الحكمَ شورى ليس فيه استبدادٌ ولو لأعدلِ الناس.

٣ ـ القرآن هو كتاب الإسلام.

٤ ـ السنَّة «القوليةُ والفعِليةُ» الصحيحة تَفسيرٌ وبيان للقُرآن.

٥ ـ سلوك السلف الصالح «الصحابةِ والتابعين وأتباع التابعين» تطبيقٌ صحيحٌ لهدي الإسلام.

٦ ـ فهوم أئمة السلف الصالح أصدَقُ الفهومِ لحقائق الإسلام ونُصوص الكتاب والسَنة.

٧ ـ البدعةُ كلُّ ما أُحدث على أنه عبادةٌ وقُربةٌ ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله. وكل بدعةٍ ضلالة.

٨ ـ المصلحة كل ما اقتضته حاجةُ الناس في أمرِ دنياهم ونظامِ معيشتهم وضبط شئونهم وتقدُّم عمرانهم مما تقرّه أصول الشريعة.

٩ ـ أفضلُ الخلق هو محمد ﷺ لأنه:

أولاً: اختاره اللَّه لتبليغ أكملِ شرعةٍ إلى الناس عامَّة.

ثانيًا: كان على أكملَ أخلاق البشرية.

ثالثًا: بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته.

رابعًا: عَاش مجاهداً في كل لحظةٍ من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعُه مرهونة.

١٠ ـ أفضلُ أمَّته بعده هم السلف الصالح لكمَال اتّباعهم لهُ.

١١ ـ أفضلُ المؤمنين هم الذين آمنوا وكان يتّقُون وهمُ الأولياءُ

والصالحون فحظُّ كل مؤمنٍ من ولاية اللَّه على قدر حظّه من تقوى اللَّه.

١٢ ـ التوحيدُ أساس الدين فكل شركٍ في «الاعتقاد أو في القول أو في الفعل» فهو باطلٌ مردودٌ على صاحبه.

١٣ ـ العملُ الصالح المبنيُّ على التوحيد: به وحده النجاة والسعادة عند اللَّه؛ فلا النسبُ ولا الحسبُ ولا الحظُّ بالذي يُغني عن الظالم شيئًا.

١٤ ـ اعتقاد تصرُّف أحدٍ من الخلق مع اللَّه في شيء ما؛ شركٌ وضلالٌ ومنه اعتقاد الغوث والديوان.

١٥ ـ بناءُ القباب على القُبور ووقد السُّرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثةُ بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاةٌ لأعمال المشركين. من فعله جهلاً يعلم ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضالٌ مضلٌّ.

١٦ ـ الأوضاع الطرقيةُ بدعةٌ لم يعرفها السلفُ ومبناها كلها على الغلوّ في الشيخ والتحيُّز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هُنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال.. ومن تجميدٍ للعقُول وإماتَة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشُّرور.

١٧ ـ ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيَّناه منهُ من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمة، مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

١٨ ـ الجاهلون والمغرُورون أحقُّ الناس بالرَّحمةِ.

١٩ ـ المُعاندون المستغلُّون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة.

٢٠ ـ عند المصلحة العامة من مصالح الأمَّة، يجب تناسي كل خلاف يُفرق الكلمة ويُصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتُفُ حتى تنفرج الأزمة وتزُول الشدة بإذن اللَّه ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة.

✍ قل هذه سبيلي: أدعو إلى اللَّه على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان اللَّه، وما أنا من المشركين.

عبدالحميد بن باديس[١].

□ وجّه ابن باديس خطابًا بليغًا في مقال له بعنوان «ليس الخبز كل ما نريد من فرنسا» جاء فيه: «جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم عالمون بما فيه الأمة من جوع وفاقة ـ أننا قوم لا نريد إلا الخبز، وأن الخبز عندنا هو كل شيء، وأننا إذا ملئت بطوننا مهدنا ظهورنا وأنهم إذا أعطونا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب...

لا يا قوم إننا أحياء وإننا نريد الحياة وللحياة خُلِقنا. وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلها ضروريات في الحياة»[٢].

□ دعا ابن باديس إلى المؤتمر الإسلامي العام سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م، ومثّل العلماء بالإضافة إلى الأمين العمودي، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي وبعد عودة الوفد من باريس خاطب الأمة الجزائرية قائلاً: «أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها»[٣].

□ ولما أصدر رئيس الوزراء قانون شوطان في ٨ مارس ١٩٣٨ لوضع

---

(١) «عبدالحميد بن باديس» (ص٢٠٢ ـ ٢٠٦).

(٢) «الشهاب» (ج٩ م١٢)، رمضان ١٣٥٥هـ = ديسمبر ١٩٣٦م والخُلُق الذي يشير إليه هو حياة التقشف والزهد والصبر.

(٣) «الشهاب» (ج٦ م ١٢) (ص٢٧٢)، غرة جمادى الثانية ١٣٥٥ = سبتمبر ١٩٣٦م.

العقبات في وجه تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي هبّ ابن باديس بوصفه رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حاملة لواء التعليم العربي الإسلامي فكتب الكثير، بل إنه أحدث ضجة عجيبة من كثرة ما كتب، ومن ذلك أنه وجّه الخطاب إلى فئات من الشعب الجزائري لا يمكن أن يفكر الإنسان العادي في استثارتها ضد هذا القانون.

◘ يقول ابن باديس: «إن أعداء الأمة الجزائرية ـ وأعداء فرنسا أيضًا ـ يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارًا وزاريًّا بعقوبات على التعليم ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها».

«لقد فهمت الأمة مَنْ المعلمون المقصودون. إنهم معلمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام؛ لأنهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يلقون من معارضة ومناهضة، وما يجدون من مقاومة ومحاكمة بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروّجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال، بين أبناء وبنات الإسلام، في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال».

◘ قد فهمنا ـ واللَّه ـ ما يُراد بنا، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي ـ بعون اللَّه ـ في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدّنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا»[1].

يواصل ابن باديس نشاطه السياسي فيجد بدء العام الهجري الجديد ١٣٥٨هـ مناسبة ليخاطب الشعب الجزائري يصف حالته وما يلاقيه من

(١) «البصائر»: العدد ١٠٧ في ٧ محرم ١٣٥٧هـ = ٨ أبريل ١٩٣٨م.

اضطهاد الاستعمار وقهره كأنما يُعدّه نفسيًّا للثورة وينادي فيه إسلامه ليعرف الجميع أنه ليس التراب وحده هو الذي يحرك الشعوب، فإن العقيدة تأتي أولاً.

❑ يريد ابن باديس أن يهنئ الشعب الجزائري بالعام الجديد فماذا يقول؟

«أأهنيك ومساجدك في وجوه أهل العلم مغلقة؟!

أأهنيك وتعليم دينك ولغة دينك لا تُعطى رخصته لمن يطلبها وتنزع ممن يطلبها ويحاكم المعلمون كالمجرمين؟!

أأهنيك ومطالبك خابت فيها آمالك؟!

أأهنيك وأبناؤك البررة في زوايا السجون منهم من قضي عليه ومنهم من أهمل من زمان فهو ينتظر قضاءه، ومنهم من ـ في ساعة كتابتي هذه ـ يُذهب ويُجاء به إلى مجالس القضاء؟!..

ماذا ألم تبق للّه عليك نعمة أهنيك بها؟ كلا! ثم كلا!!

إن شعبنا احتضنه الإسلام واحتضن الإسلام ثلاثة عشر قرنًا، لن يضيع عن اللّه أبدًا أبدًا.

ألم يحفظ اللّه عليك هذا الإسلام رغم الجهل والتفقير وبث أسباب التنصير؟

ألم يحفظ اللّه عليك عروبتك رغم التمزق والتزهيد والتهديد؟

بلى ثم بلى.. فأنا أهنيك أيها الشعب الكريم بإسلامك وعروبتك وجزائريتك»[1].

---

(١) «البصائر»: العدد ١٥١ في ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ = ٤ فبراير ١٩٣٩م.

* اهتمام ابن باديس بقضايا العالم الإسلامي :

◘ ومن نشاطه السياسي اهتمامه بقضايا العالم الإسلامي والكتابة حولها ودعوة الجزائريين للاهتمام بإخوانهم المسلمين حتى بلغت نسبة ما احتلته هذه القضايا في صحافة ابن باديس وصحافة الجمعية ثلثها[١] . ومن أهم القضايا التي كتب حولها كثيراً قضية ليبيا وجهاد عمر المختار وقضية فلسطين. وعندما عقدت اللجنة البرلمانية مؤتمرها في القاهرة عام ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م أرسل ابن باديس برقيتين إلى المؤتمر إحداهما بوصفه رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والثانية: بصفته شخصيًّا. جاء في الأخيرة: «نحن معكم»[٢] .

◘ وهناك أيضًا قضية فلسطين وما حدث فيها من تعاون بين اليهود الصهاينة ضد المسلمين فيها فكتب الشيخ عبدالحميد يوضح خطورة هذه الأحداث قائلاً: «تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيمًا لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحًا لا يندمل»[٣] . ثم يتحدث عن مسئولية المسلمين تجاه هذه الأحداث فيقول: «وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند اللَّه تعالى على كل ما يجري هنالك من أرواح تزهق وصغار تيتّم ونساء ترمّل وأموال تُهتك وديار تُخرب وحرمات تُنتهك كما لو كان ذلك كله واقعًا بمكة أو المدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع»[٤] .

---

(١) مقدمة بقلم أبي القاسم سعد اللَّه» لكتاب مازن صلاح «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» طبع دار القلم.

(٢) «من الوثائق المحفوظة لدى مديرية الوثائق بولاية قسنطينة».

(٣) «الشهاب»: (ج٦ م١٤) غرة جمادى الثانية ١٣٥٧هـ = أغسطس ١٩٣٨م.

(١) المصدر السابق.

* ابن باديس والطرقية «الصوفية»:

لا يكتمل الحديث عن ابن باديس دون ذكر طرف من جهاده ضد الطرق الصوفية. فهو قد حاربها لأمرين: أحدهما: ما أدخلته على الدين من انحراف وضلال وبدع وخرافات.

وثانيًا: لأنها أصبحت تسير في ركاب الاحتلال.

❑ فمتى دخلت الطرق الصوفية إلى الجزائر وما عللها؟

يذكر أحد المؤرخين أن الطرق الصوفية بدأت تظهر في الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وازداد أتباعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر. وأهم هذه الطرق هي: القادرية، والرحمانية، والتيجانية، والشاذلية، ودرقاوة الشاذلية، والعليوية[1].

وقد جاء في سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء أن الطرق الصوفية «ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة تسترت بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب والعزوف عن الملذات الجسدية والتظاهر بالخصوصية وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية وهو التسليم المطلق وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد إرهاقًا إلى كمال الروح»[2].

❑ وها هي صورة ننقلها من مقالة كتبها أحد الصحفيين في إحدى الصحف الجزائرية حول شيخ إحدى الطرق الصوفية بأنه كان في فرنسا فشاهد فتاة تعمل في أحد الفنادق فأعجب بها وأراد الزواج منها فلم يوافق

---

(١) «نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني» لمختار فيلالي (ص٥١).

(٢) تصدير لسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الخامس ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م (ص٢٧).

حاكم عام الجزائر ولكن الكاردينال لافيجري كان يرى أن هذا الزواج في مصلحة المسيحية وسوف يجعل تنصير المسلمين من أسهل الأمور وأيسرها. وتم الزواج في الكنيسة الكبرى عام ١٩٠٧م. وأصبحت تعرف بأميرة الرمال. وظلت على ديانتها الكاثوليكية وكانت تعطف على «المضلّلين المسيحيين فمدت لهم يد المساعدة، وكتبت باسم زوجها شيخ الطريقة كثيرًا من الرسائل إلى مقاديم هذه الطريقة وأعيانها توصيهم خيرًا بهؤلاء المضللين»[1].

◻ ولئن كان زعماء النضال في الجزائر في بداية الاحتلال ينتسبون إلى الطرق الصوفية، فما كان ذلك ليمنعهم من مقاومة الاحتلال؛ لأنهم لم يبتعدوا عن العقيدة السلفية. ولكن فرنسا رأت أن تستميل شيوخ هذه الطرق بالمناصب والمال والجاه حتى إن أحد الحكام الفرنسيين أعلن أن أفضل وسيلة للسيطرة على الشعب الجزائري هي التقرب من شيخ زاوية أو طريقة بمنصب أو مال. وقد أصبح هذا واضحًا فيما بعد حين سيطر الطرقيون على تسعة أعشار مقاعد المجالس المحلية على كل المستويات، وأربعة أخماس المناصب القيادية، وثلثي الوظائف في الإدارة الفرنسية.

◻ ويقول أحد المؤرخين المعاصرين: إن الحكومة تمكنت من استجلاب الطرقية إلى جانبها تمدها بالمساعدات وتحميها، فكان من الطبيعي في نظر العلماء أن تصبح خدمة الطرقية خدمة للأجنبي ودعائمه.

◻ وحين أعلن ابن باديس الحرب على الطرقية فإنما كانت هذه الحرب موجهة ضد الاستعمار الذي كان يؤيد الطرقية. ويؤكد هذا قول أحد المؤرخين الفرنسيين: «أصبحت كلمة المرابطين تدل على الجهل والتخلف،

---

(١) «الصراط السوي» عدد ٦ في ٤ رجب ١٣٥٢هـ = ٢٣ أكتوبر ١٩٣٣م ـ «إلى زيارة سيدي عابد» لمحمد السعيد الزاهري.

وكذلك أصبحت تعني المؤيدين للاحتلال والإدارة الفرنسية».

وقد وصفت إحدى الوثائق الفرنسية هذا الصراع بين العلماء بقيادة الشيخ عبدالحميد بن باديس وبين الطرقية بأنه كان صراعًا عنيفًا لا هوادة فيه ولا رحمة، ليس لأن الطرقيين مبتدعون في الدين فقط بل لأنهم متهمون بالإخلاص في تعاونهم مع فرنسا. وهذا يخالف العقيدة الإسلامية ويخالف أيضًا أفكار الجامعة الإسلامية.

وقد تجلت حرب ابن باديس للطرقية في طريقين: أحدهما نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة وبذل الجهود المضنية في ذلك، بل إن أعمال ابن باديس التعليمية منذ رجع من الحج عام ١٩١٣م كانت موجهة ضدهم ولكن بصورة غير مباشرة في محاولة لكسبهم إلى جانبه فلما بدأ نشاطه الصحفي عام ١٩٢٥م أخذ يوضح مخاطر الطرق الصوفية مع الاستمرار في التعليم وإصلاح العقيدة. ومن عبارات ابن باديس التحذيرية قوله: «واحذر كل (متريبط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقوة يزعم التصرف في الكون»[1] .

◻ كما ألف ابن باديس قبل ذلك رسالة في الرد على شيخ الطريقة العليوية الذي كتب أبياتًا من الشعر العامّي يخاطب فيها الرسول ﷺ بما لا يليق[2] . فكان رد الشيخ عبدالحميد مفصلاً للحال التي يجب أن يكون فيها المؤمن مع الرسول ﷺ. وقد نالت من التقريظ والعناية من العلماء الجزائريين والتونسيين والمغاربة ما ملأ قلب ابن عليوه وأنصاره غيظًا فدبروا مكيدة للسطو بالإمام الرئيس عبدالحميد بن باديس في ٩ جمادى الآخرة

---

(١) «ابن باديس، «الشهاب»: عدد ١٩ في ١٥ صفر ١٣٤٥هـ = ٢٣ أغسطس ١٩٢٦م.

(٢) أنجزها في ٢٦/٢٧ ذي الحجة ١٣٤٠هـ بناءً على ما جاء في كتاب أحمد حماني، «صراع بين السنة والبدعة» (ص٥).

١٣٤٥هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٩٢٦م، ونجّى اللَّه الإمام من هذا الاعتداء الأثيم. وهناك رأي بأن هذا الاعتداء كان بإيعاز من الإدارة الاستعمارية التي ضاقت ذرعًا بنشاط الأستاذ في الميدان الإصلاحي والوطني وكانت تعتمد بالدرجة الأولى على بعض هذه الطرق والزوايا[1] . وما كان من الممكن بالطبع أن يقال مثل هذا الرأي في حينه. ولعل مثل هذه الأعمال لا تفصح عنها الوثائق الفرنسية التي تم الإفراج عنها حتى الآن.

وبعد هذه الحادثة بسنوات تأسست جمعية العلماء المسلمين ودخلها بعض رجال الطرق الصوفية والعلماء الرسميين، ولكنهم لم يرقهم أن يكون علماء الإصلاح هم أصحاب الشأن فيها، فلمّا حان موعد انتخابات المجلس الإداري الجديد من العام التالي حتى خرج منها هؤلاء ـ علماء الدين الرسميون (الموظفون لدى الحكومة) والمتصوفة ـ وأنشأوا جمعية لهم باسم «جمعية علماء السنة» لتحارب العلم والإسلام باسم السنّة. وأخذت تنادي بأن الخلافات بينها وبين علماء الإصلاح تنحصر في مسائل شرعية دينية جزئية.

❑ ولم يكن الشيخ ابن باديس ليسكت عما يراه مخالفًا للعقيدة الإسلامية السلفية الصحيحة.

أما صلة أصحاب الطرق الصوفية بفرنسا فقد كفتنا الوثائق الفرنسية مئونة البحث مما أشرنا إليه آنفًا. ولعلنا نزيد الأمر وضوحًا بنقل وجهة نظر هؤلاء من خلال إحدى صحفهم التي كتبت تقول: «أما المسائل السياسية فقد صرحنا وما زلنا نصرح بأن مشروع الزوايا لم يؤسس لأجل الاشتغال بها لأننا ما زلنا نعتبر السياسة والدين متناقضان على الرغم مما يقوله المشاغبون بأن

(١) أحمد حماني، «صراع بين السنة والبدعة» (١/ ٩٩).

الدين لا ينافي السياسة»[1] .

بل إن الأمر ظهر جليًّا قبيل إعلان الحرب العالمية الثانية حين طالبت فرنسا الجهات الجزائرية المختلفة تقديم فروض الولاء والطاعة ضمانًا للجبهة الداخلية فكان شيوخ الطرق أول من أدى هذا الواجب ـ في نظرهم، ففي رسالة موجهة من شيخ الطريقة القادرية بالوادي يوجهها إلى الشعب الجزائر يطالبه فيها الانضمام للجيش الفرنسي أو بتقديم العون المادي للمجهود الحربي، ويقول فيها ما نصه: «وها أنا فرد منكم أقدِّم نفسي بإخلاص لدفع إعانة مالية عوضًا عن عجز صحتي البدنية قدرها عشرة آلاف فرنك»[2] .

◻ وبفضل من اللَّه ثم بجهود مخلصة من الشيخ عبدالحميد بن باديس تضاءل وجود الطرق الصوفية حتى كادت تنقرض لولا أنها فتنة تطل برأسها بين الحين والآخر وتجد من أعداء الإسلام من يؤيّدها لحاجة في نفسه.

*** ابن باديس الرئيس الشرفي لبعض فرق الكشافة الجزائرية:**

وُجدت بالجزائر فرق كشفية كاثوليكية ويهودية شارك بعضها في عروض الاحتفال المئوي ـ مرور مائة سنة على الاحتلال ـ وكان بعض الجزائريين أعضاءً في هذه الفرق. لذا فكر بعض الشباب الجزائر في تكوين فرق كشفية خاصة بهم. فكان ابن باديس من المؤيدين لهذا العمل حتى اختارته بعض هذه الفرق أو الأفواج رئيسًا شرفيًّا لها. وكان من اهتمام ابن باديس بالكشافة أن خلّد ذكر فَوْجَيْ «الرجاء» و«الصباح» في قصيدته المشهورة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

---

(١) «الرشاد»: العدد ٥ في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ = ٢٢ يوليه ١٩٣٨م.

(٢) من الوثائق الفرنسية الموجودة في الأرشيف الفرنسي الوطني لما وراء البحار العلبة رقم 16h72.

من قال حاد عن أصله أو رام إدماجًا له فقد كذب
يا نشء أنت (رجاؤنا) وبك (الصباح) قد اقترب

ولعل ابن باديس يرمي إلى أبعد من مجرد ذكر الفوجين وذلك التطلع إلى معركة التحرير(١).

❑ وأشرف نائبه محمد البشير الإبراهيمي على جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، وكان معظمهم من طلبة الجامع الأخضر الذي كان يشرف على التدريس فيه الشيخ ابن باديس، وكان ابن باديس يجتمع بهم عند زيارته لتونس.

❑ سعى ابن باديس إلى تأسيس جمعية تجار قسنطينة عام ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م برئاسة بلقاسم بوشجة، وتأسست على منوالها «جمعية أمال» التي ضمت تجارًا من جميع أنحاء الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية وكان لها نفوذ كبير في الاقتصاد الجزائري حتى إن السلطات الاستعمارية كانت تراقب أعمالها وتحسب لها ألف حساب، حيث أصبحت الجمعية تستورد من الخارج ونظمت أعمالها برأس مال وطني وكانوا يستفيدون من ذلك أفرادًا ويستغلون التجار الفرنسيين لصالحهم، وقد ظهر أثر ذلك على المشروعات الخيرية من بناء المدارس، والمساجد، والنوادي، ومساعدة الفقراء(٢).

* ابن باديس العليم بأحوال عصره وواقع أمته:

أقامت فرنسا حول الجزائر سورًا كالستار الحديدي وكان لابن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فيذهب إلى أرض

---

(١) «عبدالحميد بن باديس» (ص١١٦).
(٢) «عبدالحميد بن باديس» (ص١٢١).

الحجاز ويلتقي بعلماء الدعوة السلفية، ثم يسافر إلى مصر، وكان للشيخ مراسلات دائمة مع مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني.

وكانت فظائع الاستعمار الإيطالي في ليبيا دافعًا لابن باديس أن يظهر مشاركة الشعب الجزائري لإخوانه المسلمين فيما تعرضوا له من محن. فكتب ابن باديس يقول: «فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلبّي هذا النداء الصادر من القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ارتكبته إيطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابلس العربية المسلمة فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم. وتنذرها بأن الضمير الإسلامي والعربي قد استيقظ من نومه..»(١).

وكثيرة هي الأدلة على الاتصال بين شيخ الجزائر ابن باديس والعالم الإسلامي، فمنذ أول أعداد «المنتقد» نجده ينقل أخبار المسلمين في روسيا حيث يقول الخبر: «هدم الشيوعيون معهدًا إسلاميًّا في مدينة طاشقند اسمه «مدرسة كابيلربي» وأخذوا ينشئون في مكانه تمثالاً للزعيم لينين). ثم يستنتج الخبر أن هذا العمل وأمثاله يؤكد (عداء البولشفيك للإسلام والمسلمين كما هم أعداء جميع المتدينين)(٢).

◘ وبعد سنوات تنشر الشهاب مقالاً مقتبسًا من مجلة «الفتح» يوضح دور اليهود في الثورة البلشفية وإنهم المسيطرون عليها، والدليل على ذلك ما يتمتع به اليهود من حقوق وامتيازات وهذا ما قاله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة عام ١٣٤٤هـ: «إنهم (البولشفيك) لا يفرّقون بين أهل دين ودين بل يضطهدون أهل الأديان جميعًا إلا أن اليهود سالمون من هذا الاضطهاد ومتمتعون بحقوق لا تتسنى لأحدٍ سواهم، بل الحكومة كلها في

(١) «البصائر»: العدد ١٥٢ في ٢٠ ذي الحجة ١٣٥٧هـ = ١١ فبراير ١٩٣٨م.
(٢) «المنتقد»: العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ = ٢ يولية ١٩٢٥م.

أيديهم». وفسر ذلك بأنه النفاق والدهاء فاليهود بلشفية في الظاهر، وهم في الباطن لا يفرطون في مثقال ذرة من يهوديتهم، وبهذا المكر الكبّار نجحوا دون سائر أهل الأديان»[١].

ولعل قضية فلسطين من أبرز القضايا التي نالت اهتمام الشيخ عبدالحميد بن باديس، فهو لم يعشْ حتى تتأسس دولة اليهود على أرض المسجد الأقصى، ولكن الأحداث التي كانت تقع هناك لفتت الأنظار إلى المخطط اليهودي الماكر. فما كان من ابن باديس إلا أن يرسل الاحتجاج على الأحداث الدامية التي وقعت في فلسطين منذ أوائل الثلاثينات، وكان احتجاجه موجَّهًا إلى وزارة الخارجية الفرنسية. وما كان الاحتجاج هو الوسيلة الوحيدة بل كان الشعب الجزائري على فقره وحاجته يجود بما يستطيع لمساعدة إخوانه في فلسطين[٢].

❑ لولا ابن باديس لنسي المشرق المغرب العربي، ولفت الشيخ ابن باديس إخوانه في المشرق إلى معادن العلم والفضيلة ومنابت العز والرجولة ومعقل العروبة والإسلام في جمعية العلماء الجزائريين.

*** ابن باديس في نظر معاصريه ومَنْ أتى من بعده من الأجيال المسلمة:**

❑ أصدر الدكتور محمود قاسم كتابه «الإمام عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» في عام ١٩٦٧م. وقال فيه: إن الأساس الذي بنى عليه ابن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح

---

(١) «الشهاب»: (ج١٠ م٧ ص٦٢٢) وما بعدها، جمادى الثانية ١٣٥٠هـ = أكتوبر ١٩٣١م نقلاً عن مجلة الفتح، مقابلة أجراها محمد تقي الدين الهلالي مع موسى جار اللَّه مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة ١٣٤٤هـ.

(٢) الصراط: العدد ١١ في ٩ شعبان ١٣٥٢هـ = ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣م.

المفاهيم الروحية[١] .

❑ ويقول عن ابن باديس: «وقد استطاع بصادق فطرته وإخلاصه أن يهتدي إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين، وقد نجحت في أن تجر إليها نفرًا من السياسيين المحترفين».

«ولقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان. فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى»[٢].

❑ ويري الدكتور محمود قاسم أن ابن باديس لم يكن ممن يفكر في إنشاء مذهب أو فكر فلسفي إنما كان رجل عمل وحركة. ولكن العمل والحركة تستند إلى أسس فكرية، فتحدث محمود قاسم عن نظرة ابن باديس إلى أهمية القرآن في بعث الجزائريين والأمة الإسلامية جمعاء، ثم يعرج على نظرته للأخلاق. ويوضح موقف ابن باديس من إصلاح النفس والمجتمع ثم تحدث عن ربط ابن باديس العلم بالدين وأن الأمة متى فقدت سبيلها إلى العلم ضلّت وتأخرت وأصبحت في ذيل الأمم. ثم تناول موقفه من التصوف والطرق الصوفية وما أدخلته على الدين الإسلامي من بدع وخرافات وتواكل وتنازل عن القيم الإنسانية الرفيعة التي دعا إليها الإسلام»[٣] .

---

(١) «الإمام عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» لمحمود قاسم (ص١٤).

(٢) المصدر السابق (ص١٥).

(٣) انظر المصدر السابق (ص٨٣ ـ ٩٣).

◻ ويقول مالك بن نبي - رحمه اللَّه - في كتابه «شروط النهضة»: «ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس) فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري يتحرك ويا لها من يقظة مباركة». ويقول في الكتاب نفسه مقارنًا بين عمل العلماء ورجال السياسة المحترفين: «إن العلماء كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين، حين دعوا إلى الإصلاح بمعنى دفع النفس إلى حظيرة الإيمان من جديد»[1].

◻ وللَّه در الأستاذ أنور الجندي وهو الذي سبر أغوار ابن باديس يقول عنه في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا»:

«فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح ويسيطر على الجموع، وهو الكاتب الدقيق العبارة، النقي الأسلوب، الواضح الفكرة، وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة».

«وهو الذي ينشئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهيرة، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء. وإذا خرج من المعهد ذهب رأسًا إلى إدارة جريدته «الشهاب» يكتب ويحرر ويراسل «البصائر» ويجيب على الرسائل فيقضي موهنًا من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول».

«لم تصرفه الصحافة عن التدريس وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم أو كشوف العلم والفكر إلا استوعبها، وأبدى رأيه فيها. وما من صحيفة في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات سياسة الغرب في الشرق،

---

(١) «شروط النهضة» لمالك بن نبي (ص٧٩).

وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ومن زاوية أمر العرب والمسلمين، ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة، ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أم باللغة العربية أو بتفوق العنصر الأوروبي على العنصر العربي الإسلامي»[١] .

❏ ويقول الأستاذ مسعود الندوي في مقال كتبه بالانجليزية سنة ١٣٧١هـ = ١٩٥١م بعنوان «الحركات الإسلامية المعاصرة»[٢] جاء فيه:

«عبدالحميد بن باديس، دارس متعمق للقرآن والسنة، وباحث وكاتب بالعربية، له موهبة الرأي المتزن، وذو نزعة سلفية في الفقه والدين، وهو من نفس المستوى والنوع الذي يدرج فيهما محمد عبده[٣] ورشيد رضا، وعالما الشام عبدالرزاق البيطار، وجمال الدين القاسمي.

وقد شق طريقه على نهج قويم، وأصدر مجلة الشهاب، وصحفًا أسبوعية أخرى (الصراط ـ الشريعة ـ السنة) وقد درست ـ أي مسعود الندوي ـ بعضًا من هذه الصحف، وأقرر بلا تردد، أنه بالنسبة لهذا اللون من الصحافة، يمكن أن نضع صحف الجزائر الإسلامية الصادرة في ذلك الوقت في مصاف أرقى مجلاتنا، وإلى جانب الكتابة عمل ابن باديس على افتتاح شبكة من المدارس الابتدائية، وكان هو بنفسه يقوم بالتدريس في قسنطينة، وقد حمل إخوانه وتلاميذ دعوته إلى كل زاوية وركن من البلاد، وإن كان المتصوفة والعلماء المفسدون، لم يألوا جهدًا في وضع العراقيل وتعويق تقدمه، وتأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) لتسير على هذا النهج، ومن يوم مولدها والحكومة الاستعمارية الفرنسية، لا تطيق وجودها وكذلك

---

(١) «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا» لأنور الجندي (ص٤٦).

(٢) المقال منشور بمجلة «صوت الإسلام» التي كانت تصدرها «جمعية الفلاح» بكراتشي.

(٣) لا واللّه فهو يخالفه في معتقده ومنهجه.

جهلة المتصوفة، واستمرت دسائس الخصوم حتى وفاة ذلك المجاهد العظيم، في ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م، ولكن غياب جسده عن مسرح الأحداث في الجزائر لم يكن يعني توقف الحركة التي بدأها فقد سارت في طريقها. (انتهى).

ومما يذكر أن ابن باديس وجماعته، قد تعرضوا لسلسلة من مكائد أصحاب الطرق وحماتهم من المحتلين، ومثال ذلك تلفيق التهم، وإلصاق كل فتنة بدعاة الإصلاح، بل ومحاولات الاغتيال، مثل التي حدثت للشيخ ابن باديس نفسه وهو عائد من درس التفسير ليلاً، إذ هم الجناة باغتياله. لكنه شعر به فاستغاث، وتجمع الناس حوله وتمكن من إلقاء القبض عليه قبل إتمام الجريمة، فسجل الشعراء ذلك الموقف المشرف له.

حمتك يد المولى وكنت بها أولى

فيا لك من شيخ حمته يد المولى

☐ وقد أدركت فرنسا خطورة ابن باديس، والجمعية التي أسسها، والخط الفكري الذي ينشره في مجلته الشهاب حيث ينادي بمقاومة التغريب والتجزئة والتجنيس ومطاردة الاحتلال، ورأت أن ذلك سيعجل في يقظة الأمة الجزائرية إن لم تكن قد استيقظت بعد، لذلك ظلت تنظر إلى ابن باديس في قلق بالغ، وكانت تستدعيه لتحقق معه بين آن وآخر، كما تحول بينه وبين التنقل بين القرى والمدن، ولكنه كان لا يلبث أن يردد كلمته الخالدة: «إن لنا فكرة معروفة، ولن نحيد عنها».

ومما يؤكد صلابة ابن باديس ورسوخ دعوته قوله: «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولكنها لا تستطيع أن تقهرنا»، ومن مواقف ابن باديس الشجاعة، أن دعا لمقاطعة الاحتفال الفرنسي بمرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر. وأصدر بيانًا أعلن فيه صراحة وبكل جرأة، أن هذا العمل خيانة للبلاد، وحينئذ عجزت فرنسا من أن تجد من يعاونها في هذا العمل فانصرفت عنه.

□ عاش ابن باديس حياته للدعوة، ولم ينجب أولادًا، ولم يشغل نفسه بشئون الأسرة فقد كانت دعوته تملك عليه كل وقته وقلبه، وقد عبر عن ذلك بقوله: «إنني لن أنجب أولادًا، ومع ذلك فأنا أب؛ لأن الجزائريين أبنائي»!!!.

ولعل أصدق صورة لدعوته التي تحرك بها من خلال جمعية العلماء، ما أفصح عنه بقوله: «إننا نريد نهضة شعبية قوية، تُجلي شخصية الشعب الجزائري وتكشف له عن مجد الماضي بما ينير له طريق الحياة من جديد...

نريد انقلابًا جزائريًّا يرتكز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه عبقرية الجدود، فتنهض نهضة إسلامية، عربية، تأخذ من عظمة الماضي، ويقظة الحاضر، ما يعصمها من الزلل والانحراف وهي تسير في طريق المستقبل الباسم».

وكذلك قوله: «لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر»!!

* في نظر المؤرخين:

□ يقول الدكتور أبو القاسم سعد اللَّه ابن المعهد الباديسي بقسنطينة، ودار العلوم بالقاهرة، ورائد مؤرخي الحركة الوطنية الجزائرية، ورئيس مجلس البحث العلمي بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر حاليًا. وليست تربية الدكتور سعد اللَّه الباديسية مما يجعله يتحيّز لجمعية العلماء أو لابن باديس، بل هو يأتي أحيانًا بالآراء الفريدة ما يُعَدّ غريبًا أن يصدر من مثله لولا حرصه على توخّي الحيدة والعدل والإنصاف في أحكامه. فماذا يقول د. سعد اللَّه عن ابن باديس؟

□ يقول د. سعد اللَّه: «إن العشرينات من هذا القرن هي الفترة التي ظهرت ونمت فيها الصحافة الإصلاحية، والنوادي، والمدارس الحرة. وكان

ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه»[(١)] .

◻ وحين يتحدث عن جمعية العلماء يقول: «وإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات فالكلام في الواقع عن ابن باديس. ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً إنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس»[(٢)] .

◻ وقال الدكتور أبو القاسم سعد اللّه في تقديمه لكتاب مازن بن صلاح «جمعية العلماء المسلمن الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية»:

«وحسبنا هنا أن ننبه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها. خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين ووفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والكتب..»، ولئن كان حديثًا عن الجمعية فإن ابن باديس كان هو العصب المحرك وينطبق الحديث عليه تمامًا.

◻ وفي بحث له في مجلة كلية العلوم الاجتماعية تحت عنوان «دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبدالحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في المشرق العربي»[(٣)] يقول الدكتور محمد فتحي عثمان:

«أما ابن باديس فكان بحق رجل (الجماهير) الصابر عليها، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها. وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة إلى

(١) «الحركة الوطنية الجزائرية» لأبي القاسم سعد اللّه (٣/ ٨٢).
(٢) المرجع السابق (٣/ ٨٣، ٨٦).
(٣) مجلة كلية العلوم الاجتماعية: العدد الرابع ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) (ص٤٣٢ ـ ٥٠١).

جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديهته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه».

❑ ويقول الدكتور محمد فتحي عثمان عن ابن باديس في كتابه المسمى باسمه: «وقد استعان ابن باديس ـ في حكمة وتوفيق ـ بأدوات عصره لتحقيق أهدافه الجليلة، من (الصحافة) إلى (الجماعة) إلى (المدرسة) مستندًا إلى الذخيرة التي لا تنفد ولا تنقطع ثمارها وآثارها (القرآن الكريم) من جهة و(المسجد) من جهة أخرى.

ولقد كانت خطة ابن باديس في إصلاحه الثقافي التعليمي الاجتماعي بحق:

«عملاً وطنيًّا سياسيًّا» عميق الجذور، واسع النطاق، طويل المدى.

❑ ويمضي قائلاً:

«وعى ابن باديس آراء دعاة الإصلاح الذين سبقوه، ولا سيما جمال الدين الأفغاني[1] ومحمد عبده، وأيقن أن طبيعة الواقع الجزائري وتسلط الاستعمار الفرنسي القاهر، سوف يجعله في نهجه أقرب إلى ما آثره محمد عبده من الفكر والإرشاد والتربية والتعليم. لكن ابن باديس كان (حركيًّا شعبيًّا) في دعوته الإصلاحية، يؤثر العمل بين الجماهير الأمية الساذجة، ويحدثهم بما يفهمون في المساجد والمجامع، وبينما يخاطب المتعلمين بقلمه في صحافته، وينشئ المدارس متطلعًا إلى جيل قادم ومؤمن مستنير في المستقبل، نراه لا يغفل الحاضر القائم، ويحرض على عدم الانجراف في تيارات السياسة العاتية في صراع غير متكافئ، أو في وقت غير موات، لكنه لا يتقوقع ولا ينكل إذا كان لا بد من مواجهة الأعاصير الهوج، وكان ذلك ضروريًّا وممكنًا، وكان يرى في جهوده البناءة في تدعيم الشخصية الجزائرية

(١) لا والله، فإن ما بين الأفغاني ومحمد عبده في العقيدة أبعد مما بين المشرق والمغرب.

العربية، خير ظهير للمطالبة بحقوقه السياسية، ويرى في العمل لنيل هذه الحقوق السياسية المهضومة وتأييد الساسة العاملين لذلك خير تأكيد للمقومات الإسلامية العربية لهذا الشعب.

هذا ويمكن لنا أن نلحظ حرص ابن باديس على بلورة مفهوم (الشخصية الجزائرية) المتميزة على أساس أصولها الإسلامية العربية، في ذلك الشعار الذي جعله لصحيفة (المنتقد) التي أشرنا إليها سابقًا، إذ هو «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»، وكان يردد دائمًا: «نحن الجزائر، وما الجزائر إلا الجزائريون»، و«العروبة والعربية» عنده ملتحمتان مع الإسلام لا تنفكان عنه، وحاجز متين يحول دون التذويب الثقافي الذي تستخدمه فرنسا ليظاهر الإدماج السياسي.

وكان إصرار ابن باديس كبيرًا في نشر التعليم الإسلامي واللغة العربية كسبيل أكيد ووحيد للحفاظ على الشخصية الجزائرية، وقد أدركت ذلك فرنسا فأصدرت (قانونًا في مارس ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، يقضي بإلزام كل مُعلم باستصدار ترخيص بذلك وإلا تعرض للغرامة والسجن).

وقد ندد بهم ابن باديس، وكشف خطتهم الشيطانية في عزل الجزائر عن هويتها الإسلامية وعروبتها، فكتب مقالاً بعد شهر من صدور هذا القانون الظالم، نشر في مجلة البصائر سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م جاء فيه: «.. أعداء الأمة الجزائرية يُجمعون أمرهم، ويدبرون كيدهم، فيستصدرون من الحكومة قرارًا وزاريًا بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها، وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها.. علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأن لا تعلم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية، ومكاتب التعليم

الديني العربي، والضَّنّ بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل القليل، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرآنها ودينها ولغة دينها واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم ـ لما رأوا هذ كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب..

فهمت الأمة هذا الكيد والشر، المدبر لدينها وقرآنها ولغة قرآنها ودينها، والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها، والمعاهدة للَّه وللأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها وسنمضي بعون اللَّه في طريق تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا.. وإننا على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء لنا، وإن النصر سيكون حليفنا؛ لأننا قد عرفنا إيمانًا وشاهدنا عيانًا أن الإسلام والعربية قد قضى اللَّه بخلودهما ولو اجتمع كلهم على محاربتنا»[1].

◻ ويقول المؤرخ الكندي «أندريه ديرلك» في رسالة الدكتوراه بعنوان «عبدالحميد باديس مفكر الإصلاح وقائد الحركة الوطنية الجزائرية» وهي من أولى الرسائل الجامعية في الغرب تتناول حياة ابن باديس بهذا الوضوح والقوة. فقد أُنجزت عام ١٩٧١م أي بعد استعادة الاستقلال بسنوات قلائل، ولما تكن الوثائق الفرنسية قد كُشف النقاب عنها. ولكن معرفة الباحث للغة العربية واللغة الفرنسية وزيارته لكل من الجزائر وتونس لمقابلة بعض العلماء مكّنته من التوصل إلى تصور دقيق لنشاط ابن باديس.

لقد درس المؤلف نشاط ابن باديس بوصفه داعية وربطه بكبار الدعاة في التاريخ الإسلامي منذ ابن تيمية إلى العصر الحاضر. ووقف على فكر ابن باديس في بعض المسائل التي حاول بعض المؤرخين المسلمين طمسها وتشويهها

---

(١) «نماذج حركات الجهاد: السنوسية ـ الباديسية ـ القسامية» (ص٧٩ ـ ٧١).

مثل مسائل الاقتصاد والعمل. وفيما يلي بعضًا من أقوال هذا المؤرخ:

«لقد أخذ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكّر الذي ينظِّر لمجتمعه نظامًا فكريًّا بل ليكون الحركيّ الذي تحرك طاقاته الواسعة جماهير شعبه من حالة الكسل التقليدية التي كانوا عليها»(١).

◻ ويتحدث عن نتائج أعمال ابن باديس فيقول: «لقد كانت نتائج جهود ابن باديس أن احتفظت الجزائر بشخصيتها الإسلامية العربية في حين كانت أهداف فرنسا الصريحة بأن تحطم هذه الشخصية ولكن الجزائريون استطاعوا تجنب ذلك وتفاديه»(٢).

ويأتي حديث ديرلك حول اتساع نطاق عمل ابن باديس ليشمل جميع مجالات الحياة والفكر ليرد على أولئك الذين يريدون قصر مجال العلماء المسلمين على العبادات!! فيقول ديرلك: «إن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشئون السياسية ولمس تفكيره الأمور الاجتماعية والثقافية. لقد عبر عن آرائه حول مسألة الحضارة للجزائريين وللبشرية أجمع. لقد أظهر اهتمامه لمبادئ الأخلاق في المجتمعات. وإن الذي دفعه لإبداء آرائه حول هذه الموضوعات المختلفة هي نظرته للعالم. إن فكر ابن باديس متساوق مع الوضع الذي تبناه لأهمية الإسلام للإنسانية. إنه مما يهم الطالب الجزائري أن يعرف المشاركة التي لا شك في أن ابن باديس قدمها لتغيير المجتمع الجزائري»(٣).

◻ وقالت عنه المجلات العلمية الفرنسية أنه وجه أقسى الضربات للفكر الفرنسي، وللمؤسسات الفرنسية الثابتة.

---

(١) مجلة كلية العلوم الاجتماعية: العدد الرابع ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) (ص١٦٢).
(٢) (ص٢٠).
(٣) (ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).

وقد حرصت الإدارة الاستعمارية في الجزائر على مراقبة جمعية العلماء ولا سيما رئيسها الشيخ عبدالحميد. فقدكان يحضر الاجتماعات العمومية مندوب عن السلطات الفرنسية، أو لعل أحد الحضور ممن كان ينتسب ظاهراً إلى العلماء كان ينقل تفاصيل اجتماعات الجمعية. فبالإضافة إلى التقارير السنوية التي كانت تعدها مراكز الإعلام والدراسات في الولايات الجزائرية الثلاث كانت هناك تقارير مستمرة عن تحركات ابن باديس ننقل هنا بعض فقراتها الخاصة بابن باديس:

أولاً: التقرير السنوي عن الأهالي عام ١٩٣٦م.

خطا العلماء خلال سنة ١٩٣٦م خطوات كبيرة على الساحة السياسية وفقًا لمبادئهم الداعية إلى التعريب والإسلام، والتحدث الدائم عن الشعب الجزائري المسلم، وعن الأمة العربية وعن «الوطن الجزائري المسلم». فقد سبق لابن باديس أن أوضح هذه النقاط في مجلة «الشهاب» حينما أكد أن هذه الأمة الجزائرية التي لها تاريخها ووحدتها وثقافتها وعاداتها، وبالتالي فهي ليست فرنسا ولن تكون فرنسية.

ثانياً: **الاجتماع العمومي لجمعية العلماء في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٦م.**

قارن ابن باديس بين عمل الجمعية وعمل الطبيب الذي وُكّل إليه معالجة رجل مريض جدًّا ليأخذ بيده إلى الصحة. والجمعية سوف تقوم بمثل هذا العمل لصالح الشعب الجزائري المسلم موضحًا مدى حاجة المسلمين إلى الاتحاد، وأن الإسلام يأمر أتباعه بأن يهتمّوا بالبشرية جمعاء دون النظر إلى دين أو جنس.

ثالثًا: التقرير السنوي عن الأهالي الجزائريين عام ١٩٣٧م «حسب رؤية ولاية الجزائر».

تحدث هذا التقرير عن أعمال ابن باديس وأقواله خلال هذا العام مشيراً

إلى أن ابن باديس قد كثف جهوده هذا العام نحو العروبة والإسلام، وأن من أقواله تصوير الجمعية بمدينة ذات أسوار شامخة أُسست على قواعد الإسلام وروح العروبة. كذلك نوّه التقرير بحديث أجراه مندوب مجلة «الرابطة العربية» قال فيه ابن باديس: «تحية لكم يا أبناء العقيدة الإسلامية. إن نهضتنا ترتكز على السلام ولكننا سنحارب من يحاربنا، وسوف نتصدى للخونة».

كما أشار التقرير إلى الفتوى التي أصدرها ابن باديس حول التجنس متعرضًا فيها إلى قضايا مختلفة تتعلق بهذا الأمر. وهنا يقول التقرير: «هذا التصرف من الشيخ ابن باديس لم يكن ليفاجئ أحدًا وبخاصة إذا علمنا خلفيته الشرقية وعلاقته مع العالم العربي. يؤيد ذلك سفره إلى تونس مرتين خلال العام الماضي: الأولى في شهر مايو، والثانية في شهر يوليه، وجاء تصريحه حول التجنس بالتوافق مع الشيخ الثعالبي. كما أشاد في زيارته الأخيرة بوحدة الشمال الأفريقي».

رابعًا: مقال لجريدة لادبياش كونستنتين.

تعرض الشيخ عبدالحميد بن باديس لمحاولة اغتيال غادرة على يد أحد أتباع الطريقة العليوية، فكتبت الجريدة المنوّه عنها أعلاه تقول: «السيد ابن باديس رجل متنوّر، متضلّع في العلوم الإسلامية، مسلم عامل بنص القرآن، تتبع أطوار تلك الدعوة (العليوية) وقابل بالغضب والنكير أعمال ابن عليوة المنافية للأخلاق، وأقدم على إظهار مساوئه لإخوانه في الدين»[1].

*** رجاء جارودي وابن باديس:**

وما دمنا في حديث الفرنسيين عن ابن باديس فالمفكر الفرنسي الذي

---

(١) «الشهاب» ـ العدد ١١٠ في ١٩ صفر ١٣٤٦هـ (١٨ أغسطس ١٩٢٧م).

أسلم حديثًا رجاء جارودي كتب مقالاً بعنوان «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم»، جاء فيه: «وقد تحدد موقفهما (ابن باديس والإبراهيمي) برفضهما للأفكار التي دعا إليها في تركيا ضياء جوكلاب وطبّقها من بعده ببضع سنوات كمال أتاتورك الذي اختلط عليه الأمران العصرنة والغربنة. وبذلك أفقد الإسلام جانبه الروحي بتقليد الغرب تقليدًا أعمى». ويقول في مكان آخر من مقاله: «إن ابن باديس والإبراهيمي ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية «المرابطية» فتلك العقلية بما فيها من خرافات وشعاعات تتنافى مع روح الإسلام»(١).

* **قول زملائه وإخوانه وتلاميذه عنه:**

قال عنه زميله ورفيق دربه وألصق الناس به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي تولى رئاسة الجمعية بعد وفاته: «وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، ودينًا لابسته المحدثات والبدع، ولسانًا أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخًا غطّى عليه النسيان، ومجدًا أضاعه ورثة السوء وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية. . وأن آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون، وأن بناءه في الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار»(٢).

---

(١) مقال «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم» لرجاء جارودي ـ الثقافة م ١٣ عدد ٧٦ ـ رمضان/ شوال ١٤٠٣هـ (يوليه/ أغسطس ١٩٨٣م).

(٢) «عيون البصائر» لمحمد البشير الإبراهيمي (ص٦٣٢ ـ ٦٣٣).

◻ ويقول عنه صاحبه الشيخ محمد خير الدين الذي عمل معه قبل تأسيس الجمعية وظل يعمل معه حتى وفاته:

«كانت حياة ابن باديس كلها جهاد. لم يعش لنفسه أبدًا ولم يعش لأحد بل عاش للَّه. كذلك لم يترك وقتًا قصيرًا ليقضيه في مسائل دنيوية أو مظاهر أو وظيفة أو طمع، إنما صرف وقته للعلم والتكوين. فالجزائر مدينة للشيخ عبدالحميد بن باديس في ميدان التربية والتعليم حيث لم يكن هناك تربية أو تعليم إلا به. والوطنية قبل أن يسمع بها الناس لم يسمعوا بها إلا منه»[(١)].

◻ ويقول عنه زميله الشيخ حمزة بوكوشه (شنوف):

«كان ابن باديس رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته وليس عنده كِبْر، ولا يشعر بأي غضاضة أن يسأله أحد تلامذته عن مسألة، ويرجع إلى الحق».

وقال: «إن التضحية التي ضحّاها ابن باديس مهمة جدًّا فقد كوّن جيلاً من الأجيال»[(٢)].

◻ ويقول عنه تلميذه محمد الصالح رمضان «كنا نتمثّل في الشيخ عبدالحميد أحد الحواريين أو أحد الصحابة، فما رأينا رجلاً يتمثل فيه الإسلام ويتجسد كاملاً نقيًا بأجلّ معانيه مثلما رأينا هذا في الشيخ ابن باديس. يكاد يجمع الناس كلهم الأعداء وغير الأعداء مسلمين وغير مسلمين ـ والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شرًّا عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم ـ كلهم يجمعون على صدقه وتقواه. وحتى الفرنسيون يؤمنون بهذا

---

(١) انظر «عبدالحميد بن باديس» (ص١٧٠) لمازن صلاح ومقابلة شخصية مع محمد خير الدين في الجزائر في ١٩ صفر ١٤٠٤هـ (٢٣ نوفمبر ١٩٨٣م).

(٢) «عبدالحميد بن باديس» لمازن صلاح (ص١٧١).

ويرون أنه أقوى شخصية في الجزائر»[١] .

☐ وفي سؤال وجهه مازن صلاح للشيخ عبدالرحمن شيبان وزير الشئون الدينية الجزائرية السابق وتلميذ ابن باديس:

ثبت عن الشيخ عبدالحميد ـ رحمه اللَّه ـ أنه كان ينوي إعلان الثورة فيما لو أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، وتوفاه اللَّه تعالى قبل ذلك. فلماذا لم ينفذ ذلك العلماء فيما بعد ويتولوا قيادة المعركة بدل تركها في يد من تُركت في أيديهم؟ فأجاب: «ليس كل الناس ابن باديس فالعلماء لم يقوموا بالثورة لأن ذلك ليس من طبيعة الأشياء فهم مربون ومعلمون لإعداد الناس أما ابن باديس فهو زعيم وقائد وجندي ومربي»[٢] .

☐ ومن معاصري الشيخ عبدالحميد بن باديس الذين لم يكونوا يرون في الشيخ عبدالحميد إلا عدواً لاختلاف في الفكر والتوجه، من هؤلاء عمار أوزغان من أوائل الجزائريين انتسابًا للحزب الشيوعي بل كان من الذين تسلموا قيادة هذا الحزب في الجزائر، ولكن اللَّه منَّ عليه بالهداية فترك الحزب الشيوعي وكان من إنتاجه كتاب «الجهاد الأفضل» الذي قال فيه عن ابن باديس: «كان الشيخ عبدالحميد بن باديس ـ أدام اللَّه ذكره ـ أول رئيس لجمعية العلماء. كان خطيبًا ساحراً ومتواضعًا كأحد أبناء الشعب، كان مصلحنا الديني ثوريًّا خالصًا وحكيمًا، لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطي. كان أب المؤتمر الإسلامي حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفاراً عامًا للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية»[٣] .

---

(١) المصدر السابق (ص١٧٤).
(٢) المصدر السابق (ص١٧٤ ـ ١٧٥).
(٣) «الجهاد الأفضل» لعمار أوزغان (ص٢٧).

◻ ونختم ما قيل في ابن باديس بفقرة من مقال كتبه الدكتور صالح الخرفي بعنوان: «الجزائر والأصالة الثورية» جاء فيه: «وابن باديس هذا الرجل الذي فجّر أعنف معركة فكرية في أدق مرحلة استعمارية. وإذا كانت معجزة عبدالقادر معجزة صلابة في معركة سافرة فإن معجزة المصلح تبدو هي الأخرى مدعاة للإكبار وهي تبشر بالشخصية الجزائرية تحت سمع العدوّ وبصره في معركة مقنّعة الجبهات، متعددة الوجوه، ملتوية السبل. سلاحها نفاذ في البصيرة، وعبقرية في المناورة، ومجابهة البطش المتعامي بالإيمان المتبصّر، وإدراك حساس للخطوط الدقيقة التي تفصل بين الغايات والوسائل»(١).

*** من درره وأقواله:**

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ في خطابه التاريخي في جمعية العلماء ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) مبينًا الأبعاد الحقيقية لدعوته إذ يقول:

«**حوربت فيكم العروبة**: حتى ظُن أنه قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، ويهدر خطباؤكم بشقاشيقها، فتدك الحصون، والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب المفاصل.

وحورب فيكم الإسلام: حتى ظُن أنه قد طمست أمامكم معالمه، وانتزعت عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ، وكما يرضى اللَّه، لا كما حرَّفه الجاهلون وشوهه الدجالون، ورضيه أعداؤه.

وحورب فيكم العلم: حتى ظُن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم، إلا بما يخرج لكم بما هو أضر من الجهل عليكم،

(١) مقال «الجزائر والأصالة الثورية» ـ الثقافة ـ العدد ٥ السنة الأولى ـ رمضان ١٣٩١هـ (أول نوفمبر ١٩٧١م).

فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخًا، وتشيدون له صرحًا سامقًا.

فأسستم على قواعد الإسلام، والعروبة، والعلم، والفضيلة جمعيتكم. (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

وحوربت فيكم الفضيلة: ورُميتم بالصغار، حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتم العزة والكرامة، فارتضيتم الضيم، ورضيتم الخسف.. فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل، وتهزهزون أسس الظلم، وتهمهمون همهمة الكريم المحنق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون مطالبة من يعرف أن له حقًّا لابد أن يعطاه ويأخذه.

نهضنا بعد أصهرتنا نار الفتنة، وآلمتنا حوادث الزمان، وقارعتنا الخطوب، ودافعتنا الأيام ودافعناها ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: ٤٠].

نعم نهضنا بعد قرن: بعد ما متنا وأقبرنا، وأحيينا وبعثنا، سنة كونية فقهناها من القرآن، ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم**﴾. ﴿**أو كالذي مر على قرية**﴾.

نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها، فكانت سلامًا على البشرية، لا يخشاها والله النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب أن يخشاها الظالم لظلمه، والخائن لخيانته.

والعروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا. وأركان جمعية العلماء التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ

كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة، وتنيرنا بالعلم، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية، وتحفظ علينا جنسيتنا، وقوميتنا، وتربطنا بوطننا الإسلامي الصادق، ولم يزل كذلك بإذن اللَّه.

عرفت الأمم من تاريخها، لا تنهض إلا على صوت علمائها، فهو الذي يحل الأفكار من عقالها، ويزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة..!!!

وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين بفقه القرآن، وعرفوا الدين الأقوم بمعرفة سنة محمد ﷺ، وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الدين العظام...

إن الإسلام عقد اجتماعي عام، فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته، ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام، فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة.

فليس للجمعية إذن من نسبة إلا الإسلام، وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر. لا نوالي الأحزاب، ولكنا ننصر الحق والعدل والخير، ونقاوم الباطل والظلم والشر، محتفظين بشخصيتنا ومبادئنا» (انتهى) نقلاً عن: تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ـ أنور الجندي.

❑ «ولعل من أبرز ما التفت إليه ابن باديس في حركته الإصلاحية الإسلامية التعليمية السياسية الاجتماعية، أنه حرص على وحدة الشعب الجزائري من عرب وبربر. فقد كانت توقيعات مقالاته تحمل اسم (الصنهاجي) فكتب ذات مرة مقالاً بعنوان: «ما جمعته يد اللَّه لا تفرقه يد الشيطان».

ومن أقواله في هذا المجال: «إن أبناء يعرب، وأبناء مازيغ، قد وحد بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنًا، ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة، عنصرًا مسلمًا جزائريًّا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام.

وقد كتب أبناء يعرب، وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم لإعلاء كلمة اللَّه، وما أسالوا من محابرهم لخدمة العلم، فأي قوة في العالم تستطيع أن تفرقهم، لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع؟

يا عجبًا: لم يتفرقوا وهم الأقوياء، فكيف يتفرقون وغيرهم القوي؟ كلا واللَّه، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم، وقوة رابطتهم ـ ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم. الإسلام له حارس واللَّه عليه وكيل»[1].

◘ يقول ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ:

ـ «إن الحياة الخالية من الأخطار لا تساوي شيئًا».

ـ «من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها فقد حاول عبثًا قلب الحقائق، فلن نتزحزح عن الفكرة قيد شعرة، مهما طال سيل الكوارث على أمة لها ما لشعب الجزائر من الصفات المرغوبة فيها، الكامنة كمون النور في الكهرباء».

ـ «أنا أحارب الاستعمار بالعلم، ومتى انتشر التعليم في أرض، أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير»، وكان يردد دائمًا: «اللغة هي القوة».

---

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» (ص٨٢).

ـ «إن هذه الأمة الجزائرية، ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ولا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري».

ـ «إن لنا فكرة معروفة ولن نحيد عنها».

ـ «السعادة هي التضحية، هذه أمة ـ يقصد الجزائريين ـ أخذت تقدم الضحايا في سبيل سعادتها».

ـ «تستطيع الظروف أن تكيفنا، لكنها لا تستطيع أن تقهرنا».

ـ «ما جمعته يد اللَّه لا تفرقه يد الشيطان» «سنن الكون نافذة، لا تتخلف، والويل لمن قعد أو تقاعس».

□ وإن الدارس لشخصية ابن باديس، ليجد فيها مواهب متعددة، وطاقات هائلة وظفها جميعها في سبيل نشر دعوته حتى فجرت طاقات الثورة بعد ذلك، وأكدت الهوية الإسلامية واللغة العربية بين أرجاء محاولات الفرنسة الملحة والضاغطة والذي لم تكشف عنه حتى الآن، رغم اقتباسنا الكثير من أقواله التي تحدد ملامح شخصيته ومنهاج دعوته، ذلكم هو أنه كان يقرض الشعر بسلاسة ويسر، ويوظفه كذلك في سبيل مبادئه. ومن ذلك القصيدة التي نظمها، موضحًا فيها لب دعوته. فيقول:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجًا له ... رام المحال من الطلب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تهب
وأذق نفوس الظالمين ... السم يمزج بالرهب

واخلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس اليائسين فلربما حيا الخشب
من كان يبغي ودنا فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذُلنا فله المهانة والحرب
هذا نظام حياتنا بالنور خُطَّ وباللهب
حتي يعود لشعبنا من مجده ما قد ذهب
هذا لكم عهدي به حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب!![1]

❑ نختم بما قال ـ رحمه اللَّه ـ:

هكذا هكذا هكذا سنعودْ
فاشهدي يا سما واكتُبنْ يا وُجودْ
أننا للعلى أننا للخلود[2]

*** أمير ونابغة البيان مصطفى صادق الرافعي تحت «راية القرآن» يرد على الزنادقة والغربان؛ ويدافع عن هوية الأمة في لغة القرآن:**

❑ للَّه درك يا رافعي:

لك في البيان رئاسة أزلية أبدية، ليست تُباع وتُشترى
أحييت آداب اللسان ولم يزل فيها مؤلفك السراج الأزهرا
ورفعتَ للقرآن أرفع «راية» فلذا غدوت «الرافعي» الأشهرا

---

(١) «الشهاب» (ج٤ م١٣)، الاثنين ١٣ ربيع الأول ١٣٥٦هـ (١١ جوان ١٩٣٧م).
(٢) «البصائر» عدد ٩٢ بتاريخ ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٤ ديسمبر ١٩٣٧م).

□ نظر الرافعي فوجد المغرورين يسيئون للإسلام والعربية، ولهم ذيول تردّد ما يقولون، وهيئات منظمة تفسح الندوات لتأييد هجومهم الظالم، ورءوسٌ من الاستعمار تنزلُهم أحسن المنازل في مناصب الدولة وأمهات الصحف والجرائد، وكلّما ازداد صيتهم عنفوا في مهاجمة اللغة العربية باعتبارها وعاء الإسلام الحافظ، وحصنه الواقي. لم يكن الرافعي مهاجمًا بادئ ذي بدء، ولكنّه التزم الفريضة في دفع المنكر، والأمر بالمعروف، وكانت المسألة بالنسبة إليه فرضُ عين لا فرض كفاية، إذ لا يستطيعُ أن يقوم مقامه أحد، فهو أصدقُ يقينًا، وأشدّ نفاذًا، وأبلغُ حجة. والرجلُ في منعة من ربّه وحده، فقد كان موظفًا متواضعًا بإحدى المحاكم، يرأسه من لم يبلغْ الدرجة الرابعة حينئذ!! ولكنّه كان يعارض أكبر وزير إذا شهد منه انحرافًا في الرأي، ويتصدّى لأصحاب الأمر والنهي بسيفٍ لا يُفَلُّ، ويصدعُ بكلمة اللّه جهيرة رنانة، حين ينكمشُ الوصوليون في جُحُورهم لا يهتمّون بغير أنفسهم، وما يرسمُون لمستقبلهم في الحياة!! أيكون البطل الباسل في حومةِ الدفاع مُهاجمًا!؟ بل يكونُ في رأي خصومه متعصبًا وهو يذودُ عن حُرماتٍ، ويدفع أباطيل، إن الذين يهاجمون شريعة اللّه، وهُمْ مسلمون، وينتقصون اللغة العربية، وهم عرب ويَدعون إلى التبّرج والخلاعة والانهيار وهم شرقيون!! كلُّ هؤلاء غيرُ متعصبين!؟ بل مجدّدون تقدّميّون!؟ أما الذي يُسلم وجهه إلى اللّه وهو محسن مستمسكًا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهو المتعصّب، وهو الرجعّي!؟ وهو أشد أعداء ما يسمّى بالتنوير!؟ وهكذا تنقلب الأوضاع!!.

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول[1] : «إن الرابطة الدينية وقاحةٌ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن

(١) هو سلامة موسي عدو الإسلام صاحب كتاب «اليوم والغد». انظر «اليوم والغد» (ص٢٣٩).

نعتمد على الدين جامعة تربطنا، وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب والوطني يخبروننا نحن المصريين عن الإسلام».

«ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول[1] : «إنّي كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنّه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبّي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأني منها.. أريدُ من التعليم أن يكون تعليمًا أوربيًّا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه، وأن يتولى تعليم اللغة رجالٌ متمدِّنون يفهمون على الأقل نظرية التطور، وأريد أدبًا مصريًّا أبطالُه فتيان مصر وفتياتها لا رجالَ الدولة العباسية، ولا رجال الفتوحات العربية».

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد من يقول: «لقد أدرك مصطفى كمال الذي لم تنجب بعدُ نهضتنا رجلاً مثله ولا نصفه ولا ربعه، ما للقبعة من القيمة بالإعلان في الانسلاخ من آسيا والانضمام إلى أوربا، ولم تمتنع من استعمال السيف في سبيل ذلك، وسنبقى في نظر أنفسنا وفي نظر الأوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق»[2] .

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد من يقول: «إن اللغة العربية لغة بدوية لا تكاد تكفلُ الأداء إذا تعرضت لحالةٍ مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها إلى الآن.. وهي لغةٌ شاقة تكدّ الذهن في حفظ قواعدها التي لا تنتهي كأنه ليس في العالم شيء جديرٌ بالبحث غير قواعدها. وكلّ من اختبرها يعرف أن قاسم أمين ولطفي السيد كانا على حقٍّ حين نصحا باستعمال العامية المصرية المهذبة بدلاً منها»[3] .

(١) «اليوم والغد» (ص٧).
(٢) «اليوم والغد» (ص٢٥٤).
(٣) «اليوم والغد» (ص٢٣٧).

هذا قليل مما قاله سلامه موسى عدو اللَّه ورسوله، ونشره في أمهات الصحف ثم جمعه في كتاب «اليوم والغد» وقد عارضه الأستاذ الرافعي بمقالات رنّانة لم يُجمع أكثرها، فقام الوصوليون عليه يرمونه بالتعصب، وأنه يهاجم الكاتب لمسيحيته، ونحن نسأل: من المتعصب؟ الذي يهاجم دين الأمة، ويرى الارتباط بالجامعة الدينية وقاحة؟ أم الذي قام يرد على هذا الهجوم!! إن الرافعي لم يهاجم هذا الكاتب وحده، ولكنه هاجم مصطفى كمال أتاتورك وطه حسين وأحمد لطفي السيد ومحمود عزمي وكل من هاجم العربية والقرآن والشرق وهم مسلمون!![1] .

*** الرافعي تحت راية القرآن يلقم طه حسين حجراً بل جبلاً:**

«قام الأستاذ الرافعي في مواجهة ما تورّط فيه الدكتور طه حسين مقامًا رائعًا ممتازًا وضع الحق في نصابه، حيثُ كان أول من نقض كتاب الشعر الجاهلي من الباحثين، وأولَ من لفتَ الأنظار إلى خطورة ما سجل من أوهام تتعلق بالقرآن والإسلام، وبسبب مقال الرافعي ثارت ثائرةُ الشعب المسلم، وتحرك الأزهر فأصدر بيانه الملزم، وكَتَب الناقدون في الصحف، وتفرّغ لنقض الكتاب أساتذة متخصّصون من أمثال: الأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد لطفي جمعة، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، والأستاذ عبدالمتعال الصعيدي، وكلّهُم مشكورون، وقد جاءوا بالمنطق الفصل بعد أن قال الرافعي كلمته في مقالات بالصحف اليومية الذائعة، فهو الأصلُ الأصيل لمن جاء بعده، وليس معنى هذا أنّهم ردّوا قوله، ولكن معناه أنه فتح لهم الطريق، ووضع السراج في شِعابه المُتشابهة المختلطة، فاطمأنّوا في

---

(١) «مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن» للدكتور محمد رجب البيومي (ص١٢٧ ـ ١٣٠) ـ دار القلم بدمشق.

سيرهم واثقين.

إن ما يدعُوني إلى تسطير هذا الموضوع باعتباره صفحةً لامعة من صفحات الجهاد الدائب تحت راية القرآن الكريم، أن حفلات تكريمية لذكرى الدكتور طه حسين تكاد تُقامُ سنويًا في مصر، وكلُّها تزعم أنه من حملة مشاعل التنوير بما جاء في كتابه «الأدب الجاهلي» ومن قبله «الشعر الجاهلي». كما يقومُ المتحدثون في هذه الحفلات بهجوم على الرافعي لأنه خاصم الدكتور، وقد حسبوه كاتبًا متخلّفًا، يقفُ أمام ما يسمّونه بالتنوير، يتكرّر هذا اللغطُ الكاذب كلّ عام، وكأنّنا لم نقرأ ما كتبه الدكتور طه حسين مُخطئًا، وما قاله الرافعي مُصحّحًا مصوّبًا، وقد كان الأولى بهؤلاء أن يذكُروا أن ناقدي طه حسين قد أدّوْا فريضة العلم حين ناقشوا الكتاب، أما أن يكونوا في مرآتهم مثالاً للرجعية والجمود، فهذا باطلٌ شائهٌ يقلب النور ظلامًا ويجعلُ السراب ماء. لذلك أُشير في هذا البحث إلى بعض ما قام به الرافعيُّ في هذا المجال، ولن أتسعَ في القول لأن لي كتابًا برأسه تحت عنوان «النقد الأدبي في الشعر الجاهلي» أَصْدَرَتْهُ جامعةُ الإمام محمد بن سعود سنة ١٩٧٢، وهو يعالجُ هذه القضية باسطًا ما قاله الدكتور طه حسين، وما عقّب به مخالفوه، وفي مقدمتهم الأستاذ الرافعي..

لم يأبه الرافعي باعتزازه وإبائه لثناء طه حسين عليه في كتاب «الشعر الجاهلي» بل رأي المسألة مسألة دين قبل أن تكون مسألة أدب، وإذا تحمّس الرافعي لدينه فمن يثنيه؟!

على أن ما آلمني ممّن قالوا في مهرجان الاحتفال بذكرى طه حسين، أنهم جعلوا مسألة النقد الخاص بكتاب الشعر الجاهلي مسألةً عَامّيّةً سطحية لدى نفرٍ من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث الاستشراقي ذي الأصول المنهجيّة الدقيقة، وهذا غمطٌ للحق، فمن تكلّم في نقد كتاب الشعر الجاهلي من

الأزهريين، قد ولّى المقام حقّه؛ مثل الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه المستقل، ومثل الأستاذين عبدالمتعال الصعيدي ومحمد سليمان في مقالاتهما بالمقطم والأخبار (الرافعية).. ولكن الأمر في الردّ لم يقتصر على الأزهريين، إذ ظهرت كتبٌ مستقلة لأعلام من غيرهم أشرتُ إليهم في صدر هذا المقال، كما أن كلية الآداب المصرية قد ناقشتِ الموضوع في رسائل جامعية خالفت منحى الدكتور ومنحت أصحابها أعلى درجات التقدير، ومن بين هؤلاء الدكتور ناصر الدين الأسد في رسالته عن مصادر الشعر الجاهلي وقد طُبعتْ عدة مرات، وفي أساتذة كلية الآداب من دحَض الفرية في دراساتِه ولكن بأسلوب هادئ، وقد قرأتُ أخيرًا كتابًا قيمًا للدكتور (إبراهيم عوض) الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وأحدُ المتخرّجين من جامعة أكسفورد الإنجليزية تحت عنوان «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين»، أتى فيه على كلّ ما تورط فيه الدكتور طه حسين من الأراجيف، فكيف يقولُ بعض المؤتمرين في حفلة الذكرى إن الثورة على كتاب الشعر الجاهلي كانت خاصةً بنفر من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث، وقد كتب باحثٌ جامعي في جريدة الأهرام يُعلن أن الأستاذ الدكتور طه حسين لم يغتصب مقالاتِ مرجليوث في دَعوى انتحال الشعر الجاهلي وإنما جاء بها من عندِ نفسه!! وهذا تجنٍّ رَفضهُ الذين ناقشوا هذا القول، ولكنه لم يخدم دِفاعَه عن طه حسين إذ أثبتَ أنه صاحبُ الهجوم العاصف دُون أن يتأثر بأحد! وكان على باحث الأهرام أن يقول إن الدكتور طه حسين لم يأتِ بهذه الآراء، إذا حاول تبرئته، ولكنه لا يستطيع.

كانت الصيحة الأولى للرافعي - بل ولمن قرأ مقاله هذا في كوكب الشرق - فاحتذاه أن كتب فصلاً تحت عنوان «إلى الجامعة المصرية» يُلخص فيه ما ترامى إليه من بعض دُروس طه بالجامعة حيث يتساءل:

١ ـ هل قرّر أستاذها ـ الجامعة ـ أن المسلمين مَحَوا شعرَ النصارى واليهود، ومنعوا روايته خوفًا على الإسلام، فمِنْ أجل ذلك لم يَنتَه إلينا من أخبارهم شيء؟

٢ ـ وأنه لا يوجد شعرٌ جاهلي بل هو مصنوعٌ بعد الإسلام، وأن هذا الجاهلي لا يُستشهد به على القرآن، بل القرآن هو الذي يحتج به للشعر.

٣ ـ أنّ العصر الجاهلي الذي ضاع شعره قد حفظ؛ لأن القرآن الكريم يمثله.

٤ ـ وأن الغزل المرويّ لامرئ القيس هو لعمر بن أبي ربيعة!

وهذه الأسئلة مهما أبانت بعض أخطاء الدكتور طه لا تُسبّبُ انزعاجًا شديدًا، كالذي وقع من بعد؛ لأن القاصمة التي وقعت وقوع الصاعقة على القراء ما ذكره الرافعي في مقال تال تحت عنوان (أستاذ الآداب والقرآن) إلى هيئة كبار العلماء ومجلس إدارة الجامعة[1] ، حيث نقل للقراء في هذا المقال العاصف قول طه حسين (ص٢٦) من كتاب الشعر الجاهلي:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدثنا عنهما، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة.. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة، والتوراة والقرآن من جهة أخرى».

إن كل مسلم يعذر الرافعي حين يجده مشتدًا في الهجوم على هذه الأباطيل الزائفة، وبخاصة إذا علم أنها منقولةٌ عن أكثر المستشرقين كيدًا

(١) «تحت راية القرآن» للرافعي (ص١٤٤).

للإسلام، وقد بدأ الرافعي نقضه لهذه الفرية بقوله:

«فانظرْ إلى هذه الوقاحة في قوله: «للقرآن أن يحدّثنا» كأنّه زعم زاعم، له أن يقول، وأن لا يقول، وإذا لم يكفِ النصّ في كتاب سماويّ تدينُ به الأمّة كلها لإثباتِ وجودِ المنصوصِ عليه، فما بقيَ معنًى لتصديقه، وما بقي إلا أن يكونَ القرآن «كما يزعم المستشرقون أساتذة طه حسين وأولياؤه» كلامًا من كلام النبي ﷺ نفسه، ومن نظمِه وعمله كما نقل عن هذا الخرِف المسمَّى كليمان هوار، فهو يدخله ما يدخل كلام الناس من الخطأ والغفلة والحيلة والكذب، فلَهُ أن يزعم ما شاء، ولكن ليسَ علينا أن نصدّق وأن نطمئن، وإذا هو ذكَر اثنين من الأنبياء، وإذا هُو ورَدَ فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فذلك غير كاف في رأي الجامعة المصرية، لإثباتِ أن إبراهيم وإسماعيل شخصانِ كان لهما وجود تاريخي، ولا أنهما هاجرا إلى مكة، ورفعا قواعد البيت الحرام، وبنيا الكعبة، وإذن فالقصّةُ في رأي الجامعة المصرية من الأساطير الموضوعة، ومما يلحق بحيل الرّوائيين التي يَشدُّون بها المعاني الاجتماعية والسياسية والتاريخية، ويُؤتَى بها في الرواية على أنها من الكذب الفنّي توصُّلاً إلى سبكِ حادثة، أو تقريرِ معنى، أو شرحِ عاطفة».

ومضى الرافعي يفنّد هذا الرأي بما هو مقرّرٌ تاريخيًّا من انفصال المجتمع اليهودي عن العرب في دور البعثة، وبأن اليهود كانوا أهل كتاب وعلم فلا يقبلون من أمة أن تضع لهمُ التاريخ، وإذا كانت قريش قد قبلت الأسطورة الخرافية التي تُثبِتُ أنّ الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل، فأخذ الأسطورة مَنْ وَضَع القرآن عن قريش لأنه منهم؛ فالقرآنُ حينئذٍ كَذِبٌ وتلفيقٌ وليس من عند اللَّه!!

هذا الفصلُ الذي كتبه الرافعي تحت عنوان «أستاذ الآداب والقرآن» من

أقوى ما دافع به الرافعي عن الحقيقة المؤمنة، وهو وحده كافٍ لتحطيم كتابٍ لم يَرْعَ حُرمة البحث، حين نقل أكاذيب الاستشراق عن القرآن وعن رسول اللَّه، وقد وقع الدكتور طه في تناقض حين قرر أنه لا يجوزُ الاعتماد على الشعر الجاهلي في تصوير الحياة الجاهلية، وإنما يُلتمسُ هذا التصوير في روايات التاريخ وفي الأساطير، ووَجْهُ التناقض ما ذكره الرافعي حين قال[1] :

«لقد عجبتُ لأستاذ الجامعة كيف يعتمدُ في تصوّر العصر الجاهلي على التاريخ والأساطير، وهو الذي يقولُ بالشك! وكيف تصحُّ عنده الأساطير، ويصحّ التاريخُ العربي دون الشعر الجاهلي! وهل جاءَ هذا الشعرُ إلا من الطريق التي جاءت منها الأساطير والتاريخ، أي بالرواية والإسناد، ومن الحفظ والتلقين؟ وإذا جاءتْ ثلاثتُها من طريق واحدةٍ، وكان الكذبُ والوضعُ قد دَخلَها جميعًا، ونص العلماءُ على أشياء من ذلك في الأبواب الثلاثة، فكيفَ يكونُ العصر الجاهلي صحيحًا في اثنين منها دون الثالث، مع أن الوضع فيهما أيسرُ من الوضع في الشعر، إذْ هما كلامٌ كالكلام لا مؤونة فيه ولا تعب، ولا صناعة، ولا كذلك الشعرُ، وخاصّةً ما يوضع على ألسنة فحول الجاهليين».

وكل ما ذكره الأستاذ الرافعي في هذا الفصل رائعٌ رائعٌ، وقد فتح به القول لكثيرٍ ممن ناقشوا الدكتور طه فيما بعد، وليس معنى ذلك أنهم أخذوا منه، ولكنّ معناه أن الناقد الكبير يفتحُ أبوابًا كثيرة من القول، يقرؤُها الدارس المتفحص، فتفتحُ عليه بكلامٍ جيّد يشدّ أزْرَ النقد الرافعي، فحديثُه ذاك بذرةٌ جيدةٌ في أرضٍ خصبة لم تلبثْ أن صارتْ شجرةً مورقة.

أما فكرةُ الشك في العصر الجاهلي فقد أثبت الرافعي أنها مأخوذةٌ من

---

(١) «تحت راية القرآن» للرافعي (ص١٥١).

المستشرقين. وهو أول من أشار إلى ذلك وكان أمينًا في إشارته، حيث أثبتَ عن الدكتور يعقوب صروف أن مجلة الجمعية الأسبوعية نَشْرت بحثًا لمرجليوث أنكر فيه صحة الشعر الجاهلي! وقد بحث الدّارسون على مجلة الجمعيّة فوجدوا النقَل صريحًا دون لبس، ومعنى ذلك أن الرجل تَبنّى أقوال غيره دُون أن يشير إليه أدنى إشارة، وجاءَ أحد أشياعه فكتب أن ذلك من قبيل توارد الخواطر كما زعم طه حسين، وتواردُ الخواطر لا يكونُ في نظريّة ذات حُجج وبراهين واستشهاد، ولكنه يكونُ في فكرةٍ أو خاطرةٍ أو معنى بيت مفرد! وإذا كان التواردُ قد جاءَ في النظريّة فَلِمَ تكونُ حُجَجُها وبراهينها واستشهاداتها مُتفقةٌ؟!!

وتَتبُّع الآراء الخارجة التي فندها الأستاذ الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» مما يتسعُ بالبحث إلى مدى فسيح، ولكن أذكر النقاط الهامة، نقلاً عن كتاب «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» للدكتور البحّاثة إبراهيم عوض، حيثُ جمع هذه الخطرات الشاذة في موضع واحد من كتابه، وقد أشرتُ إلى حديث طه حسين عن القرآن والتوراة وعدم الركون إليهما، وبقي أن أقتبس ما قاله الدكتور عوض في حيّزه[1] الوجيز مما فنده الرافعي أتم تفنيد، وهو منحصر في هذه النقاط:

١ ـ يجب حين نستقبل البحثَ عن الأدب العربي أن ننسى قوميتنا وكلّ مشخصاتها، وننسى ديننا، وكلّ ما يتصل به.

٢ ـ إن قريشًا كانت في عصر ما قبل الإسلام ناهضةً نهضةً مادية تجارية، ونهضةً دينية وثنيةً، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن تُوجد في البلاد وحدةً سياسية وثَنيّةً مستقلة، وإذا كان هذا حقًّا ونحنُ نعتقد أنّه حقٌّ فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة عن أصل تاريخي يتّصل

(١) «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» (ص١٩) للدكتور إبراهيم عوض.

بالأمم التاريخيّة الماجدة التي تتحدثُ عنها الأساطير، وإذن فليس ما يمنع قريشًا من أن تتقبل هذه الأسطورة التي تفيد ذلك ولأسباب مُتشابهة أسطورة أخرى صنعها اليونان تُثبت أن روما متصلةٌ بإيتياس بن بريام، صاحب طروادة، وكذلك ما قاله (ص٨٠) من كتابه السالف الذكر: من أن القرآن «يذكر التوراة والإنجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئًا آخر هو صحف إبراهيم، ويذكرُ غير دين اليهود والنصارى دينًا آخر هو ملّة إبراهيم، هو هذه الحنيفيَّة التي لم نستطع إلى الآن أن نتبيّن معناها الصحيح، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله، ولم يكن أحدٌ قد احتكر ملّة إبراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها، فقد أخذ المسلمون يردُّون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم، ويذكر (ص٨٣): «وليس يعنيني هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية بن أبي الصلت أو لا يكون، وقوله (ص٨٥) في الرد على المستشرق كليمان هوار، وزعمِه أن النبي ﷺ قد استعان بشعر أمية بن أبي الصلت في تأليف القرآن: «من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن كثيرًا من القصص كان معروفًا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أن يعرفه النبي ﷺ، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي، ثم كان النبي ﷺ وأميةُ متعاصرين، فَلِمَ يكونُ النبي ﷺ هو الذي أخذَ من أميّة، ولا يكونُ أميةُ هو الذي أخذ من النبي» والرافعي يلمح بهذا الكلام إلى أن النبي في نظر طه حسين هو مؤلّف القرآن، وهو ما يفهم من قوله (ص١٨٢) في تعليل مخالفته لمن يرون أنّ إنكار الشعر الجاهلي يسيء إلى القرآن لأن القرآن ليس بحاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيه عند العرب «إنّ أحدًا لم ينكر عربيّة النبي فيما نعرف، فهو يَرَى في الإشارة الأخيرة أن القرآن هو كلامُ النبي وقوله (ص٧٢

ـ ٧٣): أنه يُوجد نوعٌ آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته للجاهليين، وهو ما يُقصد بتعظيم شأنِ النبي من ناحيه أسرته ونسبهِ إلى قريش، فلأمرٍ ما اقتنع الناسُ أن النبي يجبُ أن يكون صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكونَ بنو عبد مناف صفوةَ مُضَر، وأن كون مُضر صفوةَ عدنان، وعدنان صفوةَ العرب، والعربُ صفوة الإنسانية كلها، وهذا تهكُّم واستهزاءٌ بالحديث المروي عن رسول اللَّه ﷺ : **«إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**.

هذه أمورٌ أوجزها مؤلّف «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» كما تحدَّث عنها الرافعي في نقدِه لكتاب الشعر الجاهلي، وهي مسائلُ من الخطورة بحيث لا تُترك دون ردّ ماحق، وقد قام الرافعي بهذا الرد أولاً، قبل أن يسبقه غيره من كبار النقاد، أفيجوزُ لمن يعقدون المؤتمرات أن يسخروا بالرافعي ويعدونه عقبةً في طريق ما يسمونه (بالتنوير)!! على حين يكون طه حسين علم الأعلام في التنوير المعاصر، ونحن نقرأ ما كتب طه وما ردَّ به الرافعي، ونَزِنُ كل قول بمقدارِ حظه من الصواب والخطأ، وإذا أراد المغرضون أن يُهاجموا الرافعي فعليهم أن يثبتوا شيئًا واحدًا هو أنّ الرافعي قد افترى هذه الأقوال ونسبها إلى طه حسين اختلاقًا وافتراءً، وهو منها بريء بريء، وأظنّهم لا يستطيعون أن ينكروا الحق اللائح الصريح، وحينئذٍ عليهم أن يحترمُوا من جَاهَد في سبيل دينه ولغته وعروبته، ولم يُلق السلاحَ في حومة النضال، حتى قابل ربّه، وصحيفتُه بيضاء، وقدره ثابتٌ مكين(١) .

* * *

(١) انظر «مصطفى صادق الرافعي» للدكتور محمد رجب البيومي (ص٢٠٣ ـ ٢١٦).

* معركة الفصحى والعامية بين الرافعي وأحمد لطفي السيد:

□ دافع أحمد لطفي السيد عن صلاحية اللغة العامية كي تختار ألفاظها المستعملة، لتزاحم اللغة العربية، وهب إلى ضرورة أخذ أسماء المستحدثات من اللغة العامية وإمرارها على الأوزان العربية بقدر الإمكان؛ لأن في استعمال مفردات العامية وتركيبها إحياء للغة الكلام، وإلباسها لباس الفصاحة، فيكون من ذلك رفع العامية إلى الاستعمال الكتابي، كما أنه أباح استعمال العامية في الأسلوب الدارج إذا أدّت إلى المعنى المراد، فالمسألة ليست مسألة أسماء المستحدثات فقط، ولكنّ معها ما سمّاه (بالتمصير) أيْ إضافة الكلمات الذائعة في العامية في مصر متى احتاج إليها الكاتب.

□ وهذا الشطط المتسرِّع دعا الرافعي إلى معارضته فقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إننا إذا تابعناه فإننا نلتمس كل ما أشار إليه من العامية المصرية وحدها، ولعلّ هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا نحن المصريين، ويطمئن في كل أمة لها عربية، فتأخذ مأخذنا في عاميتها، وتنزع إلى ما نزعنا إليه. فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم، كان لعمري أسرع في فناء العربية ومحوها، وعاد عليها شؤم هذا الرأي بما لا يعود به تألّب الأعداء عليها، ويوشك أن يجيء يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى في كتابها الكريم، ضربًا من اللغات الأثرية. ثم إذا حاولنا مذهب الإصلاح بالعامية فليت شعري من أي لهجة نأخذ، وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها، وإذا جاز للعامة أن يتابعوا الكتّاب فيما يخلطون به العامية بالعربية، أيتابعونهم على العامي الذي يفهمونه وحده، أو تكون المتابعة على العامي والفصيح معًا، ولماذا لا نأتي بالأسلوب العربي المأنوس فيفهمه العامة ولا داعي لغيره.

□ ثم قال ـ رحمه اللَّه ـ: «نحنُ لا نماري في وجوب الإصلاح

اللغوي، ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمع يحوطها، ويضع لها الألفاظ والمصطلحات، ولا نقول إن هذه العربية كاملة في مفرداتها، ولا أنه ليس لنا أن نتصرف فيها تصرف أهلها، فإن من يذهب إلى ذلك لا يعدو باللغة وسيلة من وسائل العيش، وإذن فالدعوةُ إلى إنشاء مجمع لغوي يضع المصطلحات العلمية والألفاظ الدالة على المستحدثات مما يخدمُ اللغة ويجعلها ذات اقتدار.. ثم إن الأمر في اللغة ليس أمر المفردات فقط ولكنه أمر الأوضاع والتراكيب؛ لأن اللغات الراقية هي التي تتميز بوجوه تركيبها، ونسق هذه الوجوه فيها، والعاميّةُ لا تصلح في تراكيبها وصيغها للكتابة ما لم تُفصَّح على وجه من الوجوه. وهي بعد لا وزن لها في كل ما ابتعدت به عن الفصيح إلا في كلماتٍ قليلة، فإذا هي نافرتِ الفصيح لفظًا أو نسقًا فلست واجدًا إلا أطلالاً من كلمات عربية يأباها من يعرفها صحيحة ماثلةً، وكيفما أدرتَها لا تعرف لها إلا رقّة الشأن وسقوط المنزلة بإزاءِ أصلها الفصيح الذي خرجت منه»[1].

هذا قليل من كثير توسَّع فيه الرافعي إذ كتبه في ثلاث عشرة صفحة، جمعَها في كتاب «تحت راية القرآن» وكان قد نشرها في مجلة البيان سنة ١٩١٢ حين جهر الأستاذ لطفي السيد برأيه، وبانقضاء أكثر من ثمانين عامًا على هذا الجدل استقرّ الوضع على نحو ما ابتغاه الرافعي، فأنشئ مجمع اللّغة وصارت الفصحى حافلةً بما يرجوه المتحدث والمترجم من أدوات التعبير.

* الرافعي «والجملة القرآنية»:

◻ يقول الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «مصطفى صادق

(١) «تحت راية القرآن» (ص٥٣) وما بعدها ملخصًا.

الرافعي»[١] :

وإذا كان الرافعي سيد بلغاء هذا العصر في نسقه الأسلوبي الممتد بجذوره إلى أعرق أساليب الفصاحة في عهدها الزاهر، فإنّ بعض الناقدين قد أخذ عليه اهتمامه بما سماه «الجملة القرآنية والحديث الشريف»، وما درى هذا الناقد أنه أثار ثائرة الكاتب المؤمن بما أخذَ عليه، فكتب مقالاً ضافيًا تحت عنوان «الجملة القرآنية» نشرهُ بمجلة الزهراء، وجمعه في كتاب «تحت راية القرآن»[٢] ، وقد تعرضتُ للإشادة بهذا المقال في كتابي «في ميزان الإسلام» إذ كشفتُ الضوء عن ظلام اكتنف مبعث هذا النقد، وقلت فيما قلت[٣] :

«وإذا كان نابغة البيان المعاصر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه اللَّه ـ من أبرز البلغاء فصاحة وجزالة، وللكلمة القرآنية في بيانه وهج والتماع، إذ يستشهدُ بها في كل مجال، فإنّ بعضهم قد حاول أن يغمز بيانه من ناحية إبداعه، وهو هوىً مغرض يجعل الزين شينًا، والنهار ليلاً، فقال قائلهم: لو ترك الرافعي التزامه بالجملة القرآنية لكان ذلك أجدى وأنفع، وطار القولُ إلى الرافعي فنهض للرد عليه بما اشتُهر به من إقناع، وقال فيما قال: «لقد ظهر لي من نور الجملة القرآنية ما لم أكن أراه من قبل، حتّى لكأنها مكروسكوب يفصح عما يُخفي من صغار الجراثيم، مما يكونُ دقيقًا فيستعظم، وخفيًا فيستغلق». وبلغ موضع النفاذ المصيب، حين قال: وإذا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية الكلمة وإرهاف المنطق، وصقل الذوق، مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا منه، وصِلتنا به حتى كأنه فينا، وحفظها

---

(١) (ص١٣٦ ـ ١٣٨).

(٢) «تحت راية القرآن» (ص٢٤).

(٣) «في ميزان الإسلام» للدكتور محمد رجب البيومي (ص٦٧).

لنا منطق رسول اللَّه ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم هي عند التلاوة تدور في أفواهنا، وسلائقهم فينا تقيمنا على أوزانها!! إذا فعلتُ ذلك ورضيتُه أفتراني أتّبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية، وأُعين بنفسي على لغتي وقومي، وأكتبُ كتابةً تُميت أجدادي في الإسلام ميتةً جديدة، وتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدّود يخرج من الميت، ولا يأكل إلا الميت، وأُنشئ على سنتي المريضة نشأةً من الناس يكونُ أبغضُ الأشياء عندها هو الصحيح الذي يجب أن يكونَ أحب الأشياء إليها».

◘ وللَّه دره وهو يقول عن لغة القرآن والكتاب الحكيم والذكر الكريم:

فدَتْكِ نفسي قرآنيةً رُفعت ... بكفّ جبريل ما في مسّها طمع
وللنبيّ عليها لم يزلْ نَفَسٌ ... حيٌّ ومِن وجههِ في نورها لمع
لكاد واللَّه في التنزيل قارئُه ... يحسَ صوت رسول اللَّه يرتفع
إن النبيّ لحيٌّ في ضمائرنا ... على الزمان يرى منها ويستمع!
تاللَّه ما ناصب الفُصْحى سوى رجل ... بالمكر يخدع أو بالجهل ينخدع
كم أجنبي غريب بات يحفظها ... كحفظ عينيه أن يغشاهما الوجع
وكم ترى من بنيها ذا مكاشرة ... لسانُه كلسانِ النار تندلع
يا قوم لن يستحي مستنقعٌ وخِم ... إذا جرت حوله الأنهار والترع!(١)

*** أصحاب اللسان المُرقَّع:**

الذين يتباهون بكلمات إفرنجية يسوقونها في محادثاتهم، تشبهًا بالضالين من الصليبيين ونسوا ما قاله شاعر النيل حافظ إبراهيم عن العربية:

وسعت كتاب اللَّه لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظاتِ

---

(١) «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٥١ ـ ٢٥٢).

فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتي
سقى اللّه في بطن الجزيرة أعظمًا ... يعزُّ عليها أن تلين قناتي

☐ «جاء على مصر حين الدهر، كان بعض ساستها، ومن يَلُون المناصب الكبرى بها، يتباهون بكلمات إفرنجية يَسُوقونها في محادثاتهم، حين لا يدعو الحديث إلى هذه الرطانة المسفّة، وهُمْ يشعرون أنهم يتعالون على من يحدثونهم حين يرطنون بألفاظ يسألهم السائل عن معناها حين يتكلّمون، فينطقون بمرادفها في العربية بعد أن يصطنعوا التفكير، وكأنّهم عن العربيّة بمنأى إذ هي في نظرهم لغة العامة لا الخاصة، وقد يرون أن الحديث بها لَدَى من يلُون الأمر من الإنجليز زُلْفى للتقرب إليهم واعترافٌ بأن لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة الأمّة. في هذه الفترة الحَالكة كتب الرافعي مقاله «اللّسان المرقّع» ليكشف دخيلة هؤلاء، ويريهم أنّهم محتقرون عند أبناء وطنهم حين يتخذون لغةً غير لغتهم، ومحتقرون عند المحتلّ حين يراهم يلتمسون وسائل الخضوع والزلْفى باتخاذ لغةٍ لا يجيدونها حق الإجادة، بل يتظاهرون بمعرفتها، وأكثرهُم منها بموضع شاسع. وللرافعيّ طريقته البارعة في التهكم الساخر بهؤلاء، فهو لا يقرّر الحقيقة وحدها بل يلبسها الصورة المضحكة التي تميل بالقارئ إلى الاستهزاء بمن يظنّون أنفسهم كبارًا وهم زعانف وذيول، يقول الرافعي[1]:

«وكان حضرة صاحب السعادة يكلّم الباشا بالعربيّة التي تَلْعَنُها العربية، مرتفعًا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منحطًا، نازلاً بها عن لغة السوقة نزولاً

(١) «وحي القلم» (٢/ ٢٩٦).

عاليًا، فكان يرتضخ لُكنةً أعجمية، بَيْنا هي في بعض الألفاظ جرسٌ عالٍ يطنّ، إذا هي في لفظٍ آخر صوتُ مريض يئن، إذا هي في كلمةٍ ثالثة نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ، ورأيته يتكلّف نسيان بعض الجمل العربية، ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرّفًا ولا تملحًا، ولا إظهارًا لقدرة أو علم، ولكن استجابةً لشعور الأجنبيّ الخفي المتمكن في نفسه، فكانت وطنيةُ عقله تأبى إلا أن تكذّب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه، فلما انصرف الرجل قال الباشا: أفٍّ لهذا وأمثال هذا، أفٍّ لهم ولما يصنعون، إنّ هذا الكبير يلقبونه (حضرة صاحب السعادة)، ولأشرف منه واللَّه رجلٌ قرويٌّ ساذج «ينطق بلغته».. إن عمله أن يُعلن برطانته الأجنبية أنّ لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرّد من الروح السياسي للغة قومه، إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها»[1] .

*** الرافعي وردّه على محمود عزمي المتباهي بالقُبَّعة:**

وهو مسخ مشوه لزنديق تركيا أتاتورك الذي حرّم على المسلمين لبس العمامة وألزمهم بالقبعة ونصب المشانق من أجل هذا، والقبعة هي الشعار الثالث للصليبيين بعد الزنا والصليب ظهر خاصة أثناء الحروب الصليبية، وهو لبس خاص بهم، ولذلك أفتى أهل العلم بتحريم لبسها ومنهم الإمام النووي، فأتى قوم أعجبهم كل ما في الغرب فساروا على نهجه حتى في القبعة وقلدوا تركيا أتاتورك، والرافعي يقول في ذلك على لسان من سمّاه «صاحب السر»[2] :

«لقد نجمت في مصر حركةٌ بعِقب أيام البدعة التركية، حين لم تبق

---

(١) «مصطفى صادق الرافعي» لمحمد رجب البيومي (ص١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) «وحي القلم» (٢/ ٣٠١).

لشيء هناك قاعدة، إلا القاعدةُ الواحدة التي تقرّرها المشانق، فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه، ومن قال «لا» انقلبت «لا» هذه مشنقة فعُلّق فيها. وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نزعاتٍ من مثلها كما يجيء الحذاء آخر ما يلبس اللابس، فلم يشكّ أحد أنها ليست قبعةً على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية رأس المسلم تربيةً جديدة، ليس فيها ركعة ولا سجدة، وإلاّ فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجيّ والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجيًّا عن طبعه، ولا زعم أحد أنَّها أكْملت العقل الناقص، أو ردّتِ العقل الذاهب».

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية، ولا يعرف المدنيّة إلا مدنية أوربا، فهو يمثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها، وما يحلّ وما يَحْرُم، وما يكون في حاجه إليه وما يكون في غنىً عنه؛ حتى لو أن الأوربيون كانوا عُورًا الطبيعة، لجعل هو قومه عُوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين.. نعم إنها حاجة تامة لولا نقص في البرهان، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفتوح العثمانية، يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبّعات، ليشبهوا الأوربيين. كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخلّ نافع للصفراء، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: ازرع لي بصلاً بخلّ.. هكذا يريدون من القبّعات أن تُخرج لهم تُركًا بأوربيين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمةُ سب للعرب ورد على الإسلام ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بينةً، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحده. وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفةِ والانحراف عنا واطّراحِنا، فإن الذي يخرج من أُمّته لا يخرج منها وهو في ثيابها

وشعارها؛ فبهذا افتح لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليدُ أو يُبدِعُه الابتكار؛ وإلا فأي سر في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين..؟

هاهنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصًّا فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتَّار، فأجاد وأبدع وأكبره الناسُ وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع المِقصُّ، فماذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعًا؟

أكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث في التقليد الأعمى، وألا يَحْيا الشرقيُّ إلا مستعبدًا ينتظر في كل أموره من يقول له: اشرَع لي..؟ إن بحثنا فلنبحثْ في زِيٍّ جديد نتميَّز به، فتكون القُوَى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجونا هي التي اخترعت لظاهِرِها ما يجعله ظاهرها، كما يُخرج زَوْرُ الأسد لِبدَةَ الأسد، غايةً في المنفعةِ والجمالِ والملاءمة.

◻ هذا رأي الرافعي في القبعة، وقد أرادتْ مجلة الهلال (سنة ١٩٢٧) أن تُنبِّه الأذهان إلى غطاء الرأس الذي بدأ ينتشر تقليدًا لتركيا التي قلدت بدورها أوروبا فأتاحت الفرصة لكاتبين أن يُبْديا رأيهما في القبعة، وهما الدكتور محمود عزمي والأستاذ مصطفى صادق الرافعي. أما عزمي فقد بَاهى وافتخر بارتدائه القبعة، وقال: إن من رأوه يلبسها لأولِ مرة قالوا له: بدأ الشرقيون يفكرون برءوسهم، وأنّ القبعة التي بدأت تنتشر في الوسط الآخذ بالمذاهب الحديثة تُمثّل لونًا خاصًا! وزاد فقال: إنّي أنا مِنَ الذين يريدونَ أن يأخذوا من المدنيَّة العصرية وهي الحضارة الغالبة، وأنّ الخير كل الخير في شُخوصِ الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية إلى شواطئ البحر المتوسط الشمالية الغربيّة، وبأنّ كل نظرةٍ إلى رمال التيه والبادية إنما تكونُ نُكُوصًا على الأعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيرًا هائل السرعة إلى الأمام».

□ هذا بعض ما قاله الأستاذ محمود عزمي بشأن القبعة. أما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقد عارضه بمقال فخم نشر بمجلة الهلال المشار إليها، ولا أدري لماذا لم يجمع بين مقالات وحي القلم لجدارته بالذيوع، قال الرافعي(١) : «القبّعة على رأس المصري منفردًا بها دون قومه، بائنًا من جملتهم، إنما هي مظهرٌ من مظاهر التحلّل الاجتماعي، وارتكاسٌ في منطق الجملة المصرية، ونفيٌ لهذا الرقم من عبارة مجموعة، وهي في الرجال مشتقّةٌ من المصدر الذي يخرج منه التهتكُ في النساء، وكلاهما ضدٌّ من صفة اجتماعية تقومُ بها فضيلةٌ شرقية عامة، ولا يهولنّك ما أقرّر لك من أن القبعة على رأس المصري تهتكٌ أخلاقي أو تهتّك سياسي، أو تهتكٌ ديني، أو من هذه كلها معًا، فإنك تعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة، وتحلّلت أكثرُ عُقدها، وقاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلطُ الحدود اللغوية، فحريّة المنفعة تجعلُ الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقالُ إلا أنّه وجَد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب، ومتى أُزيلت الحدودُ بين المعاني كان طبيعيًّا أن يلتبس شيءٌ بشيء، وأن يحلّ معنى في موضع معنى، وأصبح الباطل باطلاً بسبب، وحقًّا بسبب آخر. ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حدًّا، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: ها أنذي قد جئت فاذهبي».

والمقالُ جيّد متّصل التحليل، حارّ النَّفَس، وفيه كفاء أي كفاء لمن يبتغي مقطع الصواب.

---

(١) «مجلة الهلال»: مجلد سنة ١٩٢٧، وقد أعيد نشر المقال في العدد الخاص من الهلال بمناسبة مرور ٧٥ سنة على إنشاء المجلة مع مقال الدكتور عزمي ليظهر الرأيان المتعارضان.

*** مصطفى صادق الرافع يفضح أتاتورك ويأخذ بثأر الإسلام منه :**

مصطفى كمال أتاتورك الذي أسقط الخلافة وذهب بمجد المسلمين عليه من اللَّه ما يستحقه.

لقد كان مصطفى كمال ذا أبواق عالية الصدى رنّانة الزئير في مصر، وقد صدرت كتب مصرية بأقلام مصريين ينتسبون إلى الإسلام!!! تؤيد هجومه على الإسلام وازدراءه للغة العربية، وجَعْل العطلة الأسبوعية يوم الأحد لا يوم الجمعة، وضرورة لبس القبعة، وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف أو متنزهات!! صدرت كتب في مصر تؤيد اتجاهه الإلحادي، ومُروقه عن دينه، فقام الرافعي زائداً عن دينه في وجه هذا الطاغية الذي ذهب وذهبت أفكاره إلى مزابل التاريخ وانقلب وهو حسير.

❏ تكلم الرافعي عن أتاتورك في مقاله «تاريخ يتكلم بالجزء الثاني من وحي القلم وقد جعل حديثه الظاهري عن الحاكم بأمر اللَّه كيلا يدخل تحت دائرة المسئولية حين يعترض الأذناب. والمقالة الصريحة عن أتاتورك تحت عنوان «كفر الذبابة» وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

*** قال الرافعي عن أتاتورك :**

«كانت أعماله في جملتها هي نقضَ أعمال الشريعة الإسلامية، وظن أنه مستطيع محو ذلك العصر من أذهان الناس وقتْلَ التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفاك.

وسَوَّل له جنونُه أن خُلِقَ تكذيبًا للنبوة؛ ثم أفرَطَ عليه الجنونُ فحصَّل في نفسه أنه خلق تكذيبًا للألوهية؛ وفي تكذيبه للنبوّة والألوهية يحملُ الأمة بالقهر والغلَبة على ألا تصدّقَ إلا به هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صنع، فجاء تاريخه لا ينفي ألوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛

ابتُلي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأما التي من نفسه فإني أراه قد خُلِق وفي مخه لفافة عصبية من يهودية.

هذه اللفافةُ اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول اللَّه تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوة لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ...﴾ فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشدَّ في هذه العداوة ويكون فيها الأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكرَة. وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ في الجو إلا تجري بمنظرها عينيه من بُغضِه للإسلام وانطوائه على عداوته؛ فويلٌ لها منه!.

وأما النقيصةُ الثانيةُ فقد ابتُلِيَ بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم، وقد لفَّقوا للدنيا مذهبًا هو صورة عقولهم الطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثم يضع أولَ معَاوله في قُبة السماء ليهدمها..! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ في كلمة واحدة لقلت هو حماقةٌ حمقاء تُريد إخراجَ اللَّه من الوجود لإدخال اللَّه في بعض الطُّغاة!

يرى هذا الطاغيةُ أن الدين الإسلامي خُرافةٌ وشَعوذةٌ عن النفس، وأن محو الأخلاق الإسلاميةِ العظيمة هو نفسه إيجادُ أخلاق، وأن الإسلام كان جريئًا حين جاء فاحتل هذه الدنيا، فلا يطردُه من الدنيا إلا جَراءةَ شيطان كالذي تَوَقَّحَ على اللَّه حين قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

◻ أظهر الطاغية أن اللَّه يؤيد به الإسلام، ليتألّف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيم الكيد، دني الحيلة، يهودي المكر.

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية، هي بعينها ربا اللُّفَافة اليهودية في مُخّه؛ تُصلحُ بإقراض مائة وفيها نيةُ الخراب بالستين في المائة..! فإنه ما كاد يتمكّن من الناس ويعرفُ إقبالهم عليه وثِقتَهم به، حتى طَلَبتِ اللفافة اليهوديةُ رأسَ المال والرِّبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخراجها، وأبطلَ العيدَين وصلاة الجمعة، وقتَلَ الفقهاء.

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم، يستطيعُ أن يجعلَ حماقتَه شيئًا واقعًا، فيقتلَ علماءَ الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارسَ الدين بإخرابها، ولو شاء لاستطاع أن يشنُقَ من المسلمين كلَّ ذي عمامة، في عمامته. ويبلغ من كفره أن يتبجَّحَ ويرى هذا قوةً، ولا يعلم أنه لهوانِهِ على اللَّه قد جعله اللَّه كالذبابة التي تُصيبُ الناس بالمرض، والبعوضةِ التي تقتل بالحمَّى، والقملةِ التي تَضرِبُ بالطاعون، فلو فَخَرت ذبابةٌ، أو نجحت قملةٌ، أو استطالت بَعوضةٌ، لجاز له أن يَطِنَّ طنينَه في العالم. وهل فعلَ أكثر مما تفعل؟

لقد أودَى بأُناس يقوم إيمانُهم على أن الموتَ في سبيل الحق هو الذي يُخلدُهم في الحق، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذي يضعُهم في حقيقتها، وأن هذه الروحَ الإسلامية لا يَطمِسُها الطغيانُ إلا ليجلوها.

إنه واللَّه ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله، وأعوزه ذلك النوعُ السامي من الموت الأول الذي كان حياة الفكرِ ومادةَ التاريخ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها..!

لقد أحياهم في التاريخ، أما هم فقتلوه في التاريخ، وجاءهم بالرحمةِ من جميع المسلمين، أما هم فجاءوه باللعنةِ من المسلمين جميعًا!

* لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول.. أخزاه اللَّه..!!

◻ هذه طبيعة كل حاكم فاسق مُلحد، يرى في نفسه رذائله عُريانةً، فلا يكونُ كلامُه وعملُه وفكره إلا فُحشًا يَتعرَّى؛ وإن في هذا الرجل غريزة فسق بهيميةً متصلة بطور الحيوان الإنساني الأول؛ فما من ريب أن في جسمه خلية عصبيَّةً مُهْتاجَةً، ما زالت تَسبحُ بالوراثة في دماءِ الأحياء، متلفقة على خصائصها، حتى استقرت في أعصاب هذا لفاسق، فانفجرت بكل تلك الخصائص.

ولستُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مَردها إلا أن طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحاول هدم الإسلام؛ لأنه دينُ العفة ودينُ صَونِ المرأة، يُلزمُها حجابَ عِفتها وإبائها، ويمنعُها الابتذال والخلاعة. وليعينها أن تتخلَّص ممن يشتهيها، ولو كان الحاكم.. إنه يمقتُ هذا الدينَ القويّ، كما يمقتُ اللصُّ القانون؛ فهو دينٌ يَثقُل على غريزته الفاسقة، ولكل غريزة في الإنسان شعورٌ لا مَهنأ لها إلا أن يكون حرًّا حتى في التوهُّم؛ وهل يُعجبُ السكيرَ شيءٌ أو يُرضيه أو يلذه، كما يُعجبه أن يرى الناس كلهم سُكارى؛ فينتشِي هو بالخمر، وتسكر غريزته برؤية السكر؟!

وما زال رأيُ الفُسَّاق في كل زمن أن الحرية هي حريةُ الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفساد للذّة.

□ يزعم الطاغية أنه يُعِزُّ قومه. وما أراه يُعزهم، لكنه يمتحنُ ذلَّهم وضعفهم وهوانهم على الأمم يتجرأ شيئًا فشيئًا، مُتنظرًا ما يتسهَّل، مرتقبًا ما يمكن؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ الأخلاقَ ويظنّ عند نفسه أنه يهدمُ قبورًا لا أخلاقًا.

اندلعت ثورة الفجور في المدينة لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيق المستقرّ في هذا الطاغية.

□ يزعم الطاغيةُ أنه سيَهدم كل قديم؛ وإني لأخشى واللَّه أن يأمرَ الناسَ في بعض سَطَواتِ جنونه: أن كل من كان له أبٌ أو أم بلغ الستين فليقتله، لتخلُصَ الأمةُ من قديمها الإنساني..!

كأنه لا يعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصريه لا على التاريخ، ويحكمُ على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثِهم من الأسلاف؛ فما هو إلا يهلكَ حتى ينبعثَ في الدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّته في بطن الأرض، ونتنُ أعماله على ظهر الأرض. إن هذا الرجلَ المسلَّطَ، كالغبارِ

المستطار لا يُكنس إلا بعد أن يقعَ . .

□ لا يرضى الطاغيةُ إلا أن يَمْحَقَ روحانيةَ الأمة كلها، فلا يترك شيئًا رُوحانيًا له في أعصاب الناس أثر من الوقار، وبمن يستظهرُ - ويلَه - إذا مُحِقت روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعتُها الدينيةُ على الانحلال؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُستَمدُّ من إيمانها بالمثَل الأعلى الذي يدفعُها في سِلمها إلى الحياة بقوّة، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخَ كله تُقرره في الأرض بضعةُ مبادئ دينية.

أيّ مجنونٍ أسخف جنونًا من هذا الذي يحسب النفوسَ الإنسانية كالأخشاب؛ تقبَلُ كلُّها بغير استثناء أن تُدقَّ فيها المسامير . . ؟

سيعلم إذا نَشبت حربٌ بينه وبين دولة أخرى، أنه كسرَ أشدَّ سيوفه مضاء حين كسَرَ الدين!.

* كُفْرُ الذُّبابة(*) . . أو كُفر أتاتورك:

قال كَليلة(١) وهو يَعظ دمنةَ ويُحذّرُه ويقضي حق اللّه فيه؛ وكان دمنةُ قد داخله الغرورُ وزَهاه النصر، وظهر منه الجفاء والغِلظة، ولقي الثعالبُ من زيغه وإلحاده عنتًا شديدًا:

« . . واعلم يا دمنةُ أن ما زعمتَه من رأيك تامًّا لا يَعتريه النقص، هو بعينه الناقصُ الذي لم يتمّ؛ والغرورُ الذي تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء، لعله هو الذي يُثبت أن غير رأيك في الآراء هو الصحيح.

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذي خيال، لصدَقَ كلُّ إنسان فيما

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي» لمحمد سعيد العريان.

(١) «كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي، يعمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل والمحاورة. وانظر مقاله «فلسفة الطائشة» في الجزء الأول.

يزعم، ولو صدَق كلٌّ إنسان فيما يزعمُ، لكذَب كل إنسان؛ وإنما يدفعُ اللَّه الناسَ بعضهم ببعض، ليجيء حقُّ الجميع من الجميع. ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيرًا فلا يكبر، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص، ويصح الصحيحُ ما دامت الشهادةُ له، ويفسُدَ الفاسد ما دامت الشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن أرنبًا سمعت العلماء يتكلَّمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَّنُ اللَّه بانقراضها، وكيف تكونُ القارعة؛ فقالوا: إن في النجوم نجومًا مُذنبةً، لو التفت ذنبُ أحدها على جِرم أرضنا هذه لطارتْ هَوَاءَ كأنها نفخةُ النافخ، بل أضعف منها كأنها زَفرةُ صدرِ مريض، بل أوهى كأنها نَفثةٌ من شفتين. فقالت الأرنب: ما أجهلكم أيها العلماء! قد واللَّه خَرفتم وتَكَذبتم واستَحمقتُم؛ ولا تزال الأرض بخيرٍ مع ذَواتِ الأذناب؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا ـ قالوا: وأرتهم ذَنبها..!

قال كليلة: وكم من مغرورٍ يُنزل نفسه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء؛ فيقول كذبوا وصدَقتُ أنا، وأخطأوا جميعًا وأصبتُ، والتبسَ عليهم وانكشف لي، وهم زعموا وأنا المستيقِن. ثم لا دليلَ له إلا مثل دليل الأرنب الخرقاء من هنَة تتحرَّك في ذنبها.

وكان يُقال: إنه لا يُجاهرُ بالكفر في قوم إلا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبأوا به، فهو الأذل المستضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعزُّ الطاغية؛ ذاك لا يخشونه فيدَعُونه لنفسه وعليه شهادةُ حُمقه، وهذا يخشونه فيتركون معارَضتَه وعليه شهادةُ ظُلمه؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا.

وقالت العلماء: إن كنتَ حاكمًا تَشنُقُ من يخالفُك في الرأي، فليس

في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل؛ وإن كنتَ تَقتل من يُنكر عليك الخطأ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد؛ وإن كنت تحبس من يعارضُك بالنظر، ففيك عقلٌ اسمه الجِدار؛ أما إن كنت تُناظرُ وتجادل، وتقنعُ وتتقنع، وتدعو الناس على بصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى ـ ففيك العقلُ الذي اسمه العقل.

قال كليلة: وأنا يا دمنة، فلو كنتُ قائدًا مُطاعًا، وأميرًا مُتبَعًا، لا يُعصَى لي أمر، ولا يُرد عَلَيَّ رأي، ولا ينكر مني ما يُنكَر من المخلوق إذا أخطأ، ولا يقال لي دائمًا إلا إحدى الكلمتين: أصبتَ؛ ثم هي دائمًا أصبت؛ ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رَهبةً من سَخَطي رهبةَ الجُبَناء، أو رغبةً في رضايَ رغبة المنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد صَحَّت نيَّاتهم وخلصَ لي باطنُهم جميعًا ـ فلو كنتُ وكانوا على هذا، لأحالني نقصُهم إلي نقص العقلِ بعد كماله، وردَّتني فُسولتُهم إلى فُسولة الرأي بعد جَوْدته، فأخلق بي أن أعتبر وضعَهم إيايَ في موضع الآلهة، هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين؛ وإلا كنتُ حقيقًا أن يُصيبني ما أصاب العَنزَ التي زعموا لها أنها أنثى الفيل..

قال دمنة: وكيف كان ذلك.

قال: زعموا أنه كان في إحدى خَرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء، وكان فيها عَضرَفوطٌ كبير[١]، فملكتهُ الجماعة وذهبت تأتمِرُ على أمره وتنتَهي. فمرّ بهذه الخربةِ فيلٌ جسيمٌ من الفيلة الهنديةِ العظيمة، لم يحسَّ بالعظاء، ولم يميز فرقًا بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منثورًا يلتَمعُ في الأرض هنا وهنا؛ قالوا: فغضب العضرفوطُ، وكان قائدًا عظيمًا، ثم تدبّر أمرَ الفيل ينظر كيف يصنعُ في مدافَعتِه، وكيف يحتال في هلاكه؛ فرآه لا يتحرك إلا

(١) العظاء: جمع عظاءة وعظاية، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية)، والعضرفوط: ضرب من العظاء يكون أكبر منها.

بأقدامه يَنقلُها واحدةً واحدة؛ فقدر عند نفسه أنه لو أزال قَدم الفيل عن الأرض زال الفيلَ نفسُه؛ فجاء فاعترض الطريق، ودب دبيبه؛ فلما رفع الفيلُ قدمه اهتبلَ هذه الغفلة منه.. واندسَّ تحتها، فاندسَّ مقبورًا في التراب!

ثم إن العَظاء افتقدت أميرها. فلما مضى الفيلُ لسبيله ورأت ما نزل بها، نَفَرت إلى أجحارها، واستكنَّت فيها ترتَقِبُ وتتربص، فدخلت إلى الخربة عنزٌ جعلت تتقمم منها وتَرتَعُ فيها، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتَمِرن..

فقال منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألت عظايةٌ منهن: وأين النابان العظيمان؟

قالت الأولى: إن الإناثَ دون الذكورة في خلقها، والأنثى هي الذكرُ مقلوبًا أو مختصرًا أو مشوهًا، ولذلك هنَّ يقلِبنَ الحياة أو يختصرنها أو يشوهنها، أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه..؟

فقالت واحدة: إن جاز قولك في الرأي فأين الخرطوم؟

قالت الأخرى: هو هذه الزَّنمةُ المتدليةُ من حلقها، وذلك خُرطومٌ على قدر أنوثة الأنثى..!

قالوا: ثم اجتمع رأيُهن على أن يُمَلِّكن أنثى الفيل هذه؛ وأن يهبن لها الخرِبَة وأمتَّها. وسمعت الماعِزَةُ كلامهن فقالت في نفسه: لا جَرَمَ أن تكونَ العنزُ في أمةٍ من العظاء، فقد قالت العلماء: إنه لا كبير إلا بصغير، ولا قويَّ إلا بضعيف، ولا طاغيةَ إلا بذليل؛ وإن العظمةَ إن هي إلا شهادةُ الحقارة على نفسها، وإنه رُبَّ عظيم طاغيةٍ متجَبرٍ ما قام في الناس إلا كما تقومَ الحيلة، ولا عاش إلا كما يعيش الكذِب، ولا حكَم إلا كما يَحكم الخِداع. وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فمتى جاءت إليه فقد جاءت، ولو أنها أدبرت عنه من ناحيةٍ لرجعت من ناحية أخرى، ليثبِتَ الحظ أنه الحظ.

وتقدَّم العظَاء إلى العنز، فقُلن لها: أيتُها الفيلةُ العظيمة، إن قَرينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرنا العضرَفُوطَ بقدمه فغيبه تحت سبعِ أرضين، وأنت أنثاه وسيدتُه، فقد اخترناكِ ملكةً علينا، ووهبنا لك الخربةَ وما فيها.

قالت العنز: فإني أتَّهِبُ منكن هذه الهبة، ونعمًّا صنعتُن؛ غيرَ أن بينكن وبيني ما بين العظاية والفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلتُ؛ فأنا قلت، وإذا أنا أمرتُ، فأنا أمرت؛ وإذا أنا فعلتُ، فأنا فعلت. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرها؛ لأن هاهنا في هذا الرأس دماغَ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخربةَ كلها فيلةٌ واحدة؛ فلا أعرفنَّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعةَ طاعةَ الأعمى للبصير. ألا وإن أول الحقائق أنني فيلةٌ وأنكنَّ عَظاء؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سَقَطَ الخلافُ من بيننا وبطلَ الاعتراضُ منكن، وقوَّتي حق لأنها قوّة، وباطلي كذلك حقٌّ لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافُنا حكماء الفيلة: إن القويّ بين الضعفاء مشيئةٌ مطلقة، فهو مُصلحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بالحماقة، إمامٌ حتى بالخرافة، عالمٌ حتى بالجهالة، نَبيٌّ حتى بالشعَوذَة..!

قالوا: وتُنكرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانت ذاتَ رأيٍ ودين في قومها، وكن يُسمينها: (العمامة)، لبياضها وصلاحها وطهارتها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة؛ لقد تخرصت غير الحق فإنك تحكمينا من أجلنا لا من أجلك، وما قولُكِ إلا كلماتٌ تُحققُها أعمالُنا نحن؛ فلك الطاعةُ فيما يصلحنا، وما كان من غيره فهو ردٌّ عليك، ورأيُكِ شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا، لتتبينَ الأسباب أسبابُ الموافَقة والمخالفةَ، فنأخذَ عن بينةٍ ونتركَ عن بينة؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة: إنه يجب على من يقدم رأيًا للأمَّة الحازِمة كي تأخذَ به، أو يضعُ لها شرعًا ليحملها عليه، أو يسنُّ لها سنةً لتتبعها ـ إنه يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمَّة أو تحريرها أن يتقدم لأهل

الشورى وفي رأسه الرأيُ، وفي عنقه حبل؛ ثم يتكلَّم برأيهَ ويبسطُه ويدفعُ عنه، ويجادلُهم ويجادلونه؛ فإن كان الرأيُ حقًّا أخذوا الرأي، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر.

وفي ديننا أن الطاعةَ في المعصية معصيةٌ أخرى؛ ولقد كان لنا عضرفوطٌ بحَّاثَةٌ في الأديان دراسة لكتُبها علامَةٌ نِقَابٌ؛ فكان مما علَّمنا: أن المخلوقَ مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفَناء، فيجب ألا يتمَّ منه شيءٌ إلا بمقدار، وألا تكونَ القوةُ فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقلُ التامُّ في الأرض هو مجموع العقولِ العظيمة كلِّها، وكان أتم الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنه أصحُّها وأتمها. فلا الدينَ اتَّبعت أيتها الفيلةُ، ولا اتبعت فينا العقل، وليس إلا هذا (التفيُّلُ) الكاذب.

فلما سمعت العنزُ ذلك تنقَّشَت وغضبت، وقالت: إياكم وهذه الترَّهاتِ من ألسنتكم، وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا أسمعن منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العضافيط.. فذلك وحي غيرُ وحيي أنا؛ وإذا كان غيرَ وحيي أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذي شرطه أن الدولة لي فيها إلا أنا واحدة. وذلك إن لم يجعلكم غُرباءَ عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدٌّ من إحدى الغُربتين، فهو أولُ القطيعة، والقطيعةُ أولُ الفساد. وما دام في الدين أمرٌ غيرُ أمري، ونهيٌ غير نهيي، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتي ـ فأما مجنونةٌ إن رضيتُ لكم هذا..!

فضحكَت (العمامة) وقالت للماعزة: بل قولي: أنا مجنونة بـ (أنا)؛ أفلا يجوز وأنت خلَقٌ من الخلق أن يعتريَ عقلك شيءٌ مما يعتري العقول؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأي في ناحية القوة، حسنةُ التدبير في ناحية الشجاعة، متجاوزةُ المقدار في ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إن الزيادةَ المسرفةَ في جهة من العقل، تأتي من

النقص المتحيِّف لجهةٍ أخرى؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تامًّا عبقريًّا في أمورٍ؛ لأنه ضعيفٌ أبلهُ في غيرها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُه أحد، ويُحكمُ منها ما لا يُحكمه أحد، ثم يَغلَطُ في الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشت العنزُ وفارت من الغضب فورةَ الجبَّار، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء، وأن زَنَمتَها امتدَّ منها خرطومٌ طويل، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان؛ وقالت: ويحكم! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها؛ فإنها كما قالت؛ تقدَّمت إلينا بالرأي والحبل..!

وكان في العَظَاء ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ، ومأكولون لكل آكل؛ فتَشَبَّحَ[١] لهم أن أنثى الفيل هذه.. ستخلقهم فيلةً إن هم أطاعوها؛ فإذا مَردُوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيثُ تجعل كل ظلفٍ من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظُلَّةٌ فتسوخُ بهم الأرض. ثم إنهم انخذلوا وتراجَعوا، وأُخذَت (العمامةُ) الصالحةُ فشُنقَت، وخمدَ الرأيُ من بعدها، وانقطع الخلاف والدينُ والعقل الحر..؛ وأقبلت دولةُ العظاء على العنز تُجرّرُ أذيالها.

قالوا: واغترَّت الماعِزةُ وأحست لها وجودًا لم يكن، وعرفت لنفسها وهي ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأن الفيل القوي، فلجت في عمَايتها وكفرت بجنسها، وقالت: لم يخلقني اللّه فيلةً وخلقتُ نفسي؛ فأنا لا هو..

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنزٍ في الدنيا؛ وذهبت تقلد وتعيشُ على مذاهب الفيلة بين العظاء، فإذا مشت ارتجَّت وتخطرت كأنها بناء تقلقل، وإذا اضطجعت أنذرت الأرضَ أن تتمسك لا تَدُكَّها بجنبها..!

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةً أخرى، فلاذَت العَظَاءُ كلُّهن بالفِيلة..

---

(١) أي خيل إليهم وتمثل.

وتأهبت هذه للقتال، وتحصَّفت في المبارزَة والمناجزة.. (والمعانَزَة) فنصبت قرنيها، وحرّكت زنمتها، وطأطأت، وشدت أظلافها في الأرض، وثبتت قوائمها، وصلبت عظامَها، ونفشت شعرها، وتشوكت كالقُنفذ، وأصرَّتْ بكل ذلك إصرارها، وكانت عنزًا نطيحةً منذ كانت تتبعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ..؟

ثم إنها ثبتت في طريق الفيل ليرى بعينه هذا الهولَ الهائل.. فأقبل، فمدَّ خرطومَه، فنالَها به، فلفها فيه، فقبضه، فرفَعه، فكأنما ذهبت في السماء..!

وتهَارَبت العظَاء ولذن بأجحارهن، ثم غَدَونَ على رزقهن؛ فإذا جيفَةُ العنز غيرَ بعيد، فدببنَ عليها وارتعينَ فيها، وعَلمن أنها كانت ماعزةً فيلها جنونُها، وأدركن أن الكذبَ على الحقائق قد جعل اللَّه له حقائقَ أخرى تقتلُه، وأن من غَلَبَ أمةَ العظاء على أمرها فليست الأيامُ والليالي عظاء فيغلبها؛ وأن تغييرَ المخلوقات، إنما يكونُ بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها، وأن الإناءَ الأحمر يُريك الماء محمرًّا والماءُ في نفسه لا حُمرةَ فيه، حتى إذا انكسر الإناء ظهر كما هو في نفسه؛ وكلُّ ما يُخفي الحق هو كهذا الإناء: لون على الحق لا فيه؛ ثم أيقنَّ أن محاولة إخراج أمةٍ كاملةٍ من نزَعاتِ ماعزةٍ مأفونة، هي كمحاولة استيلادِ الفيلِ من الماعزة..!

قال كليلة: واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنزَ الحمقاء قد كفرَتْ كُفرَ الذبابة، لما أخذَها اللَّه أخذَ الذبابة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن ذبابةً سوداءَ كانت من حمقَى الذبان، قُدرَت الحماقة عليها أبديَّة، فلو انقلبت نقطة حبرٍ في دواةٍ لما كُتبت بها إلا كلمة: سُخف.

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيةٍ ضخمة، فجعلت تقابلُ بين

نفسها وبين المرأة وقالت: إن هذا لمن أدل الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه، وأنه مُرسلٌ كيف يتفق على ما يتفق، عبثًا في عبث، ولا ريبَ أن الأنبياء قد كذبوا الناس، إذ كيف يستوي في الحكمة خلقي (أنا) وخلقُ هذه الذبابة الضخمةِ التي أنا فوقها..؟

ثم نظرت ليلةً في السماء، فابصرت نجومَها يتلألأن وبينها القمر؛ فقالت: وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندي من فَوضى العالم، وكذب الأديان، وعبثِ المصادَفات؛ فما الإيمانُ بعينه إلا الإلحاد بعينه، ووَضع العقل في شيء هو إيجادُ الألوهية فيه، وإلا فكيف يستوي في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض ورفعُ هذا الذبانِ الأبيض ويعسوبِه الكبير[1] إلى السماء...؟

ثم إنها وقعت في دار فلاح، فجعلت تمورُ فيها ذهابًا وجِيئةً، حتى رجعت الفلاح من مرعاها، فبُهتت الذبابةُ وجمدَت على غُرّتها من أول النهار إلى آخره، كأنها تُزاولُ عملاً؛ فلما أمست قالت: وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فَوضى الأرزاق في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثقبتا ثقبين في وجه هذه البقر.. واكتنتا فيهما تأكلان من شَحمِها فتعظمان سِمَنًا؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبابي يسمونهما عينين.. وأنا قضيتُ اليومَ كلَّه أخمشُ وأعضُّ وألسع لأثقُب لي ثقبًا مثلهما فما انتزعت شعرة؛ فهل يستوي في الحكمة رزقي (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين في وجه البقرة..؟

ثم إنها رأت خُنفساء تدب دبيبها في الأرواث والأقذار؛ فنظرت إليها وقالت: هذه لا تصلح دليلاً على الكفر؛ فإني (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحة وليس لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذباب القرون الأولى، ذلك الذي كان بليدًا لا يتحرّكُ فلم تجعل له الحركة

---

(١) اليعسوب: أمير النحل والذبان ونحوهما، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض.

جناحًا[1] . ثم إنها أصغت فسمعت الخنفساء تقولُ لأخرى وهي تحاورها: إذا لم يجد المخلوقُ أنه كما يشتهي فليكفُر كما يشتهي؛ يا وَيحنا! لِمَ لم نكن جاموسًا كهذا الجاموس العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنفُخُه ولم نجد..؟

فقالت الذبابة: إن هذا دليلُ العقل في هذه العاقلة، ولَعمري إنها لا تمشي مثاقلةً من أنها بطيئةٌ مرهقة بعجزها، ولكن من أنها وَقُورٌ مثقلةٌ بأفكارها، وهي الدليلُ على أني (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة..!

وجعلت الذبابةُ لا يسمعُ من دندنتها إلا، أنا، أنا، أنا.. من كُفرٍ إلى كفرِ غيرِه، إلى كفرِ غيرهما؛ حتى كأن السماوات كلها أصبحت في معركة مع ذبابة..

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سعيها؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتها نفسُها، فوقفت تحكُّ ذراعَها بذراعها ـ دَنت بَطةٌ صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس، فمدَّت مِنقارها، فالتقطتها.

ولما انطبق المِنقارُ عليها قالت: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي خلَق البطة..!». هـ من وحي القلم.

* قُتل الإنسان ما أكفره:

من علم ما فعل غبار الغنم في أتاتورك وهو في أوج غروره، وما فعل النمل بحسده وبقصره، وكيف مات وكيف أخذه الله أخذ عزيز مقتدر علم روعة بيان الرافعي نابغة الزمان.

---

(١) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا.

◻ يقول الرافعي متهكمًا بأعداء الخلافة الإسلامية:

رأى الطفل نابَ الليث مِسْمار فكّه فظنّ عُـرامُ الليث يكفيه مبردُ
فلما دنا منه وصمَّم وانتحى إذا هُو فوق الناب لحمٌ مبددُ
فلما دنا منه وصمّم وانتحى إذا النابُ موتٌ بل من الموت أنكدُ
فلما دنا منه وصمّم وانتحى إذا الليثُ كل الليث ناب محددُ
فيا طفلها ما كل ما أنت مصلح بحمقك إلا بعض ما أنت مفسدُ
أتوْا وبهم ريحُ الجنون ليعصفوا وصالوا ببأس المعتدين ليعتدوا
رموا شبكات الحرب في لجّة السما لِصيْد هلال اللَّه لما تصيّدوا
ثرى الأرضِ قد مدّ الزوابعَ سُلّمًا ونادى الهلال انزل وإلا فأصعدُ
فصبَّت عليهم جنـده بل نجومـه غزاةً هداةً كي يفيقوا ويهتدوا
ترف لهم راياتهـم أين رفرفت بأجنحة الأملاك تأتي فتحشدُ
حنيفيّـةٌ إنْ همَّ للَّه جيشـها فما هزّها إلا النبي محمدُ
مساعيرُ حرب لا تنام همومهم ولا هُم على يقظى الحوادث هُجَّدُ
فيا جبل الدنيا وإنْ كنت راسخًا أبالقَـدرِ الجـاني نظنّـك تبعدُ(١)

* **دفاعه عن علماء الإسلام:**

حين سقطت الخلافة على أيدي المتآمرين على حكم اللَّه، نهض قوم من علماء الأزهر يكتبون في الصحف اليومية مستنكرين ما قام به كمال أتاتورك من محاربة الشريعة في أقوى مظهر لها، وهو الخلافة الإسلامية، ولكن الذين في قلوبهم مرض قد شغبوا على العلماء في غير هوادة، وتجرءوا على التاريخ الإسلامي حين حكموا بأنّ علماء الإسلام في كل العصور كانوا مطايا للظالمين، وأبواقًا للفساد السياسي، وتحولوا إلى علماء تركيا في عهد

(١) «مصطفى صادق الرافعي» لمحمد رجب البيومي (ص٢٤٠ ـ ٢٤١).

الخلافة فرموهم بالرشوة وسلب الأموال، وافتروا على اللّه الكذب في كل ما قالوه إذ لم يُقدّموا دليلاً واحدًا على صحة هذه المفتريات، وقد ردَّ الأساتذة: علي سرور الزنكلوني وعبدالباقي نعيم سرور وعبد ربه مفتاح من علماء الأزهر، على كل ما قيل من الأراجيف، ونظر الرافعي فوجد أن تاريخ العلماء في عصور الإسلام لم يُكتب على وجهه الصحيح، حين ظلّ مهملاً في كتب الطبقات، دون أن يرجع إليه باحثٌ ما فيظهرُ ما كان لهؤلاء الأعلام من سطوات جبارة في وجه الباطل، ومن ثم أخذ يكتب سلسلةً أدبية عن كبار العلماء ممن جابهوا السلطان في غير هوادة، ليقول للمنكرين إنكم لم تقرءوا التاريخ، أو قد تكونون قرأتُموه، وغلب عليكم المراء، فأبدلتُم الحق باطلاً.

وقلمُ الرافعي في مضمار التصوير التاريخي لا يلحقُه مصورٌ مهما افتنَّ في صنعته، لذلك جاءت كتاباته عن سعيد بن المسيب وأبي عامر الشعبي ومالك بن دينار وأحمد بن حنبل والحسن البصري والعز بن عبدالسلام وغيرهم من أفذاذ الأبطال، أبطال الفكر النزيه، والرأي الصريح، مما أحدث التفاتةً كبرى لدى المثقفين نبّهت الأذهان إلى جلال العلم وسطوة العلماء. حلّق بنا الرافعي ببلاغته العلوية اتي تسمو بنا وتسمو.

طلعت مقالته عن علماء الإسلام على الدنيا شمسًا ساطعة، عرفت معها الدنيا كيف تكون حُصيات الليل لآلئ النهار.. ولم تكن دنيا الناس في زمانه تعرف من الأدب إلا الذي يسقط عليهم من باريس، أو لندن أو «بُوينِس إيرس» فغطّى الرافعي على خيام أهل الجديد ودورهم المبنيّة من الطين والقش بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبت الدهر.

◻ للّه در الرافعي وهو يحدثك عن «أمراء للبيع» وسلطان العلماء العز ابن عبدالسلام.. وحين يتحدث عن ابن دقيق العيد.

وانظر إليه في حديثه عن شيخ الإسلام أبي الحسن بنان الجمال الزاهد حين واجه بن طولون في جبروته الآثم، فاستشاط الحاكم بأمره غضبًا، وأمر بإحضار أسد شرس من آسادِ ولده خمارويه ليأكل الشيخ مفترسًا جزاءً على تهجمه بالحق، وجلس الشيخ. وخرج الأسد الجائع، فطاف حول الشيخ، ولم يمسسه بسوء، وارتاع ابن طولون لهول ما وجد من كرامة الشيخ، فتخاذل وذهب ليسترضيه، قال الرافعي يُصوِّر الموقف الرهيب، الرهيب حقًّا!! بأروع ما يحتمل هذا اللفظ من معان[1] :

«وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيمًا ضاريًا، عارم الوحشية، متزيِّل العَضَل، شديد عصب الخلق، هرّاسًا فرّاسًا، أهرت الشدق يلوحُ شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر، يُنبئ أنّ جوفه مقبرة، ويظهرُ وجهه خارجًا من لبدته، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله.

وأجلسوا الشيخ في قاعة، وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع، وهَجهجوا بالأسد يَزجرونه، فانطلق يُزمجر ويزأر زئيرًا تنشق له المرائر، ويتوهّم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة!!

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعرَّ، ثم تمطَّى كالمنجنيق يقذفُ الصخرة، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين، ورأيناهُ على ذلك ساكنًا مطرقًا، لا ينظرُ إلى الأسد، ولا يحفل به، وما مِنّا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل!!.

ولم يَرُعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيّته، فأقعى على ذنبه، ثم لصق بالأرض هنيهةً يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضةً أخرى، كأنه غير الأسد،

---

(١) «وحي القلم» للرافعي (٣/ ٥٠).

فمشى مترفقًا ثقيل الخطو، تُسمع لمفاصله قعقعةٌ من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحتَكّ به ويلحظه ويشمّه، كما يصنعُ الكلب مع صاحبه الذي يأنسُ به، وكأنّه يعلن أنّ هذه ليست مُصاولةً بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزةٌ بين إرادة ابن طولون وإرادة اللَّه»!!.

ثم ماذا؟! لقد جرى الرافعي إلى غايته فتملَّك ناحية التأثير، فهل أنقل كلّ ما قال؟! وإنه لرائع خلوب!!

* رثاء الرافعي لشيخ العروبة أحمد تيمور:

«أما رثاء الرافعي لأحمد تيمور ـ رحمه اللَّه ـ فصرخة عالية من صرخات التفجع لمغيب مسلم صادق غيور بذل ماله وعلمه ووقته في نصرة الإسلام واللغة العربية، جامعًا شتى مخطوطاتها من أقصى جنبات الأرض مهما كلفته جهد الجسم والعقل، وضخامة ما يبذل من مالٍ حين يُغالي تجار المخطوطات مغالاة من لا يتوقع الرفض من حريص أمين، وآية العظمة في أحمد تيمور أنه كان استثناءً نادرًا بين أبناء طبقته من ذوي الألقاب الضخمة، والمال الوافر، والحسب العريض، فلم يركن لمجده الأُسَري، ولقبه اللامع وثرائه الضخم ركون من يظن الحياة لعبًا ولهوًا، ولكنّه جعل ذلك كله وسيلة لخدمة الإسلام، وكُتب العربية، كما كان حربًا على أعوان التفرنج، ودعاة التغريب ومدَّعي الاستقراطية، غيورًا كلّ الغيرة على مقدسات الدين وتعاليم الشرع، عدوًا لمن يحاول أن ينتقص قليلاً من مفاخر السلف، وهذا ما جعل الرافعي يحس وقع الصدمة العنيفة في مُعسكر المؤمنين الخلَّص بفقده المفاجئ، فقال في لوعه[1]:

يا ضربة الموت ما باليتِ أن تقعي ... على امرىءٍ فيه بنيان لنا يقع
على الذي كان حصن الضاد يمنعها ... إن لم تجد صدر حرٍّ فيه تمتنع

(١) «الحديقة» (١٠/ ٧٤).

حصن بأسواره أنصارُها احتشدوا   وحولَ أسواره أعداؤها انصرعوا
رأسٍ على الصخر من دين ومن خلق   فليسَ يُعرف صخرٌ منه يُقتلع
ومن يكن لدفاع الضاد منجرداً   فلينتصب كالرواسي فيمن اتضعوا
وليجفُ مثل جفاء القفر ممتنعًا   على المذلة في أخلاق من خضعوا
وليدّرع صدرُه الصحراء كاشرةً   لمن بسفساف أوربا قد ادّرعوا

◻ كأني بالرافعي كان يتحدث عن نفسه إذ رأى في اتجاه تيمور مثيلاً لاتجاهه!! فأوصى سامعه أن ينتصب كالرواسي فيمن اتّضعوا، ولْيُجفَ مثل جفاء القفر ترفعًا عن المذلة، وليدرع الصحراء هربًا من سفساف أوربا، ويعني بالسفساف ما أُغرم به الشباب لعهده من بريقٍ كاذب يجده في اللهو العابث، والتبرج الشائن، دون أن يُغرمَ باكتشافات أوربا العلمية وتقدّمها الصناعي!! فكان من أسباب انحدارِ أمته وفساد جيله، ولو شاء لعزف عن أساليب السقوط كما يعزف الأباة الناهضون، وهذا ما صوّره الرافعي أبلغ تصوير حين قال:

قالُوا أتى الليثَ حلاقٌ يعلّمهُ   قصَّ الأظافر تجميلاً كما ابتدعوا
يا ليثُ قُلها لذا الحلاق زمجرة   إن المخالب في كفّي هي السّبع
يا ليث قُلها لذا الحلاق همهمةً   زدني مقصّك ظفراً منه أنتفع
يا ليثُ قُلها لذا الحلاق دَمدَمةً   الظفُر لليث بالدنيا وما تسع
لو كلُّ مزمارِ فنٌّ عندنا خَنِثٌ   لنا به مدفعٌ فنانُه بشع
إذن لكانت لنا بين الورى لُغة   متى تَقُل قولها في العالم اقتنعوا
ويحَ الفضائل من باغين لوَّثهم   هوى أُوربّا، فهم ناسٌ وهم بُقع
يجدّدُون لنا أخلاقنا زعمــوا   ضرّوا لنفع فقد ضرُّوا وما نفعوا
يا من يُحطِّم بلُوراً ليسمعَ مِن   أنغَامه ويلَكَ اسمعْ، إنه قِطعُ

◻ وهكذا يجد الرافعي في المناسبة الباكية مجالاً لثورةٍ عارمة يصيح بها صياحَ الأسد الجريح، وقد كانت وثباته الفكرية دائمًا تلتقي مع أناته الوجدانية فتُحرّك جامدَ الإحساس، وتنقلُ السامع من الخاص إلى العام، ومن مُصيبةِ فرد إلى مصيبة أمّة، وقد كان تيمور في مرآة الرافعي نجمًا ساطعًا، أخلاقُه نورُه يستمد عظمته من عظمةِ دينه الذي ملأ شعاب نفسه، وتفرّغ في جسمه فلم يُبق لغيره مكانًا:

من الرجال المصابيح الذين همو ... كأنهم من نجوم حيّة صُنعوا
أخلاقُهم نورهم من أي ناحية ... أقبلتَ تنظرُ في أخلاقهم سطعوا
يُحقق العلم في إنسانه مثلاً ... من قوة الدين، لا زيغٌ ولا بدع
دينٌ تفرغ في جسم فوقّره ... كما يُرى مُفرغًا في جسمه السبع[1]

◻ وقد أطلتُ في الاستشهاد بقلائد من هذه النادرة الناضرة؛ لأنها تصوّر اتجاه الرافعي أدبًا وخلقًا ودينًا، ولو لم يعلم عنه أحدٌ شيئًا وقرأ رثاءه التيموري لعرف خلاصة ما يجبُ أن يعرف من اتجاه الأديب الكبير، ولا أصدق دلالةً على الرافعي من أدبه الصارخ الذي يزأر به في مدلهمات الأحداث زئير الليث تحت العاصفة، وقد نهض لغوثِ أشباله والريح تدمدم، والبرق يلمع، والرمالُ تهيج!! أما امتزاجُ الصورة الرائعة بالفكرة الحية فأوضحَ من أن ندلّ عليه في سياقه الرصين»[2] ا.هـ.

* نصح الرافعي للمرأة، ومحاربته للسفور والتبرج:

قال الكذّابون الدجّالون عن الرافعي أنه عدوّ المرأة الذي يُطالب بسجنها الأبدي خلف الجدران، وهذا باطل لا صلة للحقيقة به، وكل ما يؤلمهم أن الرافعي يدعو إلى تصوّن المرأة، وعدم تبذّلها بالتبرّج الخادع.

(١) الحديقة (١٠/ ٧٤).

(٢) «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٤٩ ـ ٢٥١).

لقد اشتدّ تبرج المرأة المصرية عقب الحركة الكمالية في تركيا؛ لأن الزعيم الجريء قد سمح للمرأة أن تذهب إلى أبعد ما تُوجبه الفضيلة ويمليه العفاف، فكان لذلك صدىً بعيد لدى المحللين في مصر والشرق العربي، فأخذوا يُحبذون اتجاه أتاتورك ويعدونه رمز التقدم والرقيّ، وقد أفردت جريدة السياسة الأسبوعية مقالاً كبيرًا تحت عنوان (فتاة تركيا) نقل الدكتور محمد محمد حسين جزءًا منه في كتابه جاء فيه عن الباخرة التي جعلتها وزارة التجارة التركية معرضًا عامًا، في رحلة على نفقة الحكومة: «إنها تنتقل بين موانئ أوربا الشهيرة.. وهي تقلّ خمسًا وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة، كلهنّ جميلات مقصوصات الشعور، لا يكاد يميّزهن الرائي عن فتيات لندن وباريس، وأكثر الفتيات يتكلّمن الانجليزية بإتقان يدعو للدهشة، وقد قالت إحداهن بلغة انجليزية: «إن المرأة التركية اليوم حرّةٌ، فلن تسير إلى الطرقات في الظلام، وإننا نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية، ونرقص وندخّن ونسافر بغير أزواجنا، «والمعيشة ـ كما قالت فتاة أخرى ـ على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يُوصف، كلُّهن يرقص، وبعد العشاء يبدأ الرقص من تانجو وفوكس ترون» ثم يعلق مراسل الصحيفة بقوله: إن هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل والجهاد الفكري والاقتصادي (أين الجهاد الاقتصادي يا هذا) ولا يسع كلّ محب لتركيا إلا أن يغبطها على هذه الخطوات»[1].

هذه الأقوال التي أخذت تنتشر على مدىً أوسع في الصحف المصرية، ثم ما تبعها من تطبيق عملي أدّى إلى بعض المآسي التي نشرتها الصحف إذ ذاك مما دفع الرافعي إلى محاربة التبرّج والسفور، فكتب كثيرًا عن التصون والحجاب في حدود ما أباح اللّه وقال فيما قال:

---

(١) الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٢٤٤) نقلاً عن السياسة الأسبوعية (١٧/ ٧/ ١٩٢٦).

«وما الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاءُ سعرها في الاجتماع، وصونها من التبذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم: قانونُ العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعةً بائرة يُنادى عليها في مدارج الأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الورديّة، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية، الطرق والأسواق: الأعطاف المرتجة..؛ أوليس فتياتُنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا، فإنّهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا؟!

لقد مُحِق الصبر، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات، فابتُلين من ذلك بالضجر والملل، وتشويه النفس، ووقع في نفوسهن معنى كمعنى العفن في الثمرة الناضجة، وجهلن بالعلم حتى عن طبيعتهن، فما منهنّ من عرفت أن طبيعتها سلبيّة في ذاتها، وأنه لا يشدها ولا يقيمها إلا الصفاتُ السلبية، وملاكُها الصبر: فروعه وأصوله، وجمالُها الحياءُ والعفة، ورمزُها وحارسُها والمعين عليها هو الحجاب وحده. وما تُخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية، وانتحالها صفات الإيجاب وتمرّدها على صفات السلب، كما يقعُ لعهدنا، فإنّ هذا لن يتم للمرأة، ولن يكون منه إلا أن تعتبر المرأة نقائض أخلاقها من أخلاقها، كما نرى في أوربا، ومن هذا تلقي الفتاة حياءها، وتبذُّؤ وتفحش، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعًا فبالمعاني وحدها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك، وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة، والمجلات العارية، فإنّ هذه وهذه ليست شيئًا إلا أن تكون علم الفكر الساقط»(١) .

هذا مقال من مقالات الرافعي التي كتبها حين انتشر التبرج المبتذل،

(١) «وحي القلم» (١/ ١٩٥).

وعمّت الروايات الخليعة، وتباهت المجلات بعرض الصور المُغرية في وجهات صفحاتها كمثال للأنوثة الصارخة.. وانتشرت دور السينما في الأقاليم لتعرض أفلام الانحلال الخلقي في الغرب، وتجعل من المخادنة أمرًا طبيعيًا، بين الرجل والمرأة الأجنبيين، ثم ما نشرته صفحات الحوادث من مآسي الإجهاض والحمل السّري، والقتل انتقامًا للشرف المسلوب، فالسجن الشاق عقابًا على القتل، وتشرّد الأطفال بعد موت الأم، وسجن الأب، ولا من راحم، كل ذلك دفع الرافعي إلى أن ينادي بالالتزام الشرعي، وإلى أن يجهر بصيحته في وجوه من يكتبون قصص الإغراء، وينشرون صور الانحدار، ولم يكتف بالمقالات وحدها، بل أرسل قصائد في هذا المجال أشَرتُ إلى نموذجٍ منها في حديثي عن الرافعي الشاعر. ولكنّ صيحات الرافعي كانت تصدم أدعياء الإغراء والتحلل، فأوسعته صحائف الخلاعة هجومًا وانتقاصًا، وعَدُّوهُ عدوّ المرأة والتقدّم، وجعلوا ذلك مصدر انتقاص، ولم يكن الرجلُ عدوَّ المرأة ولن يكون، فالمرأة هي أمه وزوجتُه وأختُه وبنتُه فكيف يكون عدوّها؟! ومن المفارقات أن الكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم قد باهى في بعض أدوار حياته بأنه (عدو المرأة) فلم يُؤاخذه هؤلاء بشيء، بل ابتسموا لقوله وردّدوه مغتبطين؛ لأنه لم يكن مهاجمًا مُلتزمًا وصاحب حمية كحمية الرافعي، فكيف صار العدو حبيبًا مع اعترافه، وصار الرافعي عدوًا وهو لم يكتب عن المرأة غير ما يوحيه الإخلاص؟!!.

لقد كتب الرافعي عن المرأة الملتزمة أجمل ما كتبه أديب في العالم العربي لعهده، فقد تحدث عنها بأسلوبه البياني المؤثر، حديث المؤمن المصلح الذي يُقَدرُ ما يأخذ وما يدع من معاني البناء الأسري الوثيق كأن يقول:

«إذا ضاقت الدار فَلِمَ لا تتسع النفس التي فيها؟ المرأةُ وحدها هي الجو الإنساني لدار زوجها، فواحدةٌ منهن تدخلُ الدار فتجعل فيها الروضة ناضرةً

متروّحة باسمة، وإن كانت الدار قحطةً مسحوتةً ليس فيها كبير شيء؛ وامرأةٌ تدخل الدار فتجعل فيها مثل الصحراء برمالها وقيظها وعواصفها، وإن كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السندسيّة؛ وواحدةٌ تجعل الدار كالقبر. والمرأة حق المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الإنسانية، فلا تجعل هذا القلب لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشةٍ: مرةً ذهبًا، ومرّة فضّة، ومرةً نحاسًا أو خشبًا أو ترابًا، فإنما تكونُ المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة معًا، فعليها حقّانِ لا حقٌّ واحد، أصغرهما كبير، ومن ثم فقد وجب عليها إذا تزوجت أن تستشعر الذات الكبيرة مع ذاتها، فإن أغضبها الرجلُ بهفوة منه، تجافت له عنها، وصفحت من أجل الجماعة الكبرى، وعليها أن تحكم حينئذٍ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها، وهي طبيعةٌ تأبى التفرق والانفراد وتقومُ على الواجب.

ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفساهما، فإن كل عقدة لا تخرجُ إلا ومعها طريقة حلّها، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ وهو اليسر والمساهلة، والرحمة والمغفرة، ولين القلب وخشية اللَّه، وهو العهد والوفاء والكرم والمؤاخاة والإنسانية، وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيّقة»[1] .

وانظر إليه حين يبيّن مآثر الزوجة الوفية، ومنزلتها لدى زوجها في نفسه وفي بيته، وفي معيشته ومختلف أحواله على لسان أبي ربيعة الفقيه إذ ماتت زوجته فوقف على قبرها راثيًا، بما ترجمه الرافعي عنه فقال:

«يرحمك اللَّه يا فلانة، الآن شفيت أنت ومرضتُ أنا، وعُوفيتِ وابتليتُ، وتركتني ذاكرًا، وذهبتِ ناسية، وكان للدنيا بك معنى، فستكون بعدك بلا معنى، وكانت حياتك لي نصف القوة، فعاد موتُك لي نصف

(١) «وحي القلم» (١/ ١٤٨).

الضعف، وكنت أرى الهموم بمواساتك هموماً في صورها المخففة فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة، وكان وجودك معي حجاباً بيني وبين مشقات كثيرة، فستخلُصُ كل هذه المشاق إلى نفسي، وكانت الأيام تمرّ أكثر ما تمرّ في رقتك وحنانك، فستأتيني أكثر ما تأتي متجردة في قسوتها وغلظتها، أما إن واللَّه لم أُرزأْ منك في امرأة كالنساء، ولكني رُزِئتُ في المخلوقة الكريمة التي أحسست معها أن الخليقة كانت تتلطف بي من أجلها»[١].

* **حديثه عن البنت:**

أما حديثه عن البنت فمن أشفّ وأرق وأصفى ما يكنه الوالد لابنته «البنت الطاهرة هي جهاد أبيها وأمها في هذه الدنيا، كالجهاد في سبيل اللَّه، وإنها فوز لهما في معركة الحياة، يكونان هما والصبر والإيمان في ناحية منها قبيلاً، ويكون الشيطان والهم والحزن في الجهة المناوحة قبيلاً آخر.

إن البنت هي أم ودار، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها، كأنما يحملان الأحجار على ظهريهما حجراً حجراً، ليبتنيا تلك الدار في يومٍ يوم إلى عشرين سنة أو أكثر، ما صحبته وما بقيت في بيته، فليس ينبغي أن ينظر الأب إلى بنته إلا على أنها بنتُه، ثم أمّ أولادها، ثم أمّ أحفاده، فهي بذلك أكبرُ من نفسها، وحقُّها عليه أكبر من الحق، فيه حُرْمتها وحرمة الإنسانية معًا، والأبُ في ذلك يُقرضُ اللَّه إحسانًا وحنانًا ورحمة، فحقٌّ على اللَّه أن يوفّيه من مثلها، وأن يُضعف له»[٢].

* **محاربته للتبرج والسفور والعُرْي: «لحوم البحر»:**

انظر إلى الرافعي للَّه درّه وهو يتكلم عن العري والفجور والتبرج على

---

(١) «وحي القلم» (١/ ٢٢١).
(٢) «وحي القلم» (١/ ٢٤٤).

رمل الشاطئ في الإسكندرية:

«قال الشيطان:

«ألا إن البهيمة والعقلية في هذا الإنسان؛ مجموعُهما شيطانية..

ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به.

هنا تتعرَّى المرأة من ثوبها، فتتعرى من فضيلتها.

هنا يخلعُ الرجلُ ثوبَه، ثم يعودُ إليه فيلبسُ فيه الأدب الذي خلَعه..

رؤية الرجلِ لحم المرأةِ المحرَّمةِ نظرٌ بالعين والعاطفة.

يَرمي ببصره الجائع كما ينظر الصقرُ إلى لحم الصَّيد.

ونَظَرُ المرأة لحم الرجلِ رؤيةُ فكر فقط..

تُحولُ بصرها أو تخفضُه، وهي من قلبِها تنظر..

يا لحوم البحر! سلخَكِ من ثيابك جزَّار..!

* * *

«يا لحوم البحر! سلخك جزارٌ من ثيابك.

جزارٌ لا يذبح بألم ولكن بلذَّة..

ولا يَحزُّ بالسكين ولكن بالعاطفة..

ولا يُميت الحيَّ إلا موتًا أدبيًّا..

إلى الهيجاء يا أبطال مَعركةِ الرجال والنساء.

فهنا تلتحمُ نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق.

للطبيعة أسلحة العُري، والمخالطة، والنظر، والأنس، والتضاحُك، ونُزوعِ المعنى إلى المعنى..

وللأخلاقَ المهزومةِ سلاحٌ من الدين قد صدِئ؛ وسلاحٌ من الحياة مكسور! يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..

* * *

«الشاطئ كبيرٌ كبير، يسعُ الآلاف والآلاف.

ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغير، حتى لا يكون إلا خلوة..

وتقضِي الفتاة سنتَها تتعلم، ثم تأتي هنا تتذكر جهلَها وتعرفُ ما هو..

وتُمضي المرأة عامَها كريمة، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي.

لو كانت حَجَّاجَةً صوَّامَةً، للعنتها الكعبةُ لوجودها في «استانلي».

الفتاة ترى في الرجال العُرْيانين أشباح أحلامِها، وهذا معنى من السقوط.

والمرأة تُسارِقُهم النظر تنويعًا لرجُلِها الواحد، وهذا معنى من المَواخِير..

أين تكونُ النيةُ الصالحةُ لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين؟

يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

* * *

«هناك التربية، وهنا إعلانُ الإغفال والطَّيش.

وهناك الدين، وهنا أسبابُ الإغراء والزلَل.

هناك تكلُّفُ الأخلاق، وهنا طبيعةُ الحرية منها.

وهناك العزيمةُ بالقهر يومًا بعد يوم، وهنا إفسادها بالترخص يومًا بعد يوم.

والبحرُ يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر..

لو درى هؤلاء وهؤلاء معرَّة اغتسالِهم معًا في البحر، لاغتسلوا من البحر.

فقطرةُ الماء التي نجَّستها الشهواتُ قد انسكبت في دمائهم.

وذرَّةُ الرملِ النَّجِسةُ في الشاطئ، ستكبَرُ حتى تصير بيتًا نَجِسًا لأب وأم..

يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

* * *

«يجيئون للشمس التي تقوى بها صفاتُ الجسم؛
ليجد كل من الجنسين شمسَه التي تضعُفُ بها صفاتُ القلب.
يجيئون للهواء الذي تتجدَّد به عناصرُ الدم؛
ليجدوا الهواء الآخر الذي تَفْسُدُ به معاني الدم.
يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية؛
ليأخذوا عنه أيضًا شريعتَه الطبيعية: سمكةٌ تطارِدُ سمكة..
ويقولون ليس على المُصيفِ حَرج،
أي لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حَرج.
يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

* * *

«المدارس، والمساجد، والبِيعُ، والكنائس، ووزارة الداخلية؛
هذه كلّها لن تهزم الشاطئ.
فأمواجُ النفس البشرية كأمواج البحر الصاخب، تنهزمُ أبدًا لترجع أبدًا.
لا يهزم الشاطئ إلا ذلك «الجامع الأزهر»، لو لم يكن قد مُسِخ مدرسة!
فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح.
وتردُّ الأمواج نقيةً بيضاء[1]، كأنها عمائم العلماء.
وتأتي إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصلِ بين الرجال والنساء.

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ، وأن الصواب أن يقال «بيض»، ولسنا من هذا الرأي، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه، لغفلتهم عن السير في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد، ومرة في الوصف بالجمع.

ولكني أرى زمنًا قد نَقل حتى إلى المدارس رُوح «الكازينو» . . !
يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار . . !

* * *

«هنا على رغم الآداب، مملكة للصيف والقَيظ، سلطانُها الجسمُ المؤنثُ العاري.

أجسام تعرِض مفاتنهَا عرض البضائع؛ فالشاطئ حانوتٌ للزواج!

وأجسامٌ تَعرِضُ أوضاعَها كأنها في غُرفةِ نومها في الشاطئ . .

وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها، تُحيط بها معانيها ملتمِسةً معانيه؛ فالشاطئ سوقٌ للرقيق . .

وأجسام خَفِرةٌ جالسةٌ للشمسِ والهواء؛ فالشاطئ كدار الكُفرِ لمن أكره[1].

وأجسامٌ عليلة تَقتَحِمُها الأعين فتزدريها؛ لأنها جَعلتِ الشاطئ مستشفى . . !

وأجسامٌ خليعة أضافت من (استانلي) وأخَواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية مَزبلة الإسكندرية . .

كان جدالُ المسلمين في السفور، فأصبح الآن في العُري.

فإذا تطوَّر، فماذا بقي من تقليد أوروبا إلا الجدالُ في شرعية جمعِ المرأة بين الزوج وشبه الزوج[2] ؟».

انتهى ما استطعتُ ترجمته، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة إلى

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿. . إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

(٢) يسمى هذا في اللغة الضمد بفتح الضاد والميم، وهو أن يخالل الرجل المرأة ولها زوج، ومنه قول الشاعر:

تريدين كيما تضمـــديني وخالدًا ... وهل يجمع السيفان ويحك في غمـد

ومن هذا يقال في الرجل: ذاق الضماد (بكسر الضاد) أي فاق الطعم الذي وصفه أناتول فرانس . .

بعض القواميس الحية.. إلى بعض شبان الشاطئ[1].

* ويقول للفتاة المتبرجة:

كمُلتِ تبرجًا فكملتِ حسنًا ... ولكن جاء نقصك من كمالك
لمن تتبرجين وذي سبيل ... وما هي أفقُ شمسك أو هلالك
أما تخشين أنك في طريق ... يرفّ به الحرام على حلالك
وأن ذئاب هذا الحسن تمشي ... مسعرة اللّحاظ على غزالك
عرضتِ لكي نرى فلقد رأينا ... لديك الحسن إلا في فعالك
كأنك لست بنت أبٍ وإلا ... فما لأبيك لم يخطر ببالك؟
أأختٌ أنت أمْ زوجٌ وأمٌّ ... فما منهن واحدة كذلك
نقابُك ذاك؟ أم لونٌ رقيق ... نراهُ بين ألوان احتيالك
وما هذا الدّهان لناظريه ... سوى روح التلوّن من خلالك
ألا إن الغيار أذىً فمن ذا ... يظنّ غيار وجهك من جمالك
وما لك تسألين الحق منا ... وخلقتُك الجواب على سؤالك
أعزّك فتيةٌ هم عارُ قوم ... إذا قيسوا بفتيان الممالك
جبالُهمُ مهيّأة لكَيْدٍ ... فكيف إذا التَفَفن على حبالك
وكلٌّ قائلٌ فالقول حيٌّ ... وكلٌّ فاعلٌ فالفعل هالك[2]

* الشباب الرقيع المخنث:

وإذن فالرافعي، لا يلوم الفتاة وحدها، ولكنه يلوم الفتى المتبذّل معها؟ فليس متحزبًا لجنسٍ ولكنه ينعى على التبذل في شتى مظاهره. وقد أتبع هذه القصيدة بأخرى قالها في (تخنث الشباب) من الذين ظنوا التقدّم في رقة

(١) «وحي القلم» (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٣).
(٢) «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٤٣).

الملبس، ونعومة اللفظ، وتصفيف الشعر، وترصد خطوات الرائحات الغاديات، وهو مما شاع وذاع في المجتمع المصري، حين تشرّبه دعاة التقدم الزائف والمحاكاة السفيهة لخلاعات ذوي السقوط من الأجانب، وأعجبُ ما عجب منه الرافعي أن يكون من هؤلاء مَن تعلّم وظفر بالإجازة في معاهد أوربا، ولكنه رجع إلى مصر لا لينتفع بما وعَى من علم، بل ليتعالى بالملبس والشارة والأناقة المتكلّفة والحديث الهابط:

غصونٌ في رياض العلم تنمو ... وتُثمر بعد ذاك بما يُعابُ
فلا يغررك شكلُ العود وانظر ... فإنّ لناره صُنع الثقاب
شهاداتٌ ولا عمل يزكّي ... كأن حضورَ حاضرهم غياب
وما نفعُ اليقين بما علمنا ... وفي الآداب شكٌّ وارتياب
بنفسك لا بعلمك أنت منا ... وأنتَ لنا ثوابٌ أو عقاب
ألا إن الشراب لهُ إناء ... فإنْ دنّستَه دنس الشراب
لكانَ الليث أسهلَ ما ركبنا ... إذا لمْ يحمِه ظفر ونابُ
ألا يا قوم للفتيان فينا ... وزينتهم، وما حمدوا وعابوا
رأيتُ لبعضهم أمرًا عجابًا ... وليس كمثله أمرٌ عجاب
يسيل تخنّثًا ويذوبُ ظرفًا ... فهل في أرضنا رجلٌ مذاب
ولانَ كأنّه فينا اعتذار ... تُقدّمه حوادثُنا الصعاب
ومطمحه الذي يرنو إليه ... من العلياء نافذَةٌ وباب
وهّمتهُ الشياب فليس يمشي ... إذا ما سار بل تمشي الثياب
ملوّنةً مصبّغةً لوجهٍ ... له في لونه منها اقتراب
أما في هذه الدنيا أمور ... سِوى الشهوات تحرزها الطلاب
أما في هذه الدنيا أسود ... كما في هذه الدنيا كلاب[1]

(١) المصدر السابق (ص٢٤٣ ـ ٢٤٥)، ومجلة الرسالة العدد ٨٤٤.

* **نصيحة للمرأة الشرقية المسلمة:**

قصيدة مترجمة عن الملك:

* **احذري...!!**

ترجَمْنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة؛ رآني جالسًا تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تُحَاذِرُه أو تَتَوجسُ منه الشرَّ؛ فَتَخَايَل الملكُ بأضوائه في الضوء، وسَنَح لي برُوحه، وبَث فيَّ من سرّه الإلهي، فجعلتُ أنظرُ في قلبي إلى فجر من هذا الشعر يَنبُعُ كلمةً كلمة، ويُشرقُ معنى معنى، ويَستطيرُ جملةً جملة، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرتُ في حُلُم من الأحلام فجئت بها.

وانطلق ذلك المَلَك وتركها في يدي لُغةً من طهارته للمرأة الشرقية في ملائكيتها:

* * *

* **احذري...!!**

«احذري أيتُها الشرقيةُ وبالغِي في الحذر، واجعلي أخصَّ طباعِك الحذر وحده.

احذري تمدُّن أوروبا أن يجعل فضيلتكِ ثوبًا يُوسَّعُ ويُضيَّق؛ فلُبسُ الفضيلةِ على ذلك هو لبسُها وخلعُها..

احذري فنَّهم الاجتماعي الخبيث الذي يَفرِضُ على النساء في مجالس الرجالِ أن تؤدّي أجسامُهنَّ ضريبة الفن..

احذري تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة إلى.. إلى الفضيحة.

احذري تلك النسائية[1] الغَزليَّة؛ إنها في جملتِها تَرخِيصٌ اجتماعي

(١) نحن نستعمل: النسائية والنسوية، وكلاهما عندنا صحيح، والاختيار في كل موضع للأفصح في موقعه.

للحُرَّةِ أن.. أن تُشَارِكَ البغيَّ في نصفِ عملها.

أيتُها الشرقية! احذري احذري!

«احذري التمدن الذي اخترع لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدَّس، لقب «المرأة الثانية»..

واخترع لقتل لقبِ العذراء المقدَّس، لقب «نصف عذراء»..

واخترع لقتل دِينية معاني المرأة، كلمة «الأدب المكشوف»..

وانتهى إلى اختراع السُّرعة في الحب.. فاكتفى الرجلُ بزوجةِ ساعة..

وإلى اختراعِ استقلالِ المرأة، فجاء بالذي اسمُهُ (الأبُ) من الشارع، لتلقي بالذي اسمُهُ (الابنُ) إلى الشارع..

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري وأنتِ النَّجمُ الذي أضاء منذُ النبوَّة، أن تقلدي هذه الشمعة التي أضاءت منذُ قليلٍ.

إن المرأة الشرقية هي استمرارٌ متصلٌ لآدابِ دينها الإنساني العظيم.

هي دائمًا شديدةُ الحفاظ حارِسةٌ لحوزتها؛ فإن قانون حياتها دائمًا هو قانونُ الأمومة المقدَّس.

هي الطُّهر والعفة، هي الوفاء والأنفة، هي الصبرُ والعزيمة، هي كلُّ فضائلِ الأم.

فما هو طريقُها الجديدُ في الحياة الفاضلة، إلا طريقُها القديمُ بعينه؟

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري (ويحك) تقليد الأوروبية التي تعيشُ في دنيا أعصابها محكومةً بقانون أحلامها..

لم تَعُدْ أنوثتُها حالةً طبيعيةً نفسيَّةً فقط، بل حالةً عقليةً أيضًا تَشُكُّ

وتُجادل . .

أنوثةٌ تَفَلسَفَتْ فرأت الزواج نصف الكلمة فقط . . والأم نصف المرأة فقط . .

ويا ويل المرأة حين تنفجرُ أنوثتُها بالمبالغةِ، فتنفجرُ بالدواهي على الفضيلة . .

إنها بذلك حُرَّةٌ مساويةٌ للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها . .

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري خَجَل الأوروبية المترجلةِ من الإقرار بأنوثتها.

إن خَجَلِ الأنثى يجعلُ فضيلتَها تخجلُ منها . .

إنه يُسقطُ حياءها ويكسو معانيَها رُجُولةً غيرَ طبيعيَّة،

إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى . .

والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجة إنسانيةً بالزواج.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري تَهَوُّس الأوروبية في طلبِ المساواة بالرجل.

لقد ساوتهُ في الذهابِ إلى الحلاق، ولكن الحلاق لم يجد في وجهها اللحية . .

إنها خُلقت لتحبيبِ الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادّة تبغيض.

العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبى أبدًا أن تَتَساوى المرأةُ بالرجلِ إلا إذا خسرته.

والأعجبُ أنها حين تخضع، يرفعُها هذا السرُّ ذاتُه عن المساواة بالرجل

إلى السيادة عليه.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري أن تَخسري الطباع التي هي الأليقُ بأم أنجبت الأنبياء في الشرق.

أم عليها طابَعُ النفس الجميلة، تَنشُرُ في كل موضعٍ جَوَّ نفسِها العالية.

فلو صارت الحياةُ غيمًا ورعدًا وبرقًا، لكانت هي فيها الشمس الطالعة.

ولو صارت الحياةُ قيظًا وحرُورًا واختناقًا، لكانت هي فيها النسيم يَتَخَطَّر.

أم لا تُبالي إلا أخلاق البُطولةِ وعزائمَها، لأن جدَّاتها ولدن الأبطال.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري هؤلاء الشبَّان المتمدنين بأكثر من التمدن..

يُبالغُ الخبيث في زينته، وما يدري أن زينتَه مُعلنَةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر..

ويبالغُ في عَرضِ رُجولتهِ على الفتَيات، يحاولُ إيقاظ المرأةِ الراقدَة في العذراء المسكينة!

ليس لامرأة فاضلة إلا رَجُلُها الواحد؛ فالرجالُ جميعًا مَصائبُها إلا واحدًا.

وإذ هي خالطتِ الرجال، فالطبيعي أنها تُخالط شَهَوات، ويجب أن تحذَرَ وتُبالغ.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري؛ فإن في كل امرأة طبائعَ شريفةٌ مُتهوّرة؛ وفي الرجالِ طبائع خسيسة متهوّرة.

وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرف فيه الميل إلى النزول، وبين الخِسَّة فيها الميل إلى الصعود.

فيكِ طبائعُ الحب، والحنان، والإيثار، والإخلاص، كلما كَبُرتِ كَبُرت.

طبائع خَطِرَة، إن عملت في غير موضعها.. جاءت بعكس ما تعملُه في موضعها. فيها كل الشرفِ ما لم تنخدع، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار أيتها الشرقية! احذري احذري!

«احذري كلمةً شيطانيةً تسمعينها: هي فنية الجمال أو فنية الأنوثة وافهميها أنتِ هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال.

بكلمةٍ يكون الإحساس فاسدًا، وبكلمة يكون شريفًا.

ولا يَتَسَقَّط الرجل امرأةً إلا في كلمات مُزَيَنة مثلِها..

يجب أن تتسلحَ المرأة مع نظرتها، بنظرةِ غضب ونظرةِ احتقار.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري أن تُخدَعي عن نفسك؛ إن المرأة أشدُّ افتقارًا إلى الشرف منها إلى الحياة.

إن الكلمة الخادعةَ إذ تقال لك، هي أخت الكلمةِ التي تقال ساعةَ إنفاذِ الحكم للمحكوم عليه بالشنق..

يَغترُّونك بكلماتِ الحب والزواجِ والمال، كما يقال للصاعِدِ إلى الشناقة[1] ماذا تشتهي؟ ماذا تريد؟

(١) كلمة «المشنقة» ليست عربية، ولكن لها وجهًا في الاشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة، وكان اسمها قديمًا «الشناقة»، ذكرها ياقوت في معجم الأدباء، وهي أفصح وأخف فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة..

الحب؟ الزواج؟ المال؟ هذه صلاة الثعلب حين يَتظاهر بالتقوى أمام الدَّجاجة..

الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحمَ الدَّجاجة! بعض كلماتِ الثعلب هي أنياب الثعلب..

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري السقوط؛ إن سقوط المرأة لِهولهِ وشدَّتِه ثلاث مَصائبَ في مصيبة:

سقوطُها هي، وسقوط من أوجدوها، وسقوط من تُوجِدهم!

نَوَائب الأسرةِ كلها قد يَستُرها البيت، إلا عارَ المرأة.

فَيَد العار تقلب الحِيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل ما لا يُرى هو ما يُرى.

والعار حكمٌ يُنفذه المجتمع كلُّه، فهو نفيٌ من الاحترام الإنساني.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«لو كان العار في بئر عميقة قلبها الشيطان مِئذنةً ووقفَ يُؤذن عليها.

يفرح اللعين بفضيحةِ المرأة خاصةً، كما يفرح أب غنيٌّ بمولود جديد في بيته..

واللصّ، والقاتل، والسكير، والفاسق، كلٌّ هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحر والبرد:

أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هي الزلزلة.

ليس أفظعُ من الزلزلة المرتجة تشق الأرض، إلا عار المرأة حين يشق

الأسرة.

أيتها الشرقية! احذري احذري!»[1] .

* **من درر الرافعي ونصحه للنساء في «وحي القلم»:**

☐ قال ـ رحمه الله ـ عن المرأة المتبرجة ونساء الليل تحت عنوان «الجمال البائس»:

«إذا خرجت المرأةُ من حُدود الأسرة وشَريعتها، فهل بقي منها إلا الأنثى مجردةً تجريدَها الحيوانيَّ المتكشف، المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى؟

«وما الذي استَرْعاها الاجتماعُ حينئذٍ فتَرعاه منه وتحفظُه له، إلا ما استرعَى أهلُ المالِ أهلَ السرقة؟ إن الليلَ ينطوي على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء.

«وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت رذائلها دائمًا وراء عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائمًا الأمهاتُ والمُحصَنَاتُ من النساء، وليس شأنُها من شأنهن؟ إن خيالها يُحرزُ في وعيه سورتها الماضية من قبل أن تزِلَّ، فإذا خلَت إلى نفسها كانت فيها اثنتان، إحداهما تلعنُ الأخرى، فترى نفسها من ذلك على ما ترى.

«وهي حين تُطالعُ مرآتها لِتتبرَّجَ وتحتفلَ في زينتها، تنظر إلى خيالها في المرآة بأهواءِ الرجال لا بعيني نفسها، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة؛ فلا تُعنَى بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة، بل مُثمرة كالتاجر.. وتكسُّبها بجمالها يكونُ أولَ ما تفكر فيه؛ ومن ذلك لا يكونُ سرورُها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسبُ منه؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة، فإن سرورَها بمسحةِ الجمالِ عليها هو أول

(١) «وحي القلم» (٢/ ١٩٤ ـ ١٩٧).

فكرها وآخرُه.

«إن الساقطة لا تنظر في المرآة ـ أكثرَ ما تنظر ـ إلا ابتغاء أن تتعهَّدَ من جمالها ومن جسمها مواقعَ نظرَات الفجُور وأسبابَ الفتنة، وما يَستَهْوي الرجلَ وما يُفسدُ العفَّة عليه؛ فكأن الساقطة وخيالها في المرأة، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأةٍ، لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها..»[1].

جمالُها، فتنتها، سحرُها، حديثها لهُوها؛ آه لا يبقَى لهذا كلُه عينٌ ولا أثر، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذُنوبٌ، وذنوبٌ، وذُنوب!

«المرأة من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع، طمعت في الاحترام من رجل شريف متعفف، ولو احترام نظرة، أو كلمة. تقنع بأقل من ذلك وترضى به، فالقليل مما لا يدرك قليله، هو عند النفس أكثر من الكثير الذي لا يُنال كثيره».

«يا بؤسنا من نساء! لقد وُضعنا وضعًا مقلوبًا، فلا تستقيم الإنسانية معنا أبدًا اليقظة ليس لها عندنا النهارُ بل الليل، والصَّحو لا يكون فينا بالوعي بل بالسُّكر، والراحةُ لا تكون لنا في السكون والانفراد، بل في الاجتماع والتبذُّل؛ وماذا يردُّ على امرأةٍ من واجباتها السهرُ والسكرُ والعَربدةُ، التبذلُ، وتَدريبُ الطباع بالوَقاحة، وتضريةُ النفسِ على الاستغواء، والتَصَدي بالجمال للكَسبْ من رذائل الفُسَّاق وأمراضِهم، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليب آخرُها الهَوانُ والمذَلة، واستِماحتُهم بأساليب أولها الخداعُ والمكر؟

إن حياةً هذه هي واجباتُها، لا يكونُ البكاء والهمُّ إلا من طبيعةِ من يحياها، وكثيرًا من نُعالج الضحك لنفتَح لأنفسِنا طُرُقًا تَتَهارَبُ فيها معاني البكاء؛ فإذا أثقلنا الهمُّ وجَلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّفِ السرور، خَتَلنَا

(١) «وحي القلم» (١/ ٢٠٤).

العقلَ نفسَه بالخمر؛ فما تسكرُ المرأةُ منا للسكر أو النَّشوة، بل للنسيان، للقُدرة على المَرَح والضحك، ولإمداد محاسنِها بالأخلاقِ الفاجرة، من الطيش والخلاعةِ والسَّفه وهذَيانِ الجمال الذي هو شعرُه البليغ. . عند بُلَغاء الفُسَّاق[1] .

«إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُه على أنفسنا، وليس من امرأةٍ في هذه الصناعة إلا وهي مُعِدةٌ لمستقبلها: إما نوعًا من الانتحار، وإما ضربًا من ضُروب الاحتمالِ للذل والخسف؛ وليس مستقبلُنا هذا كمستقبل الثمار النَّضِرة إذا بقيت بعد أوانِها، فهو الأيام العفِنَةُ بطبيعةِ ما مضى. . بَلى إن مستقبل المرأة البغيِ هو عقابُ الشر.

❑ «هذا كلامٌ ينبغي أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تَبَرَّم بزوجها وتضجَر وتغتمُّ، وتزعمُ أنها مُعذبة؛ فتَتَسخَّطُ الحياةَ، وتندُبُ نفسها، ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحدٍ، تألفُه، فتعتادُه، فتُرزَقُ من اعتياده الصبرَ عليه، فيسكنُ بهذا نفَارُها؛ وتلك نعمة واجبُها أن تحمدَ اللّه عليها، ما دام في النساء مثلُ الشَّهيدات، تتعذبُ الواحدةُ منهن فُنونًا من العذاب بمائة رجل، وبألفِ رجل، وهم مع ذلك يبتلونَ روحَها بعددِهم من الذنوب والآثام.

وقد تستثقِلُ الزوجةُ واجباتها بين الزوج والنسل والدار، فتغتاظُ وتشكو من هذه الرَّجرَجة اليوميةِ في الحياة؛ ثم لا تعلم أن نساء غيرَها قد انقلبت بهن الحياةُ في مثل الخسف بالأرض.

وقد تجزعُ للمستقبل وتَنسى أنها في أمانِ شَرفِها، ثم لا تعلم أن نساءً

(١) المصدر السابق (١/ ٢١٤).

يَترقبنَ هذا الآتي كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة، من يومٍ فيه الشرطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كله.

فقلتُ: وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العَزاء كلُّ العزاء للزوجات، وهي أن الزوجة امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها.

والزوجة امرأة تجدُ الأشياء التي تتوزعُ حبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانيًّا على طبيعته، يفيضُ بالحب، ويستمدُّ من الحب؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئًا، فتنقلب وحشيَّةَ القلب، يفيضُ قلبُها برذائلَ، ويستمدُّ من رذائل؛ إذ كان لا يجدُ شيئًا مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل.

والزوجة امرأة هي امرأة خالِصة الإنسانية، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادة مُهلِكة.

وتَمامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طبيعيًّا مستَقرًّا في قانونه إلا للزوجات وحدهن؛ فهو نعمتُهنَّ الكبرى، وثوابُ مستقبَلهن وماضيهن، وبَرَكتُهن على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيَّةٌ بزوجها، فإن زوجَها قد أولدَها سعادتَها، وهذه وحدها مزية ونعمة؛ أما أولئك فليس لهن عاقبة؛ إذ النسلُ قلب لحالتهن كلها؛ وهو غِنىً إنسانيٌّ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقرًا؛ وهو رحمة، ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن، حب الرجل الجديد، فكانت هذه نقمة أخرى.

يا عجبا!! كل شيء في الحياة يُلقي شيئًا من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة.

وليست الحجارة هي الحجارة فقط، بل منها ألفاظ تُرجم بها كتسمية الناس لها «بالساقطة»؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر.

وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«والمرأةُ التي لا يَحميها الشرفُ[1] لا يحميها شيء، وكل شريفة تعرفُ أن لها حياتين إحداهما العفة، وكما تُدافِعُ عن حياتها الهلاكَ، تُدافعُ السقوط عن عفتها؛ إذ هو هلاكُ حقيقتها الاجتماعية؛ وكلُّ عاقلة تعرفُ أن لها عقلين تحتمي بأحدِهما من نَزواتِ الآخر، وما عقلُها الثاني إلا شَرف عِرْضها.

«ما تسامح الرجال في شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه.

إن عفاف المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها، ما لم تتهيأ لها الوسائل والأحوال التي تُعين نفسها على ذلك؛ وأهم وسائلها وأقواها وأعظمها، تشدُّد الرجال في قانون العِرض والشرف.

فإذا تراخَى الرجالُ ضَعُفَت الوسائل، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعفِ تنبثق حريةُ المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر، على ما تكون أحوالُها وأسبابُها في الحياة. وهذه الحريةُ في المدنية الأوروبية قد عوَّدت الرجال أن يُغضوا ويَتَسمّحوا، فتهافَتَ النساء عندهم، تنالُ كلٌّ منهن حكمَ قلبِها ويَخضَعُ الرجل..

على أن هذا الذي يسميه القومُ حرية المرأة، ليس حريةً إلا في التسمية، أما في المعنى فهو كما ترى:

إما شُرودُ المرأة في التماس الرزقِ حين لم تجد الزوجَ الذي يَعُولُها أو يكفيها ويُقيم لها ما تحتاج إليه، فمثلُ هذه هي حُرةٌ حريةَ النكَدِ في عيشها؛ وليس بها الحريةُ، بل هي مستعبِدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة.

وإما انطلاقُ المرأةِ في عَبَثاتِها وشهواتِها، مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق

(١) شرف المرأة في التزامها بأوامر دينها وبعدها عن نواهيه.

حرية الاستمتاع في الرجال، بمقدار ما يشتريه المال، أو تُعين عليه القوة، أو يسَوغُه الطيش، أو يجلبه التهتك، أو تدعو إليه الفُنون؛ فمثلُ هذه هي حرةٌ حريةَ سقوطِها؛ وما بها الحرية، بل يستعبدُها التمتع.

والثالثة حريةُ المرأة في انسلاخِها من الدين وفضائله، فإن هذه المدنيةَ قد نسخَت حرامَ الأديان وحلالها بحرام قانوني وحلالِ قانوني، فلا مسقَطة للمرأة ولا غَضاضةَ عليها قانونًا.. فيما كان يُعد من قبلُ خزيًا أقبحَ الخُزي وعارًا أشدَّ العار؛ فمثلُ هذه هي حرةٌ حرية فسادِها، وليس بها الحرية، ولكن تستعبِدُها الفَوْضى.

والرابعةُ غَطرَسةُ المرأة المتعلمة، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معًا؛ فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكونَ الزوجَ الناعمَ كقفَّاز الحرير في يدها، ولا الزوجَ المؤنَّث الذي يقولُ لها نحن امرأتان.. فهي من أجل ذلك مُطلقةٌ مُخَلاَّة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمرة؛ فمثلُ هذه حرةٌ بانقلاب طبيعتها وزيغها، وهي مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها.

حريةُ المرأة في هذه المدنية أولها ما شئتَ من أوصاف وأسماء، ولكن آخرَها دائمًا إما ضيَاعُ المرأة وإما فَسادُ المرأة.

والدليلُ على التِواء الطبيعةِ في المدنية، استواء الطبيعة في البادية؛ فالرجال هنا قَوَّامون على النساء، والنساء بهذا قوَّاماتٌ على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكرَ انتقامًا يَفُورُ دمًا؛ وبهذه الوحشية يقرّرون شرَفَ العِرض في الطبيعة الإنسانية، ويجعلونه فيها كالغريزة، فيُحَاجِزُون بين الرجال والنساء أول شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمة حوله»[1].

* * *

(١) «وحي القلم» (١/ ٢١٤ ـ ٢١٨) باختصار.

* **لله درك يا أبا السامي:**

❑ ما أحلى ما قيل فيك وفيمن زعموا أنهم أنصار الجديد[١] .

كثر التفيهقُ في الجديد ونهجه ... كم مَنْ تكلَّم بالجديد وما دَرَى
وعَدا رجال يحلمون بأن يروا ... شملَ العروبة في البيان مبعثرا
حرجت صدورهُم بأن يجدوا من الـ ... قرآن موردَ أمة والمصدرا
فتقصّدوا أن يطفئوا ذاك الضّيا ... وتعمدوا أن يفصموا تلك العُرَى
وتغفّلوا قومًا أبت أحلامهم ... أن تَستبين الرشدَ أوْ تتدبرا
فمحا بنور الحق آية ليلهم ... وأراهُمُ عنه النهار المُبصرا
ورماهُمُ بكتائبٍ من كُتْبه ... فتطايَروا كالحُمْرِ لاقت قَسْوَرا
واقاهُمُ ببلاغة مُطرِيَّة ... ما كان معجزُها حديثًا يفترى
فغدت سفاسفهم لدى آياته ... نَار الحُباحب ناوحت نار القرى
من ذا يُضارع في البيان عصابة ... قد أوضحوا نهج البلاغة نيِّرا
هم ذلك السلف الذين لسانهم ... تنحط عنه جميع ألسنة الوَرَى
من ذا يطاولُ في البلاغة أحمدا ... وصحابَه، وأبا ترابٍ حيدرا؟
المُعْربينَ إذا أجالُوا خاطرًا ... عنه بأعذبَ ما يكون وأقصرا
والمانعين المُسكراتِ وقولُهم ... ما دارَ في الألباب إلاّ أسكرا
تلك العصابة من يَحدْ عن سُبْلها ... حَقًّا يقال لمثله: أطْرق كرا
زعَم الأُلى نحَوُا الجديدَ بأنه ... عصرٌ تحتَّم أن يخالفَ أعصرًا
حسَبوا التدني في البيان تقدّما ... رَأَوُا الركاكةَ بالثقافة أجدرا

(١) من رثاء شكيب أرسلان للرافعي من كتاب «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٩١ - ٢٩٣).

عمدُوا إلى التغيير حتى يُحْدِثوا حدثًا يبلِّغهم مرادًا مُضْمَرا
واستظهروا بمقالةٍ تلخيصُها أن القديم مَضَى، وولَّى مدبرا
قد فاتهمْ أنَّ الحلاوة سَرْمد ومذاقُ طعم الشهد لن يتغيرا
كم من قديم لا يُزال رواؤه متألقًا يحكي الصباحَ المسفرا
مهما تقادمَ جوهـرٌ في عِتْقه فهو الثمين، وليسَ يبرح جوهرا
من حاد عَن حبِّ الجمال تعنّتا يتبدلِ الأدنى، ويبغي الأحقرا
لغة قَلَوْا أسلوبَها، وتخيروا عنها كلامًا مثل أحلام الكرى
يرتد وارده وما ذاق الرِّوَى ويعودُ قارئه اللبيب وما قرا
أخنى «أبو السامي» على غُلَوَائهم وأذاقَهم مرَّ الكفاح المقرا
وذَرَا دَعاويَهم كما نُثِر الهبَا وأعادَ خُضرتهم هشيمًا أغبرا
زحفت بلاغتُه تجرّ جيوشَها فانقاد طوعًا من أبىَ واستكبرا
قدْ يحرقون عليه من حسدٍ، ومن بُغض، ولكنْ يحرقون العنبرا
ما زال في الأدب النزيهِ مبرِّزا حتى إذا شهد السفاهةَ قصَّرا
أعززْ «أبا السامي» عليَّ بأن أرى ذاك اليراعَ الجاحظيّ مكسَّرا
من أسرةِ القصب الضعيف وفعلُه في الخَطب يهزأ بالحديد مُعَصْفَرا
لك في البيـان رئاسة أزليـة أبديّة، ليست تُباع وتشترى
قل للمحاول أن يرى أنداده أقصرْ فكل الصيد في جوف الفرَى

* * *

*** شيخ العروبة وحامل لوائها فارس التراث أبو فهر الشيخ محمود محمد شاكر (١٣٢٧هـ-١٤١٨هـ) = ١٩٠٩-١٩٩٧م:**

الفارس الأخير الذي سقط تحت «راية القرآن» وفي حومة الدفاع عن مقومات هذه الأمة وأصالتها وقرآنها وفُصحاها وتراثها وهويتها الإسلامية، التي ضاعت الأمة بعد أن أضاعتها.

◻ للّه در أبي فهر الحاصل على جائزة الملك فيصل في الأدب العربي، ولقد كان شيخ العربية الشيخ محمود شاكر صاحب منهج يقوم على العودة إلى التراث، وعلى التمسك بلغة القرآن وأدب العربية الأصيل، في شعره الجاهلي وما بعد الجاهلي، ليكون من ذلك كله درع تصدّ عن الأمة تيار التغريب الجارف الذي ضيّع هوية الأمة بالتقليد الأعمى لكل ما لدى الغرب. وأقام الشيخ لمنهجه المعالم والصوى.

◻ وكان للشيخ فرادة في مجالات عديدة أجاد فيها، سواء في مجال التحقيق الذي كان صاحب منهج منفرد فيه، أم في مجال الدراسات الأدبية والفكرية، أم في مجال الإبداع الذي بلغ ذروة العطاء في ملحمة «القوس العذراء» التي قال فيها الناقد الكبير الدكتور إحسان عباس: «لا ريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيرًا حين لم يهتد إلى (القوس العذراء) وأن الناقد الحديث كان يعشوا إلى أضواء خادعة حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غريبة، ولم يستطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت القوس العذراء»[1] .

◻ الشيخ محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبدالقادر، من أسرة أبي علياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما.

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص١).

◘ ولد في الاسكندرية الساعة السادسة العربية من ليلة عاشوراء الاثنين عاشر المحرم سنة ١٣٢٧ للهجرة، الموافق الساعة الثانية عشر الإفرنجية أول فبراير سنة ١٩٠٩ الميلادية.

◘ انتقل إلى القاهرة في صيف عام ١٩٠٩م بتعيين والده وكيلاً للجامع الأزهر (١٩٠٩ ـ ١٩١٣م) وكان قبل ذلك شيخًا لعلماء الاسكندرية.

◘ تلقى أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة ١٩١٦م.

◘ بعد ثورة سنة ١٩١٩م انتقل إلى مدرسة القربِيَّة بدرب الجماميز.

◘ في سنة ١٩٢١ دخل المدرسة الخديوية الثانوية.

◘ مع بداية عام ١٩٢٢م قرأ على الشيخ سيد بن علي المرصفي، صاحب «رغبة الأمل» فحضر دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برقوق، ثم قرأ عليه في بيته «الكامل» للمبرد، و«حماسة أبي تمام» وشيئًا من «الأمالي» للقالي وبعض أشعار الهذليين. واستمرت صلته بالشيخ المرصفي إلى أن توفي ـ رحمه اللَّه ـ في سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.

◘ حصل على شهادة البكالوريا (القسم العلمي) عام ١٩٢٥م.

◘ في سنة ١٩٢٦م التحق بكلية الآداب ـ الجامعة المصرية (قسم اللغة العربية) واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب خلاف شديد بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي، كما بينه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «المتنبي» وترتب على ذلك تركه الدراسات الجامعية.

◘ في سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م ترك الجامعة وسافر إلى الحجاز مهاجرًا فأنشأ ـ بناء على طلب من الملك عبدالعزيز آل سعود ـ مدرسة جدة السعودية

الابتدائية وعمل مديرًا لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م.

❑ بعد عودته إلى القاهرة انصرف إلى الأدب والكتابة، فكتب في مجلتي «الفتح» و«الزهراء» لصاحبهما الأستاذ محب الدين الخطيب، وأكثر ما له فيهما الشعر، وكان من كتابهما منذ كان طالبًا.

❑ بدأت صلته بالعلماء، منذ شب في بيت أبيه، فعرف السياسيين والعلماء الذين كانوا يترددون على والده، كما اتصل مباشرة بعلماء العصر أمثال: محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور باشا، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد زكي باشا، والشيخ إبراهيم أطفيش، ومحمد أمين الخانجي وغيرهم، كما تعرف إلى الشاعر أحمد شوقي، وكان يلتقي به في الأماكن العامة التي كان الشاعر الكبير يتردد عليها.

❑ راسل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي منذ سنة ١٩٢١م، وهو طالب في السنة الأولى الثانوية طلبًا للعلم، واتصلت المعرفة بينهما، وظلت هذه الصلة وثيقة إلى وفاة الرافعي ـ رحمه اللَّه ـ في سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، فحزن عليه حزنًا شديدًا صرفه عن استكمال ردوده على الدكتور طه حسين في موضوع المتنبي التي كانت تنشر في جريدة البلاغ.

ومكانة الرافعي عنده يوضحها تقديمه لكتاب سعيد العريان عن حياة الرافعي، وقد ظلت هذه الرابطة بينهما تحول سنين عديدة دون التواصل بينه وبين الأستاذ العقاد، ثم صارت بينه وبين الأستاذ العقاد صحبة وصداقة عميقة بعد ذلك.

❑ تعاطف مع الحزب الوطني القديم، فقد كانت هناك صلة بين والده والزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ علي محمد شاكر عضوًا عاملاً بالحزب الوطني، فصحب شباب الحزب الوطني واتصل برجاله ومنهم:

حافظ رمضان، وعبدالرحمن الرافعي، وأحمد وفيق والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبدالعزيز جاويش.

❑ صاحب فكرة «جمعية الشبان المسلمين»، ولكنه تركها لاختلافه مع السيد محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا والدكتور عبدالحميد سعيد، على الصورة التي صارت إليها.

❑ بدأ الكتابة في مجلة «المقتطف» منذ سنة ١٩٣٢م ثم في مجلتي «الرسالة» و«البلاغ» ولكنه كان على صلة دائمة بالرسالة في كتابة متقطعة إلى أن توقفت عن الصدور.

❑ في سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م أخذ امتياز إصدار مجلة «العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية، وصدر منها عددان الأول في ٢٧ رمضان ١٣٥٧هـ/ ١٩ نوفمبر ١٩٣٨م، والثاني في ١٧ شوال ١٣٥٧هـ/ ٩ ديسمبر ١٩٣٨م ثم توقفت عن الصدور بعد أن كان قد دفع بعددها الثالث إلى المطبعة، وكان مقرها: شارع الإسماعيلية (عمر بن الخطاب) بمصر الجديدة.

❑ في هذه الفترة قامت صداقة عميقة وعلاقة وطيدة بينه وبين كل من الكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقي، والشاعر العظيم الراحل محمود حسن إسماعيل، وكان كل منهما يعتبر الأستاذ محمود شاكر إمامًا عليمًا بأسرار البيان العربي في شعره ونثره ومرجعًا حيًا للثقافة العربية في مجموعها، يأنسان إلى ذخيرته في إبداعهما الأدبي، وقد عبر كل منهما عن تلك الرابطة في أكثر من مقام من مقامات القول، منها: قصيدة الأستاذ محمود حسن إسماعيل في تقديم «القوس العذراء» كما ذكر الأستاذ يحيى حقي في بعض أحاديثه الصحفية أنه قرأ أمهات كتب الأدب العربي على الأستاذ شاكر.

❑ بناء على دعوة من صديقه فؤاد صرُّوف، صاحب المقتطف، ساهم

في اختيار وترجمة مواد مجلة «المختار» بدءًا من عددها الثاني، ولكنه توقف بعد قليل.

❑ وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج «المختار» استطاع أن يقدم مستوى للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل عددًا من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرة النفاثة» وما زال عدد من الصحفيين الحاليين يعتبرون عناوين «المختار» التي كان يصوغها نموذجًا يحتذى في هذا الباب.

❑ في أوائل الأربعينات تعرف على الأستاذ فتحي رضوان، وبدأت صلته بالحزب الوطني الجديد في سنة ١٩٥٠م، وساهم بالكتابة في مجلة «اللواء الجديد».

❑ انقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات، بعد إغلاق «الرسالة» القديمة في سنة ١٩٥٢م، وتفرغ للعمل بالتأليف والتحقيق ونشر النصوص، فأخرج جملة من أمهات الكتب العربية مثل: «تفسير الإمام الطبري» (ستة عشر جزءًا)، و«طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي، و«جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار، وشارك في إخراج «الوحشيات» لأبي تمام، و«شرح أشعار الهذليين».

ونشر في عام ١٩٥٢م قصيدته «القوس العذراء» التي تعد معلمًا على طريق الشعر الحديث رغم التزامها بحرًا متساوي الشطرين ومحافظتها على وحدة القافية، ثم أعاد نشرها مرة ثانية في سنة ١٩٦٤م.

كما ألف كتابه الشهير «أباطيل وأسمار» وهو مجموعة مقالات (٢٥ مقالة) كتبها في مجلة الرسالة الجديدة، ثم طبعت مرتين، المرة الأولى سنة ١٩٦٥م وصدر مجلد واحد (فيه قسم من المقالات) وصودر المجلد الثاني، والمرة الثانية سنة ١٩٧٢م في مجلدين ضما جميع المقالات.

وكان سبب كتابة هذه المقالات التعليق على ما نشره الدكتور لويس عوض، المستشار الثقافي لجريدة الأهرام القاهرية حينذاك، في جريدة الأهرام بعنوان «على هامش الغفران» وذهب فيما نشره إلى تأثر المعري بحديث الإسراء والمعراج، كما ألمح فيه إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها في الحديث النبوي، مما دفع الأستاذ محمود شاكر إلى بيان تهافت كلام لويس عوض وجهله وافترائه، ثم انتقل إلى الكلام عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي وما طرأ عليهما من غزو فكري غربي ولاسيما حركة التبشير التي غزت العالم العربي والإسلامي، وما تنطوي عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل، وقاده البحث إلى تناول قضايا هامة بحيث يعد «أباطيل وأسمار» من أهم كتبه، بل من أهم الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في العشرين عامًا الأخيرة.

وأعاد طبع كتابه الإمام عن «المتنبي» الذي نشر كعدد مستقل من المقتطف سنة ١٩٣٦م، وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة حين صدوره بمنهجه المبتكر وأسلوبه في البحث والإبداع، ومقدمته التي عنوانها: «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» التي تناولت بكل صراحة ما اعترى الحياة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن من فساد، وما أصاب أجيال المثقفين من تفريغ، تولى كبره واضع نظم التعليم في مصر، المبشر «دنلوب» الذي سيطر سيطرة تامة على التعليم، والذي لا تزال آثاره باقية على أشنع صورة في نظمنا التعليمية.

◻ في الفترة التي صاحبت انتقاله إلى مسكنه في شارع السباق ثم إلى مسكنه الحالي في شارع حسين المرصفي بضاحية مصر الجديدة، بدأت أجيال من دارسي التراث العربي والمعنيين بالثقافة الإسلامية، من كافة أرجاء العالم الإسلامي، يختلفون إلى بيته، ويترددون على مجالسه العلمية يأخذون عنه ويفيدون من علمه ومكتبته الحافلة التي يسرها للدارسين والباحثين ومنهم:

الدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور إحسان عباس، والدكتور شاكر الفحام، والأستاذ أحمد راتب النفاخ، والدكتور محمد يوسف نجم.

❑ في سنة ١٩٥٧م أسس - مع الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد - مكتبة دار العروبة، لنشر كنوز الشعر العربي، ونوادر التراث، وكتب بعض المفكرين، وباعتقاله هو وشريكيه في ٣١ أغسطس ١٩٦٥م تم وضعها تحت الحراسة.

❑ شارك في عدد من المؤتمرات والملتقيات العربية فحضر «مؤتمر الأدباء العرب» في بغداد سنة ١٩٧٠م، ودعي إلى حضور الدروس الرمضانية التي تعقد في ليالي رمضان في القصر الملكي بالرباط بالمملكة المغربية (رمضان ١٣٩٥هـ).

❑ كذلك لبى دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وألقى سلسلة من المحاضرات عن «الشعر الجاهلي» ستصدر في كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام الجمحي».

وحالت ظروفه دون تلبية كثير من الدعوات لحضور مؤتمرات وملتقيات عربية وإسلامية كثيرة.

❑ انتخب عضوًا مراسلاً في «مجمع اللغة العربية» بدمشق في سنة ١٩٨٠م.

❑ اعتقل مرتين في زمن حكم الرئيس جمال عبدالناصر: الأولى لمدة تسعة أشهر في الفترة من ٩ فبراير ١٩٥٩م إلى أكتوبر ١٩٥٩م. والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرًا من ٣١ أغسطس ١٩٦٥م وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧م (٣٠ رمضان ١٣٨٧هـ).

❑ كرمته الدولة فأهدته «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» عن عام

١٩٨١م تقديراً لجهوده وإسهاماته المتعددة في خدمة تراث الإسلام ودرايته الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي.

وتسلم الجائزة في احتفال أقيم مساء يوم الثلاثاء ٨ رمضان ١٤٠٢هـ/ ٢٩ يونيه ١٩٨٢م.

□ وعلى المستوى العربي نال جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي، وتسلم الجائزة في احتفال بحضور الملك فهد بن عبدالعزيز في الرياض في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٤٠٤هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٩٨٤م.

□ انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٢م.

□ عضو المجلس الاستشاري لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (١٩٩١ ـ ١٩٩٧م).

□ عضو مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية (١٩٩٤ ـ ١٩٩٧م).

□ انتقل إلى جوار ربه تعالى مساء يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ١٤١٨هـ الموافق ٧ أغسطس ١٩٩٧م.

*** ثانياً: آثاره:**

أ ـ مؤلفاته:

١ ـ المتنبي.

ـ عدد خاص من المقتطف عام ١٩٣٦م.

ـ ط ثانية في مجلدين القاهرة ١٩٧٧م.

ـ ط ثالثة مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ القوس العذراء.

ـ نشرت أول مرة في مجلة الكتاب ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٣ ـ أباطيل وأسمار.

ـ الجزء الأول مكتبة دار العروبة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

ـ الجزءان الأول والثاني مطبعة المدني ـ القاهرة ١٩٧٢م.

٤ ـ برنامج طبقات فحول الشعراء.

مطبعة المدني القاهرة ١٩٨٠م.

٥ ـ نمط صعب ونمط مخيف.

دار المدني ـ جدة ١٩٩٦م.

[وهو سبع مقالات نشرت في مجلة «المجلة» عام ١٩٦٩، ١٩٧٠م].

٦ ـ قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام.

ـ دار المدني ـ جدة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧ ـ رسالة في الطريق ثقافتنا.

صُدِّر بها كتابُ المتنبي في طبعته الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ثم صدرت في كتاب مستقل في سلسلة كتاب الهلال بالقاهرة.

ب ـ تحقيقاته:

١ ـ فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

٢ ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي.

ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٠م.

٣ ـ المكافاة وحسن العقبى لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب.
ـ المكتبة التجارية ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.
٤ ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي.
ـ دار المعارف ط أولى ١٩٥٢م ـ ط ثانية ١٩٧٤م.
٥ ـ تفسير الطبري.
ـ الأول والثاني ـ دار المعارف ١٩٥٤م.
ـ الثالث والرابع دار المعارف ١٩٥٥م.
ـ السادس والسابع والثامن دار المعارف ١٩٥٦م.
ـ من التاسع إلى الثاني عشر دار المعارف ١٩٥٧م.
ـ الثالث عشر والرابع عشر دار المعارف ١٩٥٨م.
ـ الخامس عشر دار المعارف ١٩٦٠م.
ـ السادس عشر دار المعارف ١٩٦٩م.
٦ ـ جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار.
ـ جـ١ مكتبة دار العروبة ١٣٨١هـ السفر الأول.
٧ ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول اللّه ﷺ من الأخبار للطبري.
مسند علي بن أبي طالب ـ مسند عبداللّه بن عباس ـ السفر الأول.
ـ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
ـ مسند عبداللّه بن عباس ـ السفر الثاني.
ـ مسند عمر بن الخطاب.
ـ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض

١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

٨ ـ دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني.

ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٩م.

٩ ـ أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني.

ـ دار المدني ـ جدة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م[1].

□ قال عنه تلميذه عبدالقدوس أبو صالح رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي ورئيس رابطة الأدب[2]:

«لم تكن ذاكرة الشيخ الفريدة، ولا اطلاعه الواسع الشامل، هما اللذان أوصلا الشيخ محمود شاكر إلى أن يكون شيخ العربية دون منازع، وإن أعانا على بلوغه تلك المنزلة العالية، ولكن الذي بوأه مكانته طول معايشته للتراث، وطول تأمله فيه، حتى خالط لحمه ودمه، وحتى ألقى إليه مقاليده وأسراره، فكان كما شهدت وشهد الكثيرون أفرس الناس ببيت الشعر، وكان صاحب أسلوب كالبنيان المرصوص، وكان أن ندب نفسه ليكون سادنًا للغة القرآن، وحاميًا لتراث الأمة ونذيرًا لها من هجمة التغريب الشرسة.

وكان الشيخ محمود شاكر يعد تقصير المحققين للتراث خيانة سافرة لهذا التراث، وكان منهجه يقوم على استفراغ الجهد في التحقيق، بكل ما يقتضيه منهج التحقيق العلمي.

ودليل على تبحره في اللغة ما نجده في «فهارس طبقات فحول الشعراء، إذ نجد فهرسًا عجيبًا بعنوان: «ألفاظ من اللغة، أخلّت بها المعاجم

(١) استعنا في سيرة حياته وآثاره بالكتيب الذي صدر عن: الهيئة العامة لدار الكتب القومية والمجلس الأعلى للثقافة في ١٥/٩/١٩٩٧م.

(٢) من مقاله «الشيخ محمود شاكر كما عرفته» لعبدالقدوس أبو صالح ـ مجلة الأدب الإسلامي العدد السادس عشر (ص٩ ـ ١٥).

أو قصرت في بيانها»، وقد جاء هذا الفهرس العجيب في أربع صفحات ونصف الصفحة، وما كان الشيخ محمود شاكر ليضع لفظة واحدة في هذا الفهرس الكبير، الذي استظهره من تحقيقه لكتاب واحد، لولا أنه استعرض كتب اللغة ومعجماتها، ثم وضع نفسه ندًا لأئمة اللغة التي ألفوها، ومضى يستدرك ما أخلوا به أو قصروا في بيانه.

❑ كنت أستمع إليه عندما ما يرى العرب يختلفون ويقتتلون، ويهزلون ويعبثون فيردد في حرقة بالغة: «إيه يا بني إسماعيل.. أنتم في تيه دونه تيه بني إسرائيل».

«وتزداد كآبة الشيخ مع الأيام، حين لا يرى بارقة أمل، ولا بارقة فجر، وحين يرى العرب الذين يفترض فيهم أن يقودوا العالم الإسلامي وقد فقدوا هويتهم، بعد أن تنكروا للغة القرآن، وبعد أن جعلوا الأدب أدبًا فاسدًا بمقدار فساد الحياة الأدبية، وبعد أن غربوا حياتهم، بدءًا من مناهج التعليم، وانتهاءً بفصل الدين عن الدولة، والنظر إلى الدين الذي هو سر بقائهم وشريان حياتهم على أنه سبب التأخر والجمود.

ومع ذلك كله فقد غالب الشيخ كآبته ويأسه، وظروفه الشخصية، ليكون بحق فارس التراث، وشيخ العربية، وأديبها الكبير.

وعلى الرغم من قلة ما ترك الشيخ لأمته من المؤلفات، فإنه كان في مواقفه ومقالاته وكتبه يمثل صورة الفارس الأخير، الذي حمل راية القرآن من الرافعي، كاتب الإسلام الأكبر، واستطاع أن يقف أمام طه حسين الذي فجر تيار التغريب في هذه الأمة، حين مضى يدعو إلى انسلاخ مصر، قلب العالم العربي، عن هذا العالم، بل عن الشرق كله، ويدعو في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» إلى أن يأخذ المصريون حضارة الغرب بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يستكره.

وكذلك استطاع أن يتصدى في «أباطيل وأسمار» إلى لويس عوض، الذي يمثل الجيل الذي خلف طه حسين، وزاد عليه في التنكر للتراث، وفي دفع الأمة إلى مهاوي العلمانية واليسار والاشتراكية.

❑ وقد أنكر بعض الناس أن يتصدى الشيخ محمود شاكر، وهو العملاق الكبير، لقزم لا يطاوله، ولكني أقول: لقد أراد الشيخ أن يجعل لويس عوض مثالاً لتحطيم الأصنام، التي أخذت أجيال من هذه الأمة المسكينة يعدونهم دعاة التنوير، ودعاة التقدم بعد أن تسنم الكثيرون منهم مقاليد الأمور وسيطروا على وسائل الإعلام المختلفة، وعلى دور النشر الرسمية.

وإذا كانت الأمة قد بدأت صحوتها الإسلامية لتعود إلى الإسلام من جديد، فلقد كان محمود شاكر ممن مهدوا لقيام هذه الصحوة، على أساس مكين من التمسك بالقرآن ولغته الفصحى، والاعتماد على تراث الأمة، والوقوف أمام تيار التغريب، سعيًا وراء منهج يعيد الأمة، كما أرادها اللَّه، خير أمة أخرجت للناس.

❑ يقول الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى رئيس قسم البلاغة السابق بكلية اللغة العربية جامعة القاهرة في مقاله «محمود محمد شاكر.. والفجر الصادق»[1] :

«قليل هم في زماننا الذين عاشوا هموم الوجود العربي الإسلامي، ومن هذا القليل الأستاذ محمود محمد شاكر الذي انقطع لهموم العرب والمسلمين، وجعل هذا الهم شاغله في ليله ونهاره، وفيما يكتب، وفيما يقرأ، وفيما يحدث به مَن يرتادونه، وكأن هذه الأمَّة العربية الإسلامية مع

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص١٦ ـ ٢٤) ملخصًا.

تنائي أقطارها، واتساع ديارها، واختلاف أجناسها، إنما هم أبناء أمه وأبيه، وهم أهله، وعشيرته، الذين يقوم لهم، ويقعد.

وقد درس تاريخ الإسلام، والصراعات التي دارت في دوله، سواءكانت هذه الصراعات في داخل ديار الإسلام، كما كان يحدث بين الأجناس المختلفة المتصارعة في دولة الخلافة، من الفرس، والترك، والعرب، أو كان هذا الصراع بين دول الإسلام والأمم الأخرى، وخاصة الأمم الأوربية منذ بداية الحروب الصليبية، ثم فتح القسطنطينية، وتوغل جيوش المسلمين في قلب أوربا الشمالية ثم الاستعمار الحديث، وحملاته، وجهاد المسلمين له، توسع في دراسة كل ذلك، وتعمقه، وفرغ له، حتى يخيل إليك وأنت تقرأ ما كتب أنه عاش الأحداث التي يحدثك عنها، وداخل الأشخاص الذين يصنعونها، وكأنه كان يعيش مع رهبان أوربا وملوكها وقادتها، وهم يُجيِّشون جيوش الصليبية، وكأنه كان يعيش في قلب وعقل الجنود، وكأنه كان يعيش مع المستشرقين، ورجال التبشير، والاستعمار، وهم يعدون العدة في الزمن بعد الزمن وفي الجيل بعد الجيل لتدمير دولة الإسلام.

◘ وكان ـ رحمه اللَّه ـ يعتقد اعتقاداً جازمًا أن الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة والمتضاربة، والمتداخلة، والحية ـ كما كان يصفها ـ والتي انبثقت أصولها، وتسلسلت ينابيعها من النظر في كلام اللَّه وفي كلام رسوله ﷺ، هي أصل هذا الوجود العربي الإسلامي، وهي أصل قوتـه، وهي الرابط الجامع لوحدتـه، والقـوة الحيـة المتحركة في ضميره، وأن هـذه الأمـة خاضت معاركها مع الأمم والشعوب والعقائد والأديان والثقافات والحضـارات وانتصـرت وسادت وعمرت الأرض، بهذا الدين

العظيـم، وهـذه العلوم التي هي شارحة له، ومستنبطة من النظر فيه، ودائرة حوله.

□ وكان علماء الصحابة ﷺ هم الذين مَهدواُ لهذه العلوم، وطرقوا طرقها، وفتحوا أبوابها بما سمعوه من رسول اللَّه ﷺ الذي كان مثله فيهم كمثل الغيث أصاب أرضًا، ثم جاء التابعون ومن بعدهم وأجيال العلماء، جيلاً من بعد جيل، الكل يراجع وينقـح ويستنبط ويضيف ويكشف ويشـرح، حتى أقاموا أصول هذه العلوم العربية الإسلامية، والتي قامت عليها حضارة الإسلام، وشرحت للناس دين اللَّه، وصانته من التعديل، والتحريف، والتغيير ودسائس أعدائه، الذين كانوا يمكرون في فقهه كما يمكرون في أرضه، وبقي بها الحلال حلالاً والحرام حرامًا حتى يومنا هذا كيوم أنزله اللَّه.

□ ويرى الأستاذ محمود محمد شاكر في كل ما كتبه، أنه من المحال، أن تجد هذه الأمة سبيلاً إلى النهوض، إلا بأن تنهض علومها التي هي عقلها وقلبها وذات نفسها، وأن النهضة تبدأ من نقطة واحدة وهي نهضة العلوم التي تمثل الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة، وأي محاولة تتجاوز هذه النقطة هي محاولة باطلة، وأن علماء الأمة أدركوا ذلك لما تنبهوا إلى ما أصاب المسلمين من الوهن، الذي يصيب الأمم كلها، وذكر الشيخ خمسة من العلماء الأعلام، وسنذكرهم فيما بعد ووصفهم بقوله: «أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم، فهبوا بلا تواطؤ بينهم، كانوا رجالاً أيقاظًا مُفرَّقين في جنبات أرض مترامية الأطراف متباعدة أوطانهم لا يجمعهم إلا هذا الذي تَوَجَّسُوهُ في قرارة أنفسهم مبهمًا من خطر محدق أحسوا الخطر فراموا إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام خلل «اللغة» وخلل «العقيدة» وخلل «علوم الدين» وخلل

«علوم الحضارة» وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم وبهمّة وجد أرادوا أن يدخلوا الأمة عصر النهضة نهضة دار الإسلام»[١] ، وذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري، وكان الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ يواجه بهذه الحقائق هذا الزيف الذي ضلل العقل العربي الإسلامي، وغرس في الأجيال الناشئة الاعتقاد بأن النهضة بدأت باجتياح الغزو المسيحي لهذه الديار، وانتهاب ثرواتها وتدمير حضارتها، وسفح دمائها وتخريب بنيانها، وقد صدقنا ذلك وكتبناه في كُتبنا وصار من العلم الذي نخرج به من الظلمات، إلى النور، ويقول الشيخ: إن هذا عكس الحقيقة التاريخية؛ لأن هذا الزحف المسيحي أو الزحف المسيحي المقدس كما كان يسميه الأوربيون أنفسهم، والذي يحقق لهم أهدافًا روحية كما قالوا، أيضًا إنما كان لتدمير اليقظة التي بدأت في القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الهجري، وهو يقابل نهاية القرن السابع عشر إلى نهاية الثامن عشر، أعني أوائل التاسع عشر، وفي هذين القرنين ظهر خمسة من الأعلام سماهم الشيخ صناديد النهضة واليقظة الإسلامية وهم[٢] :

١ ـ عبدالقادر البغدادي صاحب الخزانة المتوفي ١٠٩٣هـ الموافق ١٦٨٣م.

٢ ـ الجبرتي الكبير المتوفى ١١١٨هـ الموافق ١٧٧٤م.

٣ ـ الشيخ محمد بن عبدالوهاب المتوفى ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٩٢م.

٤ ـ المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس والمتوفى ١٢٠٥هـ الموافق ١٧٩٠م.

---

(١) «الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود محمد شاكر (ص٨١).

(٢) انظر المصدر السابق (ص٨٠) وما بعدها.

٥ ـ الشوكاني المتوفى ١٢٥٠هـ الموافق ١٨٣٤م ومعروف أن الذي توجه إلى إحياء اللغة هو البغدادي، والزبيدي، والذي توجه إلى علوم الحضارات هو الجبرتي الكبير، الذي كان يدرس في الأزهر علوم الصناعات والهندسة وكان يحضر درسه «طلاب» من الفرنجة كما قال ابنه المؤرخ[1].

▫ والذي توجه إلى إصلاح خلل العقيدة هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب والذي توجه إلى إصلاح خلل علوم الدين أعني الفقه هو محمد ابن علي الزيدي الشوكاني.

▫ وادرس تاريخ هؤلاء الرجال ومؤلفاتهم وما أحدثوا من يقظة، لتتأكد أن الزحف العسكري المسيحي من هذا التاريخ ـ حملة نابليون على مصر كانت سنة ١٧٩٨م ـ إنما كانت لتدمير هذه اليقظة، وكانت المسافة بيننا وبينهم في هذا الزمن قريبة يمكن أن تدرك بقليل من الجد.

▫ وهذا المعنى أكده الأستاذ محمود شاكر تأكيدًا قاطعًا، بما رواه من أحداث ثورة القاهرة الكبرى على الوجود الفرنسي، وكان ذلك في ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣هـ ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض مصر، فارتكب في قمع هذه الثورة من القسوة والتدمير وذبح الرجال والنساء وسفح الدماء الغزيرة ما ارتكب، ونذر ـ وأوفى بنذره ـ أن يذبح عند شروق كل شمس خمسة أو ستة «تقطع رءوسهم ويطاف بها في أنحاء القاهرة».

▫ ويقول الشيخ: «ولا شك عندي أن هؤلاء الخمسة، أو الستة هم من طلاب العلم في الأزهر، ومن المحرضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة ديار الإسلام، وأن الاستشراق هو الذي كان يقدمهم لهذا الجزار، وأنه

(١) راجع النص في رسالة «الطريق إلى ثقافتنا» (ص٨٣) وما بعدها.

كان يتخيرهم له؛ لأنه كان على معرفة سابقة بهم، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة الجبرتي الكبير والزبيدي، أي أنهم كانوا من طلائع اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية قبل كل شيء لوأدها في مهدها»[١] .

◻ ويكرر الأستاذ هذه الفكرة وهي أن وأد اليقظة في ديار الإسلام كان من أهداف الحملات العسكرية على دياره، وأن الاستشراق كان وراء ذلك وأنه خبر هذه الديار، وعاش فيها وعرف ما يجري وأفزعه ما رآه من يقظة فكتبوا إلى دولهم، وحرضوهم على الانقضاض على هذه اليقظة، قبل أن تشتد، وتاريخ هذه الكتابات بدأ مع تاريخ اليقظة ومنهم من كان يحضر دروس الجبرتي في الهندسة وعلوم الصناعات، ويسخر الأستاذ سخرية مرة من هذا الفساد المخجل الذي نعيشه حين نقول: إن غزو نابليون لمصر هو بدء النهضة.

◻ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ بعدما بين تخريب مدينة القاهرة، التي كانت من أحسن مدن العالم بعمارتها وفنونها وبركها ومتنزهاتها، وبعدما خرجت جيوش نابليون منها. . : «ولكن صار هذا التدمير في عين حياتنا الأدبية الفاسدة هو رسول الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير لا تضحك ولا تبك، ولكن أطرق إطراقة الخزي والمهانة والعار»[٢] .

◻ ولم يقف الخطأ عند هذا الخزي وهذه المهانة وهذا العار، الذي دل على جهلنا بتاريخنا ورجالنا الذين أسسوا لنهضتنا، ووضعوا لها المنار، وسلكوا الطريق، ونبهوا، وأيقظوا وأحس عدوهم بخطرهم وأنه عُمِّي علينا،

---

(١) المصدر السابق (ص٤٠١).
(٢) المصدر السابق (ص٩٦).

وجهلنا كل ذلك، وجعلنا تاريخ وأد هذه النهضة هو بداية النهضة، أقول: لم يقف الأمر عند هذا، وإنما تجاوزه إلى ما هو أبشع منه وأشنع وهو طريق النهضة نفسه، إذ تركنا الطريق الصحيح الذي بدأه خمسة الأعلام وسقطنا في أخطر ما سقط فيه عقل أمة وهو الاعتقاد بأن سبيل النهوض هو السير وراء هؤلاء الذين دمروا نهضتنا والأخذ عنهم في المعارف والثقافات والآداب والفنون وبدأ إغراء العقل الإسلامي بالثقافة الأوربية المسيحية وآدابها وفنونها، وجهلنا أن الثقافات والآداب والفنون، وكل فصيلة العلوم الإنسانية كلها متدفقة من قلب العقائد، وآية ذلك ثقافة الإسلام وآدابه وفنونه وأن الإسلام يداخل كل هذا وكثير من المسلمين أيام الفتح الإسلامي، دخلوا في هذا الدين بعدما عاشوا ثقافته؛ لأن المسلمين لم يكرهوا أحدًا على الدخول في دين اللَّه؛ لأن اللَّه حرم هذا، فبقي كثير من الناس على دينهم، ولما انغمسوا في ثقافة الإسلام دخلوا فيه، وهكذا فعل المسلمون في الأندلس، لم يلزموا القوط باعتناق الإسلام، وإنما خلوا بين الناس وما يريدون، ولما بدأ القوم يتساقطون في حب الثقافة العربية والإسلامية فطن القساوسة إلى هذا الخطر، وقالوا لهم: لو غلبتكم ثقافة العرب المسلمين فلن تعود إليكم بلادكم.

لا شك أن الثقافة ومنها الفنون والآداب وما يتبعها من معارف إنما هي تجسيد للدين، وأن هذه النهضة الكاذبة دفعت بنا دفعًا في هذا التيار، فغيبت عنا علومنا وآدابنا وتاريخنا التي هي القوة الفاعلة والقادرة على تغييرنا وإحداث اليقظة والنهضة وعشنا تحت سيطرة ثقافة مسيحية وثنية تقتلع جذورنا، وتدفعنا دفعًا في تيار التبعية، ومضى على هذا الحال أكثر من قرنين، ولا نزداد في طريق النهضة الخادعة إلا تعثرًا وضلالاً؛ لأنه من المخالف لفطرة الأشياء أن تنهض أمة بعقل أمة، وأن يعتقد المغيب النائم،

الذي ينتفع بعلوم المستيقظين أنه استيقظ وحين يردد كلام المجتهدين يعتقد أنه اجتهد، وكذلك حين يقول مقالة المجددين أنه جدد، كل ذلك وهو نائم وكأننا نعاني ازدواج الشخصية وهذا هو جوهر النهضة المضللة التي قطعنا فيها قرنين ونحن كما ترى، وتأمل هذ جيداً لأن مصيبتنا تكمن فيه أقرأ كلام المجددين فأجده كلام الآخرين نقلوه، وأسأل نفسي بأي عقل اعتقد هؤلاء أنهم مجددون؟! هل يمكن أن يجدد النائمون؟!!

◻ ولما بدأت النهضة بفجرها الصادق، الذي رفع مناراته الخمسة الذين ذكرهم الشيخ أحدث هذا الفجر الصادق أثرًا قويًا في النفوس؛ لأنها بدأت من ذات النفس؛ لأن علومنا وتاريخنا وآدابنا كل ذلك له رنين خفي في داخل نفوسنا، وهو قطعة منها، وهي قطعة منه ولا يزال صدى هؤلاء الأعلام يتردد ويفعل فعله ليس هناك دارس للغة إلا ونفث البغدادي في قلبه وعقله ومثله المرتضى الزبيدي الحسيني، وليس هناك دارس للسنة إلا واهتدى بهدي الشيخ ابن عبدالوهاب، ومثله الشوكاني، ولو قارنت عطاء واحد من هؤلاء بعطاء جميع الرواد الذين ولدتهم النهضة الكاذبة والذين لقبوا بالرواد لمزيد من الإقناع بالخداع والباطل والذين قام عملهم على ارتضاخ الثقافة المسيحية الغربية لوجدت اختلافًا لا تصح معه المقارنة، وشرط هذه الموازنة أن تكون من القادرين على قراءة مثل الخزانة؛ لأن قراءة هذه الكتب تحتاج إلى أدوات.

ولم يعط الأستاذ محمود شاكر قضية من القضايا، ما أعطاه لهذه القضية من دراسة وعرض وتحليل وتكرار وكأنه كان يتعمد تكرارها في كل ما يكتب حتى في اللقاءات الصحفية؛ لأنها هي قضيته الأم ولا يجوز الحديث عنه في غيبتها.

* **فساد الحياة الأدبية «ومحنة الشعر الجاهلي»:**

والكلام في فساد حياتنا الأدبية يدور حول نقطتين: الأولى هي تغييب علومنا، وإسدال الستار عليها، في جامعاتنا ومدارسنا وأنديتنا وصحافتنا، وكل وسائل التثقيف، ثم شغل هذا كله بمقتبسات عن الثقافة الغربية المسيحية وقد ندخل على هذا الاقتباس شيئًا من التحوير أو التعديل وهذا هو الفساد الوبيل كما كان يصفه ـ رحمه اللَّه ـ وما سماه الأستاذ «محنة الشعر الجاهلي» كانت رؤية منه لرأس هذه القضية وهي تطل من قاعات الدرس الجامعي لأول مرة فصدمته، وهو في السابعة عشرة من عمره وكان نافذًا نفاذًا غريبًا إذ أدرك هذا وهو في هذه السنة، ونفذ من وراء ضجيج الدكتور طه حسين إلى جوهر ما وقع الرجل فيه ولم يخدعه عن ذلك شيء، وليست المشكلة أن الدكتور طه ذهب إلى أن الشعر الجاهلي شعر صنعه الرواة في الإسلام ونحلوه الجاهليين، وإن كان هذا من الخطأ المحض؛ لأن الناس في العلم يخطئون ويصيبون، ولو أن الدكتور طه حسين اجتهد بعقله هو وراجع بعلمه هو وانتهى به الرأي إلى الذي قاله، صوابًا كان أو خطأ لما كانت هناك ما سماه الأستاذ «محنة الشعر الجاهلي».

ولو أن الدكتور طه عرض الذي عرض على طلابه مسندًا إلى مصدره، وحافظ على ما تجب المحافظة عليه من أسانيد المعرفة، وقال هذا كلام مرجليوث لم تكن هنا محنة حتى لو قال: وأنا مقتنع به.

□ ولما قرر المرحوم محمود شاكر ترك الجامعة بسبب هذا، وجاءه وفد من العلماء وأهل الرأي ومنهم أساتذة في الكلية من المستشرقين طلب منهم شرطًا واحدًا، يعود به إلى الكلية، وهو أن يقول الدكتور طه حسين لطلابه أن هذا الذي قلته في الشعر الجاهلي هو كلام فلان، وكان الأستاذ جويدي

المستشرق الإيطالي يعلم أن ما قاله الدكتور طه هو مقال مرجليوث، ولكنه كما قال الأستاذ لما سمع منه هذا طالبه على عادته بتوقير أساتذته، وراغ من جوهر القضية[١].

◻ كانت المحنة إذن أننا نحدث طلابنا، بمقالة أعدائنا في علومنا وأدبنا وتاريخنا، ونوهمهم أن هذا علم استخرجناه بالبحث والنظر والمنهج والاستنباط، ومثل هذا مما يجعل له توقيرًا في نفوس الطلاب الأغرار، مع أن هذا الذي نأخذ عنه علمنا أعجم «ليس عنده من أدوات النظر في العربية، وإدراك أسرارها ما يجعل لرأيه قيمة، وهذا أمر يرجع إلى الطبيعة فليس اللسان لسانه، وليس الأدب أدبه، وليس التاريخ تاريخه، هذا فضلاً عن فساد طويته ومقصوده من دراسته، وهذا الفساد يفسد منهجه، ولا يريد هو من وراء هذه الدراسة إلا تشويه وإفساد ومسخ الفكر العربي وتاريخه وكان مرجليوث مغاليًا في هذا الإفساد، ومغاليًا في حقده على العرب، والمسلمين وهو يهودي يقطر حقدًا».

◻ وقد رد مقالته هذه التي سطا عليها الدكتور طه حسين سطوًا عريانًا على حد عبارة الأستاذ محمود شاكر بعض المستشرقين ومنهم الأستاذ ليال، الذي حقق كتابًا من أوسع الكتب وأفضلها، وهو المفضليات، وكتب مقدمة جيدة عن الشعر الجاهلي، ورفض كلام مرجليوث واعتبره خارجًا عن المعقول، والمفضليات التي بين أيدينا مختصرة من هذا الأصل، اختصرها الفاضلان أحمد شاكر، وعبدالسلام هارون، والأصل الذي حققه «سيرليال» موسوعة في اللغة والأخبار والشعر ومن المؤسف أن التحقيق المختصر اهتمت به دار المعارف، وأكثرت من نشره وغطى على هذا الأصل النافع.

---

(١) مقدمة كتاب المتنبي ـ «فساد حياتنا الأدبية» للشيخ محمود شاكر (ص١٩).

□ وقد أقحمت هذا لأن شرح ابن الأنباري الأصلي من العلم النافع الذي غاب.

كانت المحنة كما رآها الأستاذ ـ رحمه اللّه ـ ورضي عنه أننا صرنا لا نكتفي بتغييب آدابنا وعلومنا وتاريخنا وفكرنا ومناهجنا وإنما نُصور بكل ذلك في قلوب أجيالنا صورةً هي من تصوير العدو الذي يجاهر بأن هدفه هو تدمير هذه العلوم، وهذه الحضارة وهذا التاريخ ثم نطبعها بأيدينا في قلوب أبنائنا، ونوهمهم أنها من كلامنا نحن، ونحن أمناء على تاريخنا وعلومنا ولسنا موضع تهمة، عند هؤلاء الطلاب، وليسوا أحرص على هذه العلوم، وهذا التاريخ منا، وليس وراء هذا هاوية أبشع ولا أشنع منها، يمكن أن نُسقط فيها أبناءنا، بأيدينا، وراجع هذا حتى تتصور الحجم المفزع للتدليس على العقول، الغضة المبتدئة وكيف يدمِّر تاريخهم، في ذات نفوسهم أو قل كيف تدمر ذات نفوسهم؛ لأن تدمير علوم الأمم هو تدمير ذات نفوسهم.

واضح أن الأستاذ محمود شاكر الذي كان في سن الثامنة عشرة لم يكن متسرعًا حين اتخذ قراره الحاسم بترك الجامعة، حتى يَفر بعقله قبل أن يُدَمَّر كما قال، وأنه نفذ في هذه السن إلى البشاعة المتسترة وراء طنين الأستاذية والمنهج والجامعة وعالمية الثقافة وغير ذلك مما تهالكت ولا تزال تتهالك فيه الأجيال.

وكان القرار صعبًا ملأ قلبه بالمرارة، كما وصف وكما كرر الوصف؛ لأنه كان شابًا يستقبل العمر، ويحلم بالمستقبل الزاهر، ويمد في أحلامه تفوق ظاهر ونبوغ ونشأة في بيت من أكرم بيوت العلم، يرتاده أشراف الناس وسادتهم وأهل الرأي والعلم، كما كان معقلاً من معاقل الوطنية، ولكن صدق النفس والوفاء لما يجده المرء في قلبه غلب عليه، وصنع أعظم صنيع

في تاريخ الثقافة العربية، ولفت أبين لفت إلى خطر هذا التحول الذي هو «جذر قضيتنا» كما كان يصفه ـ رحمه اللَّه.

❑ وقد وصف هذا التحول بعد خمسين سنة مفكر عاش يدعو إلى الثقافة الغربية المسيحية، بأنه يفضي بنا إلى أن نكون خبرًا من أخبار التاريخ، هذا المفكر هو الدكتور زكي نجيب محمود، فقد رأى أن غيبة العلوم العربية والإسلامية في مدارسنا وجامعاتنا وبحوثنا ومؤلفاتنا وأنديتنا، ثم حضور الفكر الغربي الأوربي مكانها في هذا كله يؤدي بنا إلى أمرين خطيرين:

● **الأمر الأول**: هو نقض عقائدنا؛ لأن هذا الفكر الأوربي يقودنا إلى أن نأخذ «بوجهة نظر أصحابه في الإنسان والعالم» يعني أن نعتقد عقائدهم في ذلك، «ووجهة النظر في الإنسان» في الفهم الإسلامي أنه مخلوق للَّه رب العالمين، وأن مرده إلى اللَّه، وأنه يعيش في هذه الدنيا، وعليه رقيب وعقيد يكتبان في صحيفة أعماله كل ما يكون منه، من خير وشر، وأن صحيفته هذه تنشر يوم البعث، وأنه إما أن يأخذ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه أو يأخذه بيساره فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه وهكذا العالم في الفهم الإسلامي، مخلوق للَّه رب العالمين، وله سبحانه ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، وأن هذا العالم له نهاية تكون ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ كل هذا ينقضه الفكر الأوربي المسيحي الوثني في نفس المسلم، ويرسخ مكانه وجهة النظر المسيحية الوثنية.

● **الأمر الثاني**: هو أن هذا الفكر الأوربي المسيحي الذي تفرد في تكوين الأجيال يفضي بنا إلى فقدان الذات، هكذا يقول الدكتور زكي محمود

يعني أننا نفتقد وجودنا، من حيث إننا عرب مسلمون، ونصير خلقًا ممسوخًا، تابعين لأصحاب هذه الحضارة التي صرنا من خدمها.

وبهذا نصبح خبرًا من أخبار التاريخ.

❑ يقول الدكتور زكي نجيب محمود وهو يشرح غلبة الفكر الأوربي قديمه وجديده وسيطرته على عقول الآلاف المؤلفة من المثقفين العرب، وغيبة الفكر العربي الإسلامي عن هذه الآلاف المؤلفة، حتى كانت مذاهبه وأعلامه تتراءى لهم كأنها أشباح طافية على سطور الكاتبين:

«فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام، الفكر الأوربي دراسته، وهو طالب والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين»[1]..

❑ هذا النص يصف ما يذكره الأستاذ محمود شاكر من تفريغ الأجيال من ثقافتها العربية الإسلامية المتكاملة والمتداخلة ثم ملء هذا الفراغ بالفكر الأوربي المسيحي.

❑ ويبين الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود خطر هذا، وأثره في تشكيل رؤيته، حتى إنه دعا يومًا إلى بتر التراث بترًا، قال ـ رحمه اللَّه ـ وهو يعتذر عن هذا الرأي الذي قال به أيام أن كان أصحاب هذه الحضارة

---

(١) «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود (ص٥).

يحتلون بلادنا:

«بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة، إلا إذا بترنا التراث بترًا وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدُّون، ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلي اليمين كما يكتبون»[١] .

◻ ويكرر الدكتور أن هذا الشطط الذي ذهب إليه إنما كان مرجعه هو «جهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تامًا، والناس ـ كما قيل بحق ـ أعداء ما جهلوا».

ثم قال: «ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية، فما دام عدونا الألد هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة، فلا مناص من نبذه، ونبذها معه، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافي عربي خالص، يحفظ لنا سماتنا، ويرد عنا ما عساه أن يجرفنا في تياره، فإذا نحن خبر من أخبار التاريخ، مضى زمانه، ولم يبق منه إلا ذكراه»[٢] .

◻ والتراث الذي دعا الدكتور زكي نجيب محمود إلى بتره قبل أن يثوب إلى رشده هو التفسير، والحديث والفقه واللغة والشعر، وعلوم الكتاب والسنة والأعلام الذين كان يراهم أشباحًا طافية هم مالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والجاحظ والتوحيدي وطبقات المفسرين والمحدثين والمؤرخين.

◻ وكل كلام الدكتور يحتاج إلى مراجعة ليس موضعها هنا؛ لأنه من العجيب أن تدرس آلاف مؤلفة فكرًا يزلزل عقائدها، ويمحو ذواتها ويصيرها

---

(١) المصدر السابق (ص١٣).

(٢) المرجع السابق.

خبرًا من أخبار التاريخ، وهم لا يفطنون إلى ذلك والدرس تمحيص ويقظة!.

ثم كيف يجهلون أنها ثقافة العدو الألد، والاحتلال قائم والشعب ينتفض في مطاردته؟ ثم كيف يسبق إلى ظنونهم أنه لا علم سواه؟ والمعارك دائرة بين حماة الثقافة العربية الإسلامية، الذين ينبذون العدو وثقافته وبين دعاة ثقافة العدو، والذين يعيشون في ظله؟ وكيف يجهل من يعيش في مصر علوم العربية والإسلام، وهي بلد الأزهر، موئل هذه العلوم، وكعبة طلابها من أقطار الأرض؟ كل هذا غريب، وأغرب منه أنه لا ينبه إلى هذه الحقيقة المفزعة، والتي تصيرنا خبرًا من أخبار الماضي إلا الحركة القومية التي تجهمت في وجه كل ما هو أوربي بحكم توجهها الاشتراكي، وهل نبذ المرحوم فكر العدو الألد مع نبذه لهذا العدو؟

◻ كم اقتنعنا بسراب حسبناه فكرًا، ورحمك اللَّه يا شيخ الفلاسفة كم في إرثك الذي تركت لنا من غوامض؟ وكم فيه من متعة؟ ولا يجوز أن أدع هذا الموضوع من غير أن أضع بين يدي القارئ شهادة أخرى لعلوم الإسلام، وعلماء الإسلام، الذين أسسوا حضارته، شهد هذه الشهادة فيلسوف مثل الدكتور زكي، ولكنه ليس واحدًا من المثقفين العرب وإنما هو الألماني «نيتشه» قال في كتابه «المضاد للمسيح» وهو ينتقد الحضارة الأوربية التي تجاهلت حضارة المسلمين في الأندلس، وأنها كانت أقرب إلى الروح الأوربية، من حضارة أثينا، وأنها وهذا هو المهم «بلغت شأوًا لو قيست به حضارة القرن التاسع عشر لظهر إملاقه وفقره»[1] يعني أن هذه الأشباح الطافية في نفوسنا كانت أسست حضارة تجاوزت القرن التاسع عشر، ودخلت القرن العشرين.

والذي وصفه الدكتور زكي نجيب محمود لا يزال قائمًا كما وصفه، ولا

---

(١) النص من مقالة كتبها الدكتور يعقوب زكي بعنوان «محمد إقبال» وترجمها يحيى حقي ـ رحمه اللَّه ـ ونشرها في مجلة «المجلة» يونيو ١٩٦٩م.

تزال طاحونة السحق تدور وتسحق الآلاف المؤلفة، ونحن نرى ونسمع، وندفع أنفسنا بأنفسنا لنكون خبرًا من أخبار التاريخ مضى زمانه، ولم يبق منه إلا ذكراه، ولم يقف أهل الرأي الوقفة الحاسمة، لتحويل هذا التحول الذي فرض علينا وأمرنا ليس بأيدينا، ولا محيد لنا عن تغييره، وعودة الأمر إلى نصابه، ووضع أجيال الأمة في علومها وتاريخها وحضارتها؛ حتى ننشأ النشوء الطبيعي الذي تنشؤه أجيال الأمم كلها.

◻ وقد ذكرت أن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ كان يضيق بالصمت عن هذه القضية التي ليست قضية فكرية فحسب وإنما هي قضية كيان، وكان يحرص على ذكرها في كل ما يكتب لينبه الغافلين، ولتعلم الأجيال الجديدة على أي أرض تقف، وكيف نقبل الصمت والمداهنة، والخلود إلى الدعة، وإيثار الراحة، ونحن نعد أبناءنا لمستقبل يعلم اللَّه ما يخبئه لهم، وقد سكنت في ديارهم حية من أخبث الحيات، «في أنيابها السم ناقع لا يشفى لديغها» وصار الأمر أمر جد، وهذا كله يوجب علينا أن نراجع كل شيء بصدق قصد، وصريح عقل، ورحم اللَّه من كان هذا أكبر همه، ورحم اللَّه الدكتور زكي نجيب محمود فقد شهد شهادة صدق من يكتمها فإنه آثم قلبه..

وكنت أقرأ بعض ما يكتب عن الشيخ بعد وفاته ـ رحمه اللَّه ـ وأجد أنفاسًا صادقة، وكان حظ هذه القضية أقل من القليل، وقد شغل البعض بذكر صبوة قديمة عاشها الرجل في شبابه، وكتم أمرها، أو كلامًا في أخبار «خولة» أخت سيف الدولة، وكان الذين شغلوا بهذا قادرين على أن يقتحموا هذه القضية الأم، وقد عني الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ عناية شديدة بدراسة مؤسسات الاستشراق والتبشير والاستعمار، وهي ذات أصل واحد، واحتشاد هذه المؤسسات من أجل دفع هذه الثقافة المسيحية الغربية وفرضها على قلوب المسلمين وعقولهم ثم مطاردة علومهم وآدابهم ولغتهم وتاريخهم وحضارتهم،

وأن هذا لم يكن لصالح الأمم الإسلامية ولا لتنويرها، ولا لتطويرها، ولا لإدخالها في عصر النهضة كما تقرأ وتسمع، وإنما كان لتدميرها، وتشتت شملها، وإفراغها من كل ما نتمسك به ومن كل ما يشد كيانها كالبنيان المرصوص؛ حتى تواجه التحديات التي فرضتها عليها الحضارة الأوربية المسيحية نفسها.

ولا شك أن إحكام السيطرة على العقل والفكر، هو ذاته إحكام السيطرة على الأرض، وفرق ساطع بين العلوم التي نتكلم عنها، وهي عندنا العلوم العربية والإسلامية التي تطارد بشراسة وجهل، ليحل محلها نظائرها أو ما يسد فراغها من علوم النصرانية فرق بين هذا وبين العلوم البحتة، كالرياضيات وعلوم الطبيعة؛ لأن هذه ملك مشاع أو هي كما يصفها الأستاذ رضوان اللَّه عليه «تراث إنساني وإن كان زيفه المزيفون فأدخلوا في مفهوم العلم شيئًا ليس منه»[1] الأولى تتناقض تناقضًا صريحًا مع عقائد المسلمين، وهي التي احتشدت أجهزة التبشير لاقتحامها في الأمم الإسلامية، وهي خطر على العقيدة، وخاصة إذا خلا العقل من علوم الإسلام التي تدفع عنه غوائل هذه الوثنية النصرانية وقد وصف الأستاذ المرحوم محمود شاكر هذا التناقض الصارخ بين هذه الثقافة وعقيدة الإسلام، وذلك في رده على صديقه «محمد عودة» الذي كتب في جريدة «الجمهورية» كلمة طيبة في «القوس العذراء» وذلك في يوم ٢٠ صفر ١٣٨٥هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٦٥م وقد وضع فيها الأستاذ محمد عودة صاحبه في منزلته بين علماء الأمة، ثم ذكر أن بعض ما يكتبه الأستاذ محمود شاكر يترك في النفس «حزازا من الوجد حامزا» مثل هجومه على الثقافة الغربية، وكأنها فقط كتابات المستشرقين والمبشرين المعادين للإسلام.

---

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص٤٩٧).

* **لله در الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ:**

◻ قال الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ «وكيف غاب عنه أنني بطبيعة نشأتي في هذه العربية الشريفة، وفي شرارة هذا الدين الذي لا يقبل اللَّه من عباده سواه، يوم يقوم الناس لرب العالمين لا من عامي ولا من متعلم ولا من مفكر، ولا من عالم ولا من نبي من الأنبياء، كيف غاب عنه أنني بطبيعة ذلك عدو الثقافة الغربية؛ لأنها ثابتة في مدارج نموها في بيئة وثنية ومسيحية أنكر عقائدها وأرفضها وأعتقد بطلانها كل البطلان لمخالفتها للذي طالبنا به ربنا وخالقنا والمنعم علينا بآلائه ونعمه من عقل وبيان، وإذا أنا داهنت في ذلك أقل مداهنة فإنني على يقين من عذاب اللَّه، الذي لا يغني عنه في دفعه ثناء صديقي الأستاذ عودة، ولا إعجابه ولا مودته، فإن اللَّه يقول لنبيه ﷺ: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾، فإذا فعلت فإنني رهين بعذاب بئيس»[1].

◻ وأعود إلى ما نقله الشيخ من كلام رءوس المبشرين وكيف كانت تتفق كلمتهم على أن السيطرة الفكرية والثقافية على العقل الإسلامي هي أخطر طريق لتدمير ديار الإسلام، وأن تثبيت الأفكار الغربية المسيحية في ديار الإسلام، خطوة حاسمة في تحقيق أهداف إرساليات التبشير، وأن تَفتيت هذه الحضارة التي تقوم على مجموعة العلوم العربية والإسلامية أمر لازم حتى يتم المقصود من التجزئة السياسية التي فرضت على العرب والمسلمين، بعد سقوط الخلافة واستطاعت وحدة هذه العلوم، وهذه الثقافة أن تُفْقِد هذه التجزئة قيمتها، وسأكتفي بكلمات قصيرة قالها مسيو «شاتليه» أحد رءوس المبشرين

---

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص٣٩٨).

في سنة ١٩١١م يوصي رجاله وصايا تعينهم على تمكنهم من «قضاء لبانتهم من هدم الفكرة الدينية الإسلامية» هكذا يقول بوضوح شديد وأهم هذه الوصايا التي تعين على قضاء هذه اللبانة هي «تثبيت الأفكار الأوربية في ديار الإسلام»، وأن هذه الفكرة الدينية الإسلامية المراد هدمها» يجب أن تحاط بأفكار أوربية، وأن تطوق بها، ثم قال: «إن هذه الفكرة الدينية الإسلامية لم تحفظ كيانها إلا بعزلتها، وانفرادها»[1].

◻ ولاحظ أننا بغفلة شديدة غرسنا هذه الأفكار في داخل العلوم العربية والإسلامية، وزرعنا ثقافة أعجمية مسيحية في قلب الثقافة العربية الإسلامية واعتقدنا أن هذا تطوير لعلومنا، وصرنا نقرأ كتبًا في اللغة والآداب لا نعرف هل هي عربية، أو أعجمية، ودنسنا الفكر العربي الإسلامي بالفكر الوثني المسيحي وهذه مصيبة ثانية، ولما طالب بعض الناس بتعريب الطب، قال الطبيب الأديب الدكتور يحيى الرخاوي ساخرًا: عربوا علوم العربية أولاً.

◻ ومعنى كلام هذا الرأس المدبر «شاتليه» أن الفكر الأوربي إذا ثبت في عقل المسلم، وقلبه وليس في هذا العقل والقلب من علوم الإسلام وحقائقه وأصوله ما يعصمه من غوائل النصرانية المتضمنة في هذا الفكر استطاع هذا الفكر المنفرد في هذه النفس أن يهيئها لقبول النصرانية، وهذا هو معنى تدمير الفكرة الإسلامية بتثبيت الأفكار الأوربية، وأن أعداء الإسلام يقضون لبانتهم بهذا التدمير وهو أيضًا معنى قول الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ في وصفه الثقافة الغربية أنها ثقافة ثابتة في مدارج وثنية مسيحية وأنه يرفضها كل الرفض، ويناقضها كل المناقضة وليس معنى هذا رفض الاطلاع على تجارب الأمم وماذا يقولون؟ ومعرفة علومهم، وآدابهم وطرائقهم في النظر؛ لأن الحكمة

---

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص١٨٦).

ضالة المؤمن ينشدها في كل أرض، والعقل الحي كالطائر الحر لا يحبس عن قراءة ما يتاح له لأن حب الاطلاع شيء في سوس العقل، وفي طبع النفس ما دامت نفسًا، كما كان يقول علماؤنا ـ رحمهم اللَّه، ولكن لا بد أن تدور رحى البحث والدرس، على علومنا، وأن يُغْمَسَ الجيلُ فيها، ويصبغ بها، حتى تدخل في لَحْمه وعظمه، وأن تحيا هذا العلوم فينا، وأن نحيا نحن بها وفيها، وأن تتقلبَ بنا وأن نتقلب بها، وأن نَستَخْرج منها خبأها، وأن تستخرج هي منا خبأنا، وأن تزدهر بنا وتنمو وتسطع، وأن نزدهر نحن بها وننمو ونسطع وأن نحافظ على صفائها وخصوصياتها ونقائها، كما تحافظ هي أيضًا على صفائنا وخصوصياتنا ونقائنا، لتظل هي بنا عربية إسلامية خالصة ونظل نحن بها عَرَبًا خلصًا مسلمين غير مهجنين.

وهذا ما يفعله علماء الناس كل الناس، يحتفظون بخصوصية معارفهم وثقافاتهم ومناهجهم وآدابهم، ليحفظ ذلك كله خصوصية الإنسان ابن هذه الثقافة وابن هذه الآداب وابن هذه المناهج، راجع كلمة الدكتور زكي نجيب محمود واعكسها تُصبْ، أعني قوله ـ رحمه اللَّه ـ إنه هو والآلاف مؤلفة فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد. . الفكر الأوربي دراسته وهو طالب وتدريسه وهو أستاذ ومسلاته كلما أراد التسلية، اجعل هذا للفكر العربي الإسلامي، وهذا هو الذي يحدث في كل شقٍّ من الأرض، وقوله: «وكانت أسماء المذاهب والأعلام في الفكر العربي لاتجيئه إلا أصداء، كالأشباح الغامضة يلمحها طافية»، اجعل هذا لفكر الآخرين، ليس من الأوربيين فحسب، وإنما أيضًا لبقية أمم الأرض، ذات الحضارات والعلوم والآداب ولا تنفتح على العدو الألد وحده، نحن لم نراجع فكر إيران، ولا علومها، ولا آدابها إلا في حيز المتخصصين، وقل مثل ذلك في اليابان والصين وأمم الشرق الأقصى.

□ وكان علماؤنا يقولون: لا يجوز للمبتدئ أن يقرأ كلام المخالفين إلا بعد أن يحكم المذهب، وأن يحكم أصوله وفروعه، فإذا تقرر في نفسه وقويت عنده حججه، واستنارت في عقله، فله أن يقرأ ما يشاء.

□ ولا شك أن كثرة المدارسة لباب من أبواب العلم تكشف فيه خفايا، وتستخرج من تحت ألفاظ أئمته وشيوخه معاني وأفكاراً لم يكن لها أن تُستخرج إلا بطول الملابسة، وهذا وجه جيد من وجوه التجديد، ثم إن كثرة المدارسة أيضًا لباب من أبواب العلم يولد في النفس خواطر جديدة، حول هذا الباب، وإنما بقيت علومنا راكدة لأن عقولنا لم تَتَلَبَّس بها بالقدر الكافي، بل غابت عنها على حد ما وصف المرحوم زكي نجيب محمود ولا يكفي أن تتوفر عليها طائفة وإنما الأمة كلها تجعلها قُطبَ رحى الدرس، والبحث والتأليف وكتابة المقالات.

ومن فعلوا ذلك وتوفروا على علومهم هذا التوفر يقرءون من ثقافات الأمم ما شاءوا، وهكذا كان حال علمائنا في تاريخنا ألموا بتراث الإنسانية، وجعلوا طحينهم وحده تحت رحاهم وهكذا كان المرحوم محمود شاكر وقد اعتبر وصف صاحبه له بالتقصير في معرفة الفكر الأوربي سخفًا وقال: «هل يتفضل الصديق بإطلاعي على شيء من كلامي يتضمن هذا المعنى السخيف»[1].

□ وهناك فرق شاسع جدًّا بين أن تقرأ كلام الآخرين لتعرف كيف يفكرون؟ وبين أن تقرأه لتفكر كما يفكرون، وكذلك فرق بين أن تقرأ كلام الأخرين لتعرف ماذا يقولون؟ وأن تقرأ لتقول ما يقولون، أو شبه الذي يقولون، أنت في الحالة الثانية ضعيف مقلد، وفي الحالة الأولى عالم

(١) «أباطيل وأسمار» (ص٤٩٦).

متمكن، والتقليد خليقة مرذولة، وقد قال علماؤنا: إن المُقلد أذل من العنزة الجرباء تحت الشمال البليل، يعني الذي يقرأ كلامَ الآخرين ليفكر كما يفكرون وليقول مثل الذي يقولون، ليس هو هذه العنزةَ الجرباء تحت المطر الشديد البرد، وإنما هو أذل منها، فهل يُمكن لهذا العنز الأجرب أن يطور عُلومًا وأن يُحدثَ نهضة؟!!

وأعطيك مثلاً قريبًا للفرق الهائل بين القراءتين:

قرأ الأستاذ محمود شاكر مقالة «نشأة الشعر العربي» التي كتبها مرجليوث وقرأها الدكتور طه حسين.

عرف الأستاذ محمود شاكر ما قاله مرجليوث ثم أهمله، والدكتور طه حاضر به طلابه، وسكت عن مصدره، وأوهم أنه مما استخرجه بالمنهج الجديد. هذه واحدة، وأمر آخر هو أنك تجد الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه اللَّه ـ مع سعة علمه بالأعجميات لا يرتضخُ فكرة أعجمية واحدة، وهو يتناول أي دراسة لشعر أو لغير شعر ولا يُقحم نفسًا أعجميًّا واحدًا في كلام عربي، وهذه دراساته المتسعة والمتعددة.. ونقد الشعر الذي صار أعجميًّا ويوشك أن يكون كامل العُجمة ليس في كلام الأستاذ محمود فيه حرف واحد مع أنه قادر على أن يتناوله تناولاً أعجميًّا خالصًا، ويحرص كثير منا على أن يتكبر بهذه الأعجميات، حتى ولو كان قد خطف كلمة من هنا، وأخرى من هناك.

وقد اتضح الآن الفرق بين معرفة ما عند الآخرين، والاحتفاظ بصفاء علومنا، واللَّه أعلم.

* * *

* **ويقول الدكتور عبدالحميد إبراهيم في مقاله «محمود شاكر ـ الرجل والموقف»**[1] :

«ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس، أن يقول بحق إذا علمه» .

□ هذا نص حديث شريف، استفتح به الشيخ محمود شاكر كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» .

وهو حديث لا يصدق على أحد بقدر ما يصدق على الشيخ شاكر نفسه إن مفتاح شخصيته يتلخص في قدرته على قول الحق، مهما كانت الظروف .

وقبل هذه القدرة هناك قدرة ثانية تتكامل معها: وهي قدرته على أن يتبين الحق قبل أن يتنبه له الآخرون .

□ إن تاريخ الشيخ شاكر يتلخص في أنه يدرك الحق قبل أن يدركه غيره، هذا أولاً . وفي أنه يجاهر بهذا الحق ولو سكت غيره، وهذا ثانيًا .

هذا مفتاح شخصيته، وهو مفتاح يدل على أننا إزاء صنف من الرجال، يختلف عن غيره من بقية خلق اللَّه .

فالرجل، أي رجل، لا يقاس بغزارة علمه، ولا بوفورة ماله، فما أكثر العلماء الذين يعرضون صفحات الكتب، ثم يتركون دنياهم، دون أن يدري بهم أحد، وما أكثر الناس الذين يحبون المال حبًا جمًا . ويَفنون ويبقى المال ويذهب الأثر .

لقد ذكر الرسول ﷺ أن هناك نَهِمين لا يشبعان، طالب علم وطالب مال .

ولا غرابة في ذلك فكلاهما طالب العلم وطالب المال، يغرقان في لذة شخصية، قد تصرفهما عن المواقف التي تتجاوز حدود الشخصية ومتطلباتها

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٢٦ ـ ٢٧) .

الفردية.

□ الرجل إذن لا يقاس بعلمه ولا بماله، ولكن يقاس بمواقفه.

وهذ المعيار لا يفرق بين شخص وآخر. بين شخص يعيش لنفسه ويسعى نحو لذائذه، وآخر يعيش من أجل غيره، ويرتفع بمطالبه الشخصية؛ لترتبط بهدف ورسالة.

بين شخص يعيش ليأكل، وآخر يأكل ليعيش، كما تقول الكتب المدرسية. والشيخ شاكر هو من هذا النوع الأخير.

فهو لا يقاس بعلمه ولا بماله فهناك غيره الكثيرون ممن يحفظون النظريات ويسردون عناوين الكتب، وهناك غيره أكثر مالاً وأعز نفرًا.

□ ولكن الشيخ شاكر هو رجل المواقف بالدرجة الأولى.

وهي مواقف تفصله عن غيره، وتتيح له من الخلود ما لا يتاح لغيره.

□ هو يستطيع أن يتبين الحقيقة، في وقت لا يعرفها أحد أو يخشى أن يعرفها أحد.

وهو إذا تبينها جاهر بها، لا تمنعه هيبة الناس أن يقولها، مهما كان مقدار هؤلاء الناس.

□ التحق الشاب محمود شاكر في عام ١٩٢٦م بالجامعة المصرية، وكان الجميع فرحين بهذه الجامعة الجديدة، التي تدرس علوم الغرب ومناهج الإغريق، وكان الأساتذة يلبسون «الردنجوت» ويتبخترون في الأروقة بين المدرجات، يرطنون باللغات، ويلوكون الأعلام الأجنبية، ويتشدقون بالمعارف الأوربية، وكان الطلبة يتباهون بالأساتذة، يسيرون على خطاهم، ويرون فيهم صورة سقراط وأفلاطون وأرسطو قد بعثوا من جديد.

□ ولكن شابًا لم يصل إلى العشرين، لم يخدع بهذا الزيف، ولم يغرق

في ذلك الطوفان، فهو يتجاوز تلك اللحظة التاريخية، وينظر وراء الحجاب، ويدرك أن كل هذه الطنطنة قد تصرفنا على أصالتنا، وقد تغرس فينا عقدة «الخواجة».

ولا يكتفي هذا الشاب الصغير بأن يدرك الحقيقة، التي لم يدركها غيره من الشيوخ الكبار، بل أن يجاهر بالحق لا تمنعه هيبة أحد من أن يقول كلمته.

□ وتكون النتيجة أن يترك الجامعة إلى غير رجعة.

كانت اللحظة عمياء أقوى من أن يتبين الناس حقيقة هذا الشاب، فوصفوه بالعناد والثبات، وعدم القدرة على التطور.

ولكن الشاب يمضي في طريقه لم يتغير، تنكر له الناس، فهاجر من مصر إلى رحاب مكة، يستلهم من اللَّه الهداية والثبات.

وظل على موقفه عقودًا من الزمن، لم يتزحزح وهو شاب، وهو رجل، وهو شيخ حتى وافته المنية.

□ وهنا نضيف خصلة ثالثة إلى شخصية الشيخ شاكر، فهو لا يقف عند معرفة الحق، ولا عند المجاهرة بهذا الحق، ولكنه يثبت عند هذا الحق ولو كان مرًّا، ولا يتزحزح عنه، ولو تنكر له كل الناس.

قد يقال إن هذا تحجر وعناد صعيدي، ولكن الشيخ قد ألهمه اللَّه معرفة الشعرة الرقيقة، التي تفصل بين العناد والثبات على الرأي، ومضى في طريقه لا يتزحزح عما يراه حقًّا.

كان الجميع في الجامعة الجديدة، يسعون إلى تطبيق إنجازات الحضارة الأوربية على الواقع العربي، من خلال ما أسميته في كتابي «الوسطية العربية» بالنزعة التوفيقية، وهي نزعة تحاول أن تضع في «جراب» واحد إنجاز حضارتين مختلفتين تاريخيًّا وثقافيًّا، وتكون النتيجة في النهاية، انتصار الحضارة العالية، وضياع خصوصية الحضارة العربية الإسلامية.

❑ ولكن الشيخ شاكر منذ حداثته يختط له طريقًا آخر، ويبدأ مسيرته من واقع التراث العربي، ويحاور التيارات الأخرى من واقع ذلك التراث، ويخاطب قارئه ويقول:

«فاقرأ الآن معي تاريخك بعين عربية بصيرة لا تغفل، لا بعين أوربية تخالطها نخوة أوربية، كما فعل أستاذنا عبدالرحمن الرافعي، غفر اللَّه له ذنوبه في كتابه «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر».

ويعيد الشيخ شاكر قراءة تاريخنا الحديث من منظور هذا المنهج الأصيل، ويرى أن الحملة الفرنسية على مصر، لم تكن بعثًا ولا بداية للنهضة، كما اعتاد أن يقول المؤرخون، بل إنها قد قضت على النهضة التي بدأها علماء الأمة في أواخر القرن الثامن عشر، وأدت في نهاية أمرها إلى ما يسميه الشيخ شاكر بالتفريغ الثقافي، الذي سوف ينشئ على حد قوله:

«جيلاً من تلاميذ المدارس، تتهتك علائقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، حتى يتم تفريغهم تفريغًا كاملاً من ماضيهم كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وتاريخ الغزاة ولغات الغزاة».

يكفيه ـ رحمه اللَّه ـ أنه أدرك الطريق قبل أن يدركه غيره، وأنه جاهر بالحق في وقت قد خرس فيه غيره. العظماء لا يموتون، وحين يسكت الجسد، يبعث الفكر في ثوب جديد» ا.هـ.

* * *

* **ويقول الدكتور حلمي محمد القاعود في مقاله «معارك محمود محمد شاكر الأدبية»**[١] :

«وقد اشتهر «محمود محمد شاكر» بتحقيقاته وقراءاته في مجال التراث، وقد أخرج للمكتبة العربية الحديثة عددًا من الكتب الأمهات، فكانت عنوانًا على وعي فريد ويقظ بالتراث ومكنوناته، وأبعاده وعلامة على دقة نادرة في العمل والإنجاز، ودليلاً إلى نمط فذ في المهارة والإتقان، وعرف القراء في العالم الإسلامي عن طريقه تحقيقًا ومراجعة أجود قراءة لتفسير الطبري «١٦ جزءًا» وطبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار، والوحشيات لأبي تمام، وشرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني.

□ يقول الشيخ شاكر:

«صار حقًّا عليّ واجبًا أن لا أتلجلج أو أحجم، أو أجمجم، أو أداري، ما دمت قد نصبت نفسي للدفاع عن أمتي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً»[٢] .

□ يقول الدكتور حلمي القاعود: «إن هيمنة الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية قد خلقت ما يسمى بفساد الحياة الثقافية طوال القرن العشرين، وخاصة بعد أن تصدر أتباع الثقافة الغربية ميادين التعليم والفكر والأدب والسياسة والاقتصاد.. لقد نبت صراع عنيف بين أنصار كل من الثقافتين، أسفر عن حالة الفصام، وعن تدهور اللغة القومية، وضعف الأدب، والخلل

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٢٨ ـ ٣٦) ملخصًا.

(٢) «أباطيل وأسمار» (ص١٠) مطبعة المدني.

في شتى نواحي الحياة الاجتماعية إنه صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد الاختلاف.. إحداهما كانت «غافية» فقامت «تتمطى» وتطرد الفتور عن أعضائها ومفاصلها، وأخراهما «يقظة» تهب حذرة، وتتأهب للسطو على «الغافية» بالبغي والعدوان والقوة والبطش والضراوة وحب الغلبة وبسط السلطان.

ولم يتعب «محمود محمد شاكر» من تكرار الحديث في هذه النقطة، فقد أشار إليه وتناوله في أكثر من كتاب من كتبه، حيث نعى على الحياة الثقافية فسادها وسطحيتها وضحالتها، وتسلط المستبدين من خدام الثقافة الغربية على مقدرات الثقافة الإسلامية والعقل الإسلامي، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه تحت عنوان «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» في الجزء الأول من كتابه «المتنبي» ليجد تفصيلاً وإسهابًا حول هذه النقطة يتناول جوانب الفساد، وخاصة ما كان على يد «دنلوب» في نظام التعليم ونظام البعثات العلمية، والاستشراق، والفنون الأدبية «المسرح والقصة على وجه الخصوص» حيث صار السطو والتقليد للغرب أمرًا مألوفًا، ويؤكد أنه ما زال مستمرًا بقوة إلى يومنا هذا، «وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غبار عليها، وزادها رسوخًا إثارة قضية كثيرة الضجيج محفوفة بألفاظ مبهمة مغرية تقبلها النفوس بلا ممانعة، وهي قضية «القديم» و«الجديد» و«التجديد» و«ثقافة العصر»! والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين: ميل ظاهر إلى رفض «القديم» والاستهانة به، دون أن يكون الرافض ملمًا إلمامًا بحقيقة هذا «القديم» وميل سافر إلى الغلو في شأن «الجديد» دون أن يكون صاحبه متميزًا في نفسه تميزًا صحيحًا بأنه «جدد» جديدًا نابعًا من نفسه، وصادرًا عن ثقافة متكاملة متماسكة، بل كل ما يميزه أن اللّه قد يسر له الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة!! وكفى اللّه المؤمنين

القتال!»[١] .

❑ لقد ألحت مسألة فساد الحياة الأدبية على قلم (محمود محمد شاكر) إلحاحًا شديدًا، وتوقف عندها كثيرًا في كتابه «أباطيل وأسمار» بل إن آخر كتبه في مجال التحقيق، وهو «أسرار البلاغة» تضمن بيانًا مهما حول فساد الحياة الأدبية وأبعاده وأسبابه، تمنيت أن يقرأه المثقفون العرب المعاصرون، وخاصة من يعملون في حقل الدراسات الأدبية ليعرفوا مواطن الفساد كي يتجنبوها.. وأبرزها العبث بأصول ثقافتنا الإسلامية والكذب عليها، والاستهانة وقلة المبالاة والتحريض على تغيير التاريخ، إن أساتذتنا الكبار ـ كما يقول شاكر ـ استهانوا بما يقولون وتركوا ألسنتهم تطول وترعى في مرتع وخيم، واستهانتهم هذه لم تقتصر جنايتها على العلم أو الأدب، أو التاريخ، أو الدين بل جنت أيضًا على الحياة السياسية التي جاءت بعد ثورة مصر سنة ١٩١٩م، بل استشرت أيضًا حتى جنت على ما هو أعظم جنت على عامة الناس في حياتهم اليومية، وأعمالهم التي يزاولونها بأيديهم وعقولهم ليكسبوا بها رزق أيامهم[٢] .

❑ وكما نرى فإن (محمود محمد شاكر) يقوم بدور المقاتل العنيد ضد الاستهانة بتراثنا، وضد فساد الحياة الأدبية والثقافية، وهو مؤهل لذلك، مسلح بالعلم والوعي والنشأة.. ولا ريب أن الرجل أدرك واجبه تجاه أمته وفكرها وثقافتها، فواجه التيار الجارف الذي صنعته الحضارة الغازية المهيمنة بإيمان راسخ، وعقيدة ثابتة لا تعبأ بما تجلبه هذه المواجهة من مضاعفات أو مضايقات أو أزمات، وفي الوقت ذاته كان فاهمًا لمعنى «التجديد» أو «التقدم»

---

(١) «المتنبي» لمحمود محمد شاكر (١/ ٣١).

(٢) «أسرار البلاغة» لعبدالقاهر الجرجاني ـ تحقيق محمود شاكر (ص٢٥) من المقدمة ـ طبعة المدني.

الحقيقي الذي تصنعه الأمة من خلال معرفتها بذاتها، ومعرفتها بما لدى الآخرين، لبناء المستقبل المأمول.

ومن ثم فقد دخل إلى معاركه الأدبية بقلب جسور، وعقل واع، ومعرفة عميقة دون أن يهتز قلمه أو تزل قدمه مع أنه واجه خصومًا يملكون شهرة أو هيمنة تجعل من أي طرف يواجههم يتردد ألف مرة قبل أن يخط حرفًا واحدًا ضدهم معركته مع لويس عوض في قضية «المعري»، كانت هذه المعركة أوسع المعارك مجالاً حيث دخلها عدد من الأطراف بالنيابة عن الطرف الأصلي مثل محمود مندور، ومحمد عودة، وكتاب مجلة «روز اليوسف» اليسارية، وكتاب من «الأهرام» و«الجمهورية» وسامي داود، ومحيي الدين محمد، وغالي شكري، وغيرهم فضلاً عن أطراف مؤيدة لشاكر، وضمت كتاب مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» من أمثال عبده بدوي وعباس خضر ومحمد جلال كشك وعامر بحيري، وغيرهم.. وكان لهذه المعركة أثر واسع المدى بحكم ظروف الفترة التي جرت فيها.

بيد أن معركة «المعري» كانت في أغلب جوانبها قضية عامة، تمس كيان الأمة وواقعها ومستقبلها، ومع أن الطرف المثير للمعركة لم يرد على ما وجه إليه من نقد وتصويب، واستعلى على المواجهة العلمية والنقاش الفكري، إلا أن المعركة بدت في زمانها تخوضها الأصالة ضد استباحة الأمة وهيمنة طلائع الثقافة الغربية على مقدرات الثقافة العربية.

□ ومن المفارقات أن هناك من فسر استعلاء (لويس عوض) الطرف المثير للمعركة على الرد والمواجهة والنقاش، بأنه يرى أن من ينقدونه ويصوبون أخطاءه وخطاياه أقل منه، وليسوا في قامته العلمية والفكرية حتى لو كان أبرزهم (محمود محمد شاكر)![1] ، وقد حاول لويس أن يوحي بأنه ليس في

(١) «لويس عوض ومعاركه الأدبية» لنسيم مجلي (ص٥) وهو يقطر حقداً على الإسلام.

معركة مع أحد، ولكنه لم يجد مفرًّا إلا أن يرّد، ليس بالعلم والمنطق والحجة، ولكن بالسب والتحريض والسخرية والتهكم في كتاب ألفه خصيصًا لذلك بعنوان «المحاورات الجديدة» ويحمل عنوانًا فرعيًا هو «دليل الرجل الذكي إلى الرجعية والتقدمية» وغيرهما من المذاهب الفكرية، وقد صور فيه خصومه بصورة كاريكاتورية تحقق السخرية منهم والتهكم عليهم من خلال أقنعة مسرحية».

وقد بدأت المعركة مع لويس عوض عندما أخذ ينشر في «الأهرام» مجموعة من المقالات تحت عنوان «على هامش الغفران» عام ١٩٦٤م، ملأها بالخلط والتدليس والتزوير، وكانت الطامة الكبرى عندما نشر في مقدمة مقالاته بالأهرام بعض أبيات «المعري» بخط النسخ محفورة على الزنك، خطأ على النحو التالي:

صليتْ جمرةَ الهجير نهاراً
ثم باتتْ تَغصُّ بالصُّلبانِ

«سقط الزند في وصف حلب».

أعُبَّادَ المسيح يخافُ صحبي
ونحنُ عبيدُ من خلق المسيَحا؟

«سقط الزند في الحروب الصليبية».

البيت الأول ليس صحيحًا كما أورده لويس عوض وشكله.

والبيت الثاني صحيح ولكنه لم يرد في الحروب الصليبية كما زعم لويس عوض.

وكان حريًّا بالمجتمع الأدبي أن ينهض ليردّ الرجل عن شططه وغلوه، وتورطه في التعصب الطائفي الذي بدأ مستفزًا لكل الناس العقلاء حتى الذين يتمتعون بالصبر الجميل، والحلم إلى أقصى مدى!

لم تعد القضية بحثًا أدبيًّا حول التأثير والتأثر بين الأدب العربي والآداب الأوربية.. ولكنها تجاوزت إلى محاولة فرض النموذج الغربي وتأكيد هيمنته من خلال تزوير التاريخ وخلط الأوراق والتدليس على الناس من خلال منهج قاصر ومعيب.

وقبل أن نشير إلى بعض ما قاله (محمود محمد شاكر) فإن البيت الأول يأتي صحيحًا هكذا:

صليت جمرة الهجير نهاراً
ثم باتت تَغَصُّ بالصِّليانِ

الفعل: تَغَصُّ، بمعنى تمتلئ وتشرق، والصليان ـ بالياء المثناة ـ نبات ترعاه الإبل، وتسيغه إذا كان رطبًا وتشرق به «أي تغص» إذا كان يابسًا، إذا «الصلّيان» بالياء المثناة، وليست الصلبان بالباء المفردة كما ذهب لويس.

أما البيت الثاني الذي ذكر لويس أنه ورد في الحروب الصليبية، فقد كان ضمن قصيدة للمعري يمدح بها «الشريف العلوي» بعد أن أرسل إلى أبي العلاء أبياتًا أولها:

بعادُك أسهر الجفن القريحـا
ودارك لاتني إلا نزوحـا

وإذا عرفنا أن المعري مات قبل بداية الحروب الصليبية بنحو أربعين عامًا على الأقل، فإن المسألة لدى لويس عوض تخرج عن مجال البحث العلمي المجرد، إلى مجال آخر ليس علميًّا وليس مجردًا، وهو مجال التعصب الطائفي، والدعاية الفجة لأعداء الأمة[1].

---

(١) انظر «لويس عوض.. الأسطورة والحقيقة» لحلمي القاعود (ص١١٨) وما بعدها ـ دار الاعتصام.

أيضًا فإن لويس عوض قام بتفسير أحد الأبيات التي وردت في قصيدة أبي العلاء «النونية» يقول فيه:

فإذا الأرض، وهي غبراء صارت

من دم الطعنّ وردةً كالدهان

فقد جعل لويس الصفة «وردة» اسمًا، وفسّرها على هواه، حيث قال:

والمعري نفسه ينسج على صورة الوردة في سقط الزند، ويجعلها في الأرض لا في السماء، يعني كما في سورة «الرحمن» وكما في دانتي الذي أخذ عنهما «الوردة السماوية» (روزا مسكيتا)!! في حين أن المعري يقول: إن الطعن والقتل قد استمر فسالت الدماء حتى غشّت الأرض، فصارت أرض الميدان بالدماء حمراء كالأديم الأحمر المشرق[1].

□ وهذه الأخطاء المقصودة وغيرها تدل عى أن (لويس عوض) يفتقد أبسط مبادئ الأمانة العلمية، ويفتقر إلى منهج البحث العلمي الدقيق، وهو ما توقف عنده (محمود محمد شاكر) طويلاً، وكشفه بوضوح عندما تبين أن الرجل لم يرجع في كلامه عن أبي العلاء إلى مرجع أصيل واحد يتعلق بشعر أبي العلاء أو حياته أو تفسير القرآن الكريم أو الأسماء الواردة في كلامه، فوقع في التخليط والتلفيق، ويستحسن أن ننقل هنا ما قاله (محمود محمد شاكر) على طوله، حيث يلخص أخطاء لويس عوض العلمية والفكرية يقول:

«.. هذا الرجل الذي طلع علينا في طيلسان وجلاجل، قد ادعى منهجًا كمناهج الأساتذة الجامعيين سلكه في دراسة رسالة الغفران، وتاريخ

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٠٣) وما بعدها، وقد حذف لويس عوض البيتين اللذين جعلهما صليبين عندما نشر كتابه «على هامش الغفران» عن دار الهلال عام ١٩٦٦م.

شيخ المعرة، فحاكمته إلى أوائل ما يعرف الطلاب الصغار عن المنهج، فاتضح أنه يجهل منهج الدراسات الأدبية جهلاً تامًا، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك حتى أبرئ ذمتي، فكشفت عن أكبر خطيئة لا تغتفر لطالب صغير مبتدئ، وهي العجلة في قراءة النصوص، فأثبت أنه نقل نصًا من كتاب واحد هو كتاب الدكتور طه حسين، لم يقرأ قط في غير هذا الكتاب، ومع ذلك فهو إنما قرأ أسطرًا كالملهوف وترك ما بعدها من الأسطر، وهي التي فيها نقد الدكتور طه لهذا النص نفسه، وكان من الغثاثة والادعاء أنه استخرج من هذا النص الفاسد المستحيل المعنى أحكامًا ألقاها للناس كأنها حقيقة مفروغ منها، وهذا غش فاضح وعبث. وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك فأبرأت ذمتي أيضًا ببرهان قاطع على أن هذا الرجل قد ادعى في كلامه أنه قرأ كتبًا بأعيانها، وهو في الحقيقة خطاف جريء يتكئ على كتاب الدكتور طه وحده بلا بصر ولا فهم، فمن أجل ذلك أخذته بادعائه ومخرقته، حتى أكشف للناس أنه لم يقرأ شيئًا مما ذكر من الكتب ولا رآها ولا عرف ما هي ولا من أصحابُها، وصدقته في ادعائه الكاذب ليكون ذلك أشنع له؛ لأنه يكون عندئذ قد قرأ نصًا لم يعرف معناه، ولم يعرف كيف يدرسه طالب جامعي مبتدئ ضعيف، وكان هذا أيضًا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك فأبرأت ذمتي مرة ثالثة، بالدلالة الحاسمة على أن هذا الذي كتب ما كتب عن شيخ المعرة لم يقرأ شيئًا من آثار شيخ المعرة، وبخاصة شعر سقط الزند، وهو الشعر الذي يتعلق بالخبر الذي ادعى مُتَنَفخًا أنه قرأه فهو لم يفهم إذن منه حرفًا على وجه يليق بمبتدئ

جامعي، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام. ولكني لم أقنع بذلك حتى أبرأت ذمتي مرة رابعة، وذلك حيث زعم بمخرقته أنه جاء يعرف الناس بحقيقة شيخ المعرة، وحقيقة تاريخه، فذكر أكاذيب وأوهامًا لا أصل لها إلا في خيالاته وسماديره، فكشفت بلا ريبة عن أن هذا الدعيّ لم يقرأ كتابًا واحدًا في ترجمة شيخ المعرة، ومع ذلك فهو يأتي بلا خجل، ولا حياء فيذكر كذبًا صراحًا مناقضًا للمعقول من حياة الشيخ ومن حياة أسرته، ومن حياة أمته التي عاش فيها، وكان هذا هو حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع حتى أبرأت ذمتي مرة خامسة، بدلائل قاطعة على أن هذا الرجل الذي يدارس نصًّا عربيًّا من أعظم النصوص لا يملك أي إحساس أدبي، بأي نص يقرؤه، ولو ظل يكتب في الأدب عشرات المجلدات، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك، حتى أبرأت ذمتي مرة سادسة فبينت جهل هذا الرجل وادعاءه ببرهان فاصل من نص كلامه هو في صفة نفسه، إذ قال:

إن إحساس لويس عوض باللغة العربية ضعيف جدًّا، وأجنبي جدًّا، ومع ذلك فهو يعمد إلى النصوص الأدبية في لغة العرب فيدرسها بمخرقة شنيعة، وبلا حياء ولا يقنع بهذا، بل ينتهي به ما أطبق عليه من الهوس والجرأة، فيعمد إلى آية من القرآن الكريم العظيم، فيفسرها بغباوة وجهل راسخ، ثم لا يستحي فيدعي نسبة ذلك إلى كتب المفسرين المسلمين، موهمًا أنه لا يفهم، ويزعم أن الرجل الذي يدرسه قد جاء في شعره بألفاظ هذه الآية، بالمعنى الذي يفسره هو[1] .

---

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٣٦ ـ ١٣٩).

ولا شك أن هذا الملخص لأخطاء لويس عوض وخطاياه يكشف عن أهمية المعركة التي احتشد لها شاكر على مدى خمس وعشرين مقالة طويلة نشرت في مجلة «الرسالة» على مدى عامي ١٩٦٤، ١٩٦٥م وانتهت بإغلاقها مع معظم المجلات التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي آنئذ، وانتهت أيضًا بإيداع الرجل السجن لأكثر من سنتين، خرج بعدهما ليجمع هذه المقالات في كتابه «أباطيل وأسمار» مضيفًا إليها مقالة قصيرة ضمنها بعض أبيات المعري الدالة على عمق المحنة التي تعرض لها على المستوى الشخصي، وتتعرض لها الأمة على المستوى الفكري والثقافي والحضاري[1] .

وكما رأينا في هذا الملخص، فإن لويس عوض حين تجرأ على تناول «رسالة الغفران» ليزغم أن المعري قد تأثر بالآداب الأوربية القديمة، لم يستخدم منهجًا صحيحًا، ولم يتسلح بمعرفة جيدة، ولم يدخل إلى الموضوع بتجرد الباحث المنصف، ولكنه كان مقصرًا في العناصر كافة اللَّهم إلا تعصبه للحضارة الأوربية ومفرداتها العنصرية.. ومن ثم، فقد امتدت المعركة لتتجاوز المعري إلى قضايا أخرى عديدة تخص الواقع الثقافي العربي المعاصر

---

(١) يقول الشيخ محمود شاكر في مقالته القصيرة «السادسة والعشرين» وكانت بعنوان «ثم غلِّقت الأبواب» وقد حذفت من الطبعة المصرية لكتاب «أباطيل وأسمار» وقد أثبتها حلمي القاعود في كتابه «لويس عوض.. الأسطورة والحقيقة» (ص٢٩٥) في الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٥ (٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٥)، وأحاطت بي الأسوار، وأظلمت الدنيا، وسمعتُ، ورأيتُ، وفزعت وتقزّزت.. وكان ما كان.

وعلمتُ، حتى ما أسائِل واحدا ... عن علم واحـــدة لكي أزدادها

وتسلّيت عن كل ما ألقى بقول شيخ المعرّة:

ويســـوســـون الأمور بغير عـقل ... فينفـــذ أمرُهـــمْ ويُقال: ساسهْ

فأفٍّ من الحيــــــاة وأفٍّ مني ... ومن زمن رئاســته خســـاسهْ

أو بمعنى آخر تخص الصراع القائم بين حضارة الأمة المستباحة، والحضارة الغازية القاهرة.. وهو ما ألح عليه شاكر في مواضع عديدة أشرنا إلى بعضها من قبل وأكد عليه في مقدمة الكتاب الذي حمل مقالاته في الرسالة، حيث قال: «وقد سرت في هذه الفصول المتشعبة المعاني (يشير إلى مقالات الكتاب) سيرة واحدة، فضمنت جميعها بابًا أو أبوابًا من النظر إلى حقيقة الصراع الذي دار، ولم يزل يدور على أرضنا وفي عقولنا، وفي ضمير أنفسنا، وأشرت في مواضع كثيرة إلى أن هذا الصراع صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد الاختلاف: حضارة طال عليها الزمن فغفت غفوة آمن مستريح لا يفزعه شيء، وحضارة واتاها الزمن فهبت يقظة متلفتة جريئة لا تأمن أحدًا ولا تطمئن إليه..».

❑ ثم أضاف بعد حديث عن بداية الصراع الحديث وطبيعته وأساليبه «الجيوش ـ التجارة ـ المبشرين»:

«وأطبقت على رقعة العالم العربي والعالم الإسلامي ضبابة كثيفة، ووطئ عليها تاريخ يسحق القوى وينسفها نسفًا.. وكانت قصة طويلة متمادية، تقطر دمًا وغدرًا وخيانة، وترشح مكرًا وخبثًا وخسة وفظاظة».

❑ ويستطرد محمود محمد شاكر، في بيان أن الثقافة والأدب والفكر من أخطر ميادين هذا الصراع، ويزيده خطورة أن الذين تولوا كبره والذين ورثوهم من خلفهم رجال منا، من بني جلدتنا، من أنفسنا، ينطقون بلساننا، وينظرون بأعيننا، ويسيرون بيننا آمنين بميثاق الأخوة في الأرض أو في الدين، أو في اللغة، أو في الجنس..[1].

❑ وهكذا يتبين لنا أن المعركة تجاوزت مسألة تزوير أبيات المعري، التي

(١) «أباطيل وأسمار» (١١ ـ ١٢).

أشرنا إليها من قبل لويس عوض، وتعمده أن يوظف هذا التزوير لإشباع ميله إلى التعصب، ورغبته في الإعلاء من شأن العالم الصليبي، وصارت القضية الكبرى هي الصراع بين الحضارتين، الحضارة الغافية «حضارة الإسلام» و«الحضارة اليقظة «الصليبية» وتعدد أساليب الصراع وميادينه..

لقد وقف إلى جانب محمود محمد شاكر عدد كبير من الكتاب، وخاصة في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وقد أسهموا في كشف أخطاء لويس عوض وخطاياه.. ومن ناحية أخرى فقد وجه لويس عملية كشف الأخطاء والخطايا بطريق غير مباشر عن طريق بعض أصدقائه وتلاميذه ومعظمهم من اليساريين، وقد تولوا الدفاع عنه، وتحويل المسألة إلى صراع سياسي بين الرجعية والتقدمية أو بين أعداء النظام من الرجعيين «ويمثلهم شاكر ومن معه» ومؤيدي النظام من الاشتراكيين التقدميين، وقد برز من هؤلاء كما سبقت الإشارة محمد مندور، ومحمد عودة، ومحيي الدين محمد، وغالي شكري، وكتاب مجلة «روز اليوسف» وصحيفتي «الأهرام» و«الجمهورية» وقام «لويس عوض» بعد أن سكنت العاصفة، وأغلقت المجلات، ودخل شاكر وآخرون السجن بإعلان بهجته واحتفائه بما يسميه «معجزة صيف ١٩٦٥م» (يقصد إغلاق المجلات وسجن الخصوم) ومطالبة الكتاب والفنانين والمفكرين بمقاتلة الرجعية وأفكارها، بعد أن اتهمهم بالتقصير أو «إنهم كانوا يعانون أزمة نفسية جماعية بلبلتهم وأخرجت زمامهم من أيديهم»[١] .

◻ ثم إن (لويس عوض) أفرغ ما في نفسه بالسب والقذف في هؤلاء الرجعيين من خلال كتابه «المحاورات الجديدة» الذي سبقت الإشارة إليه، وللأسف فإنه لم يتخذ منهجًا علميًّا أو موضوعيًا للردّ على أخطائه وخطاياه،

(١) الأهرام ١٩/١١/١٩٦٥ (ص١٢).

بل إنه تجاهلها تمامًا وراح يسخر من الرجعيين والمتمسكين بالتراث ويتهكم عليهم ويصورهم تصويرًا كاريكاتيريًّا باردًا.. وكان حرصه الأول في كتابه على التحريض ضد هؤلاء الرجعيين من عينة قوله:

«.. الميثاق (بيان أصدرته الحكومة وجعلته مشروعًا للعمل القومي) نادى بالتقدمية والنظر إلى الأمام ومجلات وزارة الثقافة ـ يقصد «الرسالة» و«الثقافة» وغيرهما ـ نادت بالرجعية وعبادة السلف.. الميثاق نادى بمساواة المرأة بالرجل وبتحرير المرأة من أغلالها ومجلات وزارة الثقافة نادت بانحطاط المرأة وبضرورة اعتقالها في الحريم.. الميثاق نادى بالاشتراكية العلمية ومجلات وزارة الثقافة نادت بالاشتراكية البورقيبية.. الميثاق مجد رفاعة الطهطاوي ولطفي السيد، وفلسفة الأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى، ومجلات وزارة الثقافة مجدت إغلاق النوافذ وتحسرت على انسلاخ مصر من الامبراطورية العثمانية.. الميثاق دعا لتنظيم الأسرة كجزء من برنامج التنمية ومجلات وزارة الثقافة كافحت تنظيم الأسرة..إلخ»[(١)] .

◻ وعلى هذا النحو يمضي لويس عوض في توجيه التهم ضدها وضد من يحررونها ممن يسميهم بالرجعيين، دون أن يشير أدنى إشارة إلى خطأ واحد أو خطيئة واحدة مما اقترفه في كتابه «على هامش الغفران» فيرد أو يعلل أو يصحح!

◻ ويقول الدكتور حلمي القاعود أيضًا:

أما معركة «المعري» فكانت معركه العصر الأدبية والفكرية بلا جدال، إذ إن الوقت الذي أُثيرت فيه المعركة كان يشير إلى عدم التكافؤ بين طرفي المعركة، فالطرف الذي يمثله شاكر، كان مطلوبًا من أطراف أخرى داخلية

(١) المحاورات الجديدة أو «دليل الرجل الذكي إلى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية» للويس عوض ـ (ص١٩) وما بعدها ـ الكتاب الذهبي «روز اليوسف».

وخارجية.. وكان وصمه بالرجعية وعداء الاشتراكية وما أشبه مسألة فوقية تريدها السلطات المحلية والقوى الأجنبية في آن. أما الطرف الثاني الذي يمثله (لويس عوض) فهو الطرف المدلل لدى السلطة، ولدى القوى الأجنبية جميعًا، فهو داعية للقضاء على هوية الأمة ومواريثها، وداعية إلى اللحاق بالآخر الغربي وقيمه ومثله وقد عبر عن ذلك بوضوح لإخفاء بعده في سيرته الذاتية التي صدرت قبيل وفاته بعنوان «أوراق العمر» (١٩٨٩م).. وقد أدى في فترة الستينيات دورًا جيدًا كوفئ عليه بتعيينه «مستشارًا ثقافيًّا» للأهرام، وهي أول مرة ينشأ فيها مثل ذلك المنصب الرفيع في تلك الجريدة العريقة.. فضلاً عن اكتسابه ما يشبه الحصانة داخل «الأهرام» وهيمنته على بقية الصحف والمجلات الحكومية.. أما الطرف الأول. فقد كانت مكافأته السجن، وإغلاق المجلات التي كانت تصدرها وزارة الثقافة، ومحاصرة الأقلام التي كشفت الأخطاء والخطايا لدى لويس عوض..

بيد أن النتائج النهائية لهذه المعركة كانت بلا ريب في صالح الطرف المهيض الجناح، إذ أن المجتمع الأدبي بعد نحو ثلاثين سنة تقريبًا من السجال، أسقط لويس عوض وما يمثله، واعترف بأهمية الدور الذي قام به محمود محمد شاكر في مجال الدفاع عن هوية الأمة وتراثها، ولا أدل على ذلك من تدفق المشاعر الفياضة لدى مثقفي الأمة وأفرادها الذين لا يملكون سلطة ولا هيمنة، تجاه (محمود محمد شاكر) بالتقدير والعرفان وافتقاده بعد رحيله حارسًا على اللغة وأدبها، والدين ومعطياته.. مما يعني أن المعارك الأدبية التي خاضها شاكر ـ كانت كما قال ـ صراعًا بين حضارتين، وليست مجرد سجال بين كاتبين أو أكثر في قضية أدبية أو فكرية تنتهي بالفراغ من كتابتها. ولم يكن مستغربًا أن يقف الفريق الموالي للغرب من وراء لويس عوض، وأن تقف الأمة وراء محمود محمد شاكر؛ لأنه بالنسبة لها رمز الاستقلال والحرية والأمل، مهما ادلهمت الظلمات وتكاثرت النكبات

واشتدت المحن!

❏ رحمك اللّه يا شيخ العربية:

قد جئت في زمن ضاعت مكارمه
وحرمة اللغة الغرّاء تُستَلَبُ
فكنت سدًّا منيعًا دون حوزتها
من أن يغير عليها الخائنُ الدَّرِبُ
رُمت «الأباطيل والأسمار» تدحضُها
فهُتِّكتْ دونها الأستارُ والحُجُبُ

❏ وفي حوار معه أجراه الدكتور نجم عبدالكريم[1] قال الشيخ محمود شاكر:

«إن هذا الجيل الذي نراه منزوعًا من أصوله نزعًا كاملاً.. الجيل الذي نشأ في السنوات الأخيرة كله منزوع من أصوله نزعًا كاملاً. وأنه لا بقاء لأمة.. لا بقاء لأمة بغير حصيلتها الماضية! بغير هذا التيار المتدفق من القرون الطويلة.

وأعني بالتيار المتدفق ذلك التيار الفكري واللغوي الذي يعيش به الإنسان.. الإنسان يعيش بلغته ـ فهذا الانفصال بين الماضي والحاضر قاطع بأن كل طريق في الحياة الأدبية سوف ينقطع أيضًا.

❏ كأنك بذلك تدق ناقوس الخطر؟

نعم.. لا تستطيع أي أمة أن تعيش بغير تاريخها، والذي يريد أن يُنشئ في هذا الزمن أمة أخرى عن طريق التوهم فهو مخطئ، فتأسيس أمة جديدة

(١) عن صحيفة الشرق الأوسط ـ العدد ٥٦٦٣ ـ الثلاثاء ٣١/ ٥/ ١٩٩٤، وجاء كاملاً بمجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٥٦ ـ ٦١).

عن طريق التوهم ضرب من ضروب الخطأ، الأمم بلسانها فقط، الأمم بحركاتها الأدبية واللغوية فقط.. أما الأشياء الأخرى من الصناعة إلى كذا وكذا.. أو الآراء الاجتماعية وما شابه ذلك فهي زائلة ومتحولة، أو يمكن أن تتحول في أي وقت من الأوقات.

ولكن إذا تحوّل التاريخ فلا يمكن أن يبقى إنسان على صورة صحيحة في هذا الحياة.

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ لما سُئل عن موقفه من لويس عوض؟ قال:

«الذي دفعني لموقفي أني وجدت شيئًا غريبًا جدًّا كنت أراه مفرقًا ثم رأيته مجتمعًا.. وقد ذكرت ذلك في مقدمتي «أباطيل وأسمار» قلت: كيف تنبهت إلى هذا فقد انفتحت عيناي على شيء مخيف، وهو أني أرى اكتساحًا كاملاً مرورًا بالزمن للعقل العربي والمصري.. وأنا أذكر مصر هذه المرة، وأقول: أن الخطر آت من مصر، وإني أرى توجيهًا شديدًا لمحق كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالحياة الصحيحة للفكر الأدبي في المستقبل.

ومعنى هذا أن هذه المعركة ليست معركة أدبية، إنما هي معركة سياسية بمعنى أنهم يمنعون الأمة مما يجب وينبغي أن تكون عليه وخاصة في مصر.. لأني كما قلت لك اعتقد أن تاريخ الأمم هو تاريخ النفس الإنسانية في تعبيرها عن ذاتها، فإذا مُحِق هذا التعبير الحقيقي الصحيح، فقد انتهت الأمور، فالحرب من هذه الناحية إذن هي حرب الكيان السياسي لا الكيان الأدبي. إنما أنا أعتقد أن هذا الذي ذكرت اسمه في كلامك؛ لأنه لا يساوي شيئًا في التاريخ الأدبي الصحيح ولا فهم له ولا إدراك في أي شيء.. أنا لا أريد أن أذكر هذا الاسم لأنه ثقيل عليّ، وهو ثقيل عليّ منذ زمن قديم.. وقد ذكرت هذه القصة.. فأنا أقرأه منذ كان صغيرًا، وأراه وأعرفه وأعرف

كيف نشأ، وكيف نشأ أستاذه[١] أيضًا، وكيف تكوّن أستاذه، ومن يليه، أعلمهم وأعرفهم جميعًا.. لو كانت لنا أمة حقيقية لفهمت هذه الأشياء؛ لأن الأمم الأخرى تفهم كيف تُحصن نفسها من سموم هذا وأشباهه.

هذا الكلام قيل على لسان من هم أكبر من هذا الذي لا أريد ذكر اسمه؛ لأنه تابع بسيط مبتذل مبهور في كتب من سبقوه من اليهود وأمثاله.

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«أحب أن أقول لكل امرئ أنه مسئول أمام هذه الأمة التاريخية العظيمة المسماة بالأمة العربية مسئولية حقيقية.. وأن على كل امرئ أن يبصر طريقه بوضوح قبل أن يفوت الوقت.. فإن الأمم ليست بالصورة التي تتصورها.. الأمم تفنى وتزول، وأنتم ترون بأعينكم أنكم تُعاملون في العالم الآن معاملة شاذة جدًّا في تاريخ البشر، ولا يمكن أن يحدث في التاريخ القديم والمعاصر ما حدث لكم، لقد وصلت الأمور في بلادنا أننا طُردنا من بيوتنا وشُرِّدنا من أوطاننا وانتهكت كل الحقوق في بلادنا دون أن يتحرك في العالم ضمير إنسان، ودون أن يتحرك حتى الضمير العربي.

واللغة العربية من أشرف اللغات بين العالم، فاللسان هو حياة الأمة لا حياة لأمة بغير لسان!، واللسان كالنهر الجارف يجمع كل محصول الأمة، وهو كالغيث منهمر لآلاف القرون، ليتكون منه هذا النهر العظيم.. فإذا انقطع هذا النهر فقد وقعنا في أكبر خيبة» ا.هـ.

□ قال الدكتور حيدر الغدير في قصيدته «الصقر»[٢] : «كان محمود محمد شاكر أمة وحده.. فهو شيخ العربية، وعاشق العروبة، وحارس

(١) عدو الإسلام.. القزم سلامة موسى.

(٢) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٦٢ ـ ٦٤).

التراث، وفارس الأصالة، جمع إلى غيرة المسلم عزة العربي.. غفر اللّه له ورحمه وأنزله منازل الأبرار والصالحين.

صقر على شم الرعان يُحَلِّقُ ومداه مغرب شمسها والمشرقُ
والنجم والأفلاك في تطوافها والروح في أسرارها والمطلقُ
نسجته من أرض الجزيرة ريحها ونخيلها وخيولها والأينق
وجبالها ورمالها وجلالها وبيانها العذب الشهي المونقُ
وحراء والآي الزواهر تزدهي فيه وتهدي العالمين وتعبقُ
فأتى أبرّ رجالها وأعزهم وأحبّ ما يرجو الفخار ويعشقُ

باق عطاؤك في الزمان مفاخراً
كالنيرات زواهراً تتألق
ستظل للفصحى وإن كره العدا
العلْم يروي والصوارم تبرق
أما عِداك ففي غد راياتهم
تطوى كما يطوى الظلام وتمحق
فيقول راوٍ عارَهم وشنارَهم
انظر إليهم لا بقين ولا بَقُوا

* * *

وهبتك آيات الفصاحة سرها
فإذا بك القلم البديع الشّيق
والضاد أنت نجيُّها ونجيبها
وعليمها وكليمها المتذوق

والحارس الشاكي يصون ذمارها
ويصول إن حمي الوطيس ويهرق
غضباً لها وحمية مبرورة
وجذاه إعصار يطوف ويحرق
فإذا انتصفت لها رجعت مكلّلاً
بالنصر وهو مزغرد ومصفق
ورجعت بالرضوان أنك صنتها
أما الجبين فبالجلال مطوق
وعلى محياك الأبي وضاءة
تسري فيأتلق الحجا والمفرق
والضاد تهديك الثناء متوجاً
والمسك أكرم طيبه والزنبق

* * *

ولقد عرفتك في فؤادك حُرْقة
نزّت جراحاتٌ تفيضُ وتَفْهَقُ
أدمنت حزنك إذ رثيت لأمة
هي منك قلبك في الجوانح يخفق
وجعلت همك أن تكون بشيرها
ونذيرها العريان وهو المشفق
والسيفَ سُلّ فما يعود لغمده
والحاديَ الهادي يقول ويصدق

وجعلتها عرضًا يصان ويفتدى
بالغاليات الطيبات ويصدق
عاينتها فوجدتها مصروفة
عن رشدها والجهل شر مطبق
فهتفت من قلب يكابر لوعة
والحزن عاصفة ونار تحرق
أبناء إسماعيل أنتم أمة
في التيه مرهقة الخطا تتمزق
أنتم أسارى الجهل يدعوكم له
لَسِنٌ يقول ومدَّعٍ يتشدق
أو سامريٌّ في الجهالة خابط
يسعى به حقد قديم أزرق
أو مستكين قاده مستغرب
أو قاده لضلاله مستشرق
تتراكضون وراءه وشُرُورُه
فيكم أشد من الزعاف وأرهق

* * *

ولقد رحلتَ وفي فؤادك غصة
والعين يغشاها الذهول المرهق
أبصرت أمتك الكريمة قصعةً
وحمىً مباحًا في المذلة يغْرق

عبثت بهـــا أدواؤها وبلاؤهـــا
فيها ومنهـــا غاشيـات تطـرق
والمسلمـون من الهـــوان كأنهـــم
دِمَنٌ صـــواد بالبلى تتمـــزق
«نتن» يعيث بهـم ويعلـم أنهـم
لن يثأروا مهمـا رغـوا وتشدقـوا
يُقْضىَ عليهـم غائبين فـإن أتـــوا
لم يغضبـوا أو يأنفـوا أو ينطقـوا

***

لا أبـا فهـر فـأمـةُ أحمـــد
ستظل كالشمس المنيـرة تشـرق
إن الذي حفظ الكتـــاب وصـانه
نـــوراً يفيض وجـدولاً يترقـرق
سيظل يحفظها ويعلي شأنهـا
ويقيـل عثـرة أمرهـا ويُـوَفّقُ
منهـا اللياذ بـه ومنه حفظها
والعهـد منـه ومنـه جلّ الموثـق
ألاّ تموت وإن كبت في سيرهـا
بل تسـتجيش ومن جديـد تخلـق
فتعـود بالبعث الجديـد فتيـة
كالغـاب من بعـد اليبوسة تـورق

والله واق من يؤوب لأمـــره
وهو الحفـــي بمـــن أتـــوه الأرفـــق

* * *

*** الدكتور محمد محمد حسين الحامي لحصوننا الداخلية يفضح التغريب وينذر قومه:**

صرخات مدوية، ونفثات صادقة حاول صاحبها الدكتور محمد محمد حسين إيقاظ النائمين من سباتهم العميق، وتنبيه الغافلين مما يحاك لهم من مخاطر.

□ يقول ـ رحمه الله ـ:

«إني رأيت الإلحاد والانحلال في هذه الأيام يشتعل ويسري سريان النار في يابس الحطب، ورأيت دعاته يستفحل أمرهم في كل مكان، ورأيت الناس مشغولين بالجدل والنقاش حول ما يثيرونه من موضوعات يسترون مآربهم الهدَّامة من ورائها تحت أسماء خلاَّبة برَّاقة، كالنهضة، والتحرر، والتطور، ومتابعة ركب الحياة، وهي موضوعات منوعة تشمل الحياة في شتى نواحيها، يخترعونها ثم يهولون من شأنها ويكثرون من الأخذ والرد حولها حتى يلفتوا إليها أنظار الناس، وحتى ينشأ جيل جديد مرنت أذنه منذ وعى على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات، فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لا بد لها من حل، ويتجه في أغلب الأحيان ـ كما جرت عادة الناس ـ إلى أنصاف الحلول التي ترضي الطرفين المتخاصمين حسب وهمه. والخاسر في حقيقة الأمر هو صاحب الحق. والربح كله للباطل وأصحابه.

□ ولا يزال أصحاب الباطل ماضين في اتخاذ هذا الأسلوب نفسه جيلاً من بعد جيل، يزحفون ويزحفون، حتى يسدّوا على الناس كل سبيل للحق،

أو يفتح اللّٰه بابًا من أبواب رحمته فيبعث عليهم من ينكّل بهم ويقطع دابر ما يثيرونه من فتن.

◘ ولكن الجديد في أمر هؤلاء الدعاة أن شرهم لم يعد مقصورًا في هذه الأيام على الكلام، فقد انتقلوا من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل بعد أن نجحوا في التسرب إلى الحصون التي تحمي قيمنا، وأصبح كثير منهم في مناصب تمكّنهم من أن يدسّوا برامجهم وخططهم على المسئولين من رؤسائهم وينفذوها في صمت، ودون أن يثيروا ضجة تلفت إليهم المعارضين.

◘ ولهؤلاء المفسدين عصابة تشد أزرهم وتشيد بهم وتنوِّه بذكرهم وتحميهم من خصومهم وتقطع ما يهاجمون به مما ينبه الناس إلى شرهم عن كل وسائل النشر، فلا يصل إلى آذان الناس أو عيونهم شيء منه. وأنا حين أزعم أن هؤلاء الدعاة ينتمون إلى عصابة ذات خطر إنما أعني بالعصابة كل مدلولها وكل حرف من حروفها وكل مفهوم من مفاهيمها.

◘ هذه العصابة قليلة العدد. ولا ترجع قوتها إلى كثرة عددها. ولكنها ترجع إلى تماسك أفرادها وتضامنهم، يساعد بعضهم بعضًا، ويحمي كبيرهم الصغير، ويمهد السابق منهم للاحق، ويهيئ له فرص الظهور والترقي، بينما يتخلصون بمختلف الوسائل من الخصوم الذين يعارضونهم والذين يقفون في وجه خططهم. يحدث ذلك كله في الظلام وفي صمت. وقد لا يكون هناك تنظيم واحد معروف بعينه يضم الهدامين ودعاة الشر كلهم جميعًا، ولكن المهم في الأمر أنهم جميعًا، على اختلاف نزعاتهم وعلى تباين ساداتهم وشياطينهم، متعارفون متضامنون، والمتدبر لخططهم وتحركاتهم في إحكامها، وفي تناسقها، وفي وحدة أهدافها، وتشابه أساليبها في كثير من الأحيان، وفيما تستند إليه من نفوذ واسع، لا بد أن ينتهي إلى أن هناك هيئات منظمة تنظيمًا دقيقًا من وراء هذه الحركات، وأن بين هذه الهيئات قدرًا كبيرًا من

التفاهم واتفاق المصالح. وعصابة الهدَّامين تستمد قوتها وخطورتها من هذا التنظيم من ناحية، ومن أنها مجهولة الرأس والحدود والأطراف والأساليب والأعوان من ناحية أُخرى. وهذا التنظيم وهذه السريَّة هما مصدر قوة هذه العصابة التي لا تفترق عن عصابات السطو والإرهاب في شيء. فهي لا تعتمد في تنفيذ خططها على الإقناع شأن أصحاب الرأي، ولا على الكثرة شأن أصحاب (الديموقراطية) المزعومة، ولكنها تعتمد على العمل في الظلام وعلى البطش بالخصوم والتخلص من المعارضين ومؤازرة الأولياء والأصدقاء وتمكينهم من مقاليد السلطة. وهم يسلكون لذلك كل سبيل ويستغلون فيه كل وسيلة، وعلى رأس هذه الوسائل الصحافة والإذاعة والمنابر ودور النشر وشراء الذمم والتهديد بالفضائح.

❑ ومن هذه الأساليب التي لا تحصى أسلوب مشهور معروف لم يعد يخفى على بَصير، يُلقي أعضاء هذه العصابة شباكهم حول أصحاب النفوذ والسلطان ويدخلون إليهم من أقرب الأبواب إلى قلوبهم وأضعف الثغرات في نفوسهم، ثم يتظاهرون بالتفاني في حبهم والإخلاص في خدمتهم، فيلازمونهم ملازمة الظل، لا يغادرونهم طرفة عين، ويراقبون منهم الإشارة والبادرة، مراقبة الكلب الأمين لصاحبه، حتى يصبح التابع منهم لازمة من لوازم سيده ووهمًا مسلطًا عليه لا يتخيل إمكان الاستغناء عنه، وبمرور الأيام تتحول هذه البطانة إلى سور ضخم شاهق يحجب عن بصر صاحب النفوذ كل شيء عداه، فحيثما وجّه البصر لا يرى إلا هذا السور، وتصبح هذه الدائرة الضيقة هي دنياه، لا يعرف شيئًا مما يجري وراءها في دنيا الناس، وعند ذلك يصبح صاحب النفوذ في حقيقة أمره سجينًا من حيث لا يدري، لأنه لا يرى إلا ما يسمحون له برؤيته، ولا يسمع إلا ما يسمحون له بسماعه وحسبك بهذا سجنًا، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يصبح صنمًا معبودًا كعجل

الكفار من الفراعنة، يحبس في الظلام، ولا ينتفع بعبادته وتقديسه إلا سدنتُه.

◻ وأخطر ما في أمر هذه العصابة أن أفرادها يتمتعون بكل ما في حرب العصابات من مزايا. ومن أخطر هذه المزايا أن الجهاز الحكومي ـ وهو يشبه الجيش النظامي ـ لا يستطيع توجيه الضربة القاضية إليهم. لذلك كان من أنجح الأساليب في مكافحتهم أن تدرس خططهم وأساليبهم في الكيد والدس وينبه الناس إليها. عند ذلك ينكشف الستر عن الذين يستمدون قوتهم من العمل في الظلام، ويجدون أنفسهم وقد غمرتهم الأضواء وكشفت أوكارهم وسراديبهم. ولا يجدون بدًّا من اللجوء إلى سلاحهم القديم الذي بدءوا به وهو سلاح الدعاية. وقد فشلوا فيه من قبل، وسيكون فشلهم في هذه المرة ساحقًا ماحقًا بعد افتضاح أمرهم؛ لأنهم يسبحون اليوم ضد تيار قوي غلاَّب، ترعاه عناية اللَّه سبحانه، ويحفه توفيقه، ويمده مدده الذي لا ينفد وجنوده التي لا يعلمها إلا هو. ذلك هو تيار النهضة العربية واليقظة الإسلامية.

◻ من أجل ذلك كتبت هذه الكلمات لمجلة الأزهر، ثم أعدت نشرها مجموعة في هذه الصفحات. كتبتها لألقي الأضواء على الذين يعملون في الظلام، وأكشف الستر عما يدبرون في الخفاء، ولأفضح دسائسهم التي يلقون عليها حجبًا كثيفة من الرياء والنفاق، حين يندسون بين صفوف العاملين على بعث معالم شخصيتنا وإحياء شعائرنا وأشعرتنا، يتظاهرون بالغيرة على إسلامنا وعلى عروبتنا، حين تنطوي ضمائرهم على فساد العقيدة وحين يعملون لحساب العدو الذي يستعبدنا ولحساب الصهيونية الهدامة التي لا تريد أن تبقي على بناء قديم. هؤلاء هم أخطر الأعداء، وهم أول ما ينبغي البدء به في تطهير الحصون وتنظيف الدار؛ لأن الأعداء والمارقين ظاهر

أمرهم لا يخفون، وهم خليقون أن ينفروا الناس، فهم كالمريض الظاهر يتحاشاه الناس ولا يقتربون منه. أما هؤلاء فهم كالمريض الذي لا يظهر المرض على بدنه، فالمخالطون لا يحتاطون لأنفسهم في مخالطته. وأكثر ما تتعرض الشعوب للخطر من هذا الفريق في أطوار ثورتها ونهضتها؛ لأنها في هذا الطور تمر في دور انسلاخ تحاول أن تطهر نفسها فيه من الأوضار ومن النقائص، فيُلبِّس هذا الفريق من المنافقين والضالين والمضللين عليها أمرها، ويزينون لها الباطل زاعمين لها أنه هو سبيل النهضة، ويوهمونها أن كثيرًا من عاداتها الصحيحة الأصيلة هي من أسباب تخلفها وضعفها، ويزجون بها فيما رسمته عصابتهم من قبل وما قدَّرته من طرق ومسالك.

كتبت هذه الصفحات حين كتبتها لكي أفضح هذا النفر من المفسدين وأنبه إلى ما انكشف لي من أهدافهم وأساليبهم التي خُدعت بها أنا نفسي حينًا من الزمان مع المخدوعين، أسأل اللَّه أن يغفر لي فيه ما سبق به اللسان والقلم.

وقد كان مصابي هذا في نفسي وفي تفكيري مما جعلني أقوى الناس إحساسًا بالكارثة التي يتردى فيها ضحايا هؤلاء المفسدين، وأشدهم رغبة في إنقاذهم منها، بالكشف عما خفي من أساليب الهدَّامين وشراكهم.

❑ ومن الواضح أن هذه الصفحات لا تستقصي نشاط الهدامين ولا تستوعب كل ميادينهم ولا تحصيها عددًا، ولكنها تقدم نماذج منها تكشف عن أساليبهم في الدس والتزييف والهدم والتخريب، وهي أساليب لا يقتصر شرها على بلد دون بلد، فهي تعم بلاد العرب، بل بلاد المسلمين، بل الشرق كله، يسقونه السم على حين نهضته حتى لا تصح له نهضة، وليقوده إلى الهاوية التي يوشك الغرب كله ـ شرقيه وغربيه ـ أن يتردى فيها. وسيعلم القارئ من بعد أن إصبع الصهيونية العالمية الهدامة التي تطمع في أن ترث

الأرض وتستعبد كل من عليها لليهود من وراء هذه الدعايات والدعوات.

لذلك لم يكن من قصدي في هذه الصفحات أن أقنع الذين أنبه إلى خطورتهم، فأكثر هؤلاء دعاة وليسوا طلاب حق، لا يخرجهم من ضلالهم إلا أن يرزقهم اللَّه الهداية، ويشرح صدورهم للإيمان، ولا حرج عن فضل اللَّه ولا يأس من رحمته. ولكن أكثر قصدي في هذه الكلمات كان إلى الشباب خاصة، أنبههم إلى ما قد يخفى عليهم من حيل الهدامين وأساليبهم. وشيء آخر كان بين عيني أيضًا حين كتبت هذه الكلمات، وهو أن أقوم بواجب في عنقي نحو ولاة أمورنا، وأن أعينهم بالنصح فيما أعلم ابتغاء لثواب اللَّه، وإبراءً للذمة من عهدة لا تبرئني منها إلا هذه الكلمات.

ولست أبالي أن يكون المنتفعون بهذه الكلمات والذين يعونها حق الوعي قلة من الناس، بلى إني لا أطمع في أكثر من ذلك. ولكني أعلم أن اللَّه سبحانه قد يجري خيرًا كثيرًا على يد نفر قليل إن أعان ووفق وبارك، وأنا أسأل اللَّه العون والتوفيق، وأنا يبارك جهود المخلصين ممن يبتغون بعملهم وجهه الكريم»[١] اهـ.

*** «حصوننا مهددة من داخلها» لزام على كل مسلم قراءته:**

وهو كتاب جد خطير، أوضح فيه الدكتور محمد محمد حسين أن الدول لا تقوم بالمال والصناعة وحدهما، وتسقط الدول وتنحلّ وهي في قمة مجدها الصناعي والمال حين تفقد الخلق.

وأوضح ـ رحمه اللَّه ـ أن المؤسسات التي تقوم على صيانة الدين واللغة هي بمثابة الحصون التي تسهر على حمايتنا وسلامتنا، وأن أخطر ما يكون

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين ـ مقدمة الطبعة الأولى (ص١١ ـ ١٦) دار الرسالة ـ السعودية ـ الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٣م.

الغزو إذا كان من داخل هذه الحصون والمعاقل، وأن وزارة التربية والتعليم من أهم هذه المعاقل لأنها تقوم على الثروة البشرية وهي أغلى الثروات.

□ قال ـ رحمه اللَّه ـ:

ولا شك أن وزارات التربية والتعليم هي أهم هذه المعاقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها؛ لأنها هي المؤتمنة على أثمن ما تملكه الأمة من كنوز، وهي الثروة البشرية بما تنطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات عقلية وخلقية، ممثلة في رجال الغد الذين تشرف على تربيتهم، وهي ثروة تتضاءل إلى جانبها كل كنوز الأرض؛ لأن كنوز الأرض لا تساوي شيئًا بدونها. فالعقل هو الذي يستخرجها من مكامنها ويحيلها من مادة صماء جامدة إلى قوة حية منتجة، والخلق الديني هو الذي يدفع الناس إلى إعمال هذا العقل في الطريق الصحيح، وإلى بذل الجهد فيما وكل إليهم من أمور، أداءً للأمانة، وابتغاءً للعزة والسيادة وإعلاء الحق.

وقد أصبحت مطامع أمريكا في هذه المنطقة وعداوتُها لحماتها الذين يتصدون لحراستها ويتزعمون نهضتها مشهورة لا تخفى ولا تحتاج إلى تنبيه. فاتصال القائمين على شئون التربية والتعليم في هذه الأمة العربية بالمؤسسات الأمريكية، والتعاوُن معها في ترويج مبادئ وأساليب يقال إن المقصود بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح شئون الجيل الجديد، أمر لا يصدّقه العقل ولا يتفق مع ما يبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها. فالذين يشتركون في المؤتمرات الأمريكية، والذين يتعاونون مع دور النشر الأمريكية، وكلها يموَّل من مصادر مريبة، يَسخَرون من عقولنا، ويخدعون أنفسهم إن زعموا أنهم يخدمون أمتهم بالاشتراك في هذه المؤسسات؛ لأن الأموال الأمريكية التي تنفق بسخاء يبلغ حد السّفه على هذه المؤتمرات وعلى هذه الدور لا يمكن أن تستهدف خير هذه الأمة ونفع أهلها.

□ وقد وقع بين يدي في هذه الأيام كتاب أصدرته الجامعة الأمريكية ببيروت في العام الماضي (يوليو ١٩٥٦)، يحتوي على محاضرات في نظم التربية، هي سجل لما دار في مؤتمر دعت إليه هذه الجامعة، واشترك فيه جماعة من كبار المسئولين عن التربية في مصر وفي سوريا والعراق والأردن ولبنان. وقد مُثِّلت ثلاثة من هذه البلاد في ذلك المؤتمر الأمريكي بثلاثة وزراء سابقين للتربية والتعليم. فمثلت مصر بإسماعيل القباني، ومثلت العراق بعبدالحميد كاظم، ومثلت الأردن بأحمد طوقان، والأخيران من تلاميذ الجامعة الأمريكية الداعية لعقد هذا المؤتمر، وقد كان العضو الأردني يشغل عند عقد هذا المؤتمر منصب مستشار لشئون اللاجئين الفلسطينيين في منظمة الإغاثة الدولية. أما البلدان الباقيان ـ سوريا ولبنان ـ فقد مثلهما رجلان من كبار المسئولين عن التعليم وهما جميل صليبا عميد كلية التربية في الجامعة السورية، ونجيب صدقة المدير العام لوزارة التربية الوطنية والفنون في لبنان. وقد اشترك مع إسماعيل القباني في هذا المؤتمر عضو مصري آخر هو حامد عمار الأستاذ في معهد التربية العالي بجامعة عين شمس ورئيس قسم التدريب في المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي بسرس الليان.

□ وهذا المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي لا عمل له إلا (سلخ) الريف العربي من دينه وخلقه وعروبته، و(طبعه) بالطابع الأمريكي، وهو يتولى هذه المهمة إتمامًا لما بذله الغرب من جهود في فرنجة هذه المنطقة، بعد أن تبين المستشرقون الذين يبحثون في شئون هذا الشرق الإسلامي والعربي أن تأثير الفرنجة لم يتجاوز المدن؛ لأن كل الوسائل والأساليب التي يستخدمها الغربيون في هذا الصدد من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية وسينما وشراء للأقلام وللذمم وللرجال إلى آخر ما هنالك، كل ذلك لا يصل إلى الريف، ولا يتجاوز حدود المدن. فما الذي صنعته أمريكا

لتلافي هذا النقص، والاحتيال لدخول الريف الذي عجز التبشير وعجزت الأساليب الاستعمارية العتيقة عن اقتحامه إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة؟ اخترعت أمريكا تحت ستار (الدولية) وعن طريق (الأمم المتحدة) شيئًا اسمه «التربية الأساسية». وما هي التربية الأساسية؟ يقول الدكتور حامد عمار في بحثه الذي ألقاه في هذا المؤتمر الأمريكي: «التربية الأساسية منهج من مناهج الإصلاح الاجتماعي لرفع مستوى المعيشة يؤكد قيمة العملية التربوية وتغيير الأفكار والنزعات إلى جانب تغيير الأوضاع المادية (ص٩٢) محاضرات في نظم التربية».

❑ ويقول في موضع آخر: «تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات، كما تسعى إلى تغيير في الأوضاع المادية في الدائرة التي تلتزمها. ويؤمن دعاة التربية الأساسية أن كل عمل أو مشروع مادي لا بد أن يسبقه ويصاحبه ويتبعه تغيير في تفكير الناس، وفي الاتجاهات الفكرية والنفسية، حتى يمكن أن يكون العمل منتجًا إنتاجًا كاملاً (ص٨٥)».

❑ وواضح أن تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات الذي أشار إليه الباحث يقوم على أسس غربية خالصة، تروَّج باسم العلم ـ علم مزعوم لا يستقر له قرار ولا يقطع في ظاهره برأي يتفق عليه أصحابُ الرأي، يسمونه «علم النفس» ـ وواضح أيضًا أن هذا «التغيير» ـ تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات ـ لا يبالي أن يخالف الإسلام وتعاليمه في الريف المسلم؛ لأن القائم على هذا (التغيير) ليس هو مشيخة الأزهر، ولكن القائم عليه هم مجموعة من (الخواجات) يختفون خلف الشخوص العربية التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها، وواقع الأمر أنها لا إرادة لها، وأنها تسير في خطوط مرسومة، وحسب خطط مدبرة قدرها أناس أقل ما يوصفون به أنهم لا

يبالون بالإسلام وتعاليمه، إن لم يكونوا معادين لها يعملون على محوها واستئصالها من نفوس الناس. ولهم في ذلك أساليب خبيثة يتسللون عن طريقها إلى قلوب أهل الريف السذج الغافلين. وسوف لا أصف لك أنا هذه الأساليب ولكني سأدع العضو العربي المحترم في هذا المؤتمر الأمريكي يقدم لك صورًا منها بألفاظه كما جاءت في الكتاب الذي بين يدي.

◘ فأول مراحل العمل في الريف هي «مرحلة التعرف»، (وهدفها أن يتحسس العامل الاجتماعي طريقه في القرية بصورة عامة وأن يألفه الناس ويألفهم.. ومن المستحسن أن تكون هذه المرحلة من العمل مرحلة فيها شيء من الاسترخاء وأخذ الأمور بمأخذ غير محدد، إذ إن هذا الهدوء والاسترخاء ضروريان لتأسيس العلاقات الاجتماعية وتنميتها، وبخاصة إذا تذكرنا أن الفلاح سريعًا ما تأخذه الريبة ويتولاه الشك إذا تبين إلحاحًا من غريب عليه في أمر من الأمور.. ثم إنه لا بد من التعرف على قادة القرية الطبيعيين الذين يعتبرون عناصر فعالة في تكوين الرأي العام والتأثير فيه.. وليس من المهم أن يكون هؤلاء القادة من النوع الذي يرغب فيه المصلح، لكنه لا بد من الاعتراف بهم واستغلالهم».

«وإذا كان التعرف يتطلب الاتصال والزيارة ومبادلة الحديث فإن هذا شرط لازم، وليس بكاف في كثير من الأحيان. وربما كان القيام بعمل إنشائي سريع من أنجح الوسائل لكسب الثقة وتأسيس علاقة طيبة مع الأهلين.. وقد تبين بالتجربة أن دق طلمبة مياه بالقرية، أو إصلاح خزان المياه بالجامع، أو مقاومة الآفات الحشرية في الزراعة، كان من أقوى العوامل التي وثّقت الصلة بين أهل القرية وبين المشرفين على مختلف جوانب الخدمة الاجتماعية فيها. وأذكر أن زجاجات قطرة العيون كانت من أهم الوسائل التي اكتسبت بها آنسات المركز الدولي للتربية الأساسية ثقة نساء القرية (ص٩٨ ـ ١٠٠)».

◻ ويتكلم الدكتور حامد عمار بعد ذلك عن المرحلة الثانية وهي «مرحلة الدراسة والبحث» التي (يقوم فيها المشتغل بميدان التربية الأساسية أو الخدمة الاجتماعية بجمع المعلومات والبيانات اللازمة جمعًا منظمًا، بحيث تكون معرفته لظروف القرية معرفة لا تقوم على مجرد الإحساس، بل على الاستقصاء للحقائق وتنظيمها، حتى يستعين بها في رسم خطته وتنفيذ برنامجه.. ومن البحوث المفيدة أيضًا تشكيل مختلف العادات والطقوس التقليدية التي تشكل حياة الريفيين وتعالج كثيرًا من نواحي نشاطهم.. ومن الأمور العملية المفيدة في هذه البحوث الكيفية الاحتفاظ بمذكرات أو يوميات يسجل فيها الباحث ملاحظاته ومجريات الحوادث وظروف العمل أثناء إقامته في الريف. ولا شك أن مثل هذه المذكرات هي المادة الخام التي تستطيع أن تعتمد عليها في فهم ظروف الحياة الريفية فهمًا ديناميكيًّا يتميز بغنى الواقع وتفاصيل الحياة اليومية (ص١٠٠ إلى ١٠١).

◻ من الذي يشرف على إدارة هذا الجهاز، وعلى جمع كل هذه المعلومات والدقائق؟ هيئة أجنبية، وليكن اسمها ما يكون. لتكن هي «التربية الأساسية» أو «النقطة الرابعة» أو ما شئت من هذه العناوين المختلفة.

◻ هل هناك وسيلة للجاسوسية أضمن وأرخص وآمن من هذه؟ تجمع الهيئة وسماسرتها، الخبيث منهم والمغفل، ما شاءت من المعلومات في هدوء واطمئنان، دون أن يثير عملها ريبة أحد. بل إنها تلقى المساعدة الكاملة من الجهاز الحكومي، وتيسر لها سبل توثيق الصلات بالناس، وتترك لها الفرص لتعمل في بطء وفي مهل وفي غير عجلة. فهم جواسيس في ثياب أطباء، يؤتمنون على كل أسرار المريض الذي لا يخفي منها شيئًا طلبًا للشفاء؛ فإذا هذه الأسرار تُستغل في الغدر به. وإذا هي تدرس لاختيار أفعل الوسائل لقتله وأمثل السبل لامتصاص ما بقي في عروقه من دم.

☐ أتريد بعد ذلك أن أحدثك عن هدف آخر مهم من أهداف هذه المؤسسات الأجنبية المريبة؟ إن هذه المؤسسات تريد إفساد المرأة الريفية وفرنجتها. إنها تقوم باستئصال (حياء) المرأة الريفية المسلمة في النهار المبصر، وعلى مسمع من كل ذي أذنين. هل تريد دليلاً على ذلك؟ إذن فاقرأ بحث الدكتور هارولد ألن مدير التربية بمؤسسة الشرق الأوسط الذي ألقاه في مؤتمر أمريكي آخر تحدثت عنه من قبل وهو مؤتمر (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة)[1] ، وقد تولت نشره مؤسسة فرانكلين الأمريكية. راجع في هذا الكتاب مقال الدكتور ألن عن «العامل الريفي في الحضارة الإسلامية» (ص٢٦١ إلى ٢٨٨).

وسوف تتبين بعد قراءته أن الأساليب التي وصفها هذا الأمريكي مما اتُّبع في سوريا هي الأساليب نفسها التي وصفها الدكتور حامد عمار مما اتُّبع في مصر. وهذا الأسلوب الواحد الذي يذكرنا بأساليب الجواسيس والمبشرين يؤكد ما أسلفته من أن هذه الشخوص التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها لا تتحرك إلا حسب خطة واحدة قدرها الذين فضلوا أن يجذبوا الخيط من خلف ستار. ولنقف قليلاً عند صفحتي (٢٦٧، ٢٦٨) من هذا المقال، حيث يقدم الكاتب صورة من بعوث أمريكا ـ أو البعوث الدولية إن شئت ـ التي تتغلغل إلى صميم البيئات الإسلامية في الريف باسم الخدمات الاقتصادية والخدمات الفنية، أو الخدمات الاجتماعية، وسوف تدرك بسهولة أن الهدف الكبير لهذه المؤسسات ـ إلى جانب ما تنتفع به من معلومات تفيد الجاسوسية السياسية والحربية ـ هو (أمركة الريف)، والاهتمام فيه بالمرأة خاصة وبتوجيه الحركة النسوية. سترى في هذا المقال أن هذه المؤسسة تختار موظفيها الذين

---

(١) انظر في هذا المؤتمر الطبعة الثالثة من كتاب الدكتور محمد محمد حسين «الإسلام والحضارة الغربية».

يتعاملون مباشرة مع القرويين من الوطنيين ليكونوا أقرب إلى قلوب الناس. وسيروي لك الكاتب ما حدث في (قبر الست) وهي إحدى قرى سوريا. ذهب مبعوث المؤسسة الدولية ـ أو الأمريكية إن شئت ـ وهو شاب عربي اسمه (فؤاد فرج) إلى القرية ليعيش فيها، واستطاع أن يقيم في حجرة من الحجرات المخصصة لإقامة زوار ضريح الست (والمقصود بها هي السيدة زينب رضي الله عنها حفيدة النبي عليه الصلاة والسلام)، وأخذ يتلمس طريقه لممارسة نشاطه بعد أن وثق به أهل المنطقة واطمأنوا إليه، فنجح في إدخال بعض التحسينات الزراعية، وقدَّم ألوانًا مختلفة من الخدمات الصحية بمعاونة السكان وتنظيمهم. رش المدينة كلها بمسحوق د. د. ت. للقضاء على الذباب والبعوض، وجفف الشوارع، وأنشأ ناديًا للشبان، كما أنشأ دراسات مسائية في القراءة والكتابة للبالغين من الأميين، وكوَّن جمعية تعاونية. وبعد أن سرد الدكتور هارولد ألن ضروب النشاط التي قامت بها هذه المؤسسة الأجنبية ختم وصفه لهذه التجربة بالسطور التالية، التي تدل عى الهدف الحقيقي لهذه البعثات. قال: «وفي السنة الماضية بدأ الرجال الذين يعيشون في محيط هذا الرائد ـ بعد أن تحسن اقتصادهم وصحتهم تحسنًا كبيرًا نتيجة لجهوده العلمية ـ يفكرون في حاجات نسائهم، وهذا هو ما ظل فؤاد فرج ينتظره زمانًا. وقد أحيل الاقتراح إلى قسم رعاية المنزل بالمؤسسة المسئولة عن هذا العمل. فأعدَّ برنامجًا للنساء والأطفال يدار من مكاتب قدمتها القرية بلا إيجار»[1]. ثم يعقب على ذلك

(١) من القواعد الأساسية في مؤسسة (التربية الأساسية) حسب ما جاء في (ص٨٨) من الكتاب الذي نتكلم عنه في هذا المقال ـ «محاضرات في نظم التربية» ـ: مساهمة (الناس بالجهد أو بالمال أو في الفكرة أو في التنفيذ في أي عمل من الأعمال. ولا شك أن هذا يدعوهم إلى الشعور بأن هذا العمل أو المشروع جزء منهم وأنهم أصحاب حق فيه. وهو ما يحفزهم إلى رعايته واستغلاله والاهتمام به). ويذكرنا هذا الأسلوب بأسلوب الجاسوس الإنجليزي المشهور لورانس حيث يصفه في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» فيقول =

بقوله: «إن المشروع الذي وصفناه هو جزء من تجربة تشمل اثنتين وستين قرية، يبلغ مجموع سكانها ستة وعشرين ألفًا. وهو مثال لعشرات غيره من الجهود الفعالة المماثلة التي يمكن القيام بها (ص٢٦٨)».

◻ وهدف ثالث من أهداف مؤسسات «التربية الأساسية» ربما كان أخطر من الهدفين السابقين وأعمق أثرًا، هو تخريج جيل من الخبراء الاجتماعيين المصبوبين في قوالب أمريكية، أو قوالب صهيونية على الأصح، يلبس ثياب العرب والمسلمين، ويتسمى بأسماء العرب والمسلمين، ويعمل في حكومات العرب والمسلمين لغير أهداف العرب والمسلمين. ولا يمضي وقت طويل حتى يصبح المشتغلون بشئون الخدمة الاجتماعية وتنظيم الحياة العربية والإسلامية في شتى مناحيها من هؤلاء المتأمركين الذين يفسدون حين يزعمون أنهم يصلحون، ويهدمون حين يظنون ويظن المخدوعون بهم أنهم يبنون ويشيدون.

◻ والآن بعد أن طال الحديث عن المركز الدولي للتربية الأساسية أنتقل إلى مقالات الأعضاء الذين تحدثوا عن شئون التربية والتعليم في البلاد العربية، وهي الأساس في عقد هذا المؤتمر. والهدف من هذه البحوث التي دعي أصحابها لإلقائها لا يخرج عن الهدفين السابقين اللذين أشرت إليهما من قبل: الجاسوسية، والسيطرة على توجيه المجتمع. ففي مثل هذه المؤتمرات يتيسر استقاء معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها، كما يمكن معرفة الاتجاهات الفكرية لقادة الرأي والمسئولين في هذه البلاد. وهذه المؤتمرات ـ

= فيقول أنه كان يعيش بين العرب كأنه واحد منهم. ولم يزل يمعن في تقليدهم حتى أحسوا أنه واحد منهم. وعند ذلك وجدوا أنفسهم منساقين إلى مجاملته وتقليده. فهو لم يفعل ـ كما يقول ـ شيئًا بنفسه. وليس هناك عمل يمكن أن ينسب صراحة إليه. إلا أن يكون من تأثيره في أفكار غيره وتحويلها إلى أغراضه. على أن العرب ـ كما يقول ـ كانوا يبدون في كل تصرفاتهم أحرارًا يتأثرون بالقدوة الصامتة إيجابًا وسلبًا حسبما يحلو لهم (ص٢٩ من النسخة الإنجليزية طبعة اكسفورد سنة ١٩٤٣).

مثل المؤسسات الأمريكية والدولية التي أشرت إليها من قبل - هي أضمن الوسائل وأرخصها وأوثقها لجمع المعلومات الصحيحة الدقيقة التي تخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة.

□ ثم إن هذه المؤتمرات هي - من ناحية أخرى - وسيلة للاتصال القريب المباشر بالمسئولين، يَعْجِمون عودهم، ويدرسونهم عن قرب، ويختبرون مدى مناعتهم ومدى استعدادهم للتجاوب مع الأهداف الخفية للسياسة الاستعمارية، كما يختبرون مواطن القوة ومواطن الضعف في كل واحد منهم لمعرفة أنجح الوسائل للاتصال بهم والتأثير عليهم. هذا إلى أن الكلام الذي يلقى في هذه المؤتمرات - وهو مجامل لا شك لوجهة نظر الداعي إلى المؤتمر - لا بد أن يلقى صدى في نفوس كثير من هؤلاء المسئولين من المدعوين.

□ أما خدمة هذا المؤتمر لأغراض الجاسوسية الأمريكية التي ترسم الخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة، فهي واضحة في كلمة الدكتور عبدالحميد كاظم وزير معارف العراق السابق، التي ألقاها في هذا المؤتمر، حيث أشار إلى ما طُلب منه إعداده حين وجهت إليه الدعوة، فقال: «إن خطاب الزميل الدكتور حبيب كوراني يشير إلى الرغبة في أن أتكلم عن تطور التربية في المملكة العراقية خلال السنوات العشر الأخيرة[1] مشيراً إلى أهم الاتجاهات الحديثة من حيث: التنظيم، والمنهج، وإعداد المدرسين، والتفتيش، والامتحان، وكذلك المشكلات الاجتماعية، والاقتصادية،

(١) السنوات العشر الأخيرة هي السنوات التي تبدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية. وهي الفترة التي اتسمت بتدخل أمريكا في شئون هذه المنطقة. فأصحاب هذا المؤتمر يريدون الاطمئنان على مدى نجاح خططهم في خلال هذه السنوات العشر. والواقع أن أمريكا قد حققت بدولاراتها خلال هذه المدة ما لم تستطع الدبلوماسية الإنجليزية والدبلوماسية الفرنسية ومؤامرات التبشير الظاهرة والخفية مجتمعة أن تحققه في قرن كامل.

والسياسية التي تجابه التعليم في العراق مع بعض الحلول التي اتخذت أو يجب أن تُتخذ لمعالجتها، على أن تأتي هذه في محاضرتين. هذا هو المطلوب مني حسبما جاء في الدعوة الموجهة إلي (ص١٢٥: ١٢٦)»[1] .

«والذي يراجع ما ألقي في هذا المؤتمر من بحوث يتبين دقة المدعوين في التزام الوفاء بما طلب إليهم التحدث فيه على أكمل ما يطلبه الأمريكيون ويريدونه. فبحوثهم مدعمة بجداول إحصائية لا حصر لها في كل جانب من جوانب التعليم، مما يقدم صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلادهم، إلى جانب النظم التعليمية. والواقع أن أعضاء المؤتمر لم يقدموا هذه الجداول الإحصائية تبرعًا من عند أنفسهم، ولكنهم قدموها استجابة لطلب الذين دَعَوا إلى هذا المؤتمر ونظموه. فالدكتور حبيب أمين كوراني رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ـ وهو الذي وجّه الدعوة لهذا المؤتمر ـ يقول في تقديم الكتاب الذي ضم ما أُلقي فيه من بحوث: «.. فدعونا لذلك نخبة من قادة الفكر وكبار رجال التربية في مختلف الأقطار العربية للمساهمة في هذه الدراسة، وذلك بتقديم محاضرات تتناول أهم الأبحاث الحديثة في التربية في أقطارهم من حيث الأسس الفلسفية والاجتماعية والنفسية التي ترتكز عليها التربية، ومن حيث التنظيم والمنهج وإعداد المعلمين والتفتيش والامتحان بالاستناد إلى بعض الإحصائيات التربوية الهامة، ويتناول أيضًا عرض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تجابه التعليم، مع بعض الحلول التي اتخذت والتي يجب أن تتخذ».

☐ أما الهدف التوجيهي من هذا المؤتمر فهو واضح في هذه المقدمة أيضًا وفي سائر البحوث. يقول رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت في مقدمته: «لقد بدأ قادة التربية في البلدان العربية يتحسسون الحاجة إلى

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٢١ ـ ٢٩).

تربية فعالة كوسيلة لمعالجة الوضع الخطير الذي أحدثته عوامل التطور في هذه البلدان». ثم يقول بعد أن يعرض هذه العوامل باختصار: «فنتج عن هذه تبديلات عديدة هي تبديلات جوهرية لا يمكن أن تحدث في مجتمع ما دون أن تحدث فيه تضاربًا بالأفكار والمثل والقيم، ودون أن تتطلب تعديلاً في مفاهيم ذلك المجتمع وآرائه ومعتقداته وطرق تنظيم معيشته. لذلك نجد أنفسنا في هذا الوضع مرغمين على إعادة النظر في مؤسساتنا التي تكونت ضمن الوضع القديم، وفي المبادئ والافتراضات والأهداف التي بنيت عليها تلك المؤسسات وتعديلها على ضوء الوضع العلمي والحضاري الحديث، والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم في مختلف مجتمعاتنا، كي نتمكن من إعادة بناء حياتنا على أساس مبادئ وآراء ومُثل بنّاءة منسجمة تتماشى مع الحضارة الإنسانية الراقية[١] ، وتمكننا من المساهمة الفعلية في تقدم ركب المدنية البشرية ورقيّه»[٢] .

◻ وأوضح ـ رحمه اللَّه ـ إلى سعيهم في إفساد التعليم بإقامته على أساس من الآراء الفاسدة والنظم الهدّامة التي تروّجها الصهيونية العالمية في غلاف أمريكي فيدعون إلى خلط الذكور بالإناث، وإلى إخراج المرأة للأسواق وامتهانها بين الرجال، مما يعرّضها ويعرض المجتمع الإنساني كله للفساد والانحلال ثم الانهيار.

◻ ثم قال ـ رحمه اللَّه ـ: «ولكني لا أستطيع أن أختم الكلام عنه دون الإشارة إلى أن هؤلاء المدعوين الكبار من الوزراء ومن في مستواهم قد ظلوا في ضيافة المؤتمر أربعة شهور كاملة، بدأت بمحاضرة العضو اللبناني الأولى

(١) لست أدري ما هو مفهوم «الرقي» و«الحضارة الإنسانية الراقية» في وهم صاحب هذا الكلام. هل هو كل ما جاء من الغرب المنحل وكل ما أخرجته فنون الجنون الأمريكي؟.
(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٢٩ ـ ٣١).

في نادي وست هول بالجامعة الأمريكية في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥. وسيعجب القارئ للسخاء الذي أُنفقت به الأموال على هذا المؤتمر وأمثاله. ولست أدري أيزول عجبه أم يزداد حين يعلم أن مؤسسة روكفلر هي التي قامت بكل النفقات. ولكي يطمئن القارئ إلى صدق ما أقوله أنقل له السطرين الأخيرين من مقدمة حبيب كوراني رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت حيث يقول: «إننا مدينون بالشكر أيضًا إلى مؤسسة روكفلر التي قدّمت جميع نفقات هذا المشروع». ولقد كان يكفي أن أقول منذ البداية: إن الجامعة الأمريكية في بيروت هي التي دعت إلى هذا المؤتمر، وأن جلساته عقدت في مقرها، وأن مؤسسة روكفلر هي التي تكفلت بكل نفقاته، لكي يغنيني ذلك عن كل تفصيل»[١، ٢].

* مؤسسة فرانكلين الأمريكية ودورها في تخريب التعليم وانحلال المجتمع:

❏ يقول الدكتور محمد محمد حسين:

ونتقل الآن من مؤسسة روكفلر إلى مؤسسة أمريكية أخرى سبق أن قدَّمتُ كتابًا من الكتب التي أخرجتها دولاراتها[٣] وهي مؤسسة فرانكلين.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٢).

(٢) من المعروف أن نلسون روكفلر المعاصر يهودي يتستر تحت النصرانية فهو عضو مؤسس في اللجنة (القومية المسيحية) التي وحدت صفوف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، والتي تساهم بالنصيب الأكبر في جمع النفقات التي تساعد اليهود على الهجرة من أوروبا إلى فلسطين. وجدّ هذه الأسرة الأول هو جوهان روكفلر اليهودي الألماني الذي نزح إلى أمريكا في أوائل القرن الثامن عشر. وقد أنفق ابنه جون روكفلر ملايين الدولارات في تأسيس الجمعيات والمنظمات اليهودية المختلفة في أمريكا. وكان من المتعصبين لإحياء الإمبراطورية اليهودية في أمريكا «أمريكا مستعمرة صهيونية» (ص١١، ١٢).

(٣) كتاب «الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» في جزء شعبان ورمضان سنة ١٣٧٦، راجع =

أصدرت هذه المؤسسة فيما أصدرته من مطبوعات[1] سلسلة عنوانها (كيف نفهم الأطفال ـ سلسلة دراسات سيكولوچية). وأشرف على هذه السلسلة وقدم لكل كتاب من كتبها الدكتور عبدالعزيز القوصي المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم في مصر. والحديث في هذه السلسلة موجه إلى الآباء والمدرسين حسب ما هو مبين على غلاف كل عدد من أعداد هذه السلسلة، إذ رُسِم في أعلى الجانب الأيسر كتاب مفتوح، في إحدى صفحتيه «الطريق إلى حياة أفضل» وفي الصفحة الأخرى «علم النفس للآباء والمدرّسين». ويؤكد الدكتور القوصي هذا الهدف، إذ يقول في تقديم العدد الأول من أعداد هذه السلسلة الذي صدر في مارس ١٩٥٤، وأعيد طبعه في أكتوبر ١٩٥٥، مما يدل على الرواج الذي تلقاه هذه السموم الأمريكية، يقول في هذه المقدمة: «هذا هو الكتاب الأول في مجموعة من الكتب تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسين إلى حياة أحسن من تلك التي يعيشونها.

◻ ولا نقصد بالحياة الأحسن أن تكون كذلك من الناحية المادية، وإنما هي حياة أحسن من حيث الأداء لرسالة الأبوة ورسالة التربية». فالمشرف على هذه السلسلة ـ وهو من كبار رجال التربية في مصر ـ يعرف أن هذه المؤسسة الأمريكية تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسين. وهو يقر هذا الهدف وترضى نفسه أن يعين الأموال الأمريكية عليه، وهو يعرف ـ ما يعرف كل عاقل ـ أن الناس لا يصدرون فيما يأتون من أعمال إلا عن دوافع تدفعهم إلى العمل، وأن هذه الدوافع مهما تختلف وتتنوع فهي تشترك في أنها تحقق نفع الفرد أو الجماعة التي تنتمي إليها. فمن الواضح أن الفرد أو الجماعة لا تبذل الجهد

= كتاب «الإسلام والحضارة الغربية» الطبعة الثالثة.

(١) الكتب التي تخرجها هذه المؤسسة لمؤلفين أمريكيين، ينفق عليها من المال الأمريكي لذا فهي مختارة اختيارًا خاصًا.

والمال إلا فيما يعود عليها بالمنفعة. فليت شعري ألم يَرِدْ على خاطر الأذكياء الذين يشاركون في هذه الأعمال ـ كتبًا كانت أو مقالات أو مؤتمرات ـ هذا السؤال الذي لا ينبغي أن يغيب عن البال: ما هو النفع الذي يعود على هذه المؤسسة، والذي يدفعها إلى بذل ما تبذله من جهد ومن مال؟ إذا لم يكن هذا السؤال قد ورد على أذهان هؤلاء الأذكياء فقد ورد على ذهني، وأظنه قد ورد على أذهان الكثير من الأذكياء وغير الأذكياء. وقد تكون الإجابة على هذا السؤال طويلة، وقد لا تكون واضحة في أذهان الذين يتساءلون، ولكن من الأهداف الواضحة التي لا تخفى أن مثل هذه المشروعات تحقق أول ما تحققه توثيق الصلات بنفر من ذوي النفوذ وكسب ودهم وولائهم بالبذل السخي الذي يقدم في صورة مهذبة مؤدبة جدًّا. فهو لا يعدو أن يكون أجرًا على مجهود قد بذل، وقد لا يكون هناك مجهود، وقد يكون المجهود تافهًا وصوريًّا. وقد يكون الأجر مضاعفًا أضعافًا كثيرة. ولكن المأجور لا يقول عادة إن الأجر كبير. وصاحب العمل مهذب رقيق يقدم عطاءه السخي في أدب جم وفي حياء (كأنك تعطيه الذي أنت سائله) ـ كما يقول شاعرنا العربي القديم زهير.

❑ وهدف آخر من هذه الأهداف الواضحة هو السيطرة على توجيه المجتمع، عن طريق هؤلاء الأصدقاء من أصحاب النفوذ وعن طريق المخدوعين بأسمائهم ممن يقرءون ما ينشرون، والذي ينشرونه ليس باطلاً كله، بل إن فيه حقًّا كثيرًا، بل إن الباطل فيه يلبس ثوب الحق فيصعب على غير الخبير الاهتداء إلى موضع الخطر فيه. ولكن بعض الأباطيل عارية لا تخفى ولا تلبس غير أثوابها، فمن هذه الأباطيل العارية ما جاء في العدد ١٢ من هذه السلسلة. وعنوان هذا العدد هو (الطفل والأمور الجنسية). وسأنقل في السطور التالية صورًا من هذه الأباطيل مكتفيًا بهذا النقل عن التعليق.

◻ قدّم الكتاب في صفحتي ٢٢، ٢٣ مجموعة من الأسئلة في صورة اختبار يساعد الآباء ـ فيما يزعمه المؤلف ـ على تبين اتجاه الأبناء الخاص في وضوح وفي جلاء، وعلى تقدير ما تنطوي عليه تصرفاتهم من خطأ وصواب، وأثبت المؤلف الإجابة الصحيحة المزعومة على كل سؤال من هذه الأسئلة في ذيل صفحة ٢٣. ومن بين هذه الأسئلة السؤال رقم ٦ ونصه هو: «هل ترى في التعبير السافر عن المحبة ما ينبئ عن ذوق رديء أو ما يثير الحرج؟». والجواب الصحيح فيما يزعمه الكتاب الأمريكي هو: «لا». والسؤال التالي هو: «هل تعتقد أن المواقف التي تتضمن ناحية جنسية تثير الضحك؟» والجواب الصحيح الذي أثبته الكتاب هو: «نعم».

◻ وجاء في (ص٤٦): «إن الكثير من الآباء اليوم لا يكترثون للظهور مجردين من الثياب أمام أطفالهم الصغار. وهذا أمر لم يكن يحدث في الماضي إلا نادرًا، كذلك أصبحت أبواب الحمامات وغرف النوم تترك مفتوحة أحيانًا فيرى الصغار أبويهم وهم يخلعون ملابسهم أو يرتدونها، فإذا كان في وسع الآباء أن يفعلوا ذلك بصورة طبيعية ودون شعور بالحرج أو الاضطراب فإن ذلك يكون مرانًا طبيعيًّا؛ لأن يعوّد الطفل على الشعور بأن الجنس ليس أمرًا مشينًا، كما يساعد على إشباع فضوله فيما يتعلق بأجسام الكبار[1].

◻ وجاء في (ص٦٠): «إذا حدث التجريب في النواحي الجنسية في الفترة الواقعة بين سن ٨، ١٢ فمن المحتمل أن يقع بين أفراد الجنس الواحد، إذ نجد الصبية مثلاً يعرضون أعضاءهم التناسلية بعضهم على بعض، ويعتبر ذلك محاولة من الطفل لتحديد مدى مشابهته أقرانه. كذلك قد يلجأ البعض إلى ممارسة العادة السرية ـ كمحاولة لتخفيف ما يشعرون به من توتر جسمي

(١) أرأيت إلى الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى الهمجية الأولى والجاهلية الجهلاء، هل ترى كبير فرق بين مذهبهم هذا وبين مذهب الذين يمارسون العري في مدن العراة.

وانفعالي ـ ومرة أخرى نقول: إن هذا السلوك لا يعتبر غير طبيعي، ولا يدمغ الطفل بالشذوذ أو الإجرام أو الانحراف، كما أنه لا يستدعي عقابه أو تهديده بأنه سيصاب بأمراض خبيثة، ولا يتطلب محاضرات خلقية تلقى عليه، كما لا يبرر نبذه وتحقيره».

❑ وجاء في صفحتي ٦٢ و٦٣: «فبدلاً من فصل البنين عن البنات يجب علينا أن نعمل على إشراكهم معًا في الأعمال الممتعة ومواقف اللعب، وأن نحاول مساعدتهم على تكوين مشاعر طبيعية مريحة نحو أفراد الجنس الآخر. وعلى الآباء تشجيع أطفالهم على المساهمة في نواحي النشاط المشتركة بين البنين والبنات مما تشرف عليه المدرسة والجمعيات الرياضية أو المراكز الاجتماعية. فهذا النشاط المشترك ليس «مواعيد غرامية» بل هو فرص لاشتراك البنين مع البنات في متع الرياضة وركوب الخيل أو الدراجات والسباحة وغير ذلك. وإذا حدث «استلطاف» بين بعض البنين والبنات فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة وليس «غرامًا» أو «عشقًا». والمعاكسات البريئة التي من نوع «مراد وسهير صديقان حميمان» قد تبعث في صداقتهما دفئًا كانا يفتقران إليه، وقد تولد فيهما الشعور بأننا نتوقع منهما أن يسلكا مسلك الكبار».

❑ وجاء في (ص٧٨): «إن خروج الفتيات في صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التي تستطيع معظم الآباء تقبلها ـ في الوقت المناسب على أي حال ـ باعتبارها جانبًا من جوانب النمو الجسمي للمراهق».

❑ وجاء في صفحتي ٨٧، ٨٨: «في كل علاقة تقوم بين فتى وفتاة يشعر كل منهما في بعض الأحيان بدافع يحفزه إلى التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة أو ضغطة على يد أو قبلة، والرغبة في الكشف عن المشاعر بهذه الطريقة والاستجابة لها أمر طبيعي».

❑ وأخيرًا يقترح مؤلف الكتاب برامج للدراسة في مراحل التعليم

المختلفة ويضع تحت كل برنامج من هذه البرامج ما يرى أنه خليق بالدراسة، ومن بين ما يراه خليقًا بالدراسة في برنامج «المواد الاجتماعية» (ص١٠٤): «المعايير الخلقية والأخلاق الحديثة، وأساليب المجتمع في تقرير الخطأ والصواب[1] »، و«المركز الاقتصادي والقانوني للمرأة وكيف تأثر بتغير الظروف الاقتصادية في المجتمع وآثار هذا التغير على حياة الأسرة والزواج».

ومن بين ما يقترحه المؤلف في برنامج (العلاقات العائلية) (ص١٠٥ ـ ١٠٦):

«كيف تعرف أن ما تشعر به هو الحب؟ ـ كيف تختار رفيق حياتك؟ ـ فترة الخطوبة ـ العلاقات السابقة على الزواج.. إلخ». ومن بين ما ذكره تحت عنوان: «النشاط غير المنهجي» (ص١٠٦ ـ ١٠٧) في بيان أهداف هذا البرنامج وأساليبه: «والغرض منها مساعدة الطلاب والطالبات على تنمية علاقات طيبة، يشرف على توجيهها المدرسون بصورة بعيدة عن الرسميات، وهي تتضمن: أندية الشباب ـ صحيفة المدرسة ـ جمعيات الهوايات والميول ـ التمثيليات ـ مجالس إدارة الطلبة ـ حفلات السمر والرقص».

وجاء فيه أيضًا: «فمن حق الآباء أن يهتموا بمدى كفاءة الذين يقومون على تعليم أبنائهم وبناتهم الأمور الجنسية، فهم يريدون مدرسًا يستطيع تزويد التلاميذ بنظرة عامة عن الزواج والتكيف الجنسي، وقد يشعر البعض منهم أن خير من يستطيع ذلك هو المتزوجون والمتزوجات، ولكن ليس هناك ما يدل على أن هذا شرط ضروري، وإن كان له بعض المزايا».

◘ فإذا لم تنفعك كل هذه النماذج فهاك نموذجًا من كتاب آخر أصدرته مؤسسة فرانكلين نفسها وأشرف على إخراجة وقدّم له الدكتور القوصي أيضًا

---

(١) تأمل معي قوله: «الأخلاق الحديثة» وكأن في الخلق قديمًا موروثًا جاءت به الأديان، وجديدًا يخالف ما تواضعت عليه الأديان والمجتمع في تقرير الخطأ والصواب.

حين كان عميدًا لمعهد التربية العالي للمعلمين بجامعة عين شمس، واسم الكتاب هو «كيف تتكامل الشخصية».

☐ جاء في (ص٦٥) من هذا الكتاب: «إن جميع الحاجات الإنسانية سواء كانت عضوية ينبغي إشباعها للإبقاء على الحياة، أم اجتماعية يقتضي إشباعها أيضًا لتضمن عيشة راضية، أو جنسية تشتمل على الحاجتين - الاجتماعية والعضوية - كلها ما هي إلا قوى دافعة إلى النشاط، تحض على العمل بدلاً من مجرد التطلع أو التفكير فيه. وكلنا نعرف أنه عندما تستيقظ حاجة ما، سواء أكان نشاطها شعوريًّا أم لا شعوريًا، فإننا نحسّ بحالة من التوتر، وأن هذا الشعور يفقدنا الهدوء والراحة، ويستفزنا للعمل على الحد من شدة هذا التوتر أو التخلص منه كلية، وعندئذٍ نعود إلى الهدوء مرة أخرى، أي إنه متى تم إشباع حاجة من حاجاتنا زال التوتر، وهذا القول يصدق على جميع الحاجات البشرية».

☐ وجاء في صفحة ٧٢ تحت عنوان (المشاعر الجنسية مشاعر طبيعية):

«ولنصور المسألة الآن تصويرًا واضحًا، إن الطبيعة الجنسية ليست بالشيء الشاذ أو المشوّه، بل إنها الحياة الجنسية التي تقوم عليها الأسرة، تلك الأسرة التي تعتمد عليها ثقافتنا. والشيء الطبيعي الصائب أن يحب الفتيان الفتيات وأن تحب الفتيات الفتيان. والواقع أن أغلب المشكلات التي هي مصدر لشقاء شباب العقد الثاني من العمر ومن يكبرهم من إخوة وأخوات يمكن ردّها إلى الثقافة والمدنية التي نعيش فيها، أو على الأقل يمكن أن نقتفي أثرها في الاتجاهات السائدة في هذه الثقافة أو المدنية، وإنها لحقيقة على جانب عظيم من الأهمية أن الثقافات التي يتعلم النشء في ظلها الحقائق الجنسية في سن مبكرة وبطريق عرضي بحيث لا يكتنفها إبهام أو غموض لا يتعرض الأطفال ولا الشباب فيها لتلك المشكلات المألوفة في حياتنا وحياة

أصدقائنا». ثم يقول بعد ذلك في صفحة ٧٥: «فالشوق إلى القبلة أو بعض الغزل الرقيق أو الإنصات إلى قصة فيها تلميحات جنسية ـ كل هذه ليست أمورًا شائنة، فليهدأ الشباب بالاً، فليس كل ما يدور حول الجنس يدخل في باب المحرَّمات، ولعل كثيرًا مما نكتبه كان ضحية سوء التوجيه».

□ هذه نماذج من الآراء التي يشرف المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم على ترويجها، فهل تجد فيها الكفاية لتغير بعض ما يجري من حولنا في هذه الأيام؟[١، ٢].

* نقده للآراء الهدّامة فيما يسمى بالفن والثقافة:

أن يُلقى الحبل على غاربه لكل رأي يخالف الإسلام بدعوى «حرية الرأي» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد» تصدى لها الدكتور محمد محمد حسين حتى لا تترك السبل والمنافذ «مفتوحة لشهوات المأجورين والمخدوعين ومطايا الشياطين من الفاسدين والمفسدين، تفعل ذلك تقديسًا للوهم الذي أقامته الثورة الفرنسية اليهودية وزخرفت له اسمًا خداعًا خلابًا فسمته «حرية الرأي» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد»، وما هو في حقيقة الأمر إلا وسيلة اليهودية العالمية لإفساد الجماعات وهدم كل الأديان، حتى يتمكنوا من السيطرة عليها جميعًا بعد أن يقضوا عليها قضاء مبرمًا[٣]. إن الدولة التي

(١) هذا في الستينات.. فكيف في أيامنا هذه؟!!!

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٣٣ ـ ٣٩).

(٣) أكثر الناس يجهلون أن شعار الثورة الفرنسية اليهودية: «الحرية والإخاء والمساواة» هو من وضع مجمع بوردو الماسوني. وهو شعار لم يخدم إلا الأقلية اليهودية. إذ سمح لسماسرتها بنشر الفساد، وأعانها على هدم سلطة الكنيسة وتقويض كل القيم، باسم الحرية. وحماها في الوقت نفسه من تعصب المسيحيين على الأقلية اليهودية التي تستأثر بالسلطة عن طريق المال، باسم الإخاء والمساواة. ومن أعجب ما يخضع له الناس من أوهام، مما روجه اليهود، تسمية الصحافة: «صاحبة الجلالة». وإحاطتها بهالة من القداسة =

تفعل هذا هي كالنافخ في قربة مقطوعة، أو الجابي في حوض مثقوب.

*** دعاة الفرعونية من أعداء الإسلام والعروبة:**

□ يقول ـ رحمه الله ـ:

«أكثر ما كان هذا الشطط في مذاهب دعاة العزلة والانفصال الذين كانوا يعارضون الإسلام والعروبة بالفرعونية في الفترة التي تلت إلغاء الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى. فقد كان يزعم هؤلاء الغلاة من الانفصاليين والهدامين أن تغير الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام، وتغيير الكتابة واللغة فيها من الهيروغليفية إلى العربية لم يقطع ما بين مصر الحديثة وبين مصر القديمة من صلات. وكانوا يحتالون لرد حياتنا المعاصرة في مختلف مظاهرها إلى أصل فرعوني قديم، ويدعون إلى أن تقوم نهضتنا على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث التراث اليوناني والروماني في عصور الوثنية السابقة على المسيحية.

□ ومن هنا كان اتصال هذه الجماعة من المارقين الموكلين بتفريق شمل جماعة العرب والمسلمين بما يسمونه «الدراسات الشعبية» أو «الفولكور»، إذ

= تسمح لأي مدسوس على قومه، أو فاسق مريض القلب واللسان، أن يلفق من الأضاليل ما يريد وما يراد له، وأن يدسها على عقول السذج من الأحداث والأغرار، والحمقى من ضعاف العقول، باسم العلم والثقافة والحرية والتمدن، ما دام قادراً على تأثيث دار للصحافة، بماله أو بمال غيره. وسيطرة التنظيمات اليهودية على الصحافة العالمية وعلى وسائل النشر ووكالات الأنباء مشهورة معروفة. فرواج هذا الوهم بين الناس باسم «حرية الرأي» هو أكبر ما يمكّن للدعاية اليهودية ويدعم سلطانها، حتى يصبح سوطًا يلهب ظهر كل حر، ومقراضًا يقطع عرض كل ذي خلق أو دين؛ ويجعله سخرية الساخرين وأضحوكة اللاهين، في الوقت الذي يمكّن فيه للمفسدين والفارغين من الظهور، حتى يصبحوا ملء العيون والآذان، فلا يرى الناس إلا صورهم ولا يسمعون إلا أصواتهم، ولا يصبحون ويمسون إلا في أخبارهم وأقوالهم.

دعوا الأدباء والكتاب إلى البحث عن مواضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة وموروث التقاليد والعادات في شتى نواحي الحياة، كما دعوا إلى إنشاء أدب خاص وفن مستقل في التصوير والنحت والموسيقى، متميز بطابعه المصري المحلّي. وقد وصف أحدُ دعاة هذا المذهب وقتذاك الأدب الذي يعنيه بأنه «مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد»؛ لأن «اللغة العربية ليست لغة شعب فحسب، بل هي لغة شعوب وأمم عدة تنطق وتكتب بها. فنحن في حاجة إذن إلى تقريب هذه اللغة إلى أذهاننا لتعبر عن خواطرنا، وليس أدل على ذلك من ضرورة خلق أدب قومي تكون لنا غيرة عليه، ويكون في استقلاله بعيدًا عن كل المؤثرات التي تجعله اشتراكيًا محضًا».

□ ولم يكن هؤلاء يخفون أنهم متأثرون بالأوروبيين شرقيهم وغربيهم في دعوتهم هذه، ولم يكونوا يتحفظون في دعوة أنصارهم إلى الاستفادة بكل ما جمعه الأوروبيون وما ألفوه في هذا الباب. وكانوا يجاهرون باتخاذ القدوة من اللغات الأوروبية الحديثة التي نشأت على أنقاض اللغة اللاتينية، حين كانت هي اللغة التي يكتب بها الشعر والنثر والقصة والأدب في أوروبا كلها (ولكن شعور كل شعب بقوميته واعتزازه بوطنيته واعتداده بنفسه، حدا به إلى أن يتحرر من إسار اللغة اللاتينية وإلى أن يكون مستقلاً في آدابه عنها، موحدًا جهوده في سبيل تهذيب لغته وطبعها بطابع قومي خاص له روعته وجماله). وفي سبيل تحقيق هذا المثال كان هؤلاء يقولون: «إن واجبنا هو أن نبث في الشعب روح القومية وروح الإنتاج المحلي» وأن «أول ما نولي وجوهنا، فليكن شطر الأدب الفرعوني قبل كل شيء فهو تراث الآباء والأجداد.. فإن لم يكن للكاتب ملكة ينميها أو وجدان يستمده من الأدب الفرعوني فليول وجهه شطر الأدب الريفي». وكان دعاتهم لا يملون من تأكيد

أن «الأدب المصري الذي نعنيه هو أدب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما، فلا نعني به أدبًا شرقيًّا، كما أبهم على بعض الكتاب الأفاضل، يتناول حياة الشرق العربي أو البلاد الشقيقة المجاورة».

□ وكانت هذه الجماعة التي تتخذ (السياسة الأسبوعية) لسانًا لها تريد أن تكون «جماعةً تقتصر على الكتاب الناشئين، تُعنى بتهذيب ملكاتهم وجعلهم أكثر إنتاجًا وأكثر استقلالاً في الفكر واعتمادًا على أنفسهم وعلى مصريتهم». وكانوا يتخذون الدكتور هيكل رئيس تحرير تلك الصحيفة قدوة لهم، ويشيدون بقصة له ظهرت وقتذاك تحكي عن الريف ويجري الحوار فيها بالعامية، وهي قصة «زينب» التي كانت أول ما ظهر على لوحة الخيالة من الإنتاج المصري حين كانت صورها صامتة، وكان من بين ما يقترحونه من الوسائل إلى خلق هذه الروح المصرية في النشء «توجيه المسرح المصري إلى الناحية القومية وجعله مسرحًا مصريًّا روحًا وقوة وإنتاجًا، والعناية بالأناشيد القومية وجعلها تصور على قدر الإمكان أماني المصريين وآمالهم، والعناية بالأدب الفكه والأدب الريفي»[1] .

□ ولعل هذا القدر الذي قدَّمته كاف في توضيح خصائص هذه الدعوة والكشف عن خطورة أهدافها، التي لا تخدم إلا مطامع الاستعمار، الذي يتوسل إليها في البلاد العربية وفي العالم الإسلامي بتقطيع أوصالها وبث

(١) لمن شاء التوسع في ذلك أن يعود إلى صحيفة (السياسة الأسبوعية) في أعداد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦، ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٧، ٧ يناير ١٩٢٨، ١٨ يونية ١٩٣٠، ١٢ يولية سنة ١٩٣٠، ١٩ يولية ١٩٣٠. وعناوين المقالات المشار إليها مرتبة حسب التواريخ السابقة هي: (مصر الحديثة ومصر القديمة)، و(الفن المصري)، و(هل من خطوة جديدة في سبيل الفن المصري)، و(دعوة إلى خلق الأدب القومي)، و(في سبيل الدعوة إلى الأدب القومي)، و(دعوة الأدب القومي). وإلى الفقرة ٣ من الفصل الثاني في الجزء الثاني من (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) لكاتب هذه السطور.

روح التنافر والتدابر والتقاطع بين أفرادها وجماعاتها، استدامةً للوضع الراهن الذليل الذي كانت فيه، وتحاشيًا لاتحادها الذي يؤدي إلى قوتها وتمردها على هذا الوضع. وقد أشرت في مقال سابق إلى أهداف الأوروبيين والأمريكيين من الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام، تلك الدعوة التي ظهرت في وقت واحد في كل من تركيا ومصر والشام والعراق وشمال أفريقيا وفارس والهند وأندونيسيا. وكان مظهرها في كل هذه البلاد واحدًا وكانت أساليبها متشابهة[1].

◻ ومن الواضح أن ألاعيب الاستعمار في هذا الباب قد انكشف أمرها ولم تعد تخفى على ذي بصر، فقد تنبهنا إلى ما يراد من تفريق شمل العرب والمسلمين، كما بصّرتنا التجارب الأخيرة بما يمكن أن يعود على ذلك المجموع العربي والإسلامي من خير نتيجة لتضامنه واتحاده. فكل ما يقصد إلى زيادة هذا الاتحاد قوة فهو صادر على باعثٍ خيِّرٍ يستهدف صالح ذلك المجموع. وكل ما قصد إلى توهين هذا الاتحاد وبث روح الفرقة والعصبية القبلية والشعوبية الجاهلية بين أفراده فهو لا يخدم إلا أهداف العدو ولا يورثنا إلا الضعف.

◻ ومن الواضح البيِّن أن هذه الدعوات الشعوبية قد أصبحت تخالف دستورنا مخالفة صريحة تُوقِع أصحابها تحت طائلة العقاب. فلم يعد هناك مجال للكلام عن الفرعونية التي تَعتبِر العرب دخلاء بعد أن قررت المادة الأولى من الدستور أن (مصر دولة عربية) وأن (الشعب المصري جزء من الأمة العربية)، ولم يعد هناك مجال للكلام عن (الفولكلور) المصري القديم أو الحديث، والدعوة إلى إقامة حياتنا وفنوننا على أساسه، بعد أن نصت

---

(١) راجع مجلة (الأزهر) في جزء رمضان سنة ١٣٧٦ (ص٨١٦ ـ ٨١٨). تحت عنوان (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة). والمقال منشور في كتابنا (الإسلام والحضارة الغربية).

المادة الثالثة من الدستور على أن (الإسلام دين الدولة) ثم نصت المادة الخامسة على أن (الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية). فنظام مجتمعنا لا يستمد مقوِّماته إذن من ذلك (الفولكلور) قديمه أو حديثه، ولكنه يستمدها من ديننا الإسلامي ومن أخلاقنا الإسلامية ومن وطنيتنا العربية.

□ ولكن العجب الذي لا يشبهه عجب أن هذه الدعوة التي قَتَل الدستورُ جراثيمها واستأصل سرطانها الفتاك، قد أطلت برأسها من جديد تلتمس الحياة في صحيفة «المجلة».

□ ويكفي أن تراجع العدد الأول من هذه الصحيفة لكي تتبين أن العصبية الشعوبية والفرعونية الجاهلية تسيطر عليها سيطرة كاملة، وأنها تتجاهل تجاهلاً كاملاً أنها في بلد عربي أو إسلامي. فهي تكاد تخلو من المواضيع الإسلامية أو العربية، وهي مطبوعة بطابع شعوبي انفصالي يتحدى دستور الدولة؛ لأنه يتحدث عن العرب بوصفهم غزاة دخلاء في بلد تنص المادة الأولى من دستوره على أنه عربي[1]، وهي تقدس الفرعونية إلى حد الغلوّ الذي يخرج بها إلى الوثنية والكفر والتهكم بقيم الإسلام وأبطاله وتشويه سيرتهم. فإذا خرجت «المجلة» عن هذا الطابع الانفصالي الذي هو خليق أن يدعم مزاعم الدعايات الأجنبية التي تريد أن تصور سياسة مصر الحالية سياسةً إمبراطوريةً استعمارية، إذا خرجت «المجلة» عن هذا الطابع لم تتحدث إلا عن أدب الغرب وموسيقى الغرب ورقص الغرب وفنون الغرب، ذلك الغرب الذي وصفه أحد كتابها بأنه (العالم المتحضر)، حين تحدث عن الاحتفال ببرنارد شو، فقال في صدر مقاله: «احتفل العالم المتحضر بالعيد المئوي لميلاد برنارد شو»، وكأن من عدا هؤلاء المحتفلين ببرنارد شو ـ ممن

(١) راجع مقال «صراع القومية المصرية من غزو الإسكندر حتى الفتح الإسلامي» في العدد الأول من «المجلة» (ص ٣٠ ـ ٤٣).

يزعم الكاتب أنهم هم المتمدنون ـ رعاع وهمج.

يتحدث المقال الأول في هذا العدد عن (قناة السويس بين التأميم والتدويل)، فيزعم أن (تقاطيع رئيس جمهورية مصر العربية الشاب تشبه تقاطيع الشخصيات والرجال الذين خُلّدت صورهم على جدران المعابد والهياكل الفرعونية منذ آلاف السنين). وجمال عبدالناصر ـ مثله في ذلك مثل ملايين عديدة من المصريين ـ عربي الأصل من بني مر. فمن أين يجيئه العِرْق الفرعوني؟ وأي فخر في أن يكون جَدّه أحد هؤلاء الكفار الجبابرة الذين قطع الإسلام ما بيننا وبينهم؟.

□ ويمضي الدكتور حسين فوزي كاتب المقال على هذا النمط في سائر مقاله، تقوده نزعة فرعونية غالية، فيتحدث عن (عودة التاريخ الفرعوني فجأة ودبيب الحياة فيه، وتحرك الحضارة المصرية القديمة وسيرها على الأقدام وزحفها في العربات السريعة الرشيقة التي نرى صورها في الكتب ونعجب منها ومن راكبها وفارسها). والحضارة كما هو معلوم دين وتفكير وأسلوب في الحياة، فهل هناك نية للانسلاخ من حضارتنا الإسلامية والارتداد إلى الوثنية الفرعونية؟ أم ماذا تكون الحضارة الفرعونية؟ وكيف يكون تحركها وزحفها وبعثها؟ ويتحدث المقال كذلك عن واجب مصر الأول نحو الناس، وهو نشر الحضارة بينهم، فيخيل للقارئ أن الكاتب يتحدث بلسان الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر. أبمثل هذا تُدعَّم القومية العربية وتحارَب أكاذيب المفسدين والدساسين الذين ينفثون سموم الفرقة بين العرب، حين يزعمون لإخواننا أن مصر دولة ذات مطامع استعمارية تتذرع إلى مطامعها بين العرب والمسلمين باسم العروبة والإسلام؟.

□ وإذا شئت المزيد من هذه العصبية ومن هذا التهور فاقرأ نص خطاب كاتب هذا المقال في الاحتفال بافتتاح البرنامج الثاني (العدد ٦ ص١٢٣ ـ

١٢٧)، حيث يردُّ إلى الفراعنة مظاهر الحضارة الإنسانية بكل ألوانها وبكل فروعها وصورها، وينسب إليهم (صنع فكرة الإيمان باللَّه) على حد تعبيره، وحيث يقول: «إن مصر الآن لا يُشَك في أنها تلعب دورًا رساليًا، دورًا ذا رسالة. ونحن لا نستطيع أن نضطلع بهذا الدور إلا إذا شَحَنّا بطاريتنا؛ لأن بطاريتنا فارغة».

❑ ثم يروي قصة القبطان الذي نفد ما في سفينته من الماء الحلو، فأخذ يلح في طلبه، ثم تبين له أن الماء الحلو تحته وهو لا يدري، بعد أن قطعت سفينته المحيط ودخلت في مصب أحد الأنهار. ويشبه حالنا في مصر بحال ذلك القبطان «الماء الحلو في ثقافتنا. في بعض هذه الهياكل والمعابد التي نستطيع أن نشاهدها، فنرى كيف صنع أجدادنا من هذه الأرض وبهذه الأدوات». ثم يقول: «وأرجو أن يكون البرنامج الثاني إحدى هذه الوسائل في أعماق حياتنا التي امتدت ستة الآف سنة بل أكثر. ونستطيع أن نخرج منها ماءً حلوًا لا لنشرب منه فقط، وإنما نشرب ونُوزّع منه على العالم».

فهل هذا هو الدور الرسالي الذي ستقوم به مصر بين العرب؟ هل رسالتها في إحياء الفرعونية وفرعنة العرب جميعًا؟ وماذا يحدث لو أراد إخواننا المغاربة بالمثل أن يُبَرْبِرُوا العرب، ونازعهم في ذلك كل من العراقيين والشاميين واليمنيين، كل واحد منهم يباهي بجاهليته ويزعم أنها أحق بالسيادة؟ هل هذا هو السبيل الصحيح لجمع العرب، وهم بحمد اللَّه وفضله مجتمعون فعلاً على الإسلام، لم تفرقهمَ إلا أمثال هذه الدعوات؟!.

❑ وتجد مثل هذا الانحراف المنفر في التعليق على العصر الفرعوني في مقال (تي ـ سيدة من الشعب وجهت أحداث عصرها ـ العدد الثاني (ص٢٥ ـ ٤٢)، حيث يتكلم الكاتب عن تقوية النفوذ المصري خارج الحدود، وعن منافسة الآشوريين والبابليين والحيثيين لمصر في ذلك، وعن أساليب مصر

الفرعونية في نشر نفوذها عن طريق نشر التعليم المصري. وكل ذلك لا يعين على تدعيم الثقة بين العرب ولا يلد إلا الشر؛ لأنه يدعم مزاعم الذين يعيثون بالتفريق بينهم ويشكك في أهداف مصر من وراء مساعدة إخوانها العرب ومدّهم بالمدرسين. ولا سيما إذا كان الذي ينشر هذا الكلام صحيفة تصدرها وزارة الإرشاد القومي.

❑ ومن أمثلة هذه المقالات المنحرفة مقال عنوانه (صراع القومية المصرية من غزو الإسكندر حتى الفتح الإسلامي ـ العدد الأول (ص٣٠ ـ ٤٣). وهو مقال طويل كله تقديس جنوني للفرعونية وحط من قدر العرب والإسلام، ونزول بدوافع الفتح الإسلامي الأول في عهد الخلفاء الراشدين ـ الذين أنقذنا اللَّه بهم من النار وهدى آباءنا وأجدادنا ـ إلى مرتبة السطو والقرصنة واللصوصية، انظر إليه كيف يتحدث عن ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ وأرضاه، حين يضعه بين جبابرة الرومان والمماليك، حيث يقول: «فالخليفة يعزل عاملاً من أعدل عماله على مصر»، ثم يعرِّض بسياسته المعتدلة في فرض الضرائب، قائلاً: «لقد دَرَّت اللِقْحَةُ بعدك يا عَمْرُو. فيجيبه أعدلُ مَنْ وَلِيَ مصر بما يُفيد أنها أضرَّت بوليدها ـ العدد الأول ص٣١».

ويردف ذلك بحديث مثله عن أباطرة الرومان وبكوات المماليك، يُصوِّر أن همهم كلَّه كان مصروفًا لاستغلال الشعب المستعبَد والتمتع على حساب كدِّه وشقائه. والمقال كله يشف عن عداوة عميقة لكل فكرة إسلامية أو عربية. فهو يرفع ذلك العهد الفرعوني الإقطاعي إلى مرتبة من القداسة تكاد ترد الناس إلى ضرب من الوثنية. وهو لا يوقر صحابة رسول اللَّه الذين كان فتحهم لمصر خيرًا وبركة على المصريين، إذ أنقذهم من الضلال وأدخلهم في رحمة اللَّه بدخولهم في الإسلام، فهو حين يتحدث عن أولئك المجاهدين في نشر كلمة اللَّه وهداية خلقه، الذين عاشوا زاهدين، ثم خرجوا من الدنيا لا

يملكون من حطامها شيئًا، يقرنهم بالوثنيين من الرومان واليونان، وبالفسقة والجبابرة من الطغاة، كلهم عنده سواء، تجد ذلك في مثل قوله: «ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب، ولا كان الولاة العرب ـ ص٣١».

وفي قوله: «لم يكن المصري يملك شيئًا من أرضه ولا من غير أرضه. كلها إقطاعات للفرعون وأسرته، وللمعبد وسدنته، ثم للبطليموس فالإمبراطور في رومة وبيزنطة، ثم للخلفاء في شبه جزيرة العرب جنوبًا وشمالا(١)، ولمن جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب ـ ص٣١».

وفي قوله: «وأنت تجد أمثلة لهذه الاضطرابات والثورات على طول التاريخ المصري في العهد القديم، وبعد استتباب الأمر للبطالسة وإبان الحكم الروماني والبيزنطي والعربي والعثماني والفرنسي والأرنؤودي والاحتلال البريطاني ـ ص٣٣».

وقوله: «حدث هذا بعد احتلال الرومان وبعد الفتح الإسلامي والغزو العثماني ـ ص٣٥».

وقوله: «وكل همه إرضاء الملك البعيد إمبراطورًا أو خليفة أو سلطانًا ـ ص٣٥».

◘ ولقد بلغ بالكاتب تقديسه للوطنية المصرية بهذا المعنى الشعوبي المتطرف حدًّا يقرب من الشرك، فكان من سوء اختياره للألفاظ أن وصفها بما اختاره اللَّه جل وعلا لنفسه فقال: إنها لا تدركها سِنَةٌ ولا نَوْم (ص٢٦)، وأنزل الدين منزلة تلي في قداستها وسلطانها على النفوس هذه الوطنية، إذ جعل اعتناق المصريين للمسيحية مظهرًا من مظاهر المقاومة الوطنية للاحتلال

(١) من الحقائق العلمية والتاريخية أن الفتح الإسلامي هو الذي ألغى نظام الطبقات للمرة الأولى في مصر وبه تحررت الطبقة الكادحة في الزراعة وصار حتى تملك الأرض عامًا لكل الطبقات. والذي يجهل هذه الحقيقة يجهل تاريخ الإسلام في مصر.

الروماني، وأظهر عجبه لتحول المصري عن الوثنية إلى المسيحية متسائلاً: «كيف لم يحرص المصري على ديانته العتيقة وهي آخر صلة له بمجده الغابر؟ ـ ص٢٦».

□ وفي «المجلة» بعد ذلك صور كثيرة من هذه الشعوبية البغيضة، في مثل مقال «فن التصوير المصري ـ العدد الأول ص٤٤ ـ ٤٦» الذي يقدس فن الفراعنة الوثني وما اتخذوه لأنفسهم من آلهة بزعمهم، وفي مثل مقال «الفن المصري ـ إدراك القانون ـ العدد الرابع ٢٩ ـ ٣٣»، بما يتخلله من مجازفات مارقة في تعريف الدين والتدين والخلط بينهما وبين فنون الوثنية»[1] اهـ.

□ ولله درّ من قال ساخراً مستهزئًا بدعاة الفرعونية من الشعوبيين الكارهين للإسلام الداعين إلى المصرية والمصرية فقط:

وإخناتون للتوحيـد داعٍ	قديمًا قبل كل المرسلينا
أإخناتون عابـد قرص شمس	بزعم الكفر شيخ المسلمينا
وكعبتنا الحبيبة لو أرادوا	لقالوا إنها كانت بسينا
إله القوم نيلهم العتيق	رسولهمُ غدا طميًا وطينا
حضارة سبع آلاف لكفر	وفرعون استخف الصاغرينا
أليس النيل لي ومصر ملكي	وموسى ساحر لبث السنينا
نربيه صغيراً ثم يدعو	لدن غير دين الكافرينا
فميمكمُ وصادكمُ وراءٌ	غدت وثنًا وطاغوتًا لعينا
ونسـبتكمْ لأمكم تلظّى	ونسبتنا لدار المتقينا
ونسبتكم لأهرام ووثنٍ	ونسبتنا لتوحيد الأمينا
ونسبتكم لحتشبسوت كفرٍ	ونسبتنا لحور الدار عينا

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٥٣ ـ ٦١).

*** اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية تحت إشراف سمسار الغرب أحمد أمين وتلميذه طه حسين تنظر بغير عين العرب وتعمل بغير عقل العرب:**

❑ يقول الدكتور محمد محمد حسين:

«سوف أتناول في حديثي هذا اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية كما تبدو من مطبوعاتها الوافرة الغزيرة، وهي اللجنة التي كان يشرف عليها أحمد أمين، ثم ورثها طه حسين بعد وفاته، وسأقسّم منشوراتها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ البحوث والمحاضرات.

٢ ـ الكتب المترجمة.

٣ ـ المؤتمرات.

وأنا أعجل بتقديم النتيجة التي انتهيت إليها من بحث أعمال هذه اللجنة الثقافية ليضعها القارئ نصب عينيه على طول هذه المقال، هذه اللجنة كانت ـ ولا تزال ـ تنظر بغير عين العرب، وتعمل بغير عقل العرب، تهدف إلى غير أهداف العرب. إنها لا تزال كما كانت يوم أنشأها الذين كانوا يحرصون على أن يكون العرب ذيلاً لدول الاستعباد الغربي، لا يرون الأشياء إلا كما يراها الغربي، ولا يتذوقونها إلا كما يتذوّقها، ولا يقدرونها إلاّ كما يقدرها، إنها لا تزال تعمل على ما يسميه دهاقنة الاستعباد الغربي التغريب. ويُقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية، مما يساعد على إيجاد روابط الود والتفاهم بين الحمار وراكبه، وهي روابط تُفيد الراكب دائمًا ولا تُفيد الحمار»[1] اهـ.

❑ ثم قدّم الدكتور محمد محمد حسين لسموم هذه اللجنة بما نشرته مثل كتاب «العالم العربي مقالات وبحوث» نشرته الإدارة الثقافية سنة ١٩٥٣

(١) المصدر السابق (ص١١٤ ـ ١١٥).

مصدرًا بمقدمة لأحمد أمين رئيس هذه الإدارة وقت ذاك. ثم استعرض من هذا الكتاب مقالاً خطيرًا للدكتور كامل عيّاد عن «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي ص١٤٣ ـ ١٦٧».

*** «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي» مقال شنيع لكامل عياد يفضحه ويكشف ما فيه الدكتور محمد محمد حسين:**

يتفوق فيه صاحبه على الدكتور طه حسين ـ صاحب «مستقبل الثقافة في مصر ـ في جرأته على الدين وإسرافه في إنكار ما وراء المادة المحسوسة الملموسة من عالم الغيب، ومحاربة كل مواريثنا الدينية والأدبية والاجتماعية على الإطلاق.

ويحار المؤلف كي يهش مندوب من مؤسسة روكفلر الأمريكية ويظهر البشاشة ولا يتردد في قطع الوعود بالمساعدة في إنشاء معهد لدراسة التصوف؟

□ يقول الدكتور محمد محمد حسين: «فالصوفية مذهب غير إسلامي في كثير من تفاصيله وشطحاته وتقاليده ونظمه الدخيلة، وخوضه فيما نهى الإسلام عن الخوض في تفاصيله، أو هو يبدو كذلك فيما هو مشهور عن كثير من فرقه التي تدعو إلى سلبية يائسة مستسلمة تعارض روح الإسلام معارضة صريحة وهو شيء آخر غير الزهد الذي عُرف عن بعض الصادقين من الصالحين في صدر الإسلام خاصة وفيما تلا ذلك من العصور»[١].

□ ورد الدكتور محمد محمد حسين على كامل عياد الذي لا يرى الأديان إلا أوهامًا وخرافات وأساطير[٢].

---

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١١٨ ـ ١١٩).

(٢) (ص١٦٤) من كتاب «العالم العربي مقالات وبحوث» وانظر «حصوننا مهددة من داخلها» =

*** الدكتور محمد محمد حسين يبين حقيقة عبدالرزاق السنهوري الذي دعا إلى تبديل الشريعة الإسلامية ودعا إلى القانون الوضعي «القانون المدني العربي»:**

❑ قال الدكتور محمد محمد حسين بعد كلامه عن مقال كامل عياد.

هذا هو أحد النموذجين اللذين أردت تقديمهما لتصوير ما تنشره الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية من بحوث ومقالات. أما النموذج الآخر فهو بحث الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهوري أو مقاله عن «القانون المدني العربي ص٥ ـ ٢٩».

❑ يدعو السنهوري في مقاله هذا ـ إلى توحيد القانون المدني في سائر البلاد العربية، فيستثني من ذلك الحجاز واليمن؛ لأنهما يلتزمان الشريعة الإسلامية، (إلى أن يحين الوقت الذي تتمكن فيه من المشاركة في حركة التقنين المدني العربي ص٨).

ويقول بعد ذلك: إن التقنين العربي يتنازعه تياران، أحدهما ممثل في القانون المصري، وهو تيار غربي خالص أو يكاد، والآخر يمثله القانون العراقي الحديث، وهو يمزج بين الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية. ويُدخِل في القسم الأول الذي يصفه بأنه (ينتمي إلى الثقافة المدنية الغربية).. مصر وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش، بينما يُدخِل في القسم الثاني العراق والأردن وفلسطين.

❑ وهو يصف القانون المدني الجديد في مصر بأنه قد جعل للشريعة الإسلامية بعض الاعتبار. ولكنه يعترف بأن (المشرِّع المصري بالرغم من كل ذلك لم يخط خطوة حاسمة في جعل القانون المدني مشتقًا في مجموعه من

= (ص١٢٣ ـ ١٢٤).

الفقه الإسلامي). ويعتذر عن ذلك بأن المشرع المصري قد أخذ بأسباب الأناة والتبصر (وتربص حتى يأخذ الفقه الإسلامي بأسباب التطور ـ ص١٠). ثم يعود فيؤكد أن هذا القانون (يمثل أصدق تمثيل الثقافة المدنية الغربية في العصر الذي نعيش فيه ـ ص١٥).

☐ أما القانون العراقي فهو يتميز عنده بأنه (أول قانون مدني حديث يتلاقى فيه الفقه الإسلامي والقوانين الغربية الحديثة جنبًا إلى جنب بقدر متساو في الكم والكيف ـ ص٩١٨. وهو يرى أن هذه التجربة (من أخطر التجارب في تاريخ التقنين الحديث). لأن وضع نصوص الشريعة الإسلامية إلى جانب النصوص الغربية قد (مكن لعوامل المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها، ومهّد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة في نهضة الفقه الإسلامي، يوم يصبح الفقه مصدرًا لأحكام حديثة تجاري مدنية العصر وتساير أحدث القوانين وأكثرها تقدمًا ورقيًا. ص١٩).

☐ وهو يقدِّر (بعد أن أصبح الفقه الإسلامي والقانون المدني الغربي جنبًا إلى جنب في صعيد واحد، أن يتكامل القانونان وأن يتفاعلا، هذا يؤثر في ذلك وقد يتأثر به. ومن ثم تقوم نهضة علمية حقة لدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي. وهذه الدراسة هي التي قصدت أن أصل إليها، حتى إذا آتت ثمارها وتقدمت دراسة الفقه الإسلامي إلى الحد الذي يجعله مصدرًا لقانون مدني يجاري مدنية العصر ويساير ثقافة الجيل، عند ذلك نكون قد بلغنا المرحلة الثالثة والأخيرة، ويتحقق ببلوغنا هذه المرحلة الهدف المنشود ـ ص٢٠). والهدف المنشود عنده هو الذي أشار إليه قبل ذلك بسطور قليلة حين قال: «والهدف الذي قصدت إليه هو أن يكون للبلاد العربية قانون واحد يشتق رأسًا من الشريعة الإسلامية». ولكن كلامه الذي تلا ذلك ـ وهو كلام بالغ الخطورة ـ يكشف عن مبلغ ما في هذا الزعم من

إخلاص، ويبين أنه ليس إلا خداعًا، وأن الشريعة الإسلامية التي يقصدها هي شيء آخر غير الشريعة التي أنزلها اللَّه على سيدنا محمد ﷺ، والتي تمت نعمة اللَّه علينا بإكمالها منذ نزول قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾.

فهي شريعة تستهدي (مدنية العصر) الغربية و(ثقافة الجيل) الغربية أيضًا، وتروض نفسها على أن ترتفع إلى مستوى شرائع الغرب، لأنها في زعم المؤلف لم تبلغ هذا المستوى. وقَصْدُ الكاتب إلى تطوير الشريعة الإسلامية واضح في مقاله هذا كل الوضوح. وهو يقصد بتطوير الشريعة الإسلامية جعلها ملائمة لنظم حياتنا ولأنماطها المنقولة عن الغرب المسيحي، أو الغرب اللاديني على الأصح.

فهو يريد أن يشكل الشريعة الإسلامية بشكل هذه الحياة، بل أن يشكل الحياة بشكل الشريعة، أي إنه يحكِّم هذه الأنماط الغربية في الشريعة بدلاً من أن يحكِّم الشريعة في اختيار ما يلائمنا من هذه الأنماط. أو بعبارة أخرى هو يعرض الشريعة على واقع الحياة، ولا يعرض واقع الحياة على الشريعة. وهو مع ذلك لا يميز بين الشريعة الإسلامية المنزلة من عند اللَّه وبين القانون الغربي الذي صنعته المصالح والأهواء، بل الذي صنعته اليهودية العالمية في بعض الأحيان، كما هو الشأن في القانون الفرنسي الذي استمد منه القانون المصري بخاصة؛ لأن هذا القانون ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية اليهودية التي أصبحت فرنسا من وقتها دولة لا دينية من الناحية الرسمية على الأقل. وما وجه المقارنة بين قانون صنعه الإنسان وبين قانون منزل من عند اللَّه العليم الخبير؟.

◻ إن الذي يعتريه شك في أن الشريعة الإسلامية ـ كما هي في القرآن الكريم وكما بينتها السنة الشريفة ـ منزلة من عند اللَّه، هو كافر. والذي

يؤمن بأنها منزلة من عند اللَّه لا يعتريه شك في صلاحيتها كل زمان ومكان؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بذلك وصف نفسه ـ سبحانه ـ في محكم كتابه، وبذلك يؤمن المسلمون.

□ والذي يهدف إليه السنهوري هو شر الحلول؛ لأن الذي يفعله هو تبديل الشريعة الإسلامية. ولا شك أن تفاعل الشريعة الإسلامية السماوية مع شرائع الغرب الوضعية هو شر مما كان حادثًا من استعارة القانون الغربي كله أو بعضه؛ لأن من الممكن التخلص من الدخيل في هذه الحالة. أما في حالة الاندماج والتفاعل فإدراك الحدود بينهما صعب، وتخليص الشريعة الإسلامية مما دخلها من أسباب الزيغ والانحراف يكاد يتعذر بعد أن تتغلغل الروح الغربية في كيانها، ويصبح الناتج من تفاعلهما شيئًا جديدًا معقد التركيب تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له.

ثم إن الناس في الحالة الأولى يدركون إدراكًا واضحًا أن القانون الذي يحكمهم قانون دخيل. أما في الحالة الثانية فقد يتوهمون أن القانون الذي يحتكمون إليه قانون إسلامي، بل إن كاتب المقال يزعم لهم ذلك منذ الآن.

□ والواقع أن هذا الذي يفعله السنهوري هو الذي يهدف إليه الاستعباد الغربي. يقول هـ. ا . ر . جب في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام؟!» (ص٣٢٨ ـ ٣٢٩) من طبعة لندن ١٩٣٢ : «إن مستقبل التغريب والدور الذي سيلعبه في العالم الإسلامي لا يتوقف على هذه المظاهر الخارجية للتأثر والاقتباس؛ لأن الصورة الظاهرية ثانوية، وكلما كان التقليد في المظاهر أكمل كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلدين أقل؛ لأن فهم الروح والأصول التي تنطوي عليها المظاهر الخارجية فهمًا كاملاً لا بد أن يصحبه إدراك التعديلات

التي تتطلبها الظروف المحلية. ويمكن أن يزول من العالم الإسلامي كثير من النظم الغربية التي نراها فيه الآن، ثم لا يكون مع ذلك أقل حظًا من الاستغراب، بل ربما كان أوفر حظًا. وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية، علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتُكِرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تُهضم وتصبح جزءً حقيقيًا من كيان الدول الإسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها».

▢ يعود كاتب مقال اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية فيؤكد أن هدفه هو تغريب الشريعة الإسلامية نفسها وفرنجتُها، أو بعبارة أُخرى إيجاد «إسلام غربي» إن صح هذا التعبير، وذلك حيث يقول: «فالنتيجة الحتمية إذن لوضع القانون المدني المصري ثم لوضع القانون المدني العراقي، مشتقًا منه ومن الفقه الإسلامي على السواء هي النهوض بدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي - ص٢١)».

ومع ذلك فهذا القانوني الذي يظن بالتشريع الإسلامي التخلف عن القانون الغربي يعترف بأنه لم يدرس الشريعة الإسلامية إلا في وقت حديث متأخر جدًا، حين اشترك في وضع القانون المدني العراقي، فأتيح له الاطلاع على بعض نصوص الفقه الإسلامي. وهو هنا يعترف اعترافًا صريحًا بأن اطلاعه على الفقه الإسلامي جديد تاريخًا، ومحدود موضوعًا، لا يتجاوز ما أتيح له أثناء اشتراكه في لجان وضع القانون العراقي، وأنه لم يمنحه من وقته سنة من عشرات السنين التي أفناها في دراسة القانون الفرنسي. والواقع أن هذا الجهل بالشريعة الإسلامية يعلل فتنته بالقوانين الغربية، التي حدت به إلى المجاهرة بأن تكون روح التقنين الغربي وأسلوبه هما قِوام نهضة التشريع

الإسلامي، وهو بذلك معذور لجهله حسب اعترافه، ومن جَهِلَ شيئًا عاداه. ولكن من الظلم للناس وللإسلام وللقانون أن يسلم زمام التشريع في البلاد الإسلامية إلى الذين يجهلون شريعتها. ومن الواضح أن الرجل حين رأس لجان القانون المدني الجديد في مصر لم يكن على معرفة بالشريعة الإسلامية؛ لأنه إنما اتصل بها حسب اعترافه أثناء اشتراكه في لجان القانون المدني العراقي، وقد كان ذلك بعد وضع القانون المدني المصري الجديد. واعترافه في هذا الصَدَد صريح، إذ يقول: «وأكثر ما كان درسي للفقه الإسلامي عند وضع القانون المدني العراقي. فإن هذا القانون كما قدمت مزيج صالح من الفقه الإسلامي والقانون المصري الجديد. فأتاح لي اطلاعي على نصوص الفقه الإسلامي ـ سواء كانت مقننة في المجلة[1] ومرشد الحيران، أو كانت معروضة عرضًا فقهيًّا في أمهات الكتب وفي مختلف المذاهب ـ أن ألحظ مكانة هذا الفقه وحظه من الأصالة والابتداع، وما يكمن فيه من حيوية وقابلية للتطور ـ ص٢٢).

□ ويرسم كاتب المقال منهجًا يقترحه لدراسة الفقه الإسلامي (لإحيائه والنهضة به نهضة علمية صحيحة) حسب زعمه، فيقرر في بدء كلامه أن (الأساس في هذه الدراسة أن تكون دراسة مقارنة، فيُدرَس الفقه الإسلامي في ضوء القانون المقارن). ولست أدري ما حاجتنا إلى هذه المقارنة، ولماذا كل هذا الحرص على أن لا نخالف التشريع الغربي ولا نبتعد عن روحه؟ أليس في ذلك قتل لشخصيتنا وإفناء لها في الغرب، مما لا يخدم سوى مصالح الاستعباد والتبشير؟ ذلك إلى ما يتضمنه من تبديل شرع اللّه وتحريف الكلم

---

(١) المقصود هو (مجلة الأحكام العدلية) التي أصدرتها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر متضمنة صياغة الأحكام الإسلامية ـ على المذهب الحنفي ـ في شكل مواد على النمط الغربي.

فيه عن مواضعه، وهو كفر صريح، وليس بعد الكفر ذنب.

◻ ويطالب الكاتب بدراسة مذاهب الفقه الإسلامي المختلفة، السني منها والشيعي والخارجي والظاهري: (وتُستكشَف من وراء كل هذه قواعد الصناعة الفقهية الإسلامية، ثم تقارن هذه الصناعة بصناعة الفقه الغربي الحديث. حتى يتضح ما بينهما من الفروق ووجوه الشبه، حتى نرى أين وقف الفقه الإسلامي، لا في قواعده الأساسية ومبادئه، بل في أحكامه التفصيلية وفي تفريعاته، فتمتد يد التطور إلى هذه التفصيلات، على أسس تقوم على ذات الفقه الإسلامي وطرق صياغته وأساليب منطقه. وحيث يحتاج الفقه الإسلامي إلى التطور يتطور، وحيث يستطيع أن يجاري مدنية العصر يبقى على حاله دون تغيير. وهو في الحالين فقه إسلامي خالص (؟!) لم تداخله عوامل أجنبية فتخرجه عن أصله (؟!) ـ ص٢٣).

◻ ألا تعجب معي لهذا الرجل الذي يزعم بعد كل ما قاله أن الفقه الإسلامي الذي يسعى إلى تطويره تحت وصاية التقنين الغربي وفي ولايته هو فقه إسلامي خالص؟ وكيف يكون خالصًا وهو يحكِّم فيه (روح العصر)، وهي روح غربية حسب اعترافه في كل موضع من مقاله؟ ومن الواضح أن (مدنية العصر) التي يطلب السنهوري إلى الفقه الإسلامي أن يجاريها، ويطلب إلى واضعي القانون أن يتخذوها مقياسًا لصلاحية الفقه الإسلامي، هذه المدنية هي مدنية غربية فرضها الاستعباد الغربي ونجح في ترويجها وفي إرساء دعائمها وتنشئة الرجال الذين يسهرون عليها ورعاية هؤلاء الرجال ودفعهم إلى مناصب القيادة والزعامة، بما يسمح لهم أن يرعوا جيلاً جديدًا من أتباعهم، ثم يرعى هذا الجيل جيلاً من بعده. وهكذا دواليك، فتصبح قيادة المسلمين الفكرية والسياسية دائمًا في يد هذه العصابة، لا يسمع الناس إلا كلامها وكلام أذنابها، ولا يرون إلا صورها وصور أذنابها، ولا يرقى أحدهم إلى مرتبة من مراتب الشرف ولا يُفتَح له باب من أبواب الرزق إلا إذا

حصل على جواز المرور من هذه العصابة التي تسد كل منفذ وتتحكم في كل باب وتحتل كل معقل. ويظل المسلمون هكذا محكومين في حقيقة الأمر بالاستعباد الغربي وهم يظنون أن حكامهم هم إخوانهم وأبناء أمتهم.

❑ ويقترح السنهوري بعد ذلك إنشاء معهد خاص يلحق بجامعة الدول العربية لدراسة الفقه الإسلامي حسب ذلك المنهج الذي يقترحه. وهنا يلتقي السنهوري بطه حسين، الذي اقترح في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر ـ الفقرة ٤٩) إنشاء معهد للدراسات الإسلامية في كلية الآداب. كما يلتقي بمحمد خلف اللَّه في اقتراحه الذي تقدم به إلى وزارة التربية والتعليم عن إعداد مدرِّس الدين، فاقترح فيه (أن يعاد النظر في تكوينه وإعداده وأن يُرسَم لذلك منهج يحقق له عمق الثقافة وحرية الفكر). وبنى على ذلك اقتراحًا بإنشاء (قسم أو شعبة للدراسات الإسلامية في كلية للآداب بالجامعات المصرية) (تدرس فيما تدرسه «سيكولوجية الدين» و«النظم الدينية والأخلاقية المقارنة» ولغة أو لغتين شرقيتين كالفارسية والأردية، ولغة أو لغتين غربيتين، ليكونوا على اتصال بتيارات التفكير الثقافي في الشرق الإسلامي وفي الغرب)[1].

❑ ومع ذلك كله فليس للشريعة الإسلامية من الاعتبار عند كاتب هذا المقال أكثر مما للقانون الروماني. فالغاية عنده من إنشاء ذلك المعهد الذي اقترحه هي أن (تنتهي هذه الدراسة بعد عشرات من السنين إلى أن يتجدد شباب هذا الفقه، وتدب فيه عوامل التطور لروح العصر. وتكون نهضة الفقه الإسلامي هذه شبيهة بنهضة القانون الروماني في العصور الوسطى. ويُنبِت الفقه الإسلامي قانونًا مدنيًا متصورًا يجاري المدنية الحديثة. وينبثق هذا القانون

---

(١) مجلة الأسرة ـ يصدرها قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالإسكندرية ـ العدد السادس سنة ١٩٥٧ (ص ١٦٠ ـ ١٦٥).

الحديث من الشريعة الإسلامية كما انبثقت الشرائع اللاتينية والشرائع الجرمانية من الفقه الروماني ـ ص٢٤).

مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن مسلم يعتقد أن الشريعة الإسلامية منزلة من عند اللَّه، وأنها حدود اللَّه، لا يتعداها إلا كافر ظالم لنفسه.

◻ ثم يأخذ الكاتب في بيان ما يتضمنه التقاء القانون الغربي بالفقه الإسلامي من وجوه واحتمالات، ويخرج القارئ من كلامه بأن ما يسميه (اشتقاق القانون من الشريعة الإسلامية) ليس في حقيقة الأمر إلا إخضاع الشريعة الإسلامية لأهواء العصر وشهواته وهو ما يسميه (مدنية العصر). وخلاصة ما يقوله هنا أنه لا يأخذ بحكم الشرع إلا حيث يتفق تمامًا مع روح القوانين المدنية المستجلبة من أوروبا. ثم هو يُعدِّل الحكم الشرعي أو يلغيه ويسقطه حسب مبلغ تعارضه مع هذه القوانين الغربية الأصول، التي هي في زعمه (أصلح للعصر) أو (تجاري مدنية العصر) أو (تساير روح العصر)، حسب تعبيره في مواضع مختلفة من هذا المقال.

◻ وتطوير الفقه الإسلامي الذي يدعو إليه الكاتب، أو تبديله على الأصح، وهو تطوير وتبديل لا يقف عند حد، حسب اعترافه هو نفسه حيث يقول: (فالهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي وفقًا لأصول صناعته، حتى نشتق منه قانونًا حديثًا يصلح للعصر الذي نعيش فيه. فإذا استخلصنا هذا القانون في نهاية الدرس وأبقيناه دائم التطور حتى يجاري مدنيات العصور المتعاقبة، فقد تكون أحكامه في جزء منها، قل أو كثر مطابقة لأحكام القانون المدني العراقي أو لأحكام القانون المدني المصري أو لأحكام كل من القانونين.. إلخ ص٢٨). والمهم في ذلك كله أن هذا التطور الدائم سوف ينتهي بذلك التشريع الإسلامي المزعوم في المدى القريب أو البعيد إلى أن يصبح شيئًا مختلفًا عن الإسلام الذي أنزل على نبينا عليه

الصلاة والسلام اختلافًا تامًا، بل إنه لكذلك منذ بدء وضعه أو التفكير فيه كما هو ظاهر في هذا البحث.

*** الدكتور محمد محمد حسين يفضح عمل لجنة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ورئيسها الدكتور طه حسين في الكتب التي ترجموها وأنهم استوحوا السفارة الأمريكية واليونسكو في اختيار ما ترجموه:**

◻ يقول الدكتور محمد محمد حسين «هل يعقل عاقل منصب أن يلجأ العرب إلى السفارة الأمريكية مثلاً لتختار لهم ما تراه نافعًا للعرب ومحققًا لنهضتهم، ومعينًا على طرد اليهود وإجلائهم، وتصفيةً لشركات البترول وخرابها؟ **لقد فعلت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ذلك! استوحت السفارة الأمريكية في بعض ما اختارته مما ترجمته، واستوحت اليونسكو في بعضه الآخر.** وهي نفسها تعترف بذلك حيث تقول في نشرتها الثقافية التي عرضت فيها نشاطها بين سنتي ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦ (كذلك اتفقت الإدارة الثقافية بعد موافقة المكتب الدائم على أن تتولى نشر بعض الكتب الهامة المترجمة بمعرفة القسم الثقافي بالسفارة الأمريكية. وقد قُدِّمت فعلاً إلى الطبع على هذا الأساس أصول كتاب مترجم إلى العربية، ويشتمل على مقالات للكاتب الأمريكي الكبير إمرسون ـ ص٢٥)[1].

وتقول كذلك: (اتصلت الإدارة الثقافية ببعض الهيئات العالمية

---

(١) طبعت الجنة بعد ذلك كتابين مما أوحت به السفارة الأمريكية. وهما (الثقافة والحرية) لجون ديوي، الذي أفسد المتأمركون تربية شبابنا باسمه، و(انتصار الحضارة) لبرستد الذي أوفده المليونير اليهودي المتستر تحت النصرانية روكفلر في سنة ١٩٢٦ ليعرض على مصر عشرة ملايين من الدولارات لتأسيس معهد للدراسات الفرعونية يعين على سلخ مصر من عروبتها.

المختصة)[١] ، وحصلت منها على كشوف بأسماء الكتب التي تراها تلك الهيئات داخلة في إطار هذا البرنامج). وسوف أعرض في هذا المقال نموذجين من هذه السموم التي تدس على العرب باسم جامعتهم في كتابين، أحدهما مما أوحت به السفارة الأمريكية وهو (مختارات من إمرسون)، والآخر مما أوصت به اليونسكو وهو (قصة الحضارة) لولْ ديورانت. وقبل أن أتناول هذين الكتابين أحب أن أؤكد لجامعة الدول العربية وللجنتها الثقافية الموقرة التي يرأسها طه حسين أن العرب لم يغلبوا من ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ. ولكنهم غلبوا وضربت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية، النظرية منها والتطبيقية، غلبوا لأنهم لا يملكون من المصانع ومن أدوات القتال ما يناهضون به عدوهم وما يتحررون به من سجنه الاقتصادي، الذي يسخرهم فيه لجمع الثروات له كما يسخر العبيد ثم يحاربهم بهذه الثروات نفسها، ويشتري بها من رجالهم من يقوم على حراسة هذا السجن الكبير، فيقيم فيه معبداً يسبح كهنته بحمد آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّٰه. وينكل بالذين ينبهون النائمين والغافلين والمخدوعين، أو يطادرهم بالإشاعات الكاذبة والأضاليل الباطلة حتى يُلَبِّس على الناس أمرهم ويجعلهم موضع السخرية والاستهزاء.

□ إن الجماعات البشرية في الدول والحكومات، والجيوشَ في ميادين القتال، والفرق الرياضية في الساحات، تميز نفسها بمختلف الشارات، فتتخذ الأعلام والأناشيد وأنماط الأزياء والعلامات والأشعرة. تفعل ذلك لتميِّز نفسها من غيرها فلا تضل في الزحام ولا تذوب عند الاختلاط، ولا تنحلَّ رابطتها عند المصادمة والنزال.

---

(١) المقصود بها هيئة اليونسكو التي يسيطر عليها ـ كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة ـ الصهيونية العالمية الهدّامة.

□ وللعرب طابع يميزهم، ولهم شخصية قد ضلوا عنها في عصور الضعف والخمول وأضلهم عنها المستعبدون وأذنابهم. ولن تتحقق لهم نهضة إلا إذا أحيوا هذه الشخصية، وتمسكوا بمقوماتها، وتعصبوا لرموزها وشاراتها، وميزوا أنفسهم بطابعهم الخاص. وسيظلون بغير ذلك أذنابًا للمستعبدين ينقادون ولا يقودون، وأبواقًا ينشرون ما يلقى إليهم من قول ويرددونه في الأجواء، لا يزيد عملهم فيه عن مجرد تضخيمه. ذلك لأنهم لا يبتكرون حتى يحسوا في أنفسهم القدرة على الابتكار، وحتى يكونوا جميعًا متماسكين فيتولد من اجتماعهم وتماسكهم قوة. وهم لا يحسون القدرة على الابتكار إلا إذا استيقنوا أنهم عريقون في هذا الباب. ولا يجتمعون ويتماسكون إلا إذا عرفوا خصائصهم الأصيلة التي تمنعهم من أن يذوبوا في غيرهم فتذهب قواهم شَعَاعًا وتتفرق بددًا.

□ لا يبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكًا لهم، وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرءوها بالعربية وكتبوها بالعربية. وسيظلون يحسون أنهم غرباء عليها وأنهم متطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرءونها ويكتبونها بغير لغتهم.

ولكن اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية، وعلى رأسها طه حسين الذي تشهد كتبه أنه لم يكن إلا بوقًا من أبواق الغرب، وواحدًا من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير، يروِّج لثقافاته ويعظمها، ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم. طه حسين الذي لم يملّ من الكلام عن جامعة البحر الأبيض المتوسط، التي دعت إليها فرنسا بالأمس والتي تدعو إليها أمريكا اليوم. طه حسين الذي يزعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط في مقومات شخصيتها، وليست جزءًا من عرب نجد

واليمن والبحرين والعراق والسودان. طه حسين الذي لم يَبْدُ العرب في وهمه أمة؛ لأن قوام الدول في زعمه هو المنافع المادية؛ ولأن (تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية، ولا قوامًا لتكوين الدول)[1] . طه حسين هذا لا يُقِرُّ معنا هذه الحقيقة؛ لأنه يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم، ولكن السبيل إلى نهضتهم أن يذوبوا في الغرب، وأن يُخلَعوا من أنسابهم ويُقلَعوا من تُربَتِهم ليُغَرسوا في تربة الغرب، ولذلك فهو يهلك أموالهم في ترجمة شكسبير الذي ترجمت رواياته من قبل أكثر من مرة ليحابي بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده، بل هو يهلك أموالهم في ترجمة ما لُعِن به أجدادهم، وما سُبَّ فيه أسلافهم، وسُفِّه دينهم، وافتُرِيَ على نبيهم.

ولو أنصف طه حسين، ولو أنصف كل القائمين على الترجمة في هذا البلد من مثل إدارة الثقافة بوزارة التربية ومجلس الآداب وغيرهما، لجعلوا كل همهم مصروفًا إلى نقل العلوم التجريبية والرياضة وحدها لا يشتغلون بترجمة غيرها حتى نستكملِ نقصنا فيها؛ لأن الاشتغال بنقل كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما شاءوا من الثقافات الإنسانية، على هذا النحو الذي تسوده الفوضى وسوء الاختيار ـ بل سوء القصد في كثير من الأحيان ـ يضر مرتين: يضر بإفساد أذواق شبابنا وتدمير كيانهم، وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء بين قومهم، ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء بينهم حين يكثر عددهم ويكْثُف جَمْعُهُم، ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال في غير وجهه وصرف العرب عن الطريق الصحيح إلى تحررهم ثم

(١) «مستقبل الثقافة في مصر» (ص١٩). ويراجع في بسطه الفكرة كلها الفقرتان الثانية والثالثة (ص١٢ ـ ٢٠) من طبعة المعارف سنة ١٩٤٤.

سيادتهم. ولو كان لي أن أقترح على اللجان الثقافية والهيئات الجامعية على اختلافها، لاقترحت أن يبدءوا بترجمة كتب المراجع في الطب والهندسة والعلوم والزراعة التي يدرسها طلاب الجامعات العربية. فهم بذلك يصيبون غرضين: إنهم ييسرون سبل العلم للطلبة العرب ويخففون عن آبائهم بعض الأعباء، بإغنائهم عن الطبعات الأوروبية الباهظة الثمن، والتي لا يتيسر وجودها في كثير من الأحيان؛ لأن أصحابها يستطيعون أن يمنعوا تصديرها إلينا حين يشاءون وهم في الوقت نفسه يخطون بهذا العمل خطوة واسعة نحو تعريب هذه العلوم التي لا تزال تدرَّس في جامعات مصر باللغة الإنجليزية»[1] اهـ.

❑ ويوضح الدكتور محمد محمد حسين بصمات اليهودية في كتابي إمرسن وديورانت:

وأن إمرسون يزعم أن الدين يتجدّد دائمًا وأن الأنبياء كانوا ولا يزالون اليهود في ثياب الكهنة، ويقرن رسالات الأنبياء بآراء الفلاسفة وأصحاب المذاهب الضالة، ويحض على التنكرّ للمقررات الدينية باسم الفكر، ويتعقّب فضائل الدين بالتسفيه والسخرية.

أما كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت فيتساءل إن كان المسيح عليه السلام قد وُجد، ويشكك في نسبه وينكر معجزاته، ويتناول حياة نبينا ﷺ بهذا الأسلوب الإلحادي نفسه ويذهب الدكتور إلى أن نقل هذه الكتب خطر، ولا يكفي تكليف أحد المسلمين بالردّ والتعليق عليها[2].

* * *

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١٣٨ ـ ١٤٢).

(٢) راجع المصدر السابق (ص١٤٣ ـ ١٥٥).

* **الدكتور محمد محمد حسين يفضح المؤتمرات المشبوهة لضرب العرب والفصحى:**

تحت إشراف جامعة الدول العربية مثل مؤتمر التضامن الثقافي والاقتصادي بين دول البحر الأبيض المتوسط الذي انعقد في باليرمو سنة ١٩٤٥، وغيره من المؤتمرات التي كانت فيها الدعوة إلى وضع معجم جديد يُسمى «معجم العامة» وإلى إلزام مؤلفي الكتب المدرسية بالتزامه، وتمزيق العرب بالدعوة إلى تأليف معجم لكل بلد عربي على حدة. واقتراحات بمسخ قواعد اللغة والنحو والخط.

* **للّه درّ الدكتور محمد محمد حسين من فارس تحت راية القرآن:**

□ كان ـ رحمه اللَّه ـ واحدًا من أولئك النادرين الذين اشتدت حاجة الأمة إليهم في وقت علا فيه طوفان الانبهار بالحضارة الغربية، وطغى فيه تيار العلمانية، واشتدت فيه ظلمات الجاهلية المادية، وفاح فيه لهيب سياط الدعاة إلى جهنم.

كان ـ رحمه اللَّه ـ يصارع رموز الانهزامية الفكرية على حلبة التخصص الثقافي، قاوم الطوفان وسبح ضد التيار في وقت ندر من سبح ضد هذا التيار الجارف، وأضاء الدرب في وقت اشتدت فيه حلكة ظلمات التغريب، وهو وإن سار في الدرب معه من يضيئون معالم الانفراد، إلا أن انفراد جهود كل منهم فيما يسره اللَّه جعل المسير موحشًا لولا الأنس باللَّه واستحضار معيته للمؤمنين.

* **الحاجة الشديدة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال:**

□ قال الدكتور محمد محمد حسين:

«أحب أن ألفت النظر إلى أمرين يجب أن يضعهما الباحثُ في هذا

الموضوع نُصْبَ عينيه، لكي يأمن الزلل، ولكي لا يضل الطريق، ولكي لا يُخدَع عن حقائق الأمور.

أحد هذين الأمرين هو حاجتنا الشديدة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال؛ لأن كثيرًا ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا بسبب الدعايات المغرضة، التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم؛ ولأن كثيرًا من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته، قد أصبح قبولها ممكنًا، بنسبتها إلى هذه الزعامات وإلى هؤلاء الأئمة، الذين لا يتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم.

والواقع أن كثيرًا من هؤلاء الرجال قد أحيطوا بالأسباب التي تَبْني لهم مجدًا وذِكْرًا بين الناس، ولم يكن الغرض من ذلك هو خدمَتهم، ولكن الغرض منه كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادَوا بها والتي وافقت أهدافَ الاستعمار ومصالحه. فقد أصبح يكفي في ترويج أي مذهب فاسد في تأويل الإسلام ـ كما لاحظ جب في كتابه (Modern Trends in Islam) أن يقال: إنه يوافق رأي فلانٍ أو فلانٍ من هؤلاء الأعلام. ويكفي في التشهير بأي رأي سليمٍ أن يُنْسَب إلى ضيق الأفق، الذي لا يلائم ما اتصف به هذا أو ذلك من سعة الأفق والسماحة وصحة الفهم لرُوح الإسلام، على ما تزعمه الدعايات. وليس مهمًا أن يكون ذلك عن حُسن قصدٍ منهم أو عن سوء قصد، وليس مهمًا أن يكون الاستعمار هو الذي استخدمهم لذلك، ووَضَعَ على ألسنتهم وأقلامهم هذه المذاهبَ والآراء، أو أن تكون هذه الآراءُ قد نشأت بعيدة عن حضانته ورعايته، ثم رآها نافعةً له، فاستغلها وعمل على ترويجها. المهم في الأمر هو أن المجد الذي يُنْسَب لهؤلاء الأفراد ليس من صنعهم ولا هو من صنع الشعوب التي عاشوا فيها، ولكنه من صنْع القُوى

التي استخدمتهم أو التي تريد أن تستغلهم، سواءٌ كانت هذه القوى هي الاستعمار أو هي الصهيونية العالمية بمختلف وسائلها وأجهزتها.

◻ وخطة الاستعمار والصهيونية العالمية في ذلك كانت تقوم ـ ولا تزال ـ على السيطرة على أجهزة النشر التي نسميها الآن (الإعلام)، وإلقاء الأضواء من طريقها على كُتّابٍ ومفكرين من نوع خاص، يُبْنَون ويُنَشَّئون بالطريقة التي يُبْنى بها نجوم التمثيل والرقص والغناء، بالمداومة على الإعلان عنهم، والإشادة بهم، وإسباغ الألقاب عليهم، ونشر أخبارهم وصُوَرهم. وذلك في الوقت الذي يُهْمَل فيه الكُتَّاب والمفكرون الذين يصوِّرون وجهات النظر المعارضة، أو تشوَّه آراؤهم وتُسفَّه، ويُشهَّر بهم. ثم هي تقوم على تكرار آرائهم آنًا بعد آنٍ لا يَملّون من التكرار؛ لأنهم يعلمون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديداً، أو هم يخاطبون الجيل نفسه، فيتعهدون بالسقي البذورَ التي ألقوها من قبل.

◻ ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال، لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنامٌ جديدة معبودة لأناسٍ لا تقبل القَدْح والنقد، حتى إن المخدوع بهم والمتعصبَ لهم والمروِّجَ لآرائهم ليَهيجُ ويموج إذا وصَفَ أحدُ الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يَهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحابُ رسول اللَّه ﷺ بما لا يَقْبَلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون. فيَقْبَلون أن يُوصَمَ سيفُ الإسلام خالدُ بن الوليد بأنه قَتَل مالكَ بن نُوَيْرَة في حرب الرِّدة طمعًا في زوجته، ويردِّدون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويَقْبَلون أن يلطَّخ تاريخُ ذي النُّورَين عثمانَ بن عفان بما ألصقه بن ابنُ سبَأ اليهودي من تُهَم. ويَقْبَلون ما يَرْوي الأصبهاني في كتاب الأغاني في سُكَينة بنتِ سيِّدِ شباب أهل الجنة الحسين من أخبار اللهو والمجون. ويردِّدون ما يذاع

من أخبار هارونَ الرشيدِ الذي كان يحج عامًا ويغزو عامًا ثم أصبح في أوهام أبناء هذا الجيل رمزًا للخلاعة والترف، بل كاد يصبح رمزًا للإسراف في طلب الشهوات، وصورةً من أبطال (ألف ليلة وليلة). يَقْبَلون ذلك كله، ثم يرفضون أن يُمسّ أحدُ أصنامهم بما هو أيسر منه. ويَحْتَمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية. يخطِّئون كبارَ المجتهدين من أئمة المسلمين، ويجرِّحونهم بالظنون والأوهام ويثورون لتخطيء ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة.

□ أما الأمرُ الآخر الذي أحب أن ألفت النظر إلى خطورته، فهو تطوير الإسلام لكي يوافق الأمر الواقع في حياتنا العصرية. وقد بدأ هذا الاتجاه كما رأينا في أول الأمر بإحساس الحاجة إلى مواجهة الأقضية الجديدة باستنباط أحكام شرعية توافقها، ورأينا صدى ذلك فيما كتبه الطهطاوي وخير الدين التونسي.

فكتب الطهطاوي في «مناهج الألباب» عن (اقتضاء الأحكام والمعاملات العصرية تنقيح الأقضية والأحكام الشرعية بما يوافق مزاج العصر بدون شذوذ)، مقترحًا وضع مدونة قانونية عصرية شاملة، ودعا خير الدين إلى الاجتهاد في أضيق الحدود، بإعادة النظر في الأحكام المترتبة على العادات إذا تغيرت، ورد على من احتج بأنه لا يحق لنا (إحداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد) بأن هذا (ليس بتجديد اجتهاد من المقلدين، بل هو قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها).

كانت الدعوة إلى الاجتهاد في هذا الطور مقتصدة غاية الاقتصاد، تدعو إليه في أضيق الحدود، ولا تنكر التقليد بل هي تسلم به، وتسلم بأن أهل هذا العصر ليسوا أكفاء للاجتهاد. ومن كان منهم قادرًا على الاجتهاد لا يطمح إلى أكثر من الاجتهاد في حدود مذهب من المذاهب الأربعة، لا

يتجاوزه إلى الاجتهاد المطلق، الذي يسمو فيه بنفسه إلى مرتبة الأئمة الأربعة ومن في طبقتهم من المجتهدين الأولين.

ثم إن الدعوة أصبحت من بعد على يد محمد عبده ومدرسته، ولا سيما رشيد رضا، دعوة عامة تهاجم التقليد وتطالب بإعادة النظر في التشريع الإسلامي كله دون قيد، فانفتح الباب على مصراعيه للقادرين ولغير القادرين، ولأصحاب الورع ولأصحاب الأهواء، حتى ظهرت الفتاوى التي تبيح الإفطار لأدنى عذر، توسعًا في قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ واستنادًا إلى إباحته في غزوة الفتح، وظهرت الفتاوى التي تبيح المعاملات التي تقوم على الربح، وتقسم الربا إلى ربا ظاهر وهو ربا النسيئة، الذين يتضاعف فيه الدين أضعافًا مضاعفة، وربا خفي وهو ربا الفضل، ولا تحرم إلا ربا النسيئة، أو تحرم الربا في أصناف معينة «الخلافة ٩٨» «يسر الإسلام ٥٨»، وظهرت الفتاوى التي تحظر تعدد الزوجات وتحظر الطلاق وتجيز تدخُّل القضاء فيهما. وظهرت الآراء التي تجعل الإسلام داخلاً في هذا المذهب أو ذاك من المذاهب السياسية والاجتماعية التي ابتدعتْها الحضارة الغربية الحديثة. وبذلك تحول الاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير للشريعة الإسلامية يهدف إلى مطابقة الحضارة الغربية، أو الاقتراب منها إلى أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل على أقل تقدير.

◘ الاجتهادُ في الشريعة حقٌّ لكل عالم قادر عليه، ومن القدرة عليه أن يُلِم بكل ما قيل في المسألة التي يبحثها؛ لأنه لا يدري إن فاته بعضُها أن يكون هذا الذي فاته سببًا في عُدوله عن رأيه لو اطَّلع عليه؛ لأن فيه من الحقائق ما غاب عنه ولم يدخل في تقديره. وشأنُ الاجتهاد الديني في ذلك هو شأن الاجتهاد في أيِّ فرعٍ من فروع المعارف والفنون. فليس يباح للطبيب أن يجتهد حتى يبلغ من الإلمام بالطب حدًا يَعتَرِف له عنده أصحابُ هذا العلم

بالقدرة على الاجتهاد فيه. وليس يُقَبل من المهندس أن يَطْلُع على الناس في الهندسة برأي جديد حتى يَثْبُت عند علماء الهندسة أنه قادر على الابتكار. بل لا يُقَبَلُ من رجال القانون الوَضعْي الذي أخذناه من الغرب في كل فروعه أن يجتهدوا فيه حتى يبلغوا درجة من الحِذْق يسلَّم لهم معها بالقدرة على التشريع. والمهندسون والأطباء والقانونيون بعدَ ذلك في معظمهم مقلِّدون، يكتفون بتطبيق ما ابتكره المجتهدون في الطب والهندسة والقانون، ولا يزيد اجتهادُهم فيها عن الحِذْق والكياسة في تطبيق القواعد النظرية على الوقائع العملية. فالاجتهاد إذن لم يُغْلَق بابه، ولكنَّ المسلمين أحسوا في العصور المتأخرة من أنفسهم عدم القدرة عليه، وأحسوا أن أصول المسائل وفروعَها في مُخْتَلف احتمالاتها قد فُصّلت تفصيلاً.

☐ على أن الاجتهاد في حال افتتاننا بالحضارة الغربية خَطَرٌ غيرُ مأمون العواقب، يُخشَى معه أن يتحول من حيث يدري المجتهد - إن وُجِد - ومن حيث لا يدري، إلى تسويغ للقيم الأجنبية التي هو معجب بها، فإذا لم يكن معجبًا بها فالمجتمعُ الذي هو معجب بها لا يقبل اجتهاده، بل لا تزال تتناوله ألسن السفهاء من جُهَّاله، الذين يتصدون لإبداء الرأي فيما يعرفون وفيما يجهلون، حتى يَفْقِدَ ثقته في نفسه ويَعْتَبِر به غيرُه، فَيُفْتي حين يُستفتى وعَيْنُه على الذين يفتيهم، يريد أن يرضيهم، وأن يظفر بتقديرهم وتقريظهم، فيجورُ على الحق إرضاءً للخَلْق، ويَذْهَلُ عما عند اللَّه تَعجُّلاً لما عند الناس. ومع ذلك كله، فالاجتهاد الذي يحترم النصوص الشرعية ويبحثها في حَيْدة ونزاهة شيء، والتطويرُ الذي يهدف إلى تسويغ قيم الحضارة الغربية شيء آخر. الاجتهادُ الذي يتمسك بمبادئ الإسلام يُقوم بها عِوَجَ الحياة شيء، والتطوير الذي ينزل على الأمر والواقع، ويسوغ عِوَجَ الحياة بنصوص الشريعة شيء

آخر. نقطةُ البدء في اجتهاد المجتهد هي هذا السؤال: هل يَصِحُّ هذا الأمر شرعًا أو لا يصح؟ أو: ما هو حكم الإسلام في هذا الأمر؟ ونقطةُ البدء في تطوير المُطور هي: ما هي النصوص الشرعية التي تُثبت صِحَّةَ هذا الأمر؟ أو: ما هي النصوص الشرعية التي تثبت حُرْمَة هذا الأمر؟

◻ وخَطَرُ التطوير على الإسلام وعلى المجتمع الإسلامي يأتي من وجهين. فهو إفسادٌ للإسلام يُشوِّش قِيَمه ومفاهيمه الأصلية بإدخال الزَّيْف على الصحيح، ويُثبت الغريب الدخيل ويؤكده. فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة، وهم يعرفون أن هذا الذي غُلِبوا على أمرهم فيه ليس من الإسلام، والأمَل قائم في أن تجيء من بعدُ نهضةٌ صحيحة تَرُدُّ الأمورَ إلى نِصابها عند الإمكان، يصبح الناس وهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الإسلام. فإذا جاءهم من بَعدُ من يريد أن يَرُدَّهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول، واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون رُوحِها.

◻ وتقليدُ المغلوب للغالب مرحلة طبيعية طارئة تزول مع زوال الضعف. واختلاطُ الحق بالباطل والنافع بالضار في هذه المرحلة أمرٌ طبيعي كذلك. وهو مرحلة من مراحل التطوُّر الصحيح، تجيء بعدها التصفية والتمحيص عندما تزول غواشي الضعف والخمول. فإذا سوغنا ذلك الغريب الدخيل ـ خيرَه وشرّه ـ تسويغًا إسلاميًّا في حال الضعف والعجز، فقد أصَّلناه من ناحية، وقد أقحمنا على الإسلام ما يُفْسِد بِنْيَتَه من ناحيةٍ أخرى؛ لأنه يصبح أخلاطًا من عناصر شتى لا تجمعها رابطة، ولا يضمها نظام، ولا يُشْبِه بعضُها بعضًا. فهذا هو أحد الوجهين في ضرر التطوير، وهو وجهٌ لا يَعْني إلا المسلمين..

أما الوجه الآخر لضرر التطوير ـ وهو الذي يعني أعداءَ الإسلام ـ فهو

أن هذا التطوير ينتهي بالمسلمين إلى الفُرْقة التي لا اجتماع بعدها؛ لأن كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهبًا يخالف غيرها من الجماعات. ومع توالي الأيام، نجد إسلامًا تركيًّا وإسلامًا هنديًّا وإسلامًا إيرانيًّا وإسلامًا عربيًّا، بل ربما وجدنا في داخل هذا الإسلام العربي ألوانًا إقليمية تختلف باختلاف البلاد. بل لقد سمعنا منذ الآن أحدَ المنتسبين إلى الإسلام من الهنود يتحدث في (مؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) سنة ١٩٥٣ عن الإسلام الهندي الحديث (ص٧٨، ٨١). وسمعنا سْمِثْ يَرْوي عن أحد المسئولين من الترك في كتابه (Islam In Modern History) كلامًا يتحدث فيه عن إسلام تركيٍّ خاص (ص١٩٣)»[1] اهـ.

* نقده لرفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي:

أقام رفاعة الطهطاوي في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) وأقام خير الدين التونسي بباريس أربع سنوات (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦).

وقد جلب الطهطاوي والتونسي الأفكار والبذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية.

«للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلامًا عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض، يراد اتخاذُها وحدة وجودية، يرتبط تاريخُها القديم بتاريخها المعاصر، ليكوّنا وحدة متكاملة، ذاتَ شخصية مستقلة، تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين. وللمرة الأولى نجد اهتمامًا بالتاريخ القديم يوجّه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد. وللمرة الأولى نجد عند كل

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين (ص٥١ ـ ٥٨) ـ دار الرسالة ـ الطبعة التاسعة.

من الطهطاوي وخير الدين كلامًا عن الحرية بوصفها الأساس في نهضة أي أمة وفي تقدمها. ولأول مرة نجد دعوة إلى وضع مدوَّنة فقهية واضحة محدودة، في صورة موادَّ قانونية، على نمط المدوَّنات القانونية الأوروبية. ولأول مرة تُنقَل إلى المسلمين النظرياتُ الثورية التي تريد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم من واجبات، وتبصر الشعوب بما لهم من حقوق. ولأول مرة نرى عَرْضًا للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات. عرضًا يبدو مجردًا من التعليق في بعض الأحيان، ومشوبًا بالإعجاب والتساؤل عن إمكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى. ونرى بعد ذلك كلامًا كثيرًا عن المرأة، لا شك أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوروبية، مثلَ تعليمِ الفتيات، ومنعِ تعدد الزوجات، وتحديدِ الطلاق، واختلاطِ الجنسين»[1]

☐ كتب الطهطاوي كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه أثناء إقامته في فرنسا وعرضه على أستاذه «جومار» قبل أن ينشره وألّف بعد ذلك في عصر إسماعيل «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» و«المرشد الأمين للبنات والبنين»، وكتب خير الدين التونسي «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك».

تكلم الطهطاوي عن ما يسمى بالأخوة الوطنية التي تجمع بين ساكنيه على اختلاف دياناتهم في كتابه «مناهج الألباب» بل وتعدّي ذلك إلى ذكر صور من مجد الفراعنة والافتخار والاعتزاز بذلك فهو ـ على سبيل المثال ـ حين يتكلم عن ضرر البطالة والكسل، يقدم صورة من نشاط المجتمع الفرعوني القديم، الذي يتجلى فيما خلفوه من آثار ضخمة، ويتكلم عن التماثيل التي تصور الكسل في صورة بغيضة، والتي كانوا ينصبونها في

(١) المرجع السابق (ص٢١).

الميادين العامة (ص١٢٠ ـ ١٢١). ويشيد في موضع آخر بتقدم مصر وغناها وامتيازها في المعارف على عهد الفراعنة، وما تدل عليه آثارهم ومخلَّفاتهم وقوانينهم من الثروة والقوة واتساع العمران والتمسك بالفضائل الخلقية، ثم يقول: «فمنه يُعلَم أنه كان بمصر إذا ذاك أحكام عادلة وقوانينُ مرتَّبةٌ وحدودٌ مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات وهي نتيجة التمدن العام».

ويقول: «فلا يبعد على مصر في هذا العصر أن تَستجلبَ السعادة، وتكتسبَ من القوة المِلِّيَّة الحسنى وزيادة، وتتحصلَ من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة؛ لأن بِنْيَةَ أجسام أهل هذه الأزمان هي عَيْنُ بنيةِ أهل الزمان الذي مضى وفات، والقرائحَ واحدة، ووسائلَ هذا العصر الأخير متسعةٌ ومتنوعة، فلا شك أنها مساعِدَةٌ على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها (ص١٧٠ ـ ١٨٧)».

وراجع مثالاً آخر أشاد فيه بأعمال الملك رمسيس الذي اشتهر باسم سيزوستريس (ص١٨٨ ـ ١٨٩)[1].

◻ ولم يستطع الطهطاوي أن يدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعددة لكلمة الحرية على طريقة الغرب من نبذ الدين، وتسفيه رجاله، والخروج على حدوده، لم يدرك ذلك ولم يلاحظ إلا الجانب البرّاق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية، حين تمارس في مختلف صورها وألوانها وفي أوسع حدودها.

«والجديد في الكلام مما تأثر فيه الطهطاوي بالحضارة الغربية هو:

أولاً: دعوتُه إلى وضع مُدوَّنة قانونية شاملة، على نمط المُدوَّنات الغربية الحديثة، وهي خطوة قد سبقت إليها تركيا بصدور (التنظيمات)، وسبق إلى

(١) المرجع السابق (ص٢٣).

الدفاع عنها خير الدين التونسي في كتابه «أقوم المسالك».

ثانيًا: الدعوةُ إلى تنظيم أحكامٍ للمعاملات تلائم العصر، والتماسُ الطريق إلى الاقتباس من نُظُم الغرب، التي قامت عليها المصارف والشركات. وهي فكرة قد بسطها خير الدين التونسي بسطًا أوفى وأعمقَ في كتابه «أقوم المسالك»، كما سنرى من بعد.

◻ ولكن الخطير حقًّا هو ما قرره الطهطاوي في كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» في فصل عقده للكلام عن (تمدن الوطن)، حين ذهب إلى أن مدنية أوروبا الحديثة التي تقوم على العقل تُحقِّق النتائج نفسَها التي تَهْدِي إليها مدنية الدين. فقال:

«ومَن زاول علمَ أصول الفقه، وفَقِهَ ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية، التي وصلت عقولُ أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسًا لوضع قوانينَ تمدنهم وأحكامِهم، قَلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التي بُنِيت عليها الفروع الفقهية، التي عليها مدار المعاملات. فما يسمَّى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ماي يُسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية. وهو عبارة عن قواعد عقلية، تحسينًا وتقبيحًا، يؤسسون عليها أحكام المدنية. وما نسميه بالعدل والإحسان يعبِّرون عنه بالحرية والتسوية. وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولُّع بحمايته، مما يُفضَّلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة، يسمونه محبة الوطن (ص١٢٤ ـ ١٢٥)».

◻ وفي فصل آخر من الكتاب عقده للكلام (في الأحكام الطبيعية المستندة قبل التشريع إلى العقل) يسوغ القوانين العقلية التي تقوم عليها الحضارة الأوربية الحديثة، فيقول: «ولما كانت أعمالُ كل نوع من أنواع المخلوقات، وكلِّ عضو من أعضاء فَرْدِ ذلك النوع، منقادةً لنواميس طبيعية

عمومية خصته بها الحكمة الإلـهية، كان لا يمكن مخالفةُ هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص وهذه النواميس الطبيعية التي خَصَّتْ بها العَالَمَ القدرةُ الإلـهية عامةٌ للإنسان وغيره (ص١٣١)» «فينبغي للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب، ويتعدى حدودها، حيث إن المسبَّبات الناتجةَ عنها منتظمة محقَّقة (ص١٣٢)» «فعلى الإنسان أن يطبِّق أعماله على هذه الأسباب التي تقدم ذكرُها ويتمسكَ بها، وإلا عوقب عقابًا إلـهيًا لمخالفة خالق هذه الأسباب (ص١٣٣)» «وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حُكْمُ الأحكام الشرعية. فهي فطرية خلقها اللَّه سبحانه وتعالى مع الإنسان، وجعلها ملازمةً له في الوجود. فكأنها قالبٌ له، نُسجت على منواله، وطبعت على مثاله. وكأنما هي سُطرت في لوح فؤاده، بإلهام إلـهي بدون واسطة، ثم جاءت بعدها شرائعُ الأنبياء بالواسطة، وبالكتب التي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها. فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها في أمان الفَتْرة تأسَّستْ قوانينُ الحكماء الأول وقدماءِ الدول؛ وحصل منها الإرشاد إلى طرق المعاش في الأزمنة الخالية، ما ظهر منها التوصل إلى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراقِ وفارسَ واليونان. وكان ذلك من لطف اللَّه تعالى بالنوع البشري، حيث هداهم لمعاشهم، بظهور حُكَمَاءَ فيهم، يقنِّنون القوانين المدنية، لا سيما الضرورية لحفظ المال والنفس والنسل (ص١٣٣)».

وبذلك مهد الطهطاوي، من حيث يدري، أو من حيث لا يدري، لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل ـ على قصوره، وعلى مخالطة الشهوات له ـ ووافق في ذلك خير الدين التونسي، الذي يمتاز ـ كما أشرنا من قبل ـ بأنه أعمقُ غوراً في فهم الحضارة الغربية. فهو يدعو إلى الاقتباس منها على فقهٍ وبصيرة، تختلف عن السذاجة التي تبدو في كتابة الطهطاوي.

*** اعجاب الطهطاوي بالمسرح الفرنسي!!! ورقص الباليه واختلاط الرجال بالنساء:**

◻ قال الدكتور محمد محمد حسين:

والطهطاوي معجب بالمسرح الذي لم يجد له اسمًا عربيًا، فسماه باسمه الفرنسي (السپكْتَاكْل) أو (التياترو). وصفَهَ في «تخليص الإبريز» فبدأ كلامه بقوله: «ومن العجائب أنهم يقولون مسائل في العلوم الغريبة والمسائِل المشكلة، ويتعمَّقون في ذلك وقتَ اللعب (ص١٦٦)».

ثم قال بعد وصف الممثلين والمناظر: «وبالجملة فالتياترو عندهم كالمدرسة العامة، يتعلم فيها العالم والجاهل (ص١٦٦)».

◻ وقد كان لمشاهداته في باريس أثر في توجيه فكره إلى شئون المرأة، فتكلم في «تخليص الإبريز» عن الطلاق، الذي لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة بإقامة دعوى الزنى (ص١٢٢). وتكلم عن عاداتهم في اختلاط الرجال بالنساء، فنفى أن يكون الاختلاط والتبرجُ داعيًا إلى الفساد، أو دليلاً على التساهل في العرض، حيث يقول: «ولا يُظَن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عِرْض لهم في ذلك.. لأنهم وإن فقدوا الغَيرة، لكنهم إذا علموا عليهن شيئًا كانوا شرَّ الناس عليهن وعلى أنفسهم وعلى من خانهم في نسائهم. غايةُ الأمر أنهم يخطئون في تسليم القياد للنساء. وإن كانت المحصَنات لا يُخشَى عليهن شيء (ص٣٠٤)»، ويعود فيؤكد أن السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعيًا إلى الفساد، وأن مَرَدّ الأمر كلّه إلى التربية، فيقول: «إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سَتْرهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعودُ على محبة واحد دون غيره، وعَدَمُ التشريك في المحبة، والالتئامُ بين الزوجين (ص٣٠٥)».

◻ ودَافَعَ الطهطاوي عن مراقصة الرجال للنساء حين وصف (مَحالَّ الرقص المسماة: «البال Ballet» فقال: «إن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى «مروج الذهب». فهو نظيرُ المصارعة في موازنة الأعضاء، ودَفْعِ قُوَى بعضِها إلى بعض، فليس كلُّ قويٍّ يعرف المصارعة، بل قد يغلبه ضعيفُ البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم. وما كلُّ راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء. وظَهَر أن الرقص والمصارعة مرجعُهُما واحد يُعَرف بالتأمل.. ويتعلق بالرقص في فرنسا كلُّ الناس. وكأنه نوعٌ من العِياقة والشَّلْبَنَة لا الفِسق[1] . فلذلك كان دائمًا غيرَ خارج عن قوانين الحياء. بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييج الشهوات. أما في باريس فإنه نَطٌّ مخصوص لا يُشَمُّ منه رائحة العُهْرِ أبدًا. وكل إنسان يَعْزِمُ امرأةً يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عَزَمها آخر للرقصة الثانية وهكذا. وسواء كان يعرفها أو لا (ص١٦٨)».

ويشيد الطهطاوي في مقدمة كتابه «المرشد الأمين» بفضل الخديوي إسماعيل في التسوية بين البنات والبنين في التعليم. «فقد سوى في اكتساب المعارف بين الفريقين، ولم يجعل العلم كالإرث، للذكر مثل حظ الأنثيين. فبهذا سُوقُ المعارف المشتركة قد قامت، وطريقُ العوارف للجنسين استقامت، وليلُ جَهْلِ النساء جلاه فجرُ المعارف، وفخرُ تمتعهن بالطرائف واللطائف..» وتكلم عن وجوب تعليم المرأة، لتكمل لذة أنس الزوجية. «وهذا لا يكون إلا بالمشاكلة بين الزوجين، والمجانسة بين القرينين، ولا سيما في الممالك المتمدنة، التي يعد فيها تعليم النساء من الشيم المستحسنة. فالمرأة على هذا محتاجة للتعليم لإرشادها، في أمور الزوجية والعشرة، وفي تربية الأولاد، إلى الطريق المستقيم (ص٦٦)».

(١) العياقة والشلبنة عاميتان تعنيان: الأناقة والفتوة.

بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيجعل من مزايا التعليم أنه «يمكنُ للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها. فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن. وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبَهن بالأهواء وافتعال الأقاويل. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة (ص٦٦)».

◻ ويتكلم في موضع آخر من الكتاب عن تعدد الزوجات، فيشترط فيه العدل، ويورد حديث «من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل». ويورد أقوالاً للحكماء وقصصًا تحبذ الاقتصار على زوجة واحدة (ص١٤٨). ومن ذلك نرى أن الطهطاوي قد أثار قضية المرأة في أكثر النواحي التي أصبحت بعد ذلك مَثَارَ الجدل والمناقشة»[1] اهـ.

*** الدكتور محمد محمد حسين يُفرد الفصل الثالث من كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» (ص٦٧ ـ ١١٢) لنقد الأفغاني ومحمد عبده وكشف الستر عن حقيقتيهما:**

◻ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«الاهتمام بالأفغاني ومحمد عبده يستند إلى اعتبارين:

أولهما: هو أن الصورة الشائعة المعروفة عنهما بين الناس تخالف حقيقتهما. وهذه الصورة الشائعة تستمد وجودها وقوتها من الدعاية الدائمة التي لا تفتر، والتي تسهر عليها قوى ومؤسسات قادرة ذات نفوذ. ولذلك كان الكشف عن حقيقتيهما محتاجًا إلى مجهود كبير، وإلى مزيد من الدأب

(١) المصدر السابق (ص٣٢ ـ ٤٢) ملخصًا.

يقابل دأب الدعاية المبذولة في تدعيم مكانيهما.

وثاني **هذين الاعتبارين**: هو أن جلاء حقيقة الرجلين يتبعه جلاء حقيقة كثير من الأوهام التي تأصلت في نفوس الناس تبعًا لاستقرار شهرتيهما فيها، فكشف الستر عنهما هو في الوقت نفسه الكشف للستر عن أباطيل كثيرة ترتبط بهما، وتستمد قوتها وبريقها الخدّاع من شهرتيهما ومن ارتباطها بهما»[١].

❑ ويتكلم عن تعمية الأفغاني أصله ونسبه فهو إيراني شيعي وليس شريف النسب كما زعم. وتكلم عن أن أكثر نشاط الأفغاني كان سريًا، وأنه أنشأ جمعيات سرية بعضها كان أغلب أعضائها من شبان اليهود[٢].

❑ ثم تكلم عن إنشائه محفلاً ماسونيًّا تابعًا للشرق الفرنسي[٣]. وإن الأفغاني صانع ثورات دموي حيثما حل، واتخاذه بطانة تضم خليطًا من المسلمين والنصاري واليهود.

❑ وصف رشيد رضا الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود، التي يشتبه فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية، وقال إن كلامه في النشوء والارتقاء يشبه بكلام داروين[٤].

وتكلم الدكتور محمد محمد حسين عن عقيدته وهي عقيدة الحلول ووحدة الوجود في كتبه وكتب تلاميذه إليه، وأن شيخ الإسلام حسن فهمي قال عنه إنه يسوي بين النبوة والفلسفة.

وأن علماء الأزهر هاجموا الأفغاني ومنعوه من دخول الأزهر.

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (ص٦٧).
(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٧٥).
(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٢٨٣، ٣٨٠)، (٢/ ٥٥٣ ـ ٥٥٨).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٧٩ ـ ٨٠).

ثم تكلم الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» عن محمد عبده، وذكر أن حياة محمد عبده قسمان:

قسم في خدمة الأفغاني، وقسم في صداقة كرومر[١]، وأن كرومر عوَّل عليه في تدعيم الوطنية بمعناها الغربي في مصر[٢]، ويصفه بأنه لا أدري.

وصلته ببلنت. ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد بقصد تطوير الإسلام والاقتراب به من قيم الحضارة الغربية.

ورعايته للبذور التي غرسها الطهطاوي وخير الدين التونسي في القسم الثاني من حياته[٣].

ودعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها لها ظاهر وباطن.

وذهب الدكتور محمد محمد حسين إلى وجود قوتين كبيرتين تروجان لآراء الأفغاني ومحمد عبده وهما الماسونية والاستعمار[٤].

* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر:

وهو كتاب قيم من مجلدين للدكتور محمد محمد حسين.

يتكلم في الجزء الأول عن الأدب المعاصر منذ الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى تكلم فيه عن الجامعة الإسلامية وغلبة النزعة الإسلامية على العصبية الجنسية، وكانت الخصومة بين الشرق والغرب هي استمرار

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (٨٢)، وتقارير كرومر السنوية ومنها تقريره عن عام ١٩٠٥ في الفقرة (٧) بعنوان «الشيخ محمد عبده»، وكتابه عن «مصر الحديثة» ومذكرات المستر بلنت «التاريخ السري للاحتلال البريطاني في مصر».

(٢) تقرير كرومر سنة ١٩٠٦، و«الإسلام والحضارة الغربية» (ص٨٣).

(٣) انظر «الإسلام والحضارة الغربية» (ص٨٦).

(٤) المرجع السابق (ص٨٨).

للحروب الصليبية ودعم هذا ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة في اقتسام أملاكها من ناحية أخرى، وكان ساسة الغرب يصورون المسلمين في صورة الهمج المتخلفين، وأعان على ذلك ما كان تبذله انجلترا من جهود دائبة للقضاء على دولة الخلافة.

◘ ثم تكلم عن الجامعة المصرية، فتكلم عن الوطنية بمعناها الإقليمي أنها كانت صدى للاتجاه الأوروبي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر، وأن هذه الدعوة الجديدة نشأت قبيل الثورة العرابية ولكنها لم تكن مناقضة لفكرة الجامعة الإسلامية، وأن مصطفى كامل كان لا يرى تعارضًا بين الجامعة المصرية والجامعة الإسلامية ثم ظهر فريق آخر من دعاة الوطنية حارب فكرة الجامعة الإسلامية، ورأوا أن الوطنية هي المصلحة المشتركة التي تجمع بين من يعيشون في وطن وإقليم واحد، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ومثل هذا: صحيفة «المقطم» التي تعمل لحساب الانجليز، وكانت صريحة في تأييد المحتل وتصويره في صورة إنسانية رائعة وعلى هذا المنوال كانت أكثر كتابات مجلة «المقتطف». ونشأ «الحزب الوطني الحر» على أيدي قلة من أعيان البلاد استهوتهم مصالحهم الشخصية فأيدوا نزعة الوطنية ومحاربة فكرة الجامعة الإسلامية في جريدتهم «الجريدة» الناطقة بلسان حزبهم وسيذكر التاريخ بالسوء مصطفى عمار ومحمد وحيد ولطفي السيد وعبدالحميد الزهاوي السوري، وولى الدين يكن الذي يشيد بالانجليز، وكذلك حزب الأمة ورجاله من أعيان البلاد.

◘ وظهرت الدعوة الخبيثة إلى فصل الدين عن الدولة وسوّد عبدالقادر حمزة في سنة ١٩٠٤م صفحات في جريدة «المقتطف» عدد مارس سنة ١٩٠٤ (ص٢٣١ ـ ٢٤٠) داعيًا إلى هذا وردّ عليه رفيق العظم ومحمد كرد علي.

◘ وكشف الدكتور محمد محمد حسين عن قيام عبدالرحمن الكواكبي

بالدعوة إلى فصل الخلافة عن السلطنة في كتابه «أم القرى» ودعا إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة (ص١٦٩)، والناظر في كلامه يريبه ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسّرها تفسيراً غربيًا كما تريبه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين ما تكشّفت عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنجليز سنة ١٩١٦م[١].

❑ ومن هؤلاء الداعين إلى الفصل بين الدين والسياسة سليمان البستاني اللبناني في كتابه «ذكرى وعبرة ـ الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده»[٢] طبعة سنة ١٩٠٨ وصوّر عهد أتاتورك أنه وضع حدًا للظلم والفوضى والإرهاب.

❑ ثم تكلم عن الاتجاه الثالث وهو اتجاه ما يسمى بتحرير المرأة والذي تولى كبره قاسم أمين ورد أحمد محرم علي قاسم أمين (ص٣٤٦)، ورد عبداللّه النديم الساخر في مجلة «التنكيت والتبكيت» على قاسم أمين في مقال بعنوان «عربي تفرنج»[٣].

❑ ثم تكلم عن المتطرفين من أدعياء التجديد الذين يستخفّون بالدين وبعلمائه مثل هذا المجرم المسمى «بولي الدين يكن» الذي يجاهر بالإفطار في رمضان مستخفًا بالصائمين[٤]، قال: «فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى

---

(١) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) ـ مكتبة الآداب.

(٢) ومثله كتاب «ما هنالك» الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦م ولم تصرح باسم كاتبه، والمعروف الشائع أنه المويلحي ـ انظر «الاتجاهات الوطنية» (١/ ٢٦٤).

(٣) العدد الأول ٦ يوليو سنة ١٨٨١ سلافة النديم (ص٨٢) مقال بعنوان «عربي تفرنج» ـ انظر الاتجاهات الوطنية (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٨).

(٤) راجع مقاله الذي نشر في المقطم «أكذوبة إبريل، وأكذوبة رمضان» الصحائف السود (ص٢٣ ـ ٣٨)، انظر «الاتجاهات الوطنية» (١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

المكان المعّد للتدخين دنا مني أحد المعمّمين، وهو رجل كالجرادة، له لحية كقائمة المزاد، وعينان كزيتونتين. فنظر في وجهي مليًّا ثم قال لي: لم لا تصوم؟.. قلت: لا أدري. قال: كيف لا تدري؟ .. قلت: ككلّ من لا يدري».

وانظر إلى مروقه واستخفافه حين يُسفّه ذبح الأضاحي في العيد فيقول: «لا أدري حكم الأضاحي فيما يرجع إلى الدين. فلا أتعرض له بشيء مجانبة للشطط، ولكن ما هذا الإسراف؟.. ألنا ثأر عند الغنم فنثأر؟ أم الغنم كثيرة فنريد أن تقلّ؟.. ما روى لنا أحد المؤرخين أن جدّ الغنم نطح أبانا آدم، فنجعل عداءنا محمولاً على هذا السبب»[1] !!!

وانظر إلى تطاوله في ديوانه واستخفافه بعلماء الدين (ص١٩، ٢٥، ٣٢)[2].

□ وفي الجزء الثاني من «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية:

تكلم في الفصل الأول عن الخلافة الإسلامية ـ وحزن المسلمين على سقوطها يقول حافظ إبراهيم:

«أيا صوفيا» حان التفرّق فاذكري ... عهود كرام فيك صلّوا وسلّموا
إذا عُدت يومًا للصليب وأهله ... وحلى نواحيك المسيحُ ومريمُ[3]
ودقّتْ نواقيسٌ وقام مزمّرٌ ... من الروم في محرابه يترنّمُ
فلا تنكري عهد المآذن إنه ... على الله من عهد النواقيس أكرمُ

(١) انظر إلى مقاله «الإسراف! الإسراف!» الصحائف السود لولي الدين يكن ١٩١٠م مطبعة المقتطف بمصر ـ و«الاتجاهات الوطنية» (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٢) ديوان ولي الدين يكن مطبعة المقتطف.

(٣) من تمام الإسلام الإيمان بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وأن أمه صديقة رضي الله عنها.

تباركت! «بيت القدس»[1] جذلان آمن ... ولا يأمن «البيت العتيق» المحرم
أيرضيك أن تغشى سنابك خيلهم ... حماك وأن يمنى «الحطيم» وزمزم
وكيف يذلّ المسلمون وبينهم ... كتابك يُتلَى كل يوم ويكرمُ
نبيّك محزون وبيتك مطرق ... حياءً وأنصار الحقيقة نُوَّمُ
عصيْنا وخالفْنَا فعاقبت عادلاً ... وحكَّمتَ فينا اليوم من ليس يرحَمُ[2]

□ والكتاب يدل على الفهم العالي للدكتور محمد محمد حسين وعودته للينابيع الصافية.. أتاه نهر اللَّه فبطل عنده نهر معقل انظر إليه وهو يتحدث عن عصبية الصليبيين عند سقوط القدس في يد اللنبي وهزيمة تركيا فيقول:

«ولم ينكر الإنجليز وجود ما يُقابل هذا الشعور الإسلامي من عصبية مسيحية في بلادهم. وهذا هو اللورد ويفل وهو من كبار قوّادهم وساستهم، ينقل عن إحدى المجلات الإنجليزية صورة رمزية للقائد الإنجليزي أللنبي في عودته من حرب فلسطين، وقد كتب تحتها «العودة من الحروب الصليبية»[3]، وأخذت الصحف الإنجليزية تلح في المطالبة بإخراج الترك من الأستانة[4]، ووقع مائة عضو من أعضاء البرلمان الإنجليزي على مذكرة اللورد روبرت سيسل التي تتضمّن المطالبة بإخراج الأتراك من الأستانة[5]، وأرسل «اثنا عشر أسقفًا في الأستانة برقية إلى رئيس أساقفة كانتربري يدعونه فيها إلى المساعدة على إخراج الأتراك من الأستانة، فأجابهم بأنه طلب مع غيره من الأساقفة البريطانيين إلى الحكومة البريطانية هذا الطلب، وأنهم سيبذلون

---

(١) يعني ببيت القدس هنا «الكنائس» ويعني بالبيت العتيق المساجد.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم (٢/ ٨٨ ـ ٨٩). و«أيا صوفيا» هو مسجد الأستانة الكبير.

(٣) Allenby in Eqypt (ص١١٣).

(٤) الأهرام ـ ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٠ ـ التلغرافات العمومية.

(٥) الأهرام ـ ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠ ـ التلغرافات العمومية.

مجهوداتهم لهذه الغاية، وأرسل أسقف نيويورك إلى رئيس أساقفة كانتربري تلغرافًا بهذا المعنى بالنيابة عن مائة أسقف، وشكره على المساعي التي يبذلها في «الحروب الصليبية» التي تُبذَل ضد بقاء الأتراك في الأستانة فردّ رئيس الأساقفة معربًا عن أمله في أن تشترك أمريكا في القيام بنصيبها في حماية الشعوب الشرقية المظلومة»(١) .

ويُصرح القائد الفرنسي بير كيللر بهذه الدوافع الصليبية حين يقول في كتابه عن القضية العربية «إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شيء مصالح روحية. وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين، حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة. وجدّدت هذه المساعدات على مرّ القرون، وتحملت فيها فرنسا مهمة حماية نصارى الشرق»(٢) .

*** حذو القذّة بالقذّة:**

□ وتكلم الدكتور محمد محمد حسين عن التجاوب الفكري بين أصحاب الدعوات الهدّامة في تركيا ومصر، فحين كان الكماليون يتخذون الذئب الأبيض ـ الأغبر ـ وهو رمز أسلافهم الأقدمين من الوثنيين ـ شعاراً لهم ويرسمونه على طوابع البريد، كان المصريون يحذون حذوهم ويرسمون أبا الهول على أوراق العملة، وعلى طوابع البريد، وحين جعل الكماليون حدًّا أدنى لسن الزواج في البنين والبنات اقتفى المصريون أثرهم في ذلك، وعندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغاءها، وحين حمل مصطفى كمال نساء تركيا على السفور

---

(١) الأهرام ـ ٦ مارس سنة ١٩٢٠ ـ التلغرافات العمومية.

(٢) «القضية العربية في نظر الغرب» للجنرال كيللر ترجمة ميشال حجار (ص١١٩) ـ بيروت ـ انظر «الاتجاهات الحديثة» (٢/ ٢٠).

والاختلاط بالرجال ومراقصتهم، احتدمت المعارك في مصر حول هذه الموضوعات في الصحافة وفي الأندية. وحين ألزم مصطفى كمال الترك أن يلبسوا القبعة خاض بعض الكتاب المصريين في بحث ما سمّوه «مشكلة الأزياء» داعين إلى توحيدها، ودعا بعض أفراد منهم إلى اتخاذ القبعة، وحين استبدلت تركيا الحروف اللاتينية بالحروف العربية، أخذ كثير من الكتاب والصحافيين في مصر يناقشون ما سموه «مشكلة الكتابة والخط العربي» وهكذا نجد أن تأثر الرأي العام والمفكرين المصريين بأحداث الخلافة الإسلامية لم يكن إلا مظهراً من مظاهر التجاوب بين تركيا وبين العالم الإسلامي عامة ومصر خاصة»(١) .

*** القديم والجديد: وفضح الدكتور محمد محمد حسين لسلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد»:**

ويعنون بالجديد انسلاخ الأمة من دينها و«أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يكره، وما يُحمد وما يعاب» كما قال طه حسين(٢) .

أما القديم فهو ما يمت إلى الإسلام بصلة، يُسمى أصحابه بالمحافظين، أو الجامدين، أو الرجعيين أو المتزمتين أو الظلاميين أو الإرهابيين أفرجعية أن يقف الإنسان في منزل الوحي يحاول السمو إلى أن يفهم كيف كانت صورته؟! أم رجعية أن يقف الإنسان عند آثار صاحب الوحي يلتمس فيها الأسوة والعِبرة؟! فأحبب بها إليّ من رجعية.

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٢) «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين ـ الفقرة ٩ (ص٤١).

«والمتطرفون من أنصار الجديد ينزعون إلى التحرير من كل قيد وإلى تخطي كل حاجز، ولا يقفون في ذلك عند حد»[١] ، يريدون أن يحطموا ما بقي في نفوس الناس من توقير للدين، ومن أبرع الأمثلة على ذلك ـ أو أخبثها إن شئت ـ قصة رمزية مترجمة نشرتها مجلة الهلال، تكمن بين سطورها سخرية لاذعة بالتدين وبالمقدسات الموروثة كلها[٢] .

☐ وكان سلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد» أكثر دعاة الجديد تطرفًا وهو عميل قميء قزم كاره للإسلام وكل ما يمت إليه بصلة. يقول الدكتور محمد محمد حسين عن كتاب سلامة موسى «اليوم والغد»:

أما كتاب «اليوم والغد» فقد احتوى على مقالات نشرت في خلال سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦. ثم أضيف إليها مقالان عند نشر الكتاب سنة ١٩٢٧ . وهو يلتقي مع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» في كثير من وجهات النظر. ولكن الأول يعرض آراءه في صراحة عارية لا يبالي معها سخط الناس أو رضاءهم، بل لعله يقصد إلى إسخاطهم ويلتذ به. أما الثاني فهو يدور حول أهدافه ويعبر عنها في دهاء، محاولاً إقناع الناس وكسب رضائهم، سالكًا لذلك أحب السبل إلى نفوسهم وأقربها إلى قلوبهم، وكأنه لا ينسى ما تعرض له حين أخرج كتابه الأول «في الشعر الجاهلي».

☐ وهدف المؤلف واضح في كتاب «اليوم والغد»، فهو يقول في مقدمته:

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب كما أزاوله. فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق

---

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ١٩٤).

(٢) انظر «الهلال» عدد مايو ١٩٢٦ ـ ١٧ شوال ١٣٤٤هـ (ص٨٠١ ـ ٨٠٥).

بأوربا[١] فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهرة. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب».

ويضرب الكاتب في هذه المقدمة أمثالاً لهدفه، فهو يريد «حرية المرأة كما يفهمها الأوربي، حتى نأمل يومًا ما في رؤية قاضيات وطبيبات وطيارات ومعلمات ومديرات ووزيرات وعاملات.. إلخ».

وهو «يريد من الأدب أن يكون أدبًا أوروبيًا ٩٩ في المائة. قائم على المعنى والقصد لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب».

ثم هو يريد: «أن تكون ثقافتنا أوروبية لكي نغرس في أنفسنا حب الحرية والتفكير الجريء».

وهو يهاجم الدين في المقدمة وفي أكثر من موضع من الكتاب؛ حتى ليخيل إليك أنه لا يبغض في هذه الشرقية التي يهاجمها إلا الدين. فهو في كل مثل من هذه الأمثال التي يضربها يهدم ركنًا من أركان الأديان عامة والإسلام خاصة. فهو «يريد من التعلم أن يكون تعليمًا أوروبيًّا لا سلطان للدين عليه، ولا دخول له فيه»، وهو «يريد من الحكومة أن تكون ديموقراطية برلمانية كما هي في أوروبا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون، أوتوقراطية دينية».

وهو يريد أن يبطل شريعة الإسلام في تعدد الأزواج في الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة. ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة».

---

(١) مصر ليست جزءاً من آسيا. والمؤلف يقصد بالخروج من آسيا الخروج من التفكير الآسيوي، أو بعبارة أخرى من الدين الذي جاءنا من آسيا، وهو الإسلام.

وهو يريد أن يقتلع من أدبنا كل طابع شرقي مما يسميه «آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة».

◻ ويبسط المؤلف القول في ذلك كله في خاتمة الكتاب الطويلة التي اتخذ لها عنوانًا «على مفترق الطرق». فيتكلم عن تاريخ دخول الحضارة الأوروبية إلى مصر منذ نابليون. وما أفاض عليها من بركات ـ حسب تعبيره ـ ثم يتكلم عن محمد علي الذي جاء من بعده فاعتمد على أوروبا في تمدين مصر. ثم يتكلم عن إسماعيل، الذي «رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد لنا من أن نتفرنج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا. فأنشأ مجلسًا نيابيًا. وأسس مجلس وزراء.. ثم جعلنا نلبس الملابس الأوروبية، ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الشركس لكي يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوروبية، وهو يرى أنه قد آن الأوان لكي «نعتاد الأوروبيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع أساليبهم في الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة، بل هو ينكر على مصرشرقيتها، ويزعم أن هذا الاسم إنما جاءنا «من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية، عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية، وحقيقة الأمر عنده فيما يزعم أننا غربيون «فقد عشنا نحو ألف سنة ونحن جزء من الدولة الرومانية ثم نحن في هيئة الوجه أوربيون.. والشعب الأول الذي سكن مصر لا يختلف ألبتة من الشعب الذي كان يسكن أوروبا قبل ٤٠٠ سنة».

بل هو يمضي في غلوه محاولاً عقد صلات من القرابة بين لغة مصر القديمة وبين اللغة الإنجليزية فيزعم أن «بين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظًا ومعنى».

وتأخذه نشوة الغلو فيذهب إلى أن «حقيقة الأزهر أنه جامعة أوروبية أسسها رجل أوروبي هو جوهر (الصقلي)».

ولا يأسف المؤلف على شيء أسفه على الدم الشرقي الذي تسرب إلى

عروقنا من الإخشيديين والمماليك والعثمانين.

◻ يؤكد المؤلف أن مصر غربية، ويقول: «إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض. ولهذا المرض مضاعفات. فنحن لا نكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازني والرافعي، وندرس ابن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث في علي ومعاوية ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ.. وليس علينا للعرب أي ولاء. وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصري الحديث، لا بأسلوب العرب القديم.. ثم يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصري ويجعله شائعًا لا لون له».

◻ ويريد مؤلف هذا الكتاب أن يقطع كل صلتنا بالماضي ويهدمه هدمًا يعفي على آثاره. يريد أن يهدم شرقيتنا، وأن يهدم عروبتنا، وأن يهدم إسلامنا، بل يهدم التدين جملة.

يريد أن يهدم شرقيتنا لأنه يقول: «إن الرابطة الشرقية سخافة.. فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية؟ وأية مصلحة تربطنا بأهل جاوة؟ وماذا ننتفع بهم وماذا هم ينتفعون منا؟.. إننا في حاجة إلى رابطة غربية، كأن نؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم. نقعد معهم فنستفيد من شرعة إصلاحية نفذت في بلادهم يشرحونها لنا فننتفع بذلك، أو فلسفة جديدة ظهرت يعرفوننا شيئًا عنها، أو آلة جديدة اخترعت نتفاوض معهم في استعمالها عندنا. مثل هؤلاء الناس النظاف الأذكياء نستطيع أن نؤلف رابطة معهم. ولكن ما الفائدة من تأليف رابطة مع الهندي أو الجاوي؟».

◻ ويريد أن يهدم عروبتنا لأنه يقول في صراحة: «إن لنا من العرب ألفاظهم فقط، ولا أقول لغتهم، بل لا أقول كل ألفاظهم. فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية، وهي لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي تعيش بين ظهرانيها الآن».

◻ ويريد أن يهدم الإسلام والتدين جملة لأنه يقول: «ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان. ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة إلى حد بعيد حتى يتمصر العلم وتتمصر ألفاظه، وعندئذ نسير فيه بالتأليف». والرجل لا يسخط على شيء في الاتجاهات السياسية مثل سخطه على الجامعة الإسلامية ورجالها. وكراهيته الشديدة للزعيم مصطفى كامل تصور هذا البغض الشديد. فهو يقول فيه: «وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا، ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطني يخبروننا، نحن المصريين، عن الإسلام في الصين تحت عنوان (أخبار العالم الإسلامي)».

ويقول: «ثم حدث ارتداد في الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل والخديوي عباس والمؤيد. فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام، وكانوا يقولون إن مصر هي من أملاك الدولة «العلية» أي التركية.

وكانت الآستانة عندهم «دار السعادة»، أما القاهرة فهي القاهرة فقط. وكان المصري عثمانيًّا يجب عليه أن يحارب المقدونيين للدفاع عن عبدالحميد ورعيته. وكان عبدالحميد خليفة المسلمين الذي يجب على كل مصري أن يطيعه. وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته أن يحدثوا فتنة بين الأقباط بهذا السخف والهراء».

وبقدر سخط الرجل على سياسة الجامعة الإسلامية التي يمثلها مصطفى كامل، تجد تقديره الشديد للطفي السيد، الذي يرجع إليه كل الفضل في بناء

الوطنية المصرية، إذ «أخذ يفشي المبادئ الأوروبية عن العائلة، وحرية المرأة، واللغة، والأدب، والسياسة. ورأي الأقباط ـ بعد أن كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوي عباس ومصطفى كامل والمؤيد ـ أن وطنية لطفي السيد لا شائبة فيها. وأنها لا تزيغ بهم إلى الجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية، فصاروا يؤمنون بالوطنية. حتى إذا كانت سنة ١٩١٩ هبوا مع إخوانهم المسلمين كتلة واحدة للدفاع عن مصر. فالاتحاد الذي نراه بين الأقباط والمسلمين يرجع إلى لطفي السيد، لا إلى الحرب الكبرى كما يظن بعض شبابنا».

☐ وفي مقابل هذا السخط الشديد على كل ما يمت إلى الإسلام أو العروبة أو الشرقية بسبب، تجد ثناء على الغرب والغربيين لا تحفظ فيه، ودعوة صريحة إلى الاندماج فيهم اندماجًا كاملاً. فهو يدعونا إلى أن «نرتبط بأوروبا وأن يكون رباطنا بها قويًا، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها من اختراعات أو اكتشافات، وننظر للحياة نظرها. نتطور معها في تطورها الصناعي، ثم في تطورها الاشتراكي والاجتماعي، ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها بعيدًا عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها».

ويدعو إلى تمصير الأجانب النازلين مصر «والتزواج بيننا وبينهم وحضهم على إرسال أولادهم إلى مدارسنا حتى يعرفوا لغتنا ويقرءوا صحفنا وكتبنا كما يجب أن نسمح لهم بالتوظف في الحكومة والانتخاب للبرلمان، حتى تغدو عواطفهم مصرية لا يعرفون لهم وطنًا ثانيًا غير مصر».

وهو يرى أن: «اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة»، فالقبعة عنده «هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر، سواء أكان يابانيًّا أم صينيًّا أم إنجليزيًّا أم أمريكيًّا.. فإن للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها، واتخاذ القبعة من هذه العادات.

فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلبسا خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب إلينا الأنظار، فيعمد السياحون إلى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الأمم التي جاءوا منها».

وهو ساخط لأن «الحركة التي قامت في العام الماضي وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها في مهدها، فأثبتوا بذلك أنهم لا يزالون آسيويين في أفكارهم لا يرغبون في حضارة أوروبا إلا مكرهين».

◻ ويقول المؤلف في صراحة يحسد عليها: «إن الأجانب يحتقروننا بحق، ونحن نكرههم بلا حق»؟! ويختم كتابه بالدعوة إلى إحكام علاقات الود مع الإنجليز مهاجمًا الساسة الذين يضعون العراقيل في طريق هذا التفاهم، فيقول: «إن الزعامة السياسية في أيدي أناس ليست فيهم الكفاية للقيام بأعبائها، ودليل ذلك فشلهم العظيم في عدم الاتفاق مع الإنجليز وفي عدم إدراكهم قيمة اتخاذ القبعة. ولكني لا أزال مع ذلك متفائلاً أرى أن الجمهور يسبق الزعماء ويجرئهم على السير بخطوات واسعة نحو الاستقلال بجميع أنواعه. فشبابنا قد سئم سخافة أدبائنا، وصار يطلب من الأدب شيئًا جديدًا مغذيًا غير الكلام عن العرب بلغة العرب. وشبابنا أيضًا يوشك أن يلبس القبعة؛ لأنه يجد هوانًا من الشذوذ في العالم المتمدين. وهو أيضًا قد أبصر أننا إذا أخلصنا النية مع الإنجليز قد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم. وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر وننتهي منها. فلنول وجهنا شطر أوروبا».

◻ ولعل أكثر ما يدعو إلى الدهشة في الكتاب جرأة المؤلف على الإسلام في هذه الخاتمة وفي سائر كتابه، وهي جرأة عجيبة من غير مسلم في بلاد المسلمين، فهو يسخر من وزارة الأوقاف، ومن المحاكم الشرعية، ومن الأزهر، بل ومن الإسلام نفسه، حين يقول: «وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن

مترددين بين الشرق والغرب، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوروبية، ولكن في وسط الحكومة أجسامًا شرقية مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد، ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين، ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة. ولنا أفندية قد تفرنجوا، لهم بيوت نظيفة ويقرءون كتبًا سليمة، ولكن إلى جانبهم شيوخًا لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق في الأرياف، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود «كفارًا» كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة».

❑ وهو ناقم على (الشيوخ) الذين يعلمون اللغة العربية، ينادي بأن يسلم أمر تعليمها إلى (الأفندية) حيث يقول: «ولكن تعليم العربية في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعًا في الثقافة العربية، أي ثقافة القرون المظلمة. فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطًا بعيدًا عن الثقافة الحديثة».

❑ بل لقد وجد المؤلف في نفسه الجرأة لأن يكتب «الجامعة الدينية وقاحة» عنوانًا لفقرة من فقرات هذه الخاتمة. وقال تحت هذا العنوان: «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة. فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا».

❑ والكتاب كما ترى من هذا العرض خليق أن يثير الناس على صاحبه ويملأهم سخطًا عليه ويصرفهم عن كل ما يقوله. ومن هنا كان الكتاب - على خطورة آرائه - هين الأثر قليل الخطر؛ لأنه يتولى بنفسه مهمة التنفير من نفسه. هذا إلى أن مهاجمة المؤلف - وهو مسيحي - للإسلام وللثقافة

الإسلامية، تدعو القارئ إلى أن يشك في حسن قصده وفي صدق نيته»[1] .

*** الدكتور محمد محمد حسين يكشف عن صناعة الزعماء «سعد زغلول صديق الإنجليز وكرومر»:**

✍ أغلب الذين يوصفون بالقمم الشوامخ هم أولياء الثقافة الغربية، الساعون إلى تذويب ذاتية هذه الأمة في الأممية تحت اسم العصرية والتجديد والتقدم، وهؤلاء زيفوا إرادة الأمة وهم أشخاص لمعوا بالباطل وتُوِّجوا بالقداسة الكاذبة منذ أمد طويل، وكان من النصح للَّه ورسوله والمؤمنين أن تقوم الأقلام المتوضئة الساجدة لربها في كشف الزيف والبهرج.

ومن هنا تصدى الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الاتجاهات الوطنية» في الجزء الثاني لزعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول.

❑ قال الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم:

«الذين يرجعون ثورة ١٩١٩ إلى أسباب سياسية، أو إلى أسباب اقتصادية ويهملون العامل الديني فيها يخطئون خطأً كبيرًا.

وعلى هؤلاء أن يسألوا أنفسهم: أكان يُمكن أن تشتعل الثورة لو أن المصريين قد عانوا ما عانوا وضحّوا ما ضحّوا في سبيل هدف واضح تطمئن إليه ضمائرهم وتقتنع به عقولهم؟ أكانوا يثورون لو أنهم قاتلوا في صفوف تركيا دولة الخلافة استجابةً لدعوة الخليفة إلى الجهاد مثلاً؟

إن كثيرًا من الحوادث التي وقعت في خلال الحرب ومن بعدها وفي إبان الثورة تدل على أن العامل الديني كان عنصرًا أساسيًّا وسببًا مباشرًا من أسبابها. وقد رأينا من قبل كيف نصح رئيس الحكومة لعلماء الأزهر بالإخلا

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٩).

للسكون حين همّوا أن يقوموا بحركة ضد الاحتلال لتأييد عباس.

وتكونت في مصر جمعيات سرية خلال سنة ١٩١٨ للاتصال بالسنوسي في طرابلس وإعانة جيوشه على مهاجمة الإنجليز في مصر، ونستطيع أن نضيف إلى هذه الحوادث ما يدعم دلالاتها وما يصور أن العامل الإسلامي لم يفتر خلال الثورة أو في بدئها على الأقل.

فلم يكن حادث الأرمني الذي أطلق النار من نافذة منزله على المتظاهرين وما ترتب عليه بعد ذلك من فتك الشعب بالأرمن في الطرقات إلا صدى لاضطهاد الترك للأرمن[١] . ولم تكن المعارك التي نشبت بين المتظاهرين وبين اليونان والطليان في مايو سنة ١٩٢١ بالإسكندرية إلا صدى للحرب التركية اليونانية في ذلك الوقت[٢] ولم يكن انشغال المصريين بما كان يجرى في تركيا من أحداث، وتتبعهم للخلافة وتطوراتها في خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها إلا مظهراً من مظاهر هذا العامل الإسلامي الذي لم يضعف أثره في النفوس، وقد اعترف بعض مؤرخي مصر الحديثة من الإنجليز بوجود هذا العامل الديني في الثورة[٣] »[٤] ا.هـ. ويتكلم الدكتور محمد

---

(١) بلغ عدد القتلى من الأرمن أربعين، وبلغ من اندفاع الشعب في الانتقام منهم أن وضعتهم السلطات الإنجليزية تحت حمايتها في معسكرات اللاجئين. ولم يسكن هياج المصريين إلاّ بعد أن تدخل بطريكي الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك، وقصد أعيانهم ومعهم جماعة من كبار اليهود إلى الجامع الأزهر معتذرين عما فرط من بعضهم ملتمسين صفح الشعب عن إساءتهم (راجع التفصيلات في حوليات مصر السياسية ـ المقدمة ١، ٣٢٣ ـ ٣٢٥، وراجع قصيدة لخليل مطران في هذه المناسبة بديوانه (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٩).

(٢) تُبودل في هذه المعارك إطلاق النار بين المصريين والأجانب، حتى بلغ عدد القتلى من الفريقين أربعة وأربعين قتيلاً، وتجاوز عدد الجرحى مائتين ـ راجع حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق المقدمة (٢/ ١٧١ ـ ١٧٥).

(٣) Great BriTain.. (ص٢١٤).

(٤) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ١٨ ـ ١٩).

محمد حسين عن مواقف سعد المريبة[١] ثم يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«على أن الناظر في حياة سعد يعجب من أن هذا الرجل كان هو الزعيم الذي سيطر على أكبر ثورة شعبية عرفتها مصر في هذا القرن، وهي ثورة سنة ١٩١٩، فقد بدأ الرجل حياته صديقًا للإنجليز، وختمها كذلك صديقًا للإنجليز، واستطاع بين هذه البداية وهذه الخاتمة، حين وثب إلي مكان الزعامة من الثورة أن يصرف سخط الناس وثورتهم المكبوتة التي كانت تريد أن تجد متنفسًا فوجدته في الثورة، استطاع أن يصرف هذا السخط إلى الاشتغال بالتوافه وبما لا طائل تحته، فبعثر هذه الطاقة الضخمة وبددها، وفوت على الأمة أن تستفيد بها حين كان يمكن الانتفاع بها فيما يجدي ويفيد.

بدأ سعد حياته السياسية بمصاهرة أشهر صديق للإنجليز عرفته مصر في تاريخ الاحتلال الإنجليزي من أوله إلى آخره، وهو مصطفى فهمي باشا[٢]. ثم كان كرومر واضع أسس الاحتلال البريطاني في مصر هو الذي رشحه لوزارة المعارف في حكومة صهره ذاك[٣]. وظل سعد صديقًا للإنجليز يؤيد

---

(١) انظر المصدر السابق (٢/ ٣٧٣ ـ ٣٨٦).

(٢) مصطفى باشا فهمي هذا تركي الأصل. وقد كان سعد فلاحًا مصريًا خالصًا. ولا بأس بذلك ولا غبار عليه، ولكن العجيب في الأمر أن سعدًا نفسه كان هو مبتدع التفرقة المشهورة بين المصري والتركي منذ ثورة سنة ١٩١٩ ـ ويراجع ما كتبه كرومر عن مصطفى فهمي في Modern Egypt (١: ٢٦٥، ٢: ٣٤٦).

(٣) يراجع في ذلك ما جاء في تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦، المقدم إلى البرلمان الإنجليزي في إبريل ١٩٠٧ ـ الفقرة ٣ تحت عنوان «الوطنية المصرية» (ص٨) من النسخة الإنجليزية، ومما يذكر في هذا المقام أن فتحي زغلول، أخا سعد زغلول كان قاضيًا في محكمة دنشواي المشهورة. وقد كافأه الإنجليز على ذلك بتعيينه بعد ذلك وكيلاً لوزارة الحقانية «العدل». وهو المقصود بقول شوقي في وداع كرومر:

أم من صيانتك القضاء بمصر أن ... تأتي بقاضي دنشواي وكيلا؟

سياستهم ـ كما يقول نيومان ـ حتى غضب لتخلي كتشنر عنه في إحدى مصادماته الكثيرة مع الخديو عباس، فاستقال وتحول منذ ذلك الوقت إلى المعارضة الواضحة الصريحة للسياسة الإنجليزية، لا سيما بعد انتخابه وكيلاً للجمعية التشريعية التي أنشأها كتشنر سنة ١٩١٣[١] . ثم إن سعدًا عاد في آخر حياته إلى مهادنة الإنجليز، وبدأ هذا التحول الجديد ـ بعد فترة التطرف التي لم تزد على أربع سنوات ـ بعد مقتل السير لي ستاك مباشرة. فلم يكد اللورد لويد يصل إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٢٥ حتى سارع سعد إلى زيارته[٢] . ثم لم تلبث الصحف الوفدية أن مالت إلى مهادنة الإنجليز، وأخذت تدعو إلى مسالمتهم (للانتفاع بمزايا الدستور والحكم النيابي، والسعي في سلوك سبيل سياسة الإنشاء، لتوطيد ودعم حياتنا الاقتصادية والزراعية توطيدًا ثابتًا يحقق استقلالنا الاقتصادي والزراعي الذي هو نواة الاستقلال السياسي، حتى تحين الفرص الملائمة للجهاد السياسي. . فإن ما لا ندركه اليوم سنظفر به غدًا[٣] . ذلك هو ما دعا نيومان إلى إبداء أسفه؛ لأن سعدًا قد مات «حين كان اتجاهه قد أصبح أكثر اعتدالاً، وحينما كانت الواقعية قد بدأت تنير طريقه خلال ضباب التعصب والتعلق بالأوهام». وهو يشير إلى تحوله عن طريق العنف قبيل وفاته، فيقول: «إنه قد استعمل نفوذه القوي في الحد من تطرف أعوانه. وقد جاء تحوله هذا حين كانت الظروف قد أخذت تعين على إبراز مدرسة جديدة في التفكير السياسي ذات مستوى عال لم تعرفه مصر من قبل. وقد كان من المأمول في مثل هذا التطور السياسي الجديد ـ لو أمتد بزغلول العمر ـ أن يكون لشخصيته أثر بعيد، فقد كانت

(١) Great BriTain.. (ص١٦٥، ٢٦٤).
(٢) الحولية الثانية (٨٥٥) وراجع نماذج من مهاجمة الصحف المعارضة في (٨٥٥، ٨٥٦).
(٣) الحولية الثالثة (٤٠٧ ـ ٤٠٨).

مصر كلها رهن أمره وإشارته». ويؤكد نيومان ما سبق حين يقول بعد ذلك بقليل: «كان من الممكن أن يكون سعد زغلول عاملاً قويًا في هذه الفترة من العلاقات المصرية الإنجليزية. وقد كان هناك أدلة لا تحتمل إلا قليلاً من الشك على ما ذهب إليه اللورد لويد والحكومة الإنجليزية من انتظار معونته وعطفه. وقد كان عطف زغلول على وجهة النظر الإنجليزية يعني عطف المصريين جميعًا»[1] .

◻ ثم إن الذي يقرأ المذكرة التي دونها زعماء الوفد الثلاثة (سعد وشعراوي وعبدالعزيز فهمي» وأثبتوا فيها ما جرى بينهم وبين ونجت من نقاش في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ يعجب من أن تكون هذه المقابلة وهذا النقاش بداية لثورة. فهم يتبرءون فيها من الحزب الوطني وأساليبه العنيفة، التي ترجع ـ كما قال عبدالعزيز فهمي في هذه المقابلة ـ إلى «طبيعة الشبان من كل جهة»، وهم يعترفون «بالأعمال الجليلة التي باشرتها إنجلترا في مصر»، ويتعهدون لونجت بأن «لا نلتجئ هنا لسواك ولا في الخارج لغير رجال الدولة الإنجليزية»[2] .

والذي يقرأ خطب سعد الأولى يعجب من أن تكون هذه الخطب هي خطب زعيم ألقت إليه الثورة مقاليدها ليأخذ بزمامها. خذ لذلك مثلاً خطبته بدار حمد الباسل عضو الجمعية التشريعية في ١٣ يناير سنة ١٩١٩، وهي من أوائل خطبه السياسية[3] . فهو يتكلم كلامًا قانونيًا فارغًا لا مكان له في الثورات، عن أن الحماية «أمر باطل بطلانًا أصليًا أمام القانون الدولي، ومخالف مخالفة صريحة للمبادئ الجديدة التي خرجت بها الإنسانية من هذه

---

(١) Great Br:Tain.. (ص٢٦٤، ٢٦٦).

(٢) راجع نص الحديث في تمهيد الحوليات (١/ ١٣٧ ـ ١٤٤)، ثورة ١٩١٩ (١/ ٧٠ ـ ٧٢).

(٣) راجع نص الخطبة في «تمهيد الحوليات» (١/ ٢٠٢ ـ ٢١١).

الحرب الهائلة» وعن أن البلاد «خلو الآن أمام القانون الدولي من كل سيادة أجنبية. وبعيد على مؤتمر السلام أن يرتب سيادة جديدة للأقوياء على غيره»[١] وهو يكيل الثناء لأمريكا ولرئيسها الدكتور ولسون دون تحفظ، بل يعلق آماله كلها عليها، حتى إنه ليختم خطبته بالثناء على «رجل الإنسانية الدكتور ولسون واعترافنا نحن المظلومين بجميله على ما يعاني في الدفاع عن قضيتنا». ثم يقرأ على الحاضرين نص برقية مرسلة إليه، يقول فيه: «إلى رئيس الولايات المتحدة، ذلك الرجل العظيم الذي قاد أمته في خوضها غمار المعترك الأوربي، لمجرد خدمة الإنسانية وتخليص العالم في المستقبل مما يعاني من أهوال الحرب.. إلى الفيلسوف الكبير السياسي القدير.. إلى رجل الديمقراطية الكبرى الأمريكية، الذي غادر بلاده لينشر على العالم لواء السلام المقيم يرفعه العدل الشامخ.. إلخ». ثم يردف ذلك بالهتاف للولايات المتحدة والدكتور ولسون، طالبًا إلى الحضور أن يرددوا هتافه، فيرددونه متحمسين.

أليس عجيبًا أن يبدأ زعيم ثورة كفاحه بالهتاف لدولة أجنبية هي حليفة للمحتل وأن يخدع بالتصريحات البراقة التي قال الإنجليز أنفسهم: هو أجل منها واحلى ألفاظًا في خلال الحرب؟! بلى، إنه لعجيب. وأعجب منه أن يدعو في خطبته هذه إلى قبول الأمر الواقع في الامتيازات الأجنبية، بل هو يبررها ويعتذر عنها بأساليب وأسانيد فصيحة بارعة، قد لا يستطيع خيال الأجانب أنفسهم أن يخترعها وينمقها على النحو الذي تفتق عنه خيال الزعيم. ويقرر أن مصر لا تستغنى عن الأجانب، ويشيد بما أدوا من خدمات[٢].

---

(١) الواقع أن من سوء حظ مصر أن الزعماء فيها والمتزاعمين كانوا جميعًا منذ بداية الحركة الوطنية من محترفي المحاماة، فقد كان من آثار ذلك أن أكثرهم قد عالج القضية الوطنية كما يعالجون القضايا التي يوكلهم فيها عملاؤهم، ذلك العلاج الذي يقوم على السفسطة المنطقية والحيل القانونية وتجريح الخصوم.

(٢) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩).

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«كان يوقع خطاباته إلى الرئيس الأمريكي (ولسون) بـ «المخلص المطيع الخاضع سعد زغلول» تارة و«خادمكم المخلص المطيع سعد زغلول رئيس الوفد المصري» تارة أخرى، وكان يستجدي في هذه الرسائل تحديد موعد للمقابلة، ولا يمل من إرسال الخطاب تلو الخطاب، ولا يثنيه تجاهل الرئيس الأمريكي لكل رسائله، ولكنه يزيده انحدارًا إلى إظهار الخضوع والخنوع، حتى كلف الرئيس الأمريكي كاتبه الخاص في آخر الأمر أن يرد عليه ـ بعد تجاهل طويل ـ معتذرًا عن المقابلة بضيق وقته[1] . ثم إن سعدًا قد عمل منذ البداية على الاستئثار بالقضية الوطنية وكأنها غنيمة لا يريد أن يشاركه فيها أحد، فنحى عنها عمر طوسون بحجة أن الحركة يجب أن تظل شعبية. وذلك بالرغم من أن عمر طوسون كان هو البادئ بفكرة إرسال الوفد المصري إلى أوربا للدفاع عن مصر والمطالبة بحقوقها أمام مؤتمر الصلح»[2] .

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «أصبح كفاح المحتل غير ذي خطر، بل قد دعت صحف الوفد في أواخر أيام سعد إلى مهادنة الإنجليز حرصًا على الدستور. وهذه هي صحيفة «كوكب الشرق» تتكلم عن «سياسة العنف والشدة التي من ذرائعها سياسة اللا تعاون والتحريض على المقاطعة وعلى الإضراب الوزاري»، فتصفها بأنها «سياسة لها عواقبها ونتائجها.. فمن نتائج هذه السياسة أن تقابل إنجلترا الشدة بمثلها، فيصبح الخطر على الدستور وعلى الحكم النيابي قاب قوسين، سيما وأن لإنجلترا في مصر من القوة ومن الرجال ما يساعدها على العبث بالدستور[3] وبالحياة النيابية»[4] » اهـ.

---

(١) راجع نصوص الرسائل في «مقدمة الحوليات» (١/ ٤٣٠ ـ ٤٣٨).

(٢) «مقدمة الحوليات» (١/ ١٤٧ ـ ١٥١).

(٣) مات هذا الدستور في عمر الفطيم وصار ألعوبة بيد الأحزاب والحكام.

(٤) كوكب الشرق ١١ يونية ١٩٢٦ نقلاً عن الحولية الثالثة (ص٤٠٧ ـ ٤٠٨).

☐ ولله در أحمد محرم وهو يقول عن سعد ورجاله:

يقولون نواب ودار نيابة ... وملك ودستور من الحق واضح
وحكام عدل شائع ووزارة ... هي الشعب أو روح من الشعب صالح
وساوس أقوام مهاذير ما لهم ... من الرأي هاد أو من اللب ناصح
ينادون باستقلال مصر ودولة ... من الوهم لم يبلغ بها السمع صائح
أسائل نفسي وهي ولهى من الأسى ... أرائك مالك ما أرى أم مذابح
جزى الله سعداً إنها شهواته ... طغت ريحها فالشر غاد ورائح
أباح حمى مصر وسودانها معا ... فأمعن مغتال وأوغل طامح
يسامحُ أعداء البلاد ويعتدي ... على قومه شر الحماة المسامحُ(١)

*** وإن تعجب فاعجب.. فكم ذا بمصر من المضحكات!!**

دعا سعد زغلول أعضاء البرلمان الإنجليزي من العمال للحضور إلى مصر والنزول في ضيافته، حتى يتأكدوا من التفاف الأمة حوله. وجاء الزوار إلى مصر، وطاف ممثلو الدولة المحتلة مع زعيم الأمة وسط الترحيب والزينات وهتاف الشعب. وجلس زعيم الأمة يصفق مع المصفقين لأحد هؤلاء النواب وهو يقول في وليمة فندق شبرد التي أقيمت في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١، رداً على اعتراض الذين ينتقدونه لإقحامه البرلمان الإنجليزي في شئون مصر الداخلية: «فلم يبق إلا مؤاخذتهم لنا لأننا نتدخل في شئون مصر الداخلية. ولكن أليس صدور هذا الانتقاد مستغربًا بعد أن تدخلنا أربعين سنة في شئون مصر؟ ومع ذلك فهل هذا تدخل في شئون مصر الداخلية؟ أليست المسألة مما يهم إنجلترا؟ وإلا فكيف تعرض علينا الحكومة الإنجليزية كل سنة الميزانية لنوافق عليها، وفيها مصروفات تبلغ الملايين من الجنيهات للجيش الإنجليزي في مصر؟ إن جميع هذه الأقوال التي يبدونها لغو وهذيان».

(١) ديوان أحمد محرم.

◘ قيل هذا الكلام في حضور سعد زغلول وأعضاء الوفد فصفقوا له ـ مع المصفقين ـ تصفيقًا طويلاً. ومكث نواب الدولة المحتلة ما مكثوا، ثم ودعوا بمثل ما استقبلوا به من الترحيب ـ كما تعودت الصحف أن تقول ـ ولم يفتهم أن يرسلوا عند سفرهم برقية إلى سعد زغلول شاكرين[١] !!!.

◘ ولما رحل أللنبي عن مصر، وخلفه اللورد لويد. كان سعد وقتذاك خارج الحكم، منذ سقطت وزارته وحل البرلمان عقب مقتل السردار، فسارع إلى قصر الدبارة يهنئ المندوب السامي الجديد بسلامة الوصول[٢] »[٣] !!!!.

◘ وختم الدكتور محمد محمد حسين كلامه بقوله: «فختم سعد حياته ـ كما بدأها ـ مسالمًا للاستعمار»[٤].

◘ ولله در أحمد محرم حين يقول:

أيُخذلُ في الكنانة كل حر ... ويُنصَرُ كل صخَّاب شغوبِ؟
ويُمنع ذو القضاء الحق منها ... ويقضي كل أزور ذي نكوبِ!!
ويُرمى ذو البراءة من ذوينا ... بملء الأرض ن إثم وحوبِ
يُعاب المرء يصدق من يوالي ... ويصبر للشدائد والكروبِ
ويحمد كل مختلف المساعي ... إلى الأقوام جَيَّاء ذهوبِ
يريك ضحًى لباس فتى أمين ... فإن لبس الظلام فذو دبيبِ
يكاد من التلصص والتخفي ... يشق السبل في عين الرقيبِ[٥]

(١) «تمهيد الحوليات» (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٨).
(٢) «الحولية الثانية» (ص٨٥٥).
(٣) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).
(٤) المصدر السابق (ص٤٠٥).
(٥) ديوان أحمد محرم.

☐ يقول أحمد محرم متهكمًا من قول سعد في دار النيابة «دلوني على السبيل» كلما سامه نواب الحزب الوطني بعض المطالب الوطنية. وفيها يقول:

يا قـــوم مـــا ذنب الرئيـ ـس إذا تمسك بالدليل؟
ما كان من رســـل الخيا ل ولا دعـــاة المستحيل
إنجيـــله نشـــر الســـلا م ودينـــه أخـــذ القليل
ســـعد رســـول الخير والـ إصلاح، بـــورك من رسول
ما النيـــل والسودان؟ ما طول التوجع والغليل؟
ما الملحقـــات؟ وما الجلا ء؟ وما التمادي في العويل؟
يا قوم لوذوا في الجـــدا ل بحكمة الرأي الأصيل
صـــدق الرئيس فقدســـو ه ونزهـــوه عن المثيل
أيصيح صائـــحكم بمـــا يؤذيـــه من قال وقيـــل؟
ويـــرى عليـــه لنفســـه حق الزميـــل على الزميـــل؟
اللّه أكبـــــر مـــا لكم لا تتبعون ذوي العقول
يا معشـــر الشـــعراء لســـ ـتم بالثقات ولا العدول
لا تطمعـــوا في شعب مصـ ـر فليس بالشعب الجهول
هو مـــا يقـــول زعيمـــه ويريد من أرب وســـول
هو لا يضن بألف مصـ ـر في الفـــداء وألف نيل
فدعـــوا العنـــاد وآمنـــوا بزعامة الشـــيخ الجليل
نعـــم الزعيـــم، شـــعاره: «دلوا الزعيم على السبيل»

* * *

رحم اللَّه شعب الكنانة فهو أولى بالرثاء وما أصدق قول شوقي فيه:

أثَّـرَ البهتان فيه — وانطوى الزور عليه

يا له من ببغاء — عقله في أذنيه

ورحم اللَّه الدكتور محمد محمد حسين بما نصح لأمته ودينه. بما خطّ قلمه الوضيء المتوضئ الذي ما هادن ولا حابى.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة
بجامعة الدول العربية ورئيسها الدكتور طه حسين في الكتب التي ترجموها..	٥٣٦
* الدكتور محمد محمد حسين يفضح المؤتمرات المشبوهة لضرب العرب والفصحى..	٥٤١
* الحاجة الشديدة إعادة النظر في تقويم الرجال..............	٥٤١
* نقده لرفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي..........	٥٤٨
* إعجاب الطهطاوي بالمسرح الفرنسي!! ورقص الباليه واختلاط الرجال بالنساء..	٥٥٣
* الدكتور محمد محمد حسين يُفرد الفصل الثالث من كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» لنقد الأفغاني ومحمد عبده وكشف الستر عن حقيقتهما..	٥٥٥
* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر..................	٥٥٧
* حذو القُذَّة بالقُذَّة..	٥٦٢
* القديم والجديد: وفضح الدكتور محمد محمد حسين لسلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد»...........................	٥٦٣
* الدكتور محمد محمد حسين يكشف عن صناعة الزعماء «سعد زغلول صديق الإنجليز وكرومر».......................	٥٧٢
* وإن تعجب فاعجب.. فكم ذا بمصر من المضحكات!!......	٥٧٩

تم الجزء الخامس بحمد اللّه.

* * *

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر هاتف: ٢٠٥٥٦٨٨-٤٢٠٧٥٢٦ القاهرة